المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

البحوث والدراسات

المقدمة للمؤتمر

الجزء السادس

عني بطبعه ومراجعته
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
☎ ٢٣٧٥١٥ - بيروت ص.ب ٨٣٥٥
☎ ٧٢١٦١٢ - صيدا ص.ب ٢٢١

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ١٩٨١م



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

البحوث والدراسات

المقدمة للمؤتمر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رسالة

فضيلة مولانا

الشيخ أبي الأعلى المودودي

رحمه الله تعالى

« باكستان »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

التاريخ: ١٣٩٩/٦/٩ هـ
الموافق: ١٩٧٩/٥/٥م

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الله بن ابراهيم الأنصاري
الموقر
رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر الثالث للسيرة
والسنة النبوية
ومدير الشئون الدينية/ دولة قطر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد..

فقد تلقيت ببالغ الشكر وكبير الارتياح دعوتكم الكريمة لحضور المؤتمر الثالث للسيرة والسنة النبوية الذي قررتم عقده في المدة ما بين الخامس والعاشر من شهر محرم الحرام عام ١٤٠٠ الهجري.

أود في مستهل خطابي أن أتقدم اليكم بأحر التهاني وأصدق التباريك لتبنيكم المؤتمر الثالث للسيرة. ثم عقده في

بداية القرن الخامس عشر الهجري. ومما لا شك فيه أن قرار عقد هذا المؤتمر في الدوحة قرار حكيم وسديد. وسيكون له أثره المرموق في الخليج. والخليج وأنتم من أبنائه البارين في حاجة ملحة الى ان تتقوى فيها الدعوة الاسلامية بأساليب مفيدة ولقاءات تسد الفجوة بين الجيل القديم والجيل الجديد. وعلى هذا أرجو أن يكون مؤتمر السيرة هو انطلاقة جديدة للحركة الاسلامية السليمة تنال التأييد والدعم من كافة الطبقات، وتشكل قوة جديدة أصيلة تعيد الى قطر ودول الخليج مجدها وازدهارها، وتقف سدا منيعا في وجه كل مستورد ومنحرف.

وكم كان يسعدني أن أحضر هذا المؤتمر وأساهم فيه مساهمة الخادم لدين الله. لأن لي بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولوعا خاصا في هذه الأيام، وقد درستها في الآونة الأخيرة دراسة عميقة وراجعت ما كتبه الأولون والآخرون وما ألفه المحبون والمعادون مراجعة الناقد المحلل، وقد أصدرت منها جزئين الى نهاية العهد المكي بالأردو. وأما العهد المدني فقد أعددت له المادة الى حد كبير ووضعت له المخطط في الذهن.

الا أن المرض الذي تشتد وطأته يوما بعد يوم ويعطل

قواي رويدا رويدا لا يسمح لي بأن آخذ القلم بيدي وأبدأ في الكتابة ولكن الرغبة قائمة والحرص على ذلك متضاعف والعزيمة صارمة باذن الله. والأمور بيد الله سبحانه وتعالى يصرفها كما يشاء. وأدعوه ليلا ونهارا أن يكتب لي من القوة ما يجعلني أكمل هذا المشروع، ويعطيني من العلم ما ينور قلبي للمضي في هذا الطريق، ويهب لي من الرحمة ما أقضي بها بقية عمري في حسن العمل وطلب العلم وهو خير الراحمين، نرجو منه التوفيق والهداية في الدنيا والعفو والمغفرة في الآخرة.

أعود وأقول: كم كان يسعدني أن أحضر مؤتمر سيرة الرسول عليه ألف ألف تحية.. ولكني يا حبيبي أعتذر اليكم من الحضور وأنتم أعلم بوضعي ولكني سأحاول أن أشاركم بالكلمة الصغيرة عن سيرة خاتم الانبياء وسيد البرية احتسابا لمثوبة من عند الله. وسوف أكتب هذه الكلمة وأرسلها اليكم بالبريد.

والله هو الموفق.

والسلام عليلكم ورحمة الله وبركاته

المخلص

أبو الأعلى المودودي



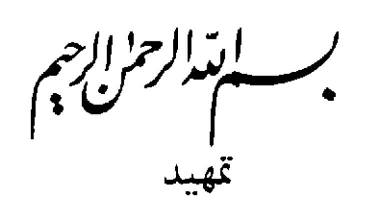
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الرّسول ﷺ والعلم

لفضيلة الدكتور يوسف القرضاوي
« قطر »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



تمهيد

لم تعرف البشرية دينا مثل الاسلام عني بالعلم أبلغ العناية وأتمها: دعوة اليه، وترغيبا فيه، وتعظيما لقدره، وتنويها بأهله، وحثا على طلبه وتعلمه وتعليمه، وبيانا لآدابه، وتوضيحا لآثاره، وترهيبا من القعود عنه، أو الازورار عن اصحابه، أو المخالفة لهدايته، أو الازدراء بأهله.

ومن درس الأديان السابقة على الاسلام، أو قرأ كتبها المقدسة، ازداد ايمانا بعظمة الاسلام في هذا الجانب.

انك تقرأ الأسفار المقدسة في العهد القديم أو الجديد، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات «العقل» أو الفكر» أو «النظر» أو «البرهان» أو «العلم» أو «الحكمة» أو ما اشتق منها، أو تفرع عنها، أو كان له قرابة بها.

فاذا قرأت القرآن وجدت فيه - كما يذكر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» ما يلي:

كلمة «علم» نكرة ومعرفة ذكرت ٨٠ ثمانين مرة. أما مشتقاتها: علم ويعلم ويعلمون وعلم ويعلم وعليم وعلام... الخ. فقد ذكرت مئات ومئات من المرات.

كلمة «عقل» لم ترد اسما أو مصدرا في القرآن - بديلا عنها كلمة «الألباب» تكررت ١٦ ستة عشرة مرة، وكلمة «النهى» بمعنى العقول ايضا مرتين.

أما مشتقات «عقل» فقد تكررت في القرآن ٤٩ تسعا وأربعين مرة.

وكذلك مشتقات «فكر» ١٨ ثماني عشرة مرة.

ومشتقات (فقه) ٢١ احدى وعشرين مرة.

وكلمة «حكمة» ٢٠ عشرون مرة.

وكلمة «برهان» مضافة وغير مضافة ٧ سبع مرات. وهذا عدا كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر مثل «انظروا» و «ينظروا» ونحوها.

واذا طالعت كتب الحديث النبوي، وجدت في جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب... أو بتعبير ذلك العصر: الكتب - كتابا حافلا موضوعه «العلم».

ففي الجامع الصحيح للامام محمد بن اسماعيل البخاري نجد - بعد أحاديث بدء الوحي، وكتاب الايمان - كتاب العلم، وقد اشتمل كما يقول الحافظ ابن حجر في «الفتح» - من الاحاديث المرفوعة على مائة حديث وحديثين، منها ستة عشر حديثا مكررا، وفيه من الآثار

الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم اثنـان وعشرون أثرا .

وفي صحيح مسلم وباقي الاصول السبعة (الموطأ وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه) كتاب أو أبواب للعلم ، تقصر أو تطول .

وحسبنا أن نذكر هنا أن كتابا مثل « الفتح الرباني » في ترتيب مسند الامام احمدقد ضم في كتاب العلم[٤١]. صفحة

وأن كتاب « العلم » في « مجمع الزوائد » للحافظ نور الدين الهيثمي قد بلغ ٨٤ صفحة في كل صفحة عدد من الاحاديث .

وفي المستدرك «للحاكم النيسابوري « بلغت أحاديث العلم ٤٤ صفحة .

وأن كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذري جمع في كتاب العلم ١٤٠ حديثا

وأن كتاب «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد » للعلامة محمد بن محمد بن سليمان قد ضم ١٥٤ حديثا .

ولا يخفى أن قدرا كبيرا من الأحاديث في كل كتاب من هذه مكرر مع أحاديث الكتب الأخرى .

ولكن ليس معنى هذا أن هذا العدد من الأحاديث في هذا الكتاب أو ذاك هو كل ما يتعلق بالعلم .

فالواقع أن هناك عشرات ومئات أخرى من الأحاديث لها صلة بالعلم، ولكنها وضعت في مظان أخرى من أبواب الكتاب، وحيث يظهر للحديث الواحد أكثر من دلالة، ويستفاد منه أكثر من حكم.

فالحديث الذي استفدنا منه اهتمام الرسول بالاحصاء الكتابي لعدد الرجال من المسلمين هو في صحيح البخاري ولم يذكر في كتاب العلم.

والحديث الذي دل على اقرار التجربة ونتائجها في شئون الحياة الدنيا، ووكل للناس أمر دنياهم، هو في صحيح مسلم وغيره، ولكن لم يوضع في كتاب العلوم.

والحديث الذي دل على محاربة الرسول للأمية بتعليم أبناء المسلمين الكتابة عن طريق الأسرى، لم يذكره من ذكروه في أبواب العلم.

والأحاديث التي أعلنت الحرب على الخرافة والشعوذة لم تذكر في كتاب العلم.

والأحاديث التي عنيت بما يتعلق بالطب والتداوي، ونحوها لم تذكر في كتاب العلم. بل في كتاب الطب أو التداوي.

وهكذا نجد كثيرا مما يتصل بالعلم مثبوتا متناثرا في أبواب كتب الحديث تحت عناوين شتى.. وما على الباحث

البصير المطلع الا أن يلتقطها من مظانها القريبة والبعيدة، ويجمع شتاتها، ويصنفها التصنيف الذي يوضح فكرته، ويحقق هدفه.

وهذا هو عملنا في هذا البحث «الرسول وموقفه من العلم» أن نجمع الأحاديث المقبولة المتناثرة من مختلف المصادر، وبخاصة الأصلية منها. ودراستها دراسة علمية موضوعية، لبيان موقف الرسول - ﷺ - في السنة والسيرة من «العلم» بمفهومه العام، أو بمفهوم الحديث.

وانما قلت «الأحاديث المقبولة» لأن الأحاديث الموضوعة والتي لا أصل لها، والضعيفة جدا لا يجوز الاستشهاد بها عند أحد من العلماء، ولو كان ذلك في فضائل الأعمال.

أما الأحاديث الضعيفة فقط، فقد أجاز جمهور العلماء الاستفادة منها في فضائل الأعمال، أي في الأمور التي لا يترتب عليها حكم، ولا يؤخذ منها حلال ولا حرام.

ولهذا نرى الحافظ الفقيه ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» يذكر كثيرا من الأحاديث الضعيفة ثم يعقب بمثل قوله: والفضائل تروى عن كل أحد، والحجة من جهة الإسناد إنما تتقصى في الأحكام، وفي الحلال وفي الحرام.

وهذه الفكرة جعلت الأحاديث الضعيفة تزحف على الأحاديث الصحاح والحسان وتطغى عليها. هذا مع عدم الحاجة اليها، لأن في الأحاديث المقبولة ما يغني عنها، ولم يتقيد الأكثرون بما اشترطه أئمة المحدثين عند الاستشهاد بالحديث الضعيف. وهو ألا يكون ضعيفا جدا، وان يتدرج تحت أصل كلي ثابت، وألا يعتقد ثبوته بل الاحتياط.

على أننا حين نريد أن نجلي موقف الاسلام أو موقف الرسول من أمر من الامور فلا بد أن نعتمد على الصحيح والحسن، لأن الضعيف لا يتبين منه موقف، كما لا يبنى عليه حكم.

ولهذا كان عملنا في هذا البحث مزدوجا، وهو تمحيص ما يستشهد به من الأحاديث وتحقيقها وبيان درجتها، ثم يأتي استنباط الحكم أو المعنى المراد منها.

فالواجب أولا اثبات النص وتوثيقه، ثم استخراج الدلالة منه.

ومن الباحثين من يحسب أنه يكفيه في التوثيق العلمي أن يسند الحديث أو النص المنقول الى كتاب معروف مبينا الجزء والصفحة والطبعة، معتبرا أن ذلك هو غاية التوثيق،

ونهاية التحقيق والتدقيق . كما يفعل الكثيرون ممن ينقلون عن كتب التفسير أو التصوف أو الفقه أو حتى كتب الحديث التي لم يلتزم مخرجوها الصحة فيما يروونه منها . فلا يكفي هنا لقبول الحديث مجرد نقله من كتاب وصحة نسبته إليه .

ومثل هذا يقع فيه الذين يكتبون التاريخ ، ومبلغ التحقيق عندهم نسبة ما ينقلون الى الطبري أو ابن الأثير أو غيرهما - مع أن في هذه الكتب المقبول والمردود ، والغث والسمين .

وقد انتشر كثير من الأحاديث الواهية عند كثير من المتحدثين عن العلم أو الكاتبين فيه . وذلك لاعتماد الكثيرين منهم على النقل من الكتب التي تذكر في كل موضوع ما تجده من الأحاديث دون اشتراط صحتها ، ولا بيان درجته .

وأظهر مثال لذلك هو « احياء علوم الدين » للامام أبي حامد الغزالي ، الذي يرجع اليه الكثيرون من الوعاظ والكتاب . فقد ذكر في فضيلة العلم : « التعلم » و « التعليم » نحو ١٥٥ خمسة وخمسين حديثا لم يصح منها إلا ١٣ ثلاثة عشر ما بين صحيح أو حسن . والباقي ضعيف . رغم اشتهاره جدا على الألسنة والأقلام .

وأحمد الله أني لم أحتج في هذا البحث الى الضعيف المردود، فقد أغناني الله بالصحيح والحسن، وهو موفور غير قليل. واذا ذكرت حديثا على غير هذا الشرط، فذلك في النادر، ولمجرد الاستئناس. ومع بيان درجته.

وانما اقتصرت على بيان موقف السنة من العلم، لأن بيان موقف القرآن من العلم يحتاج الى بحث آخر، لعلي أوفق في اخراجه في سلسلة «التفسير الموضوعي للقرآن» فعسى أن يجد القارىء الكريم ما قصدت اليه واضحا في هذه الصحائف، ويرى فيها نهج الاسلام، وهدى الرسول الكريم بينا واضح المعالم... وقد قسمت البحث الى خمسة فصول:

الأول: في بيان منزلة العلم والعلماء.

الثاني: في اخلاقيات العلم.

الثالث: في التعلم وآدابه.

الرابع: في التعليم ومبادئه وقيمه.

الخامس: موقف الرسول من العلم التجريبي.

فلنشرع في بيانها - وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون وبه التوفيق،

د. يوسف القرضاوي

الفصل الأول

منزلة العلم والعلماء في ضوء السنة

تكاثرت أحاديث النبي - ﷺ - وتتابعت - بعد آيات القرآن الكريم - في بيان فضل العلم، ومنزلة العلماء عند الله وعند الناس، في الدنيا والآخرة. ورفعت العلم مكانا عليا، لا يسعى اليه على قدم، ولا يطار له على جناح الا بواسطة العلم.

ولا ريب أن أولى العلوم بذلك هو علم الدين، الذي به يعرف الانسان نفسه ويعرف ربه، ويهتدي الى غايته، ويكتشف طريقه، ويعلم ماله وما عليه، ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدي الناس الى حق، أو تقربهم من خير أو تحقق لهم مصلحة أو تدرأ عنهم مفسدة.

يقول صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين[1] »

ويقول: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله يتدارسونه بينهم الا حفتهم الملائكة،

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة من حديث معاوية. والترغيب للمنذري حديث ١٠٠

ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده[1]

ويقول:

«ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وأن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وان العلماء ورثة الأنبياء وان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً. انما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[2]

فهذه الأحاديث تدل على فضل العلم، وبخاصة العلم بالدين، او على حد تعبير الحديث :- الفقه في الدين، والواقع ان الفقه في الدين أخص وأعمق من مجرد العلم بالدين، فالعلم معرفة بالظاهر فحسب، والفقه معرفة بالظاهر واللب معا.

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن وابن حبان في صحيح والحاكم وقال: صحيح على شرطهما. ترغيب حديث ١٠٥

(٢) رواه احمد وابو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والبيهقي والحاكم وصححه وحسنه حمزة الكناني وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده لكن له شواهد يتقوى بها. ذكره الحافظ في الفتح جـ ١/١٦٩ ط الحلبي، ونقل الشيخ البنا «في الفتح الرباني» جـ ١/١٥٠ عن صاحب «التنقيح» أن رجال احمد رجال الحسن، كما حسن اسناد المتدارك ونسبه ايضا الى النسائي وأبي يعلى والطبراني في الكبير، قال: «وصحح البخاري بعض طرقه.»

والعلم يتصل أكثر ما يتصل بالعقل وحده؛ والفقه يتصل بالعقل والقلب جميعا.

وأيضا: فإن تخصيص العلم بالأحكام الشرعية الجزئية كأحكام الطهارة والنجاسة والصلاة والطلاق والبيع والشراء كما هو مدلول الفقه في اصطلاح الخلف، لا ينشئ الفقه المراد في الحديث والذي هو دليل على إرادة الله الخير بصاحبه.

وحسب هذا العلم فضلا أن مجالسه تحفها ملائكة الله، وتنزل عليها السكينة، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله في الملأ.

وهذه الملائكة التي تحف مجالس العلم تضع أجنحتها لطالبيه، فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل.. والحف حفظ وحماية وصيانة.

فتضمن الحديث تعظيم الملائكة له، وحبها إياه، وحمايتها له. وكفى بهذا شرفا وفضلا.

[illegible] وأمثالها كثير [illegible] في القرآن [illegible] آيات عديدة [illegible] جعلت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان على مر العصور يشيدون بشأن العلم، وينوهون بقدر العلماء، تحريضا على طلب العلم والزيادة منه وتحذيرا من الجهل، وما يجره على أهله من شؤم في الدنيا والآخرة.

يقول عمر: أيها الناس، عليكم بطلب العلم، فان لله رداء محبة، فمن طلب بابا من العلم رداه الله بردائه ذاك[1]

وسأل رجل ابن عباس عن الجهاد فقال له: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تبني مسجدا تعلم فيه القرآن وسنن النبي صلى الله عليه وسلم والفقه في الدين[2].

وقال ابن مسعود: نعم المجلس مجلس تنشر فيه الحكمة، وتنشر فيه الرحمة[3]. يعني مجلس العلم.

وقال معاذ بن جبل: تعلموا العلم، فان تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء. والقريب عند القرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتفى آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس يستغفر

---

(١) جامع بيان العلم جـ١/٧٠

(٢) نفسه ٧٣، ٧٤

(٣) نفسه ٦٠

لهم، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها... الى أن قال:

به يطاع الله، وبه يعبد، وبه يوحد، وبه يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو امام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء.[1]

وقال الحسن: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم. أي أنهم بالعلم يخرجون الناس من حد البهيمية الى حد الانسانية.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء ارحم بأمة محمد- ﷺ- من آبائهم وأمهاتهم قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وسئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد.

قال الغزالي: ولم يجعل غير العلم من الناس، لان الخاصة التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم. فالانسان انسان بما هو شريف لأجله. وليس ذلك بقوة شخصه (جسمه) فان الجمل أقوى منه، ولا بعظمه، فان الفيل أعظم

---

(١) رواه ابن عبد البر وابو نعيم والخطيب موقوفا على معاذ، ورفعه بعضهم ولا يصح. قال ابن القيم: وحسبه أن يصل الى معاذ.

منه ولا بشجاعته فان السبع أشجع منه ولا بأكله، فان الثور أوسع بطنا منه ولا بجماعه فان أخس العصافير أقوى على الفساد منه، بل لم يخلق الا للعلم(1)

وقال الامام أحمد بن حنبل: حاجة الانسان الى العلم أكثر من حاجته الى الطعام والشراب.

العلم دليل الايمان:

والعلم في نظر الاسلام ليس مقابلا للايمان، فضلا عن أن يكون معاديا له كما شاعت الفكرة في أوروبا في القرون الأخيرة، حيث وقفت الكنيسة في تلك العصور تؤيد الخرافة، وتحارب العلم، وتناصر الجمود والتقليد، وتقاوم التفكير الحر والابتكار المبدع. وتدافع عن القوى المتسلطة من حكام واقطاعيين، وتقف في وجه الشعوب والفئات المسحوقة.

ولكن الاسلام لم يعرف هذا الصراع بين العلم والايمان في تاريخه كله، لأن هذه الفكرة لا مجال لها في تعاليمه، لا نصا ولا روحا.

أما النصرانية فتقوم أساسا على أن الايمان قضية لا علاقة لها بالفكر، بل هي ضده. فهي لا تدخل في دائرة

---

(1) الاحياء جـ1/7

المطلق والعطاء بلا [illegible] ينطلق الوجدان والقلب؟ أوليس من شرط العقائد أن تكون مقبولة عقلاً، بل لا يصح بها أن تكون فوق العقل.

ولهذا كان من الشعارات المرفوعة عند النصارى: «آمن ثم اعلم. أو: اعتقد وأنت أعمى». وآخر يقول على لسان القسيس: اغمض عينيك ثم اتبعني.

وذلك لأن العقيدة النصرانية مؤسسة على قضايا يرفضها العقل المجرد، مثل التثليث والتخليص والفداء، وما يتفرع عنها، وما يلحق بها. حتى قال بعض فلاسفة النصارى في بعض معتقداتهم «اللامعقولة» وهو القديس (أوجستين): أومن بهذا، لأنه محال.

وهذا على عكس الاسلام الذي يرفض في بناء العقيدة: التقليد والتبعية «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا» المائدة: أو: «إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا» الأحزاب ٦٧ أو «أنا مع الناس»[1]

ويرفض أيضاً الظن حيث لا يغني في شأن العقائد الا العلم واليقين.

---

(١) كما في الحديث الذي رواه الترمذي: «لا يكن أحدكم إمعة: يقول: أنا مع الناس، ان أحسن الناس أحسنت وان أساءوا أسأت».

ولهذا أنكر على النصارى عقيدتهم في الصلب بقوله: « ما لهم به من علم الا اتباع الظن » النساء.

وقال في شأن المشركين وآلهتهم المزعومة: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: «ان هي الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس » النجم

ويأبى القرآن الا أن تبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادىء، ولأجل هذا صاح القرآن في أصحاب العقائد الباطلة: «قل: هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » البقرة.

ولا عجب أن تكررت في القرآن هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته، والمحررة للانسان من رِبْقَةِ تقليده وجموده، مثل: «أفلا تعقلون» «أفلا تتفكرون»، «أفلا ينظرون». «أولم ينظروا»، «أولم يتفكروا»، «لقوم يعقلون»، «لقوم يعلمون»، لقوم يتفكرون».

وحسبك أن تقرأ هذه الدعوة القوية الصريحة الى التفكير« قل انما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » سبأ.

وهذا ما دعا الأستاذ عباس العقاد - رحمه الله - أن

يخرج كتابا عنوانه: «التفكير فريضة اسلامية» وهذا تعبير صحيح، فالاسلام كما فرض على اناس أن يتعبدوا، فرض عليهم أن يتفكروا.

فالعقيدة في الاسلام تقوم على العلم لا على التسليم الأعمى. يقول القرآن: «فاعلم أنه لا اله الا الله» القتال، «اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم» المائدة، «واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا ان الله غفور حليم» البقرة

لم يخش القرآن عواقب الدعوة الى النظر والتفكر والعلم أن تأتي بنتائج تناقض حقائق الدين ومسلماته، لأن فكرة الاسلام: ان الحقيقة الدينية لا يمكن أن تناقض الحقيقة العقلية. فالحق لا ينقض الحق، واليقين لا يعارض اليقين. انما يعارض اليقين الظن، وتنافي الحقيقة الشك أو الوهم أو الافتراض.

ومن هنا لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول بصريح المعقول. واذا بدا لنا تناقض ظاهري فلا بد أن يكون المنقول غير صحيح، أو المعقول غير صحيح.

وهذا يقع كثيرا: أن يظن ما ليس من الدين دينا، وأن يحسب ما ليس من العلم علما.

فليست «كل أفهام أهل الذين دينا» كما أنه ليس كل نظريات أهل العلم علماً.

ان القرآن يعتبر العلم الحق داعية الى الايمان وهادياً اليه. قال تعالى: «وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم» الحج. فهذه المعاني الثلاثة مترتب بعضها على بعض فالعلم يتبعه الايمان تبعية ترتيب وتعقيب (فيعلموا فيؤمنوا).

والايمان تتبعه حركة القلوب من الاخبات والخشوع لله تعالى، وهكذا يثمر العلم الايمان، ويثمر الايمان الاخبات والتواضع لله رب العالمين.

وفي آية أخرى يذكر العلم والايمان متعاطفين جنبا الى جنب كما قال تعالى: «وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث» الروم.

ان العلم المادي مطلوب للانسان ولا شك، ولكنه مطلوب طلب الوسائل لا طلب الغايات.

وهو يعين الانسان على الحياة، وييسر له سبلها، ويختصر له الزمان ويطوي له المكان فيقرب البعيد، ويلين الحديد ولكنه وحده لا يستطيع اسعاد البشرية، كما لا يمكنه وحده أن يضبط سير البشر والانسان

ونزعات نفسه الأمارة بالسوء.

ولهذا كان الانسان في حاجة ماسة الى «العلم الديني» الذي ينمي الايمان ويحيي الضمائر، ويغرس الفضائل، ويقي الانسان شح نفسه، وطغيان غرائزه على عقله، وهو على ضميره، وهذا هو الذي يعصم «العلم المادي» من الانحراف ويحول دون استخدامه في التدمير والعدوان.

وقد ضرب لنا القرآن مثلا بسليمان -عليه السلام- الذي آتاه الله ملكا لم يؤته أحدا من بعده.

فقد أحضر اليه عرش بلقيس من سبأ باليمن الى مقره بالشام، قبل أن يرتد اليه طرفه، بفضل ذلك الذي وصفه القرآن بأنه: «عنده علم الكتاب» وهنا تجلى الايمان حين أرجع سليمان الفضل الى الله لا الى نفسه، فلم يركبه الغرور، أو يستبد به الطغيان «قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم» النمل.

وكذلك كان موقف ذي القرنين الذي فتح الفتوح غربا وشرقا، [illegible] ما يسره له العلم [illegible] فلما أتم البناء قال في تواضع المؤمنين: «هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي [illegible]

جعله دكاء ، وكان وعد ربي حقاً » الكهف.

الا أن العلم الحق هو الذي يهدي الى الايمان، والايمان الحق هو الذي يفسح مجالاً للعلم فهما اذن شريكان متفاهمان، بل اخوان متعاونان.

وهذا هو العلم الذي يريده الاسلام أيا كان موضوعه، ومجال بحثه - يريده في ظل الايمان، وفي خدمة مثله العليا. والى ذلك أشار القرآن حين قال في أول آية نزلت «اقرأ باسم ربك الذي خلق» والقراءة عنوان العلم ومفتاحه ومصباحه. فاذا كان أول أمر الهي نزل به القرآن «القراءة» كان ذلك أوضح دليل على مكانة العلم في الاسلام.

ولكن القرآن لم يطلب «مطلق قراءة» وانما طلب قراءة مقيدة بقيد خاص وهو أن تكون «باسم الله».

واذا كانت القراءة باسم الله، فقد وجهت الى الحق والخير والهداية، لأن الله تعالى هو مصدر هذا كله.

ولا غرو أن نشأ العلم في الاسلام في أحضان الدين، وأن نشأت المدارس في صحون المساجد، وبدأت الجامعات الاسلامية العريقة تحت سقوف الجوامع بل سمي كل منها

جامعا: جامع الأزهر، جامع القرويين، جامع الزيتونة، ... وهكذا..

وكانت هذه الجوامع أو الجامعات تدرس علوم الدين وعلوم الدنيا معا.

وكان كثير من العلماء التجريبيين هم في نفس الوقت علماء دين. مثل القاضي ابن رشد الحفيد مؤلف «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن ومؤلف «الكليات» في الطب.

ومثل الخوارزمي الذي ألف كتابه الفريد - الذي أسس به علم الجبر - ليحل به مشكلات في الوصايا والمواريث.

العلم دليل العمل:

والعلم في نظر الإسلام دليل للعمل أيضا، كما هو دليل للإيمان. ترجم الإمام البخاري في جامعه الصحيح: «باب العلم قبل القول والعمل». وقال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران الا به، فهو متقدم عليهما، مصحح للنية المصحِّحة للعمل، فنية المصنف (يعني البخاري) على ذلك، حتى لا يسبق الى الذهن - من قولهم: ان العلم لا ينفع الا بالعمل - تهوين

أمر العلم والتساهل في طلبه »[١]

واستدل البخاري لما ذكره بجملة من الآيات والأحاديث منها: قوله تعالى: « فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » القتال

فبدأ بالعلم، وثنى بالعمل، ورأس العلم معرفة الله تعالى وتوحيده. والخطاب وان كان للنبي -ﷺ- فهو متناول لأمته.

وقال جل ذكره: « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فاطر

أي إنما يخاف الله عز وجل ويقدره حق قدره، من عرفه وعلم عظيم قدرته، وسلطانه على خلقه، نتيجة التأمل في أسرار كونه وشرعه، وهم العلماء. وهذه الخشية هي التي تحفز على عمل الصالحات، واجتناب السيئات.

وقال النبي-ﷺ-: « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين »[٢] وذلك لأنه اذا فقه عمل، وأحسن ما عمل، وأدنى درجات الفقيه - كما يقول الامام الغزالي - أن يعلم ان الآخرة خير من الدنيا. وهذه المعرفة اذا صدقت

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري جـ١/١٦٩ ط الحلبي.

(٢) المصدر السابق ١٦٩ - ١٧٠

وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء(١)

ويؤيد ذلك مارواه زيد بن أسلم: أن النبي- ﷺ- دفع رجلا الى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره...» فقال الرجل: حسبي. فقال الرجل (أي المعلم): يا رسول الله، أرأيت الرجل الذي أمرتني أن أعلمه لما بلغ« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره...» فقال: حسبي؟.

فقال - ﷺ -: «دعه فقد فقه»(٢)

والسياق يدل على أن المعنى: قد استنار قلبه بنور الإيمان والخشية من الله.

يدل لذلك ما رواه المطلب بن عبد الله بن حنطب: أن رسول الله - ﷺ - قرأ في مجلس - ومعهم أعرابي جالس -: «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شَرّاً يره» فقال الأعرابي: يا رسول الله، أمثقال ذرة؟ قال: نعم، فقال الأعرابي: واسوأتاه... ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله - ﷺ -: لقد دخل قلب

---

(١) الاحياء جـ١ ص ٥

(٢) أخرجه عبد الرازق وعبد بن حميد وابن ابي حاتم كما ورد في الدر المنثور جـ٦/٣٨١و ٣٨٢

الأعرابي الإيمان.[1]

فكلمة النبي - ﷺ - هنا: لقد دخل قلب الاعرابي الايمان في معنى قوله في الحديث السابق: فقد فقه.

وبهذا يتبين أن العلم شرط ضروري للعمل، لكي يصح ويستقيم على أمر الله، سواء كان هذا العمل عبادة، أم معاملة للناس.

روى سفيان بن عيينة عن عمر بن عبد العزيز، قال: من عمل في غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح[2].

وفي حديث معاذ بن جبل السابق في فضل العلم: وهو امام العمل، والعمل تابعه...

فلا تستقيم عبادة يجهل صاحبها ما يجب لها من شروط، وما تقوم عليه من أركان.

ولهذا قال النبي - ﷺ - للرجل الذي أَساء صلاته ولم يؤد لها حقها من الطمأنينة: ارجع فَصَلِّ. فإنّك لم تُصَلِّ[3].

وانما قال له: «لم تصل» مع أنه أدى الصلاة أمامه، لأنها صلاةً منقوصة مبتورة كلا صلاة.

وفي المعاملات وشئون الحياة عامة شخصية وأسرية

---

(١) اخرجه سعيد بن منصور كما في الدر جـ٦/ ٣٨١

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر جـ١/٣٣

(٣) حديث المسيء صلاته مشهور. رواه الشيخان وغيرهما في كتاب الصلاة

واجتماعية - يجب أن يعرف فيها الصحيح من الفاسد، والحلال من الحرام، حتى لا يتورط في الحرام وهو لا يدري. والجهل بالأحكام في دار الإسلام ليس عذرا

فما كان من الحلال بيِّناً فلا جناح عليه في فعله أو تركه، وما كان من الحرام بينا فلا عذر له في ارتكابه، وما كان من المشتبهات التي «لا يعلمهن كثير من الناس» فالحزم أن يدع ما يريبه «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يواقعه»[1]

وكان السلف يوصون التاجر الذي يدخل السوق أن يتفقه في أحكام البيوع والتعامل، أو يلزم فقيها يسدده ويرشده.

وفي الأعمال القيادية مثل الامامة والولاية والقضاء اشترطوا لها العلم الاستقلالي الذي يبلغ بصاحبه درجة الاجتهاد، حتى اذا استفتى أفتى بعلم واذا أمر - امر بحق، واذا حكم - حكم بعدل، واذا دعا - دعا الى الخير.

ولم يقبلوا (المقلد) في الإمامة والقضاء الا من باب الضرورات التي تبيح المحظورات، والنزول من المثل الأعلى

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

الى الواقع الأدنى.

على أن من الواجب على الأمة ان تتدارك أمورها، وتصلح من شأنها، حتى لا يلي أمورها الا أكفأ الناس وأصلحهم للقيادة علما وعملا.

ولم يجز أحد من الفقهاء أن يلي أمور المسلمين في السياسة والقضاء من يجهل شرع الله، الذي هو أساس الحكم بين المسلمين، فانه سيحكم بالجهل أو الهوى، وكلاهما في النار.

روى بريدة مرفوعا: «القضاة ثلاثة، واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»[1]

ثم إن العلم هو الذي يبين راجح الأعمال من مرجوحها، وفاضلها من مفضولها، كما يبين صحيحها من فاسدها، ومقبولها من مردودها، ومسنونها من مبتدعها، ويعطي كل عمل «سعره» وقيمته في نظر الشرع.

وكثيرا ما نجد الذين حرموا نور العلم يذيبون الحدود بين الأعمال فلا تتمايز أو يحكمون عليها بغير ما حكم الشرع،

(١) قال في «المنتقى» رواه ابن ماجة وأبو داود. وقال في «نيل الاوطار» جـ٩/١٦٧ أخرجه أيضا الترمذي والنسائي والحاكم وصححه. قال الحافظ: له طرق غير هذه جمعتها في جزء مفرد. أ.هـ

فيفرطون أو يفرّطون. وهنا يضيع الدين بين الغالي فيه والجافي عنه.

وكثيرا ما رأينا مثل هؤلاء - مع اخلاصهم - يشتغلون بمرجوح العمل، ويدعون راجحه، وينهمكون في المفضول، ويغفلون الفاضل.

وقد يكون العمل الواحد فاضلا في وقت مفضولا في آخر، راجحا في حال مرجوحا في آخر، ولكنهم لقلة علمهم وفقههم - لا يفرقون بين الوقتين، ولا يميزون بين الحالين.

رأيت من المسلمين الطيبين في أنفسهم من يتبرع ببناء مسجد في بلد حافل بالمساجد قد يتكلف نصف مليون أو مليونا من الجنيهات أو الدولارات، فاذا طالبته ببذل مثل هذا المبلغ أو نصفه أو نصف نصفه في نشر الدعوة الى الاسلام، أو مقاومة الكفر والالحاد، أو في تأييد العمل الاسلامي لاقامة الحكم بما أنزل الله، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة التي قد تجد الرجال ولا تجد المال، فهيهات أن تجد أذنا صاغية، أو اجابة ملبية، لأنهم يؤمنون ببناء الأحجار ولا يؤمنون ببناء الرجال.

وفي موسم الحج من كل عام أرى أعداداً غفيرة من المسلمين الموسرين يحرصون على شهود الموسم، وكثيرا ما

يضيفون اليه العمرة في رمضان، وينفقون في ذلك عن سخاء، وقد يصطحبون معهم أناساً من الفقراء على نفقتهم، وما كلف الله بالحج هؤلاء ولا هؤلاء. فاذا طالبتهم ببذل هذه النفقات ذاتها لمقاومة الغزو التنصيري في اندونيسيا أو الغزو الشيوعي في أفغانستان .. لووا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون.

هذا مع أن الثابت بوضوح في القرآن الكريم أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج. كما قال تعالى: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم» التوبة.

هذا مع أن حجهم واعتمارهم من باب التطوع والتنفل، أما جهاد الكفر والالحاد والعلمانية والتحلل، وما يسندها من قوى داخلية وخارجية، فهو الآن فريضة العصر، وواجب اليوم.

ولقد رأيت شباباً مخلصين كانوا يدرسون في كليات جامعية في الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الآداب أو غيرها من الكليات النظرية أو العملية وكانوا من الناجحين بل المتفوقين فيها ، فما لبثوا الا أن أداروا ظهورهم لكلياتهم ، وودعوها غير آسفين بحجة التفرغ للدعوة والارشاد والتبليغ ، مع أن علمهم في تخصصاتهم هو من فروض الكفاية التي تأثم الأمة جميعها اذا فرطت فيها ، ويستطيعون أن يجعلوا من عملهم عبادة وجهادا اذا صحت فيه النية ، والتزمت حدود الله تعالى.

ولو ترك كل مسلم مهنته فمن ذا يقوم بمصالح المسلمين؟ ولقد بعث الرسول أصحابه يعملون في مهن شتى ، فلم يطلب من أحد يدع مهنته ليتفرغ للدعوة ، وبقي كل منهم في عمله وحرفته ، سواء قبل الهجرة أو بعدها. فاذا دعا داعي الجهاد واستنفروا نفروا خفافا وثقالا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ولقد أنكر الامام الغزالي على أهل زمنه توجه جمهور متعلميهم الى الفقه ونحوه ، على حين لا يوجد في البلد من بلدان المسلمين الا طبيب يهودي أو نصراني يوكل اليه علاج

المسلمين والمسلمات، وتوضع بين يديه الأرواح والعورات.

ورأيت آخرين يقيمون معارك يومية من أجل مسائل جزئية أو خلافية، مهملين معركة الاسلام الكبرى مع أعدائه الحاقدين عليه، والطامعين فيه والخائفين منه، والمتربصين به.

حتى في قلب أفريقيا وكندا وأوربا، وجدت من جعلوا أكبر همهم: الساعة أين تلبس أفي اليد اليمنى أم في اليد اليسرى؟

ولبس الثوب الأبيض بدل «القميص والبنطلون» واجب أم سنة؟

ودخول المرأة إلى المسجد حلال أم حرام؟

والأكل على منضدة، والجلوس على الكرسي للطعام، واستخدام الملعقة والشوكة: هل يدخل في التشبه بالكفار أو لا؟

وغيرها.. وغيرها من المسائل التي تأكل الأوقات، وتمزق الجماعات، وتخلق الحزازات، وتضيع الجهود والجهاد، لأنها جهود في غير هدف، وجهاد مع غير عدو.

ورأيت فتيانا ملتزمين متعبدين يعاملون آباءهم بقسوة،

وأمهاتهم بغلظة، وأخواتهم بعنف. وحجتهم أنهم عصاة أو منحرفون عن الدين ناسين أن الله تعالى أوصى بالوالدين خيرا، وان كانا مشركين يجاهدان ولدهما على الشرك، ويحاولان بكل جهدهما فتنته عن اسلامه.

يقول تعالى: «وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلاْ تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفا» لقمان:

فرغم المحاولة المصرة من الأبوين، التي سماها القرآن، «مجاهدة على الشرك» أمر بمصاحبتهما بالمعروف، لأن للوالدين حقا لا يفوقه الا حق الله عز وجل، ولهذا قال تعالى: «ان اشكر لي ولوالديك اليّ المصير» لقمان

أما الطاعة لهما في الشرك فهي مرفوضة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأما المصاحبة بالمعروف فلا مناص منها، ولا عذر في التخلي عنها.

ورأينا أناسا مخلصين، يشرعون في الدين مالم يأذن به الله، يحرّمون ما لم يحرمه الله ورسوله، ويأمرون بما لم يأمر به الله ورسوله، ويتعبدون لله بغير ما شرع، بل بالأهواء والبدع.

شفيعهم لذلك - فيما زعموا - حسن نيتهم، وصفاء

طويتهم وصدق رغبتهم في التقرب الى الله تعالى.

وهذا فهم خاطىء لمعنى العمل الصالح المقبول عند الله تبارك وتعالى.

فلا يكفي في حسن العمل حسن النية، وحرارة الاخلاص، حتى يكون العمل مأذونا به، ممهورا بخاتم الشرع.

ولله در العالم الزاهد الورع - الفضيل بن عياض - الذي عبّر عن هذا المعنى بعبارات جامعة ناصعة، حين سئل عن «أحسن العمل» في قوله تعالى: «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا» فقال: أحْسَنُ العمل أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه؟ وما أصوبه؟

قال: ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل. ولا يقبل حتى يكون خالصا وصوابا.

والخالص.. ان يكون لله

والصواب... ان يكون على السنة[1].

---

(١) انظر كتابنا «العبادة في الاسلام» فصل: «لا يعبد الله الا بما شرع» ص ١٦٥ - ١٧٤ - مؤسسة الرسالة - بيروت

فضل العلم على العبادة:

والاسلام فيما نعلم - أول دين يفضل الاشتغال بالعلم وطلبه والتبحر فيه على التعبد بالشعائر المعروفة، مع أن القرآن يعلن في صراحة وجلاء أن الله تعالى لم يخلق الثقلين الا ليعبدوه «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون»

ولكن العبادة اذا أديت على غير علم فهي كبنيان على غير أساس، فالعلم هو الذي يوضح أركان العبادة وشروطها وآدابها الطاهرة، وأسرارها الباطنة كما يبين ما يصححها وما يبطلها، وما يكملها أو ينقصها

والعلم يعرف صاحبه بمنازل الاشياء، ومراتب الأعمال، حتى يميز بين النفل والفرض، وبين المهم وغير المهم، وبين الأصول والفروع، فلا يقدم نافلة على فريضة، ولا يقدم غير المهم على المهم، ولا يضيع أصلا من أجل فرع.

وفي مثل هذا قال السلف: «ان الله لا يقبل النافله حتى تؤدي الفريضة».

وقالوا: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور[1].

---

(١) رأينا من الناس من يصوم الاثنين والخميس تطوعا ثم يفرط في واجبه نحو عمله اليومي الذي يتقاضى عليه اجرا بحجة تعبه من الصيام، أو يقصر من بواجبه نحو =

ومن فضل العلم على العبادة أن معظم العبادات قاصرة النفع لا تتجاوز صاحبها، فالمصلي والصائم والحاج والمعتمر، والذاكر والمسبح وتالي القرآن، ونحوهم يتعبدون لله بما يزكي أنفسهم، وينمي إيمانهم، ويزيد من حسناتهم، ويرفع من درجاتهم.. ولكن المجتمع من ورائهم لا ينال من جراء عبادتهم شيئا مباشرا. يحقق له منفعة، أو يدفع عنه مضرة.

أما العلم فنفعه متَعَدٍ.. لا يقتصر على صاحبه، بل يتجاوزه الى غيره من الناس، من كل من يسمعه، أو يقرأ له، وقد يكون بينه وبينهم جبال ووهاد أو بحار وقفار.

فالعلم لا يعرف القيود، ولا يعترف بالحواجز والسدود، وبخاصة في عصرنا الذي ينتشر فيه العلم المسموع بالاذاعة، والمرئي بالتلفاز في ثوان معدودة الى المستمعين والمشاهدين من مساحات شاسعة، وينتشر العلم المكتوب بوساطة الطباعة الحديثة الى آفاق المعمورة في أيام معدودات.

ولا عجب أن روى أبو أمامة - رضي الله عنه - قال: ذكر للنبي - ﷺ - رجلان، أحدهما عالم، والآخر

= اسرته أو المجتمع من حوله.. ورأينا من يحج أو يعتمر كل عام. وعلى هذا يماطل في قضاء ديونه أو يجور على عماله وموظفيه. أو يتعامل مع المصارف بالربا..الخ

عابد، فقال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[1]

وروى عنه حذيفة بن اليمان: «فضل العلم خير من فضل العبادة»[2]

وقد تقدم حديث أبي الدرداء: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

ومن فضل العلم على العبادة: أنه لا ينقطع بانقطاع الحياة، ولا يموت بموت أصحابه.

فمن صلى أو صام أو زكى أو حج أو اعتمر أو سبَّح وهلل وكبر، فإن هذه الأعمال لها مثوبتها الجزيلة عند الله تعالى، ولكنها تنتهي بانتهاء أدائها والفراغ منها.

أما العلم فإن أثره يظل باقيا ممتدا، ما دام في الناس من ينتفع به، مهما تطاولت السنون، وتعاقبت القرون.

فعن ابي هريرة قال. قال رسول الله - ﷺ -: «اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث: صدقة جارية، أو

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح كما في الترغيب حديث ١٣٠

(٢) رواه الطبراني في الاوسط والبزار باسناد حسن/ ترغيب ١٠٣ وقال في مجمع الزوائد جـ١/١٢٠ فيه عبد الله بن عبد القدوس. وثقة البخاري وابن حبان، وابن معين.

علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[1]

وقال أيضا: «ان مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه من بعد موته »[2].

وبهذا يعيش العالم عمرا طويلا بعد عمره المحدود، وبخاصة من كتب وصنف فان المكتوب أطول، وأثره أبقى.

ألا ترى أننا ننتفع بتراث علمائنا السابقين، وندعو لهم، ونترحم عليهم، وبيننا وبينهم أزمان وقرون تندق فيها أعناق المطى.

قال يحيى بن أكثم: قال الرشيد يوما: ما أنبل المراتب.

قلت: يا أمير المؤمنين ما أنت فيه. قال: فتعرف مني؟ قلت: لا. قال: لكني أعرفه.

رجل يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

---

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) رواه ابن ماجة باسناد حسن والبيهقي. وروى ابن خزيمة في صحيحه مثله الا انه قال: أو نهر أكراه. وقال: يعني حفره. ولم يذكر المصحف. الترغيب ١٢٣.

قلت يا أمير المؤمنين: أهذا خير وأنت ابن عم رسول الله -ﷺ- وولي عهد المؤمنين

قال: نعم، ويلك! هذا خير مني، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله-ﷺ- لايموت أبدا. ونحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقي الدهر(١)

وما أبلغ ما قال الامام علي -رضي الله عنه- لكميل بن زياد: «العلم خير من المال»..

العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الانفاق، والمال تنقصه النفقة، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

العلم يكسب العالم الطمأنينة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة(٢).

الاشتغال بالعلم أفضل ما يتطوع به:

وهذه الأحاديث وما جاء في معناها، وما جاء في فضل

---

(١) ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة حـ١ /١٦٥ ط دار الكتب لبنان

(٢) قال ابن القيم: ذكره ابو نعيم في الحلية وغيره. وقال أبو بكر الخطيب: هذا حديث من أحسن الاحاديث واشرفها لفظا. المصدر السابق ص١٢٣

العلم عامة - هي التي جعلت كثيرا من السلف يعتبرون العلم أفضل ما يتطوعون به متقربين الى الله تعالى..

فعن ابن مسعود قال: الدراسة صلاة

وعن أبي الدرداء قال: مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليل.

وعن ابن عباس: تذاكر العلم بعض ليلة أحب الي من إحيائها.

وعن أبي هريرة: لأن أجلس ساعة فأفقه ديني أحب الي من إحياء ليلة الى الصباح.

وقال قتادة: باب من العلم يحفظه الرجل لصلاح نفسه، وصلاح من بعده، أفضل من عبادة حول.

وقال الثوري: ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم.

وعنه أيضا: ما أعلم اليوم شيئا افضل من طلب العلم. قيل له: ليس لهم نية! قال: طلبهم له نية.

وقال ابن وهب: كنت عند مالك قاعداً أسأله، فجمعت كتبي لأقوم. قال مالك: أين تريد؟ قلت: أبادر الى الصلاة. قال: أليس هذا الذي أنت فيه دون ما تذهب اليه اذا صحت فيه النية.

وقال الزهري: ما عبد الله بمثل الفقه.

وقال: مطرف بن عبد الله بن الشخّير: حظ من علم أحب علي من حظ من عبادة.

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة[1]

وقد نقل عن أبي حنيفة مثل ما نقل عن الشافعي ومالك وسفيان من تفضيل العلم على سائر النوافل »[2]

وهؤلاء هم أئمة الفقه وأصحاب المذاهب المتبوعة.

وبهذا يتضح أن المفاضلة بين العلم والعبادة لاتعني المفاضلة بين العلم المفروض والعبادة المفروضة، ولا بين نفل العلم وفرض العبادة، ولا العكس، فانه لا مفاضلة بين نافلة وفريضة، ولا بين فريضتين لا زمتين.

فلا يجوز أن يشغل شيء عن العبادة المفروضة كالصلاة.

في وقتها، ولو كان هو طلب العلم.

ولا يتصور من ذي علم أن يجيز لنفسه أو غيره الاشتغال بالعلم عن أداء الفرائض المفروضة.

ولهذا لما نقل المحقق ابن القيم حديث عائشة: « فضل العلم خير من نفل العمل » قال: وهذا الكلام هو فصل الخطاب في المسألة.

---

(١) انظر: جامع بيان العلم لابن عبد البرحـ١/٢٥ باب تفضيل العلم على العبادة.

(٢) انظر: مفتاح السعادة لابن القيم حـ١/١١٩

فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضا ، فلا بد منها كالصوم والصلاة ، فاذا كانا فضلين - وهما النفلان المتطوع بهما ، ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها ، لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه ، والعبادة يختص نفعها لصاحبها - ولأن العلم تبقى فائدته .. ولما مرّ من الوجوه السابقة »[1]

فضل العلم على الجهاد :

ويندرج في فضل العلم على العبادة فضله على الجهاد الذي هو ذروة سنام الاسلام ، والذي استفاضت في بيان فضيلته آيات القرآن وأحاديث الرسول .

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود أحد أوعية العلم ، ومصابيح الهدى : والذي نفسي بيده ، لَيَوَدَّنَّ رجال تعلموا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء ، لما يرون من كرامتهم[2] . ويقول الفقية الداعية المربي الحسن البصري : يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ، فيرجح مداد العلماء

ذلك أن الجهاد لا يعرف الا بالعلم

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٠

(٢) مفتاح دار السعادة ط/١٢١

ولا تتضح شروطه وحدوده الا بالعلم

ولا يتبين الجهاد المشروع من القتال غير المشروع الا بالعلم.

ولا يتميز النفل فيه عن الفرض الا بالعلم.

ولا يعرف فرض الكفاية فيه من فرض العين الا بالعلم.

وكم رد النبي -ﷺ- من مسلم جاءه يجاهد معه، لأنه رأى أن ترك واجبا يخصه ألزم من الجهاد. فعن عبد الله ابن عمرو قال: جاء رجل الى النبي -ﷺ- فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحيّ والداك؟

قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد[1]

وفي رواية: ان الرجل قال: يا رسول الله، جئت أريد الجهاد معك، ولقد أتيت وان والداي يبكيان. قال: فارجع اليهما فأضحكهما كما أبكيتهما[2].

وعن أبي سعيد: أن رجلا هاجر الى النبي -ﷺ- من اليمن، فقال: هل لك أحد باليمن؟ فقال: أبواي، فقال:

---

(١) قال في «المنتقى» رواه البخاري والنسائي وأبو داوود والترمذي وصححه.

(٢) قال في «المنتقى» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه. وقال في «المذيل» اخرجها أيضا النسائي وابن حبان، واخرجها أيضا مسلم وسعيد بن منصور من وجه آخر في نحو هذه القصة.قال: ارجع الى والديك فأحسن صحبتهما «نيل الاوطار حـ٨/٣٧، ٣٨ والترغيب حـ٧ حديث ٣٥٨٤.

أذنا لك؟ فقال: لا. قال: ارجع اليهما فأستأذنهما، فان أذنا لك فجاهد، والا فبّرهما »[1]

وفي حديث آخر أنه -ﷺ- قال لمن جاء يستشيره في الغزو معه: هل لك أم؟ قال نعم: فقال: الزمها فان الجنة عند رجليها[2]

وبهذه الأحاديث استدل العلماء على وجوب استئذان الأبوين في الجهاد، لأن برهما فرض عين، والجهاد فرض كفاية، فاذا صار الجهاد فرض عين فلا اذن لأن تركه معصية، ولا طاعة لبشر في معصية الله تعالى.

وهذا بشرط ان يكون الأبوان مسلمين، لأن الكافرين لا يرضيان يوما بالجهاد لنصرة الاسلام وخذلان دينهما

وكل هذه الحدود والفوارق الدينية انما تعرف بالعلم، فمن أعرض عن العلم، واشتغل بالجهاد كان حريّاً ان يقع في الخطأ، أو ينحرف عن سواء الصراط وهو لا يدري.

وكم من أناس في الماضي حملوا سيوفهم على عواتقهم يقاتلون من عصم الله دماءهم وأموالهم، يزعمون أنهم بذلك

---

(١) رواه أبو داود وصححه ابن حبان كما في « نيل الاوطار » السابق.

(٢) رواه النسائي وابن ماجة والحاكم وقال: صحيح الاسناد. الترغيب حديث ٣٥٩١

مجاهدون، فيقتلون أهل الاسلام، ويدعون أهل الأوثان، أولئك هم الخوارج الذي صح الحديث في ذمّهم من عشرة أوجه

وما ذلك الا لأنهم تعبدوا قبل أن يتعلموا، وجاهدوا قبل أن يتفقهوا، وتعجلوا العمل قبل العلم، فضلّ سعيهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وكم من شباب اليوم دفعهم الحماس الكثير في صدورهم، مع العلم القليل في رؤوسهم، والاعجاب المزهوّ برأيهم، الى رفض أمتهم، وتكفير جماهيرها، واعتبار أوطانها ديار كفر لا دار اسلام. فاستحلوا بذلك ما حرّم الله، وأسقطوا ما أوجب الله، اتباعا لمتشابه النصوص، وابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله

ولو تعلموا وفقهوا. وتلقوا العلم من أهله، وعرفوه من مناهله، لوقف بهم العلم عند صدورهم، وعرفهم حقيقة الجهاد كيف يكون؟ ومتى يكون؟ ولمن يكون؟.

وهذا الامام الحسن البصري - رضي الله عنه - يقول: «العامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح. فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم، فان قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا

بأسيافهم على أمة محمد -ﷺ - ولو طلبوا العلم لم يدلهم على مافعلوا[1]

على أن الجهاد الذي جاء به الاسلام ليس كله جهادا بالسيف، فهناك جهاد بالقلم واللسان، وبالحجة والبيان، أي جهاد بالعلم. وهو المذكور في قوله تعالى: «فلا تُطِعِ الكافرين وجاهدهم به (اي القرآن) جهاداً كبير»

فلم يكتف القرآن بتسميته جهادا، بل جهادا كبيرا وهذا في مكة قبل أن يشرع القتال.

وهو جهاد المنافقين في قوله سبحانه «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم» سورة التوبة.

فجهاد الكفار أخص باليد. وجهاد المنافقين أخص باللسان ولا تعجب اذا جاء في الحديث «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[2]

---

(١) مفتاح دار السعادة ط/٨٣

(٢) اخرجه الترمذي في كتاب العلم برقم ٢٦٤٩ من حديث أنس وقال: حديث حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه. وأخرجه ايضا الضياء في المختارة وقال المناوي في الفيض (٢٤/٦): فيه خالد بن يزيد اللؤلؤي. قال العقلي : لا يتابع على كثير من حديث. ثم ذكر له هذا الخبر شاهد بمعناه من حديث أبي هريرة أخرجه ابن ماجة رقم ٢٧٧ بلفظ من جاء مسجدي هذا لم يأته الا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله» وقال في الزوائد اسناده صحيح على شرط مسلم وصححه ابن ماجة وسيأتي

قال الامام ابن القيم: «إنما جعل طلب العلم من سبيل الله لان به قوام الاسلام، كما أن قوامه بالجهاد. فقوام الدين بالعلم والجهاد. ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد واللسان. وهذا المشارك فيه كثير. والثاني: الجهاد بالحجة والبيان. وهذا جهاد الخاصة من اتباع الرسل، وهو جهاد الائمة، وهو أفضل الجهادين، لعظم منفعته وشدة مؤنتة، وكثرة أعدائه. قال تعالى في سورة الفرقان، وهي مكية«ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا» فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين. وهو جهاد المنافقين أيضا، فان المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين. بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم. ومع هذا فقد قال الله تعالى: «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم «التحريم: ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن قال: «والمقصود أن «سبيل الله» هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به الى الله، ولهذا قال معاذ رضي الله عنه: عليكم بطلب العلم، فان تعلمه لله خشية، ومدارسته عبادته، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد.. ولهذا قرن - سبحانه - بين

الكتاب والميزان »ليقوم الناس بالقسط ، وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوي عزيز »الحديد ، فذكر الكتاب والحديد ، اذ بهما قوام الدين . كما قيل :

فما هو إلا الوحي أوحد مرهف
تميل ظباه أخدعن كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل
وهذا دواء الداء من كل جاهل

والمقصود أن كلا من الجهاد بالسيف والحجة يسمى « سبيل الله » وفسر الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » بالامراء والعلماء فانهم المجاهدون في سبيل الله : هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم .

« فطلب العلم وتعلمه من أعظم سبل الله عز وجل .

قال كعب الاحبار : « طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله عز وجل . وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم : اذا جاء الموت طالب العلم ، وهو على هذا الحال ، مات وهو شهيد وقال : من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل .

وقال ابو الدرداء: من رأى الغدو والرُواح الى العلم ليس بجهاد، فقد نقص في عقله ورأيه ».[1]

العلم ينفع في الدنيا قبل الآخرة:

ومن فضائل العلم ومزاياه: أن نفعه لأهله لا يقتصر على ثواب الآخرة وحدها، بل ينفعهم في الدارين، ويجمع لهم بين الحسنيين، ويرفع درجاتهم عند الله وعند الناس، فثمراته معجلة، وقطوفه دانية.

قال الامام الحسن البصري في تفسير قوله تعالى: « ربنا آتنا في الدنيا حسنة » هي العلم والعبادة « وفي الآخرة حسنة » هي الجنة.

قال الامام ابن القيم: وهذا من أحسن التفاسير فأن أجل حسنات الدنيا: العلم النافع والعمل الصالح »

ومن أجمل ما ورد في ذلك قصة ابن أبزي. ذلك أن نافع بن عبد الحارث لقي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعسفان – وكان عمر ولاه على مكة – فسأله: من استخلفت على أهل الوادي؟ فقال: ابن ابزى. قال ومن ابن ابزى

---

(١) مفتاح دار السعادة حـ١

قال: مولى من مواليـنا . قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: انه قارىء لكتاب الله عز وجل وانه عالم بالفرائض (المواريث) قال عمر: أما نبيكم - ﷺ - قد قال: ان الله يرفع بهذا الكتاب اقواما ويضع آخرين »[١]

وقال ابراهيم الحربي: -

« كان عطاء بن أبي رباح عبداً أسود لامرأة من مكة، قال: وجاء سليمان بن عبد الملك - امير المؤمنين - الى عطاء هو وابناه، فجلسوا اليه وهو يصلي فلما صلى انفتل اليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حول قفاه اليهم ثم قال سليمان لابنيه: قوما، فقاما. فقال: يا بني لا تنيا في طلب العلم فاني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود[٢]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه حديثة رقم ٨١٧ واحمد في مسنده - الفتح الرباني جـ١/ ١٤٦

(٢) مفتاح دار السعادة حـ١/١٦٥

الفصل الثاني

أخلاقيات العلم

ان العلم في نظر الاسلام ليس مجرد حشو الرؤوس بالمعلومات، مهما تكن قيمة هذه المعلومات من جلالة القدر في موضوعها، أو في طريقة ثبوتها، حتى العلم المقتبس من طريق النبوة - الذي هو العلم الاعلى - لا يكفي فيه محض اكتسابه وتحصيله، بل لا بد لصاحبه من الالتزام بالقيم الخلقية التي يفرضها العلم على أهله، والتي جعلتهم أهلا لأن يكونوا خلفاء الانبياء وسنخص بالحديث هنا أبرز هذه الفضائل التي يجب أن يتخلق بها أهل العلم.

١ - الشعور بالمسئولية:

وأولى هذه القيم: الشعور بالمسئولية أمام الله، فالعلماء ورثة الأنبياء، ولا رتبة أعلى من رتبة النبوة، ولا درجة أعظم من درجة الوارثين لهذه المرتبة. وعلى قدر المنزلة تكون المسئولية.

عن معاذ بن جبل[١] - رضي الله عنه - قال: قال رسول

---

(١) رواه البزار والطبراني باسناد صحيح واللفظ له كما في الترغيب حديث ١٥٦٤

الله ﷺ «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه: ماذا عمل به؟.

وكلما اتسعت دائرة علم الانسان كلما عظمت مسئوليته فليس من علم مسألة كمن علم عشراً أو مائة، وكما أن من كثر ماله كثر حسابه، وطال سؤاله، وعسر جوابه؛ فكذلك من كثر علمه واستبحرت معارفه.

فهو مسئول عن صيانته وحفظه حتى يبقى، ومسئول عن تعميقه وتحقيقه حتى يرقى، ومسئول عن العمل به حتى يثمر، ومسئول عن تعليمه لمن يطلبه حتى يزكو، ومسئول عن بثه ونشره حتى يعم نفعه، ومسئول عن اعداد من يرثه ويحمله حتى يدوم اتصال حلقاته، وقبل ذلك كله، مسئول عن اخلاصه في عمله لله حتى يقبله.

وعن مالك بن دينار عن الحسن البصري قال: قال رسول الله -ﷺ-: «ما من عبد يخطب خطبة الا الله عز وجل سائله عنها أظنه قال «ما أراد بها؟ »».

وكان مالك بن دينار إذا حدث بهذا الحديث بكى حتى

ينقطع ثم يقول: تحسبون أن عيني تقر، وأنا أعلم ان الله عز وجل سائلي عنه يوم القيامة: ما أردت به؟[١]

وكان أبو الدرداء الصحابي الفقيه الزاهد - رضي الله عنه - يقول: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر[٢]، فأقول: لبيك ربّ. فيقول: ما عملت فيما علمت؟[٣]

٢ - الامانة العلمية:

ومن أخلاقيات العلم الامانة، فهو من لوازم الايمان، ولا إيمان لمن لا أمانة له. قال تعالى في وصف المؤمنين: «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» المؤمنون.

كما أن الخيانة من لوازم النفاق، فمن آيات المنافق البارزة:«أنه اذا اؤتمن خان »[٤]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله -ﷺ- قال: «تناصحوا في العلم، فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله، وان الله سائلكم يوم القيامة »[٥] وما

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي باسناد جيد

(٢) تصغير اسم أبي الدرداء: عامر.

(٣) رواه البيهقي. كما في الترغيب جـ١ حديث ٢١٥

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات الا أبا سعد البقال ففيه خلاف=

ذلك الا لأن الخيانة في المال -مهما عظمت- محدودة الضرر، أما الخيانة في العلم فقد تدمر مجتمعا بأسره.

ومن أمانة العلم أن ينسب القول لمن قاله، والفكرة لصاحبها، ولا يستفيد من الغير ثم يسند الفضل الى نفسه، فإن هذا لون من السرقة، وضرب من الغش والتزوير.

وفي هذا قال سلفنا: من بركة القول أن يسند الى قائله. ولهذا نجد كتب السلف المتقدمين موثقة بالأسانيد التي عن طريقها اوصلت الآراء والأقوال في مختلف العلوم. ولم يكن الإسناد في الحديث وعلوم الدين وحدها، بل شمل علوما أخرى كالتاريخ واللغة والأدب وغيرها.

ومَن أمانة العلم أن يقف الانسان عندما يعلم، وأن يقول لما لا يعلم: لا أعلم، فليس في العلم خجل ولا كبرياء، وأن يتقبل أية حقيقة أو فائدة علمية تأتيه ولو على يد من هو أقل منه علما، أو أصغر سنا، أو أدنى منزلة.

وحسبه أن رسول الله -ﷺ- سئل أمام الملأ من الناس عن الساعة، فقال بصريح العبارة: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. وذلك في حديث جبريل المشهور.

= انظر: مجمع الزوائد: ١/١٤١ والترغيب جـ ١ حديث ٢٠٦.

وعن جبير بن مطعم: أن رجلا قال: يا رسول الله، أي البلدان (يعني البقاع) أحب الى الله؟ وأي البلدان أبغض الى الله؟ قال: لا أدري، حتى أسأل جبريل عليه السلام، فأتاه فأخبره جبريل: أن أحب البقاع الى الله المساجد، وأبغض البقاع الى الله الأسواق »[1].

فهذا هو موقف العالم الأمين، ألا يجيب من سأله، ويفتي من استفتاه الا بما يستيقنه ويتبينه.

أما من أفتى بغير علم وأشار على من يستشيره بغير ما يعتقده، فقد خان الأمانة، واستحق من الله العقوبة. وفي الحديث: « من أفتى بغير علم كان اثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرُّشد في غيره فقد خانه »[2]

وهكذا تعلم أصحابه -ﷺ- ومن تبعهم باحسان من علماء الأمة، فلم يهابوا أن يقولوا: لا ندري فيما لا يدرون، وأن يردهم من دونهم الى الصواب، فيرجعوا جهرة غير متأففين ولا مستكبرين، وأن يغيِّروا فتواهم اذا تغير

---

(١) قال المنذري في الترغيب حديث ٤٧٠ رواه أحمد والبزار واللفظ له، وأبو يعلى والحاكم وقال: صحيح الاسناد. وانما بغضت الأسواق لما يكثر فيها من الطمع والغش والحلف بغير الله عن ذكر الله لكراهة التجارة أو البيع والشراء.

(٢) رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة.

اجتهادهم غير خزايا ولا متحرجين.

ويقول الامام محمد بن سيرين: لم يكن أحد بعد النبي -ﷺ- أهيب لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد لها من كتاب الله تعالى أصلا، ولا في السنة أثرا، فقال: أجتهد رأيي، فان يكن صوابا فمن الله، وان يكن خطأ فمنّي، واستغفر الله.[1].

وهذا عمر أمير المؤمنين ترده امرأة وهو يخطب على المنبر في شأن صداق النساء، فلا يستنكف أن يُخَطّي نفسه على مرأى ومسمع من الناس قائلا: كل الناس أفقه من عمر[2]

وأفتى عمر في المسألة المعروفة في الميراث بـ (الحمارية) أو (المشتركة) في ستة فلم يشرّك فيها، فلما كان العام المقبل شرّك فيها، فلما قيل له في ذلك قال: تلك على ما قضينا، وهذي على ما نقضي رواه الترمذي.

وهذا أمير المؤمنين (عليّ) أقضى الامة، وحلّال

(١) ابن سعد وابن عبد البر في العلم كما في كنز العمال جـ ١ حديث رقم ١٤١٩

(٢) ذكرها ابن كثير في التفسير (٤٦٧/١/ط الحلبي ونسبها الى أبي يعلى وقال اسناده جيد قوي.

المعضلات، والبحر الذي لا تكدره الدلاء، يقول: لا يستحي أحدكم اذا لم يعلم أن يعلم، واذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم.

وسئل يوما عن مسألة فقال: لا علم لي بها. وابردها على الكبد: سئلت عمّا لا أعلم، فقلت: لا أعلم[1].

وسأله رجل عن مسألة فأجابه. فقال الرجل: ليس هكذا، ولكن كذا وكذا، فقال عليّ: أصبت وأخطأت «وفوق كل ذي علم عليم»[2].

التواضع:

ومن أخلاق العلماء: التواضع.

فالعالم الحق لا يركبه الغرور ولا يستبد به العجب، لأنه يدرك بيقين أن العلم بحر لا شطآن له، ولا يصل أحد الى قراره، وصدق الله العظيم اذ يقول: «وما أوتيتم من العلم الا قليلا».

كما أنه يعلم أن قافلة العلم والعلماء مديدة طويلة، ضاربة في أغوار الماضي، موصولة بالخالق، ممتدة في المستقبل،

(١) كنز العمال جـ ١ حديث رقم ١٤٣٧

(٢) نفسه رقم ١٤٣٦ وقال: رواه ابن جرير وابن عبد البر في العلم

وليس هو إلا واحدا منها، فلا ينبغي له أن يغمط فضل السابقين، أو ينكر جهد اللاحقين.

وليس هناك من أحاط بكل شيء علما الا الله تعالى. أما الانسان فهو يعرف شيئا وتغيب عنه أشياء، ويعرف اليوم ما كان يجهل بالأمس، ويعرف اليوم ما ينساه في الغد، ويعرف الظاهر من الأشياء دون الباطن، والحاضر دون المستقبل.

وأكثر الناس ادعاء للعلم والمعرفة هم أنصاف المتعلمين وأشباههم الذين لا يعرفون من العلم الا القشور دون اللباب، والسطوح دون الأعماق

وأما من اتسع أفقه، وعمق ادراكه، فهو يكتشف مع كل حقيقة جديدة أنه يجهل أكثر مما يعلم، وأن العلم أكبر من أن يحاط به، وكفى بهذا الاعتراف علما

يقول الامام الشافعي:

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي
أو أراني ازددت علما زادني علمي بجهلي

ذكر الحافظ المنذري في كتابه (الترغيب والترهيب)

عنوان (الترهيب من الدعوى في العلم والقرآن) ما

رواه الشيخان عن أَبَيّ كعب عن النبي - ﷺ - قال:

«قام موسى عليه الصلاة والسلام خطيبا في بني اسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟فقال:أنا أعلم، فعتب الله عليه، اذ لم يرد العلم اليه، فأوحى الله اليه: ان عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب، كيف به؟ فقيل له: احمل حوتا في مكتل[1] فاذا فقدته فهو ثَمّ.. فذكر الحديث في اجتماعه بالخضر.. الى أن قال: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوها، فعرف الخضر، فحملوها بغير نول[2].

فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقره نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر.

والعلم في هذه العبارة الاخيرة بمعنى المعلوم.

وهذا ما أراد عبد الله الخضر أن يؤكد لكليم الله موسى عليه السلام: ان علم البشر لا يعد شيئا يذكر بالنسبة الى علم الله تعالى.

---

(١) مكتمل بوزن مئبر - وعاء يشبه الزنبيل يسع ١٥ صاعا

(٢) أي بغير أجر ينال ويعطي.

وهذا ما جعل فحول العلماء من فرسان علم الكلام الذين حصلوا أفكار المتقدمين والمتأخرين، والذين حاولوا يوما ما الغوص الى كنه الحقائق الكبرى فلم يحصلوا في النهاية على طائل، وهلك منهم الظهر، وانقطع بهم الطريق، وقال في ذلك قائلهم هو فخر الدين الرازي إمام المتكلمين في عصره، وصاحب التفسير الكبير، والكتب المشهورة في الكلام والأصول:

العلم للرحمن جلّ جلاله
وسواه في جهلاته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم، وانما
يسعى ليعلم انه لا يعلم؟

وقد روي مثل هذا عن عدد من الكبار مثل الباقلاني وامام الحرمين والشهرستاني وغيرهم.

وقد جاء في الحديث ذم أولئك المدعين المغرورين المنتفخين بما قرأوا أو حصلوا من علم. ولو كانوا علماء حقا لعرفوا قدر أنفسهم، وأنهم لم يؤتوا من العلم الا قليلا، بل أقل من القليل.

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله - ﷺ -:

« يظهر الاسلام حتى تختلف التجار في البحر ، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله ، ثم يظهر قوم يقرأون القرآن ، يقولون : من أقرأ منا ؟ من أعلم منا ؟ من أفقه منا ؟ ثم قال لأصحابه : هل في أولئك من خير؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أولئك منكم من هذه الامة ، وأولئك هم وقود النار »[١] .

العزة :

ومن أخلاق العلماء : العزة التي هي من أخص فضائل المؤمنين « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » والعلماء هم صفوة المؤمنين .

والعزة شيء غير الغرور أو العجب أو الكبر ، وهي لهذا لا تنافي فضيلة التواضع التي تحدثنا عنها .

هي عزة في مواجهة المستكبرين بالسلطان ، أو المتعالين بالثروة ، أو المزهوين بالقوّة ، أو المفاخرين بالنسب ، أو المكاثرين بالعدد أو غير ذلك من أعراض الدنيا .

فهي عزة بالعلم والايمان ، وليست عزة بالاثم والعدوان .

---

(١) قال المنذري في الترغيب حديث رقم ٢٢٩ رواه الطبراني في الاوسط والبزار باسناد لا بأس به . رواه أبو يعلى والبزار والطبري أيضا من حديث العباس بن عبد المطلب . وذكر المنذري حديثا آخر عن ابن عباس مرفوعا يعد شاهدا له . وقال فيه : رواه الطبري في الكبير واسناده حسن إن شاء الله تعالى ..

عزة تلتمس من الله ولا تطلب من الناس، ولا عند أبواب السلاطين «من كان يريد العزة فللّه العزة جميعا» فاطر.

سأل الحجاج خالد بن صفوان: من سيد البصرة؟ فقال له: الحسن (البصري). فقال: وكيف وهو مولى؟ (أي ليس من قبائل العرب ذوي الحسب[1]) فقال: احتاج الناس اليه في دينهم، واستغنى عن الناس في دنياهم! وما رأيت أحدا من أشراف أهل البصرة الا وهو يروم الوصول في حلقته اليه.. يستمع قوله ويكتب علمه. فقال الحجاج: هذا والله السؤود:[1]

والاستغناء شعور قبل أن يكون ملكا لأشياء، فان من الناس من يملك القناطير المقنطرة وهو فقير النفس، ممدود اليد الى الغير، وآخر صفر اليدين، وهو يشعر بأنه أغنى من قارون، وفي الحديث: «ليس الغنى عن كثرة العرض، انما الغنى غنى النفس»[2]

هذا الغنى النفسي هو الذي صوره الامام الشافعي فيما ينسب اليه من شعر قوي عميق:

---

(١) جامع بيان العلم جـ ١/٧٤ و ٧٥

(٢) متفق عليه من حديث ابي هريرة

أمطري لؤلؤا جبال سرنديب

وفيض آبار تبريز تبرا!

أنا إن عشت لست أعدم قوتا

واذا مت لست أعدم قبرا!

همـــتي همـــة الملوك ونفسي

نفس حرّ ترى المذلـــة كفرا!

واذا مـا قنعت بالقوت عمري

فلماذا أهـــاب زيـــدا وعمرا!

ولما دخل أبو حازم على الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك يطلب منه - وسأله فأجابه بقوة المؤمن، وعزة العالم، دون مجاملة في الحق، ولا مداهنة في الدين فأعجب به الرجل، وقال له:

هل لك أن تصحبنا - يا أبا حازم - فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله! قال له سليمان: ولم ذلك؟ قال: أخشى أن أركن اليكم شيئا قليلا، فيذيقني الله ضعف الحياة، وضعف المات.. قال له سليمان: ليس ذلك الي. قال: فما لي اليك حاجة غيرها.[1]

هذه هي عزة العلماء! عزتهم لأنهم يحفظون في صدورهم كلمات الله، ويحملون في أيديهم مصابيح الهداية، ويملكون في

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه جـ ١٢٥/١

خزائن قلوبهم أغلى الكنوز، وأثمن الثروات، وأشرف المواريث، وهو تراث النبوة » التي بغيرها يعيش الخلق في تيه المادية، وظلام الجاهلية، وضلالات الأهواء والأوهام. فمن أقوم منهم قيلا: وأهدى سبيلا؟

ولهذا روي في الحديث: « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله تعالى »[1]

واذا كانت النبوة أشرف المواريث التي تنقطع دونها أماني الخلق، فان المرتبة التي تليها في الشرف والفضل هي رتبة وارثيها، وهم العلماء.

ويقول عمرو بن العاص: من قرأ القرآن، فقد أدرجت النبوة بين جنبيه، الا أنه لا يوحى اليه.

ومفهوم كلمة: « قرأ القرآن » في الحديث، وفي عرف الصحابة والقرون الأولى لا يعني مجرد استظهاره، وحفظ كلماته وحروفه دون تدبر له، ولا فهم لمعانيه واسراره، انما تعني القراءة العلم والفقه، ولهذا كان العلماء يسمونهم (القرّاء).

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الاحياء: أخرجه الطبراني من حديث عبد الله ابن عمر بسند ضعيف.

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

أخذ هذا المعنى أحد الشعراء فقال:

إن الأكابر يحكمون على الورى
وعلى الأكابر يحكم العلماء

وهذا هو الوضع الصحيح للعلماء، ان كلمتهم هي العليا، لأنها قبس من كلمة الله وانهم هم الموجهون للحياة وللناس، الا إذا انقلبت الاوضاع، ورضي العلماء أن يسيروا في ركاب الأمراء. ورحم الله القاضي الجرجاني الذي قال:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان، ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

العمل بمقتضى العلم:

ومن أخلاقيات العلم الأصيلة في الاسلام: العمل بمقتضى العلم، على معنى أن يكون هناك صلة بين العلم والارادة، فان آفة كثير من الناس أن يعلم ولا يعمل، أو يعمل بعدد ما يعلم.

كالطبيب الذي يعرف ضرر مأكول أو مشروب على صحته، ولا يفتأ يتناوله استجابة لداعي الشهوة أو العادة.

وعالم الاخلاق الذي يرى سلوكا معينا رذيلة وهو مقيم عليه، متماد فيه، وعالم الدين الذي يرى عملا ما منكرا، وقد ينهي الناس عنه وهو يقترفه!

ان هذا النوع من العلم النظري البحت لا يرضى عنه الاسلام. وربما كان الجهل في تلك الحال خَيْراً منه.

ان العلم الحق هو الذي يغير بصيرة صاحبه، ويجسم أمام عينيه الجزاء، فيبدو البعيد قريبا، والغائب حاضرا، والأجل ناجزا، فتقوى عزيمته على البر والتقوى، وتضعف رغبته في الإثم والفجور.

وقد جاء في حديث أبي كبشة الانماري عن النبي ﷺ «إنما الدنيا لأربعة نفر:

١) عبد رزقه الله مالا وعلما، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا.. فهذا بأفضل المنازل.

٢) وعبد رزقه علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء.

٣) وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، يخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل.

٤) وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزْرُهما سواء »[1]

وهنا نرى أثر العلم واضحا في سلوك صاحبه في ماله: « يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا » فهذا هو الغني الشاكر، بأفضل المنازل كما جاء في الحديث. فإذا حرم المال ورزق العلم، عاش والخير ملء جوانحه، لا يمارسه عملا، ولكن يعيشه نية وأملا فهو بنيته، فأجره وأجر الغنيّ الشاكر سواء. فأما من حرم العلم، سواء رزق المال أم لا، فعاقبته ما ذكر الحديث الشريف.

والعلم هنا ليس تحصيل معلومات سطحية من هنا وهناك، ولكنه نور يقذفه الله في قلب عبده، فيمنحه اليقين والرسوخ، ويبعد به عن الغلو والاضطراب، وهذا هو العلم النافع.

---

(١) رواه أحمد والترمذي واللفظ له. وقال: حديث حسن صحيح. الترغيب حديث رقم ٢٠

العلم النافع حقا هو الذي يرى الناس أثره على صاحبه: نورا في الوجه، وخشية في القلب، واستقامة في السلوك، وصدقا مع الله، ومع الناس، ومع النفس.

أما مجرد التشدق بالكلام المزوق، والثرثرة بالقول المعسول من طرف اللسان دون أن يصدق القول العمل، فهذا هو شأن المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون، ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ويقرأون الأحاديث.

وهو ما أنكره القرآن على بني اسرائيل: «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب، أفلا تعقلون »البقرة

كأنما يشير القرآن إلى أن مناقضة العلم للعمل، والقول للفعل، لون من الفصام الذي لا يليق بالعقلاء.

ومن قرأ الأحاديث النبوية في هذا الباب ينخلع قلبه من هول الوعيد الذي يتهدد هذا الصنف من حملة العلم الذين سماهم الغزالي «علماء الدنيا».

عن أسامة بن زيد أنه سمع رسول الله -ﷺ يقول:

« يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه[1] فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون: يا فلان ، ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف ، وتنهي عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن الشر وآتيه . »

قال: واني سمعته يقول: يعني النبي صلى الله عليه وسلم - « مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار . قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون »[2]

هؤلاء الذين يحسنون الكلام ولا يحسنون العمل ، وينتسبون الى العلم ولا يقومون بحقه . يكونون فتنة على الأمة ، لأنهم موضع القدوة .

وهناك صنفان اذا صلحا صلح الناس ، واذا فسدا فسد الناس: الأمراء والعلماء .

ورحم الله الشاعر الذي قال:

يا أيها العلماء يا ملح البلد

ما يصلح الملح إذا الملح فسد؟!

(١) اقتابه: أمعاؤه.. وتندلق: تخرج من مكانها

(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

وهذا ما كان يخافه النبي - ﷺ - على أمته ، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حذرنا رسول الله - ﷺ - كل منافق عليم اللسان »

وعن عمران بن حصين عن النبي (ﷺ) « ان أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان[١]

وعن علي بن أبي طالب مرفوعا: « إني لا أتخوف على أمتي مؤمنا ولا مشركا. فأما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أتخوف عليكم منافقا عالم اللسان. يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون »[٢]

وعن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ - « العلم علمان: علم في القلب ، فذاك العلم النافع ، وعلم في اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم »[٣]

فعلم المرء إما حجة له ، وذلك اذا عمل به. وإما حجة عليه اذا أصبح مجرد حامل له. شأن اليهود الذين حملوا

---

(١) قال في (الترغيب) رقم ٢٢٣ رواه الطبراني في الصغير والاوسط من رواية الحارث وهو الاعور - وقد وثقه ابن حبان وغيره ١٠ هـ والحارث ضعيف ولكن يشهد له الحديثان قبله.

(٢) قال في الترغيب (١٣٩) رواه الحافظ ابو بكر الخطيب باسناد حسن ، وابن عبد البر في كتاب العلم عن الحسن مرسلا باسناد صحيح.

(٣) رواه مسلم والترمذي والنسائي.

التوراة كلاما ، ولم يحملوها عملا والتزاما ، فكانوا كما قال الله تعالى :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » الجمعة .أو كذلك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، ولم يرتفع بها من حضيض المادية في التفكير ، والحيوانية في السلوك ، « ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » الاعراف :

ومن ثم كان رسول الله - ﷺ - يستعيذ بالله من العلم الذي لا ينفع ، وهو العلم الذي ينفصل عن الأخلاق ، لأنه يصبح وبالا على صاحبه ، وقد يكون وبالا على من حوله كذلك .

فعن زيد بن أرقم أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : « اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها »[١] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم ١٤٣ . ٣١٠ وقال الشيخ شاكر اسناده صحيح .
وقال الهيثمي في الجمع (١٨٧/١) رواه البزار وأحمد وأبو يعلى ورجاله موثقون .
وذكره المنذري في الترغيب رقم ٢٢٤ قال : رواه الطبراني في الكبير والبزار ورواته محتج بهم في الصحيح .

الحرص على نشر العلم:

ومن أخلاق العلماء: الحرص على نشر العلم وتبليغه ونفع الناس به، فلا خير في علم يكتم، كما لا خير في مال يكنز، فانما جعل العلم لينشر، كما جعل المال لينفق منه.

وكان النبي - ﷺ - يحض اصحابه على تبليغ ما يسمعونه منه، لينتفع به من بعدهم زمانا، ومن وراءهم مكانا.

ففي حجة الوداع ألقى بيانه العظيم عن الاسلام ثم قال في ختامه: ليبلغ الشاهد منكم الغائب. (متفق عليه من حديث أبي بكرة).

وفي حديث عبد الله بن عمر، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: «بلغوا عني ولو آية «رواه البخاري في صحيحه باب ما ذكر عن بني اسرائيل.

وروى ابن مسعود مرفوعا «نضر الله امرأً سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»[1]

وعن زيد بن أرقم مرفوعا: «نضر الله امرأً سمع

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه ومعنى نضره: جملة وزينه من النضرة وهي البهجة والحسن كما في الترغيب حديث ١٥٠.

منا حديثا فبلغه غيره، فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه »[1]

وهذه الأحاديث وما في معناها هي التي جعلت الصحابة - رضي الله عنهم - يحرصون على تبليغ ما يحملون في صدورهم من علم النبوة، حتى ان أبا ذر نهاه الخليفة الثالث عثمان عن الفتيا، ولكنه - رغم إيمانه بوجوب طاعة الامام - رأى أن طاعته في هذا الامر خاصة غير ملزمة، لأن أمر الرسول بالتبليغ أقوى من نهي الإمام عن الفتيا.

ولما اجتمع عليه الناس في موسم الحج يستفتونه وقف عليه رجل من قريش. ثم قال له: ألم تنه عن الفتيا؟

فرفع رأسه اليه فقال: أرقيب أنت عليّ؟ لو وضعتم الصمصامة (يعني الصارم الذي لا ينبو) على هذه- وأشار الى قفاه - ثم ظننت اني انفذ كلمة سمعتها من النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل ان تجهزوا علي لأنفذتها »[2]

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي كما في الترغيب حديث (٥) وله شاهد من حديث جبير بن مطعم عن أحمد وابن ماجه والطبراني في الترغيب (١٥٣).

(٢) رواه البخاري معلقا في كتاب العلم من صحيحه. وقال الحافظ في الفتح ١/١٧٠ رويناه موصولا في مسند الدارمي وفي الحلية.

ويقوى موقف أبي ذر: الآيات والأحاديث التي حذرت أبلغ التحذير من كتمان العلم، واحتجازه عمن ينتفع به من الناس وخصوصا عند الطلب والسؤال.

وكان أبو هريرة يقول: ان الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا. ثم يتلو «ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويعلنهم اللاعنون الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم «البقرة».

ومثلها قوله تعالى: «واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه «آل عمران».

وروى أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[١]

ونحوه من حديث ابن عباس أيضا»[٢]

ومن حديث عبد الله بن عمرو «من كتم علما ألجمه

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي ورواه الحاكم بنحوه وقال: صحيح الاسناد ولم يخرجاه الترغيب ط/ حديث ١٩٩

(٢) رواه أبو يعلى ورواته ثقات يحتج بهم في الصحيح. والطبراني في الكبير والاوسط بسند جيد. الترغيب ٢٠١.

الله . . » « الحديث[١]

قال الامام ابن الأثير في « جامع الاصول »:

الممسك عن الكلام ممثل بمن ألجم نفسه بلجام.

والمعنى: ان الملجم نفسه عن قول الحق والاخبار عن العلم، يعاقب في الآخرة بلجام من نار.

وذلك في العلم الذي يلزمه تعليمه اياه، ويتعين عليه فرضه، كمن رأى كافرا يريد الإسلام فيقول: علموني.. ما الإسلام؟ وما الدين؟ وكمن يرى رجلا حديث عهد بالإسلام ولا يحسن الصلاةوقد حضر وقتها، يقول: علموني كيف أصلي؟ وكمن جاء مستفتياً في حلال، أو حرام، فيقول: أفتوني، أرشدوني، فانه يلزم في مثل ذلك ان يعرّف الجواب، فمن مَنَعَهُ استحق الوعيد، وليس الامر كذلك في نوافل العلم التي لا يلزم تعليمها »[٢]

وانما قال ابن الاثير ما قال، لان وقت العالم وجهده لا يتسعان لتبليغ كل علم واجابة كل سائل، فحاجة المتعلم،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح لا غبار عليه الترغيب ط/١٠٠ ذكر المنذري ان حديث الوعد على كتمان العلم قد روي عن جماعة من الصحابة غير من ذكر. منهم جابر وأنس وابن مسعود وعمرو بن عبسة وعلي بن طلحة وغيرهم.

(٢) جامع الاصول جـ ٨ ص ١٢ حديث رقم ٥٨٣٧

وأهلية العالم وطاقته وأهمية الموضوع، ووجود من يقوم بالأمر عداه وعدمه.

كل هذا يحدد متى يجب الجواب ومتى لا يجب.

واني ألمح في الحديث أن الوعد انما هو لمن ألجم نفسه عن الكلام: أي تعمد السكوت طمعا أو خوفا من الناس وبهذا يكتم الشهادة «ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؟» البقرة.

وهذا ما أنكره القرآن على أهل الكتاب «واذأخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا، فبئس مما يشترون »آل عمران: ١٧٨

على أن نوافل العلم أيضا يلزم نشرها وتبليغها لأهلها بأي وسيلة من وسائل النشر والتبليغ شفاها أو كتابة، فالقلم أحد اللسانين، ولا سيما اذا جاء من يطلبها حرصا عليها ورغبة فيها، فلا يسع من يحملها الا ان يؤديها كما أديت اليه، حتى يتوارث العلم ويحيا.

وهذا من فروض الكفاية..

وقد يتعين على بعض العلماء لأهليته الخاصة للإفادة.

ولهذا كان بعض الصحابة يبلغون بعض أحاديث

سمعوها من رسول الله وخشوا أن يفهمها الناس على غير وجهها فيخبرون بها في اللحظات الأخيرة من حياتهم تأثما، وتحرجا أن يموتوا فتموت الحقيقة العلمية معهم.

فعن أبي أيوب الأنصاري انه قال حين حضرته الوفاة: «كنت كتمت عنكم حديثا سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسوف أحدثكموه وقد أحيط بنفسي: سمعته يقول: «لولا انكم تذنبون لذهب الله بكم وخلق خلقا يذنبون فيغفر الله لهم»[1]

وعن أنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعاذ رديفه على حمار قال: يا معاذ بن جبل: قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثا - قال: ما من أحد يشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله صدقا من قلبه الا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: اذن يتكلوا وأخبر بها معاذ عند موته تأثما»[2]

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة. باب سقوط الذنوب بالاستغفار حديث رقم ٢٧٤٨ والترمذي في كتاب الدعوات باب رقم ١٠٥ حديث ٣٥٣٣ وروى مسلم نحوه من حديث أبي هريرة ايضا رقم ٢٧٤٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يتهموا»

وهكـذا كـان تلاميذ الصحابة ومن تبعهم باحسان أحرص الناس على نشر العلم وتعلمه » وإشاعته في الناس، فاذا لم يجدوا من يأخذ عنهم ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، أو فكروا في الرحيل الى بلد آخر.

قال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء.

وحكوا عن سفيان الثوري: انه لما قدم عسقلان مكث لا يسأله انسان.. فقال أكروا لي (أي راحلة) لأخرج من هذا البلد. هذا بلد يموت فيه العلم.

ذكر ذلك الغزالي في الأحياء ثم قال: انما ذلك حرصا على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به.

وهنا عدة مسائل «تتعلق» بكتمان العلم ونشره:

الأولى:

ان من حق العالم أن يحجب بعض المعلومات عن بعض الناس، لمصلحة يراها ولو سئل عنها، لما يترتب على بثّها من ضرر أكبر من نفع العلم بها.

وقد يدع الجواب عن مسألة تأديبا للسائل المتعنت أو

ارشادا له الى الاشتغال بما هو أهم وأنفع أو غير ذلك من الاعتبارات.

وفي الصحيح: «كفى بالمرء إثما ان يحدث بكل ما سمع»[١]

وعن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الاخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[٢]» يكني بذلك عن القتل.

قال الحافظ: حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الاحاديث التي فيها تبين أساس أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم.

وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفا على نفسه منهم كقوله: «أعوذ بالله رأس الستين، وامارة الصبيان» يشير الى خلافة يزيد، وقد استجاب الله له فمات قبلها بسنة»[٣]

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

(٢) رواه البخاري في كتب العلم باب حفظ العلم.

(٣) نقل الحافظ أيضا عن ابن المنير قوله: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة الى تصحيح باطلهم. حيث اعتقدوا ان للشريعة ظاهرا وباطنا. وذك الباطن انما حاصله الانحلال من الدين. قال: وانما أراد أبو هريرة بقوله: «قطع..» اي قطع اهل الجور رأسه اذا سمعوا عيبه لفعلهم. وتضليله لسعيهم. ويؤيد ذلك ان الاحاديث المكتومة لو كانت من الاحكام الشرعية. ما وسعه كتمانها. لما ذكره في الحديث الاول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم. وقال غيره: يحتمل أن يكون أراد - مع الضعف المذكور - =

والثانية:

قال بعض العلماء.. يشمل الوعد - على كتمان العلم - حبس الكتب عن الطالب لا سيما عند عدم التعدد. قال: والابتلاء بهذا كثير»[1] ا هـ

ومقتضى هذا وجوب إعارة الكتب لطلاب العلم اذا احتاجوا لها، ذلك لان منعها - فيما رأى - يدخل في باب منع الماعون، المتوعد عليه بالويل في كتاب الله

وهو أيضا أشبه بكنز المال وعدم الانفاق منه في سبيل الله، وفيه من الوعد ما فيه.

ولكن وجوب هذا في رأيي مقيد بشروط:

١ - ان يكون طالب الكتاب في حاجة حقيقية اليه لا يغنى عنه غيره

٢ - ألا توجد مكتبات عامة يمكنه استعارة الكتاب منها خارجيا أو داخليا.

٣ - الا يستطيع شراء الكتاب، لعدم وجوده في السوق، أو لعجزه عن شرائه.

= ما يتعلق باشراط الساعة وتغير الاحوال والملاحم في آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه، ويعترض عليه من لا شعور له به. أهـ الفتح ط/٢٢٧ ط الحلبي.

(١) نقله العلامة القاري في شرح «المشكاة» عن السخاوي في المقاصد الحسنة انظر المرقاة جـ ١/٢٣٥

٤ - ألا يكون معروفا بالإهمال وإضاعة الكتب أو تعريضها للتلف.

٥ - ألا يكون صاحب الكتاب في حاجة اليه، لان حاجته مقدمة على حاجة غيره. وفي الحديث: «أبدأ بنفسك» وفي آخر «ابدأ بمن تعول».

الثالثة:

ذهب بعض العلماء في عصرنا الى أنه من موجب الكتمان المحرم ان يمنع المؤلف نشر كتابه الا بإذن منه، وتعاقد معه، وأخذ أجرة عليه، وانما يجب ان يبيحه لمن شاء طبعه ونشره دون حجر ولا احتكار، وبغير مقابل.

وأنكروا قضية ما اصطلح الناس في عصرنا على تسميته حقوق التأليف أو النشر أو التوزيع، وهذه قضية هامة وعامة، تحتاج إلى تمحيص وتحقيق، لم أفرغ له، وإني أعرضها على الفقهاء من أعضاء المؤتمر ليناقشوها، ويبدوا رأيهم فيها، أو يجعلوها على الأقل في دائرة الاهتمام.

ويشبه الكلام في هذا الموضوع - الى حد كبير - ما ثار من جدل قديم بين الفقهاء حول القربات الدينية وأخذ الأجرة عليها مثل: الاذان والامامة في الصلوات وخطبة الجمعة، والوعظ والتذكير بالمساجد، ونحوها مما هو في

الأصل واجب ديني يجب على المسلم أن يفعله احتسابا، ويقوم به من غير مقابل مادي تقربا الى الله تعالى بأداء الواجب.

وقد انتهى هذا الجدل والخلاف باتفاق المتأخرين من علماء المذاهب على جواز أخذ الاجرة، لتغير الزمان، وخوفا على هذه الأعمال الدينية أن تتعطل، ولا تجد من يتطوع للقيام بها، فاقتضت مصلحة الدين وعمارة بيوته واستمرار اقامة شعائره، إباحة أخذ الأجرة.

على أن مما يجب التنبيه عليه هنا جملة أمور:

أولا: ان الكتاب ملك لمؤلفه. وهذا ينسب اليه وحسب عليه ويحاسب على اخطائه

وملكيته هنا ملكية علمية أدبية. وهو أمر اعترف به العالم كله في قوانينه المدنية.

ولا ريب ان من ملك شيئا أصبح حر التصرف فيه، وأصبح من حقه الانتفاع بثمراته. وهذه من لوازم الملكية. فاذا كان من يملك بيتا كان له من الحق ان يسكنه أو يؤجره أو يبيعه فكذلك من يملك كتابا.

ثانياً: الكتــاب العلمي لا يـأتي عفواً، انمـا هو ثمرة
كفاح طويل، كون به صاحبه شخصيته العلمية،
ثم هو نتيجة جهد جهيد، وسهر بالليل، وعرق
بالنهار لا يعرفه الا من عاناه، وربما استغرق
الكتاب من صاحبه سنين حتى يبرز الى حيِّز
الوجود. أو قل حتى تأتي ساعة المخاض، فهو اذا
كسب من وراء نشره شيئا، فإنما يكسب من وراء
عمل طويل مختزن في كتابه، كما ان المصنع أو
العمارة ثمرة جهد طويل، اختزنه فيها منشىء
المصنع أو صاحب العمارة.

ثالثا: ان حياة العالم المؤلف ليست حياة سهلة، كحياة
سائر الناس، انها حياة تتطلب جهدا خاصا زائدا
على جهود العاديين من الناس، كما تتطلب نفقات
خاصة زائدة ايضا على نفقات الآخرين.

فالعالم المؤلف يحتاج الى مكتبة غنية بالمصادر المهمة، ويحتاج الى من يساعده في النقل أو التبييض أو الطباعة، ويحتاج من يساعده في شئون اسرته حيث لا يمكنه أن يتفرغ لامورهم ورعايتهم كما يتفرغ سائر الناس. وبدون

هذا لا يستطيع ان ينتج علما حقيقيا فأنّى له ان يغطي هذه النفقات. وان كان موظفا في جامعة أو وزارة أو مؤسسة، ان لم يكن له من مؤلفاته ما يعطيه بعض العوض؟

رابعا: ان المؤلف قد يصدر طبعة من كتاب ثم يتراءى له بعد صدوره أشياء تقتضيه ان يضيف او يحذف او يعدل، بناء على اطلاع جديد أو تغير اجتهاد، أو اقتراح مقبول، أو غير ذلك.

فاذا لم يعلم الطابع أو الناشر ماذا عند المؤلف من تعديلات وتنقيحات فانه سينشر الكتاب على ما كان عليه، ويلزم المؤلف ما لم يعد يلتزمه.

وقد كان علماؤنا قديما لا يستبيحون رواية كتاب عالم ما الا (بإجازة) منه، وقد كان بعض العلماء يعطي بعض طلابه (إجازة خاصة) برواية كتاب معين. وأحيانا يمنحه (إجازة عامة)

وهذه الإجازة تشبه حق الطبع أو النشر في زمننا، أضيف اليها عنصر جديد وهو: ان المؤلف يتقاضى أجرا على جهده في التأليف، ويشارك الناشر في جزء من الربح الذي يصيبه من وراء نشر الكتاب.

ولكن الامر الذي يجب تأكيده والتشديد فيه حقا هو ألا يستغل الناشرون والمؤلفون حاجة القراء الى كتاب ما ، فيغالوا في سعره ، كما في كثير من الكتب الجامعية ، والكتب التي يقبل عليها الجمهور ، فزيادة الأسعار بمالا يتغابن الناس في مثله عمل غير مشروع .

الفصل الثالث.

التعلم وآدابه.

ضرورة التعلم:

يولد الانسان غفلا من العلم، ولكن الله سبحانه وتعالى فطره على حب المعرفة، واستطلاع ما يجهل، ووهب له من أدوات العلم ما يستطيع به أن يعرف نفسه ويطل على الوجود من حوله، بقوله تعالى: «والله خلقكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، لعلكم تشكرون» (النحل).

وبهذا استطاع الانسان أن يتعلم ويكتشف سنن الكون وحقائق الوجود عن طريق السمع والرواية، وعن طريق البصر والملاحظة، وعن طريق الفؤاد والتفكير.. وهي الوسائل التي استودعها الله الانسان، وسيسأل عنها أمام الله تعالى: «ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسئولا» (الاسراء).

وبهذه الوسائل يمكن الانسان أن يكتسب علم الدنيا، وأن يحصل علم الدين، اذا شحذ همته لطلب العلم، ولم تشغله شواغل الدنيا عن التعلم.

هكذا قضت سنة الله: أن السماء لا تمطر على الانسان علما وهو قاعد في بيته انما يدرك العلم من طلبه، وعانى في تحصيله.

وهذا ما نطق به الحديث النبوي الشريف: «ياأيها الناس تعلموا. انما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[1]

ولا يجوز للمسلم أن يعيش مقطوع الصلة بالعلم، فمن لم يكن عالما، فليكن متعلما، ومن لم يكن متعلما فليكن مستمعا، والا فليكن محبا لهؤلاء، وذلك أضعف الايمان.

عن أبي بكرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اغد عالما أو متعلما أو مستمعا، أو محبا، ولا تكن الخامسة فتلهك، قال عطاء: قال لي مسعر: «زدتنا خامسة لم تكن عندنا، والخامسة أن تبغض العلم وأهله[2]».

ما يجب على كل مسلم تعلمه:

حث الرسول صلى الله عليه وسلم على التعلم أعظم

(١) قال الحافظ في الفتح «جـ ١ ص/١٧٠: أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية واسناده حسن. لأن فيه مبهما، اعتقد بمجيئه من وجه آخر. وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفا، ورواه أبو نعيم الاصبهاني مرفوعا. وفي الباب عن أبي الدرداء وغيره. فلا يغتر بقوله من جعله من كلام البخاري. ا هـ.

(٢) رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة والبزار ورجاله موثقون كما في مجمع الزوائد جـ ١/١٣٢.

الحث، ورغب فيه كل الترغيب، حتى جعله فريضة لازمة، وذلك في الحديث الذي اشتهر على الألسنة حتى حفظه الكبير والصغير، والخاص والعام، «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

أي على كل انسان مسلم ذكرا كان أم انثى، ولهذا يرويه جمهور الناس «.. على كل مسلم ومسلمة» والمعنى صحيح، ولكن اللفظ لم يرد.

ولكن.. ما العلم الذي جعل الحديث طلبه فرضا على كل مسلم؟

قد تباينت الأقوال، وتناقضت الآراء، في هذا العلم المفروض على نحو عشرين قولا، كما يقوله العلامة المناوي، فكل طائفة تقيم الأدلة على فرضية علمها هي، وكل لكل معارض، وبعض لبعض مناقض.

---

(١) رواه ابن ماجة وابن عبد البر في العلم والبيهقي في شعب الايمان من حديث أنس. ورواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود، وفي الأوسط عن ابن عباس وأبي سعيد وغيرهم. وفي طرقه كلها مقال، ولذا ضعفه ابن القطان وابن عبد البر والنووي وغيرهم لكن قال الأخيران: معناه صحيح، لكن قال الزركشي في اللآليء: روى من طرق تبلغ درجة الحسن وكذا قال الحافظ المزي وقال السيوطي: جمعت له خمسين طريقا وحكمت بصحته لغيره ولم أصحح حديثا لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوي: له شاهد عند ابن شاهين بسند رجاله ثقات عن أنس. انظر الجامع الصغير أحاديث ٥٢٦٤ - ٥٢٦٧ وتعليق المناوي عليها في فيض القدير جـ٤ ص ٢٦٧/٣٦٨.

فمن متكلم يحمل العلم هنا على علم الكلام ، ويحتج لذلك بأنه العلم المتقدم رتبة ، لأنه علم التوحيد ، الذي هو أساس البناء .

ومن فقيه يحمل على علم الفقه ، اذ هو علم الحلال والحرام ، وبه يعرف المسلم كيف يعبد الله ، وكيف يعامل الناس ، ويقول : ان ذلك هو المتبادر من اطلاق العلم في عرف الشرع .

ومن مفسر يرى أن أولى ما يطلق عليه العلم بالمراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، وهذا هو علم التفسير .

ومن محدث يحمل العلم على معرفة السنن والآثار ، التي بها بيان القرآن ، وفيها تفصيل ما أجمل ، وتبيين ما أبهم ، وتخصيص ما عم ، وتقييد ما أطلق ، وهي مع القرآن - حبل النجاة .

ومن نحوي يحمله على علم العربية ، اذ الشريعة انما تتلقى من الكتاب والسنة ، وقد قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (ابراهيم) فلا بد من اتقان العربية ليعرف البيان المشار في الآية الكريمة .

ومن متصوف يحمله على علم العبد بحاله ومقامه من الله عز

وجل، أو العلم بالإخلاص وآفات النفوس، ومداخل الشيطان اليها. الخ.

وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الاسلام «بني الاسلام على خمس.. الخ» لأن الواجب هذه الخمس. فيجب العلم بكيفية العمل فيها، وبكيفيه الوجوب(١).

وهكذا تعددت الآراء، واختلفت الأقوال، ولكل وجهة هو موليها.

والذي اراه أن العلم الواجب طلبه وتعلمه - عينا - على المسلم هو ما لابد له منه في دينه أو في دنياه.

أما في دينه، فلا بد له أن يتعلم من علوم الشرع:

١ - ما يعرف به عقيدته معرفة يقينية صحيحة، سالمة من الشركيات والخرافات.

٢ - وما يصحح به عبادته لربه ظاهراً، بأن تكون على الصورة المشروعة، وباطنا بأن تتوافر فيها النية الخالصة لله تعالى.

٣ - وما يزكي به نفسه، ويطهر به قلبه، بأن يعرف

---

(١) انظر: الاحياء جـ١/ ١٤ وما بعدها وفيض القدير جـ٤/ ٢٦٧ - ٢٦٨.

الفضائل « المنجيات » ليتحراها ويتخلق بها ،
ويعرف الرذائل « المهلكات » ليتجنبها ويتوقاها .

٤ - وما يضبط به سلوكه في علاقته مع نفسه ، أو مع أسرته ، أو مع الناس ، حكاما ومحكومين ، مسلمين وغير مسلمين ؛ فيعرف في ذلك الحلال من الحرام ، والواجب من غير الواجب ، واللائق من غير اللائق .
ولا يضيرنا أن يدخل هذا القدر اللازم تحت اسم « التوحيد » أو « الفقه » أو « التصوف » أو « الآداب الشرعية » أو « زهد » أو غير ذلك .
فهذه التسميات مصطلحات محدثة ، ولم يتعبدنا الله بها ، وإنما يهمنا المضمون ، ولا عبرة بالأسماء والعناوين ، متى وضحت المسميات والمضامين .

وهذا القدر من العلم يجب أن يكون إلزاميا ، يتعلمه كل مسلم ومسلمة : بالقراءة في المدارس والمعاهد ، وبالسماع في المساجد وفي أجهزة الاعلام المختلفة .

وعلى كل دولة تنتسب الى الاسلام ، أن توفر هذا القدر لأبنائها بكل وسيلة مستطاعة . وأن تنتهز كل فرصة لتفقيه أبنائها ما يجب عليهم ، مثل فرصة التجنيد في الجيش أو في الشرطة .

ويجب على الآباء والأولياء أن يعلموا أولادهم ومن يلون عليهم أو يبعثوا بهم الى المدارس والمساجد والأماكن يتلقون فيها العلم الواجب، ولا يجوز لولي أن يدع موليه في ظلام الجهل بدينه، دون أن يعلمه أو يهيء له من يعلمه، فضلا عن أن يمنعه من التعلم اذا أراد.

وذلك أن الحديث الشريف يقول: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع. واضربوهم عليها لعشر»[١] فدل هذا على وجوب تعلم الصلاة. ومثلها الصيام لمن يطيقه. منذ السابعة من العمر، لأن أداء الصلاة غير ممكن الا بتعلمها بشروطها وأركانها وكيفيتها ومالا يتم الواجب الا به فهو واجب

فاذا قصر الأب أو الولي في تعليم من ولاه الله رعايته، لم يعفه ذلك من وجوب التعلم وطلب العلم المفروض عليه، حين يبلغ الحلم، ويتحمل مسئولية نفسه. فقد رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ.

يقول الإمام أبو محمد بن حزم بعد أن بين ما يلزم كل مسلم ومسلمة تعلمه من الطهارة والصلاة والصيام، وما يحل

---

(١) رواه احمد في مسنده، وأبو داود في سننه، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

له ويحرم عليه من المآكل والمشارب والملابس والفروج والدماء والأقوال والأعمال:

« فهذا كله لا يسع جهله أحدا من الناس، ذكورهم وإناثهم، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم. وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم وهم مسلمون أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم..

قال: ويجبر الإمام (رئيس الدولة) أزواج النساء، وسادات الأرقاء، على تعليمهم ما ذكرنا، إما بأنفسهم، وأما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم، وفرض على الامام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواماً بتعليم الجهال »[1].

وهذا القدر يجب أن يتعلمه المسلم بلغته التي يحسنها، ولكن يجب عليه أن يتعلم من العربية ما يتلو به أم القرآن في صلاته، وما يقرأ به من الآيات، وما تقوم به الصلاة من التكبيرات والتسبيحات والسلام، وما يفهم به الأذان والإقامة ونحوها.

ومن لم يجد هذا القدر اللازم تعلمه موفورا في بلده

---

(١) انظر: الاحكام في أصول الأحكام لابن حزم - الباب الحادي والثلاثون: في صفة التفقه في الدين، وما يلزم كل امرىء طلبه من دينه ص ٦٩ ط. مطبعة الإمام بالقاهرة.

وجب عليه أن يرحل في طلبه حتى يتعلمه من أهله ولو بالصين.

على أن هذا القدر الواجب تعلمه انما يمثل الحد الأدنى لمعرفة المسلم بدينه في كل بيئة وكل حال، ثم هو يتسع ويزداد حسب الأحوال والموجبات الخاصة أو العامة.

فالفقير لا يجب عليه ان يتعلم تفاصيل أحكام الزكاة، إلا أن يتعلم ما يباح له أخذه من مالها، انما يجب عليه أن يتعلم أحكامها اذا ملك مالاً تجب فيه الزكاة.

ولا يفترض عليه كل الأحكام لكل أموال الزكاة بل ما ملك نصابا منه تعلم ما يتعلق به، فالتاجر يتعلم أحكام زكاة التجارة والنقود والديون ونحو ذلك. فيم تجب؟ ومتى تجب؟ وكم تجب؟ ولمن تجب؟ وليس عليه أن يتعلم أحكام زكاة الأنعام من إبل وبقر وغنم، وما يجب فيه بنت مخاض أو بنت لبون، إذ لا حاجة له فيها.

ومن لا مال له، ولا استطاعة عنده، لم يفرض عليه تعلم أحكام الحج، بل يتعلمه من ملك الصحة الجسمية، والقدرة المالية، أي على نفقات السفر ذهابا وإيابا.. ونفقات الإقامة في الارض المقدسة، ونفقات من يعوله حتى يعود - فعندئذ

يلزمه تعلم أساسيات الحج والعمرة، وبخاصة عندما يعقد النية،ويدخل في أشهر الحج، واذا كان في المذاهب الفقهية من يرى أن فرض الحج على التراخي، فالأكثرون يرونه واجبا على الفور، والحزم في المبادرة والمسارعة الى الخيرات.

وهكذا من كان له اختصاص بشيء، وجب عليه أن يتعلم ما يتصل به من الأحكام. فالتاجر يلزمه معرفة ما يحل وما يحرم من البيوع، وأنواع المعاملات والمداينات التي تدخل في نطاق التجارة.

والطبيب يلزمه معرفة ما يتعلق بمهنته، كتحريم التداوي بالخمر، وتحريم الإجهاض، والذي تقتضيه مهنته السفر كربان السفينة والطيار ومضيف الطائرة يلزمه تعلم أحكام السفر ورخصه.

المهم ان كل من يحتاج الى شيء، لاختصاصه به أو ملابسته له، يلزمه تعلمه ومالا فلا.

على ان كل انسان لا يخلو من وقائع في عبادته أو معاملاته، تتجدد له، ولا يعرف حكم الشرع فيها، فهنا يلزم السؤال عنها، بل ينبغي له المبادرة الى تعلم ما يتوقع وقوعه

على القرب غالبا[1] قال تعالى: «فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

(النحل)

ففرض على كل احد طلب ما يلزمه

هذا ما لا بد منه للمسلم في دينه، وتعلمه فرض عين عليه. وأما مالا بد له منه في دنياه، فيختلف باختلاف البيئات والأزمان.

ما يفترض تعلمه على سبيل الكفاية:

وهناك من العلوم ما يعد طلبه فرض كفاية على الجماعة، بحيث اذا قام به واحد أو عدد كاف سقط الحرج عن باقي الجماعة، والا أثمت الجماعة عامة، وأولو الأمر فيها بخاصة.

يقول الامام ابن حزم: ثم فرض على كل جماعة مجتمعة في قرية أو مدينة أو دسكرة أو حلة أعراب، أو حصن، ان ينتدب منهم - لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها. ولتعلم القرآن كله، ولكتاب كل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث الاحكام أولها عن آخرها،

(١) انظر الاحياء - للغزالي والاحكام لابن حزم السابق ذكرها.

وضبطها بنصوص ألفاظها، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه، وما اختلفوا فيه - من يقوم بتعليمهم وتفقيههم من القرآن والحديث والإجماع ويكتفى بذلك على قدر قلتهم أو كثرتهم، يعني أن الواجب طلب جميع ما ذكره ابن حزم، ان لم يستوعبه جهد الطالب.

واستدل ابن حزم لما ذكره بقوله تعالى: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون» (التوبة) فالنفار المذكور فرض على الجماعة كلها، حتى يقوم بها بعضهم فيسقط عن الباقين ثم قال: وفرض على جميع المسلمين أن يكون في كل قرية أو مدينة أو حصن من يحفظ القرآن كله، ويعلمه الناس، ويقرئه اياهم، لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.. بقراءته[1] اهـ.

والظاهر أن فرض الكفاية هنا: هو كل ما تحتاج اليه الجماعة المسلمة في دينها أو دنياها، من التبحر في علوم الشرع، او التخصص في علوم الكون: من طب وهندسة وكيمياء وطبيعة واحياء وغيرها، ومن كل ما تتطلبه حياة

---

(١) الاحكام لابن حزم ص ٦٩٠/ ٦٩١

الناس الاجتماعية في هذا العصر مدنيا أو عسكريا.

بل كل ما يحتاج اليه المسلمون من العلوم، ليحقق لهم التفوق على غيرهم، وتكون لهم القوة على عدوهم، فهو فرض لهم على الكفاية، والتفريط فيه يصيب الأمة كلها بالحرج والاثم. وقد يتعين فرض الكفاية في حق بعض الناس اذا دعاه اليه من له الأمر ولا عذر عنده أو كان عنده من الأهلية ما ليس عند غيره، وعلم ذلك من نفسه، ولم يحل دونه حائل.

والأصل في ذلك: ان كل ما يؤدي الى ضعف الأمة، يجب دفعه قبل وقوعه، ورفعه ان وقع. وأن ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب.

ويقول الامام الغزالي في بيان العلم الذي هو فرض كفاية:

«اعلم ان الفرض لا يتميز عن غيره الا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة الى الفرض الذي نحن بصدده تنقسم الى شرعية وغير شرعية، وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل اليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة: فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم الى ما هو محمود

والى ما هو مذموم، والى ما هو مباح. فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم الى ما هو فرض كفاية والى ما هو فضيلة وليس بفريضة:

أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب اذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب، فانه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، واذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يتعجب من قولنا: ان الطب والحساب من فروض الكفايات، فان أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة.. فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك اليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك. فان الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد الى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله. وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج اليه.

وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعوذة والتلبيسات. وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه[1].

وفي بعض ما ذكره الامام أبو حامد هنا نظر، بالنسبة لعصرنا.

فان اتساع نطاق العلوم اليوم، وانقسام كل منها الى فروع، وكل فرع الى تخصصات دقيقة، يخالف ما اعتبره الغزالي من باب التعمق المستغنى عنه في دقائق الحساب وحقائق الطب، وعده بذلك فضيلة لا فريضة.

فالواقع ان هذا التعمق اليوم أصبح لازما لكل طب ناجع أو محاسبة ناجحة وقد تطور علم الطب والعلوم التي تخدمه تطورا كبيرا، وكذلك علم الرياضيات وكذلك علوم الطبيعة التي ذكر الغزالي نفسه في مقام آخر أنه لا حاجة اليها، بخلاف الطب فانه محتاج اليه[2].

وكذلك ما ذكره عن العلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الاخبار، وما يجرى مجراه، حيث عدها من قسم

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي - جـ١ ص /١٦.

(٢)الأحياء جـ١ /٢٢

المباح فحسب. والذي يبدو لي أن معرفة الشعر والأدب العربي عامة، ومعرفة التاريخ الاسلامي على الخصوص، والانساني على العموم. من الواجبات الكفائية فلا يجوز أن تخلو الجماعة المسلمة عمن يحسنها ويوجهها وجهة الحق، ويرد على من يستخدمها في سبيل الباطل.

وهي سلاح من الأسلحة الثقافية للداعية[1].

بل أرى أن واجبا على الجماعة الاسلامية أن يكون فيها من يتخصص في كافة ألوان الدراسات الانسانية المختلفة، حتى يدرسها ويعرضها من منطلق اسلامي أصيل وفي إطار اسلامي مأمون، ولا سيما أن هـــذه العلوم الانسانيـــة والاجتماعية، هي التي تصنع فكر الأمة وذوقها، وتلون اتجاهها وسلوك أفرادها بلونها، فلا يجوز أن يعدها المسلمون مجرد مباح يجوز فعله وتركه، انما يجب عد ذلك من فروض الكفاية.

ولو رأى صاحب «الاحياء» رحمه الله ما رأينا من خطر هذه العلوم، وتسلط حملتها على عقول الشباب، واستغلال اليهود لها في كثير من جامعات الغرب، ومراكز

---

(١) انظر كتابنا «ثقافة الداعية» فصول: الثقافة اللغوية والأدبية والتارخية والانسانية.

بحثه، لغير رأيه واجتهاده، وقضى بما قضينا، ولكل عصر ظروفه وأحكامه.

تصحيح النية

وأول ما يرجى من طالب العلم، وبخاصة العلم الشرعي، تصحيح النية، وذلك أن يجاهد نفسه على الاخلاص والتجرد، ويتحرى بعلمه وجه الله تعالى والدار الآخرة، ولا يجعل همه ونيته مباهاة العلماء، أو مماراة السفهاء، أو مجاراة الأغنياء، أو مداهنة الأمراء، أو جمع المال، أو الجاه، أو غير ذلك مما يتطلع اليه الناس من متاع الحياة الأدنى، فيبيعون باقيا بفانٍ، وعظيما بحقير، وملكا كبيرا بثمن قليل.

ولو جاز هذا في طلب علوم الدنيا، لم يجز في طلب علوم الآخرة، التي تحتاج أول ما تحتاج - الى تصفية السريرة، وتجريد الهمة، والاقبال بكلية القلب على الله تعالى.

ولقد جاء الحديث الصحيح يجمل الوعيد الشديد للثلاثة الذين أفسد الرياء أعمالهم، ونقلهم من ديوان المخلصين الصادقين، الى ديوان المرائين الكاذبين، فكانوا أول من تسعر بهم النار يوم القيامة.

ومن هؤلاء: «رجل تعلم العلم وعلمه - وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن! قال: كذبت، ولكنك تعلمت، ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار[1]».

وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار[2]»

وعن ابن مسعود انه قال: «كيف بكم اذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سنة فان غيرت يوما قيل: هذا منكر؟ قيل: ومتى ذلك؟ قال: اذا قلّت أمناؤكم، وكثرت أمراؤكم. وقلت فقهاؤكم، وكثرت قراؤكم، وتفقه لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الآخرة[3]»

---

(١) رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة.

(٢) قال المنذري: رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، كلهم من رواية يحيى بن أيوب الغافقي عن ابن جريج عن أبي الزبير عنه، يحيى هذا ثقة قد احتج به الشيخان وغيرها، ولا يلتفت الى من شذ فيه. ورواه ابن ماجه بنحوه من حديث حذيفة ترغيب رقم ١٧٩ - وقال العراقي في تخريج الاحياء: اسناد ابن ماجة صحيح.

(٣) رواه عبد الرزاق في كتابه موقوفا - ترغيب ١٨٥.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تعلم علما - مما يبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة، أي ريحها»[1].

وأي خسارة أكبر من أن يخسر الانسان الجنة حتى إنه لا يجد عرفها وريحها، وريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا..

ومن رحمة الله تعالى - كما أفهم الحديث - أن الوعيد فيه انما هو فيمن ليس له أي قصد أخروي، لأنه جاء بهذا الحصر الحاسم «لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا» ومعنى هذا أن من قصد الآخرة بعلمه. وأراد معها شيئا من الدنيا، فلا يتناوله الوعيد المذكور، شأنه شأن الحاج الذي يقصد الى الحج، ويقصد بجواره شيئا من التجارة، وقد تحرج من ذلك بعض الصحابة فنزل قوله تعالى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» فمدار الحكم على المقصد الأساسي ما هو؟ الآخرة أم الدنيا؟ على أنهم قالوا: فرق بين من يأخذ الدنيا ليتفرغ لعمل الآخرة، وبين من

---

(١) قال المنذرى (ترغيب: ١٧٧) رواه ابو داود وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم. أقول: ووافقه الذهبي أيضا (المستدرك جـ١ /٨٥).

يعمل عمل الآخرة ليأخذ الدنيا، فتأمل فانه موضع الزلل[1] ا هـ.

والحديث انما يذم من قصد بعلمه الدنيا، لا من جاءته الدنيا بغير هذا القصد. وانما ذم القرآن من «طغى. وآثر الحياة الدنيا» وأيضا «من تولى عن ذكرنا، ولم يُرِدْ إلا الحياة الدنيا» كذلك «من كان يريد العاجلة» في مقابل «من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن».

فالدنيا ليست مذمومة لذاتها، كيف وقد كان كثير من العلماء الكبار أغنياء مثل الليث بن سعد وابي حنيفة وغيرهما؟ بل كان في كبار الصحابة أغنياء ذوو ثروات طائلة مثل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وطلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة، بل كان في الأنبياء أغنياء مثل يوسف وداود وسليمان الذين آتاهم الله النبوة والملك معا.

الدنيا انما ذمت هنا لأنها أريدت بعمل الآخرة، وعلم الآخرة، ولهذا قيده في الحديث بقوله: «علما - مما يبتغى به وجه الله تعالى - وهو علم الدين.

(١) المرقاة / شرح المشكاة جـ١ ص ٢٣٥.

وكيف تذم الدنيا في حد ذاتها، وقد صح الحديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»؟

وكيف تذم الدنيا لذاتها وهي مزرعة الآخرة؟ ولهذا قال العلامة القاري في «المرقاة»[1]: أفهم الحديث أن من أخلص قصده فتعلم لله، لا يضره حصول الدنيا له من غير قصدها بتعلمه. بل من شأنه الاخلاص بالعلم، أن تأتي الدنيا لصاحبه راغمة، كما ورد «من كان همه الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وتأتيه الدنيا وهي راغمة».

ومن المعروف أن معظم طلاب العلم في عصرنا، لا يتجهون الى العلم بنية سابقة، ورغبة مبيتة، بل يوجههم اليه - في صغرهم - آباؤهم وأولياء أمورهم، أو يوجههم اليه -رغما عنهم- مجموع درجاتهم في بعض المواد أو كلها، أو توجههم ظروف خاصة بهم مثل ألا يكون في البلد الا لون معين من الدراسة يفرض عليهم، رضوا أم سخطوا. ثم لا يلبثون اذا أدركوا ونضجوا أن يجدوا أنفسهم في معهد

---

(١) المرقاة شرح المشكاة ص ٢٣٦/

ديني، أو مدرسة شرعية، ولو خير اليوم ما اختار هذا الطريق.

فهذه دراسة بلا نية، لأن صاحبها أجبر عليها. ولم يكن له حق الاختيار، وانما النية مع الاختيار.

وينبغي لمن وضعته الأقدار في هذا الموضع من تعلم الدين ودراسة علوم الشريعة، أن يحاول من جديد إنشاء نية صالحة، ورغبة صادقة، وسيجد من العلم الذي يعيش في ظلاله - علم القرآن والسنة - وصحبة أهل الخير في سيرهم، ما يعينه على تجريد الإرادة لله جل شأنه.

وقد رووا عن مجاهد قال: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية[١].

وعن الحسن قال: لقد طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله ولا ما عنده قال: فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده[٢].

وعن الثوري قال: طلبنا العلم للدنيا، فجرنا الى الآخرة[٣].

وعن معمر قال: ان الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله[٤] وعلق الغزالي على هذا الأثر

(١،٢) م سنن الدارمي جـ١ ص /٨٥ (٣،٤) جامع بيان العلم جـ٢ /٢٨

وأمثاله بأن هذا لا ينطبق على علم الخلافيات في الفقه، أو الجدل في الكلام، بل في التفسير والحديث. لما لهما من صلة بالله واليوم الآخر، ولما لكلام الله وكلام رسوله من أثر. يمكن أن ينتهي بصاحبه الى الإخلاص ورجاء الآخرة، وما عند الله عز وجل[1].

استمرار التعلم:

والعلم بحر لا قرار له، ولا شطآن له، وكلما تعمق طالبه فيه، تفتحت له فيه أبواب جديدة، وتبينت له معالم كانت خافية، وتحتاج الى مزيد بحث ومزيد تحقيق.

من أجل هذا كان الواجب على حامل العلم أن ينشد الزيادة منه على الدوام، وأن يستمر في طلبه ما عاش، فالعلم يحتاج دوما الى تجديد ونماء.

وليس بعد أمر الله لرسوله بيان «وقل رب زدني علما» (طـه) وقد قص علينا القرآن وقص علينا الرسول عليه الصلاة والسلام، قصة موسى في طلبه علم ما لم يعلم، عند عبد اللهالخضر عليهما السلام، ولذا قال قتادة: لو كان: أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه

---

(١) الاحياء.

قال: « هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشد »[1] (الكهف) ولا غرو أن شاع بين المسلمين هذه الحكمة « اطلب العلم من المهد الى اللحد » وحكمة أخرى تقول: « لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فاذا ظن أنه علم فقد جهل »[2]

وقال ابن عباس: « منهومان لا تنقضي نهمتها: طالب علم، وطالب دنيا » وقيل لابن المبارك: الى متى تطلب العلم؟ قال: حتى المات ان شاء الله. وسئل أبو عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال:

ما دامت تحسن به الحياة.

وسئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس الى طلب العلم؟ قال: أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح!

وقيل للمأمون: أيحسن بالشيخ أن يتعلم؟ فقال: ان كان الجهل يعيبه، فالتعلم يحسن به.

وقال مالك بن أنس: لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلم[3]. هذا هو مسلك المسلم: حرص على زيادة المعرفة، واستمرار في طلب العلم، لا يشبع منه، ولا يرغب

---

(١) جامع بيان العلم جـ١ / ١٢٠.

(٢) هذه من كلام سفيان بن عيينة وليست حديثا كما ظنها بعض الناس.

(٣) هذه الاثار رواها في جامع بيان العلم جـ١ / ١١٤، ١١٥.

عنه، ولا يحول دون طلبه كبر سن، ولا عظم قدر. حتى الممات.

وكان سلف الأمة حريصين على ألا يمر عليهم يوم دون أن يكتسبوا فيه شيئا من العلم كثر أو قل، والا عدوا هذا اليوم ضياعا وغبنا.

وفي هذا روي الأثر «اذا أتى علي يوم لم أزدد فيه علما يقربني من الله عز وجل ،فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم».

قال ابن القيم: وقد رفع هذا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفعه اليه باطل، وحسبه أن يصل الى واحد من الصحابة أو التابعين.

وفي مثله قال القائل:

إذا مر بي يوم ولم استفد هـدى

ولم أكتسب علما فما هو من عمري

وخطب علي رضي الله عنه، خطبة قال فيها: واعلموا أن الناس من أبناء ما يحسنون ،وقدر كل امرىء ما يحسن. فتكلموا في العلم تتبين أقداركم.

قال الامام أبو عمر بن عبد البر:

ويقال: ان قول علي: «قيمة كل امرئ ما يحسنه» لم يسبقه اليه أحد. وقالوا: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها: قالوا: ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل: ما ترك الاول للآخر شيئا[1].

الصبر على متاعب الطلب:

ومن أدب المتعلم في الاسلام: أن يوطن نفسه على احتمال المتاعب، ومواصلة عناء النهار بسهر الليل والصبر على مشاق الارتحال في طلب العلم.

ولا يخفى على طالب علم ما ذكره القرآن العظيم وما نوه به الرسول الكريم من أمر موسى كليم الله ومصطفاه عليه السلام، وارتحاله في طلب العلم عند عبد الله المعروف بـ «الخضر» عليه السلام. «واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا» الكهف: وقطع هو وفتاه ما قطعا من مفاوز مسافات لا يعلم طولها الا الله تعالى كان اثرها ما عبر عنه موسى بقوله لفتاه: «آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا»[2]. وكان ما كان من عودتها مرة أخرى قافلين الى الموضع المنشود للقاء.

---

(١) جامع بيان العلم جـ١ /١١٩

(٢) القصة في سورة الكهف وفي صحيح البخاري كتاب العلم وغيره

وقال ابن عباس: طلبت العلم، فلم أجده اكثر منه في الانصار، فكنت آتي الرجل فأسأل عنه: فيقال لي: نائم. فأتوسَّد ردائي ثم اضطجع حتى يخرج الى الظهر،فيقول:متى كنت ههنا يا ابن عم رسول الله؟ فأقول: منذ طويل فيقول: بئسما صنعت، هلا أعلمتني؟ فأقول: أردت أن تخرج الي وقد قضيت حاجتك[١]

وكان ابن عباس يقول: ذللت طالبا، فعززت مطلوبا.

وذكر ابن عبد البر وغيره أن أبا أيوب الانصاري رحل من المدينة الى مصر ليسمع من عقبة ابن عامر حديثا سمعه من النبي ﷺ في ستر المسلم على المسلم، فلما سمعه منه أتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف الى المدينة، وما حَلَّ رحله[٢].

ونحو هذا حدث لجابر بن عبد الله الأنصارى. فقد رحل مسيرة شهر الى عبد الله بن أنيس في حديث واحد[٣].

وقال سعيد بن المسيب: ان كنت لأسير الليالي والأيام

---

(١) سنن الدارمي جـ١ ص /١١٤

(٢) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم.

(٣) ذكره البخاري معلقا مجزوماً به في صحيحه باب الخروج في طلب العلم. وذكر في الفتح (١٨٣/١) له طرقا بعضها عند أحمد وأبي يعلى والطبراني في مسند الشاميين ولا تخلو من مقال، وعند تمام في فوائده من طريق اسنادها صالح.

في طلب الحديث الواحد. وحدث الشعبي رجلا بحديث ثم قال له: خذها بغير شيء وقد كان الرجل يرحل فيما دونها الى المدينة (وكان الشعبي بالكوفة بالعراق).

وقال الشعبي: لو أن رجلا سافر من أقصى الشام الى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن سفره قد ضاع[1].

ورحلات المسلمين وبخاصة علماء الحديث في طلب العلم لا يعرف التاريخ لها نظيرا. ومن طالع رحلات الأئمة مثل الشافعي وابن حنبل والبخاري ومسلم وغيرهم، عرف مبلغ ما عاناه هؤلاء الفحول في طلب العلم.

لقد بذلوا في طلبه النوم بالليل، والراحة بالنهار. وتحملوا الشظف والفقر في سبيله، غير ضجرين ولا متبرمين. فقد تلقوا عن شيوخهم هذه الحكمة: لا ينال العلم براحة الجسم.

وكان الامام مالك يقول: ان هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر في طلب العلم، حتى باع خشب سقف بيته، وحتى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر.

---

(١) جامع بيان العلم وباب الرحلة في طلب العلم.

وقال شعبة لأصحابه: ليبلغ الشاهد منكم للغائب من ألح في طلب العلم - أو قال: في طلب الحديث - أورث الفقر.

وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع[1].

وليس المهم في طلب العلم محض تعب البدن، بل أهم منه تفريغ القلب له بالتقليل من شواغل الدنيا المادية وصوارف الحياة الاجتماعية، فان العلائق شاغلة وصارفة وقد قال تعالى: «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» (الأحزاب) آية (٤).

ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق. ولذلك قالوا: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك. فاذا اعطيته كلك فأنت من اعطائه اياك بعضه على خطر.

قال الغزالي: والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع[2].

فهذه كانت نظرتهم للعلم وهذه كانت حياتهم في طلبه. وكانوا قريري العين بها، فان لذة معرفة الحقيقة تنسي مشقة

---

(١) ذكر هذه الاثار ابن عبد البر في جامع بيان العلم - باب الحض على استدامة الطلب والصبر على الاداء والنصب.

(٢) الاحياء جـ١ /٥٠.

الحصول عليها. وقد قيل لأحد العلماء: فيم لذتك؟ فأجاب: في حجة تتبختر اتضاحا وفي شبهة تتضاءل افتضاحا!

ومن الصبر... المطلوب لطالب العلم: ان يصبر على استاذه ويحتمل شدته ان كان شديدا وغضبه إن كان غضوبا، ويحترم صحبته فيما لا يجب الكلام فيه. وخير مثل لذلك هو صبر موسى على الخضر عليهما السلام «قال له موسى: هل اتبعك على أن تعلمني مما عُلِّمت رشداً؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ قال: ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال: فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا». (الكهف).

فهذا صبر أشد من الصبر على نصب الأسفار، ومتاعب الفقر والارتحال، ولهذا صبر موسى على النصب في سفره الطويل ولم يطل صبره على هذا الأخير وقال له الخضر: «هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا».

توقير المعلم واكرامه:

ومن أدب المتعلم الذي جاءت به السنة النبوية: توقير

المعلم، واعطاؤه ما يستحق من التكريم والاكبار. فإن المعلم لتلميذه بمنزلة الأب لولده. بل قال يحيى بن معاذ رحمه الله: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة.

وبهذا صار حق المعلم - كما يقول الغزالي - اعظم من حق الوالدين. فان الوالد سبب الوجود الحاضر، والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية. ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب الى الهلاك الدائم. وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية. أعني معلم علوم الآخرة. أو علوم الدنيا على قصد الآخرة[1]

وفي المفاضلة بين المعلم والأب يقول الشاعر:

فهـذا مربي الروح والروح جوهر

وذاك مربي الجسم والجسم كالصدف.

وقال الحسن: لولا العلماء - أي المعلمون - لصار الناس مثل البهائم. أي أنهم بالتعليم يخرجونهم من حضيض الهمجية الى أفق الانسانية.

---

(١) الراحياء جـ١ /٥٥

ومن أجل هذا جاءت الأحاديث بتوقير العلماء واكرامهم حتى بعد موتهم. وعن جابر بن عبد الله ان النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد (يعني في القبر) ثم يقول أيهما أكثر أخذا للقرآن؟ فاذا أشير الى أحدهما قدمه في اللحد[1].

وفي هذا التقديم رمز لتكريمه لفضل ما معه من قرآن أكثر.

وعن أبي موسى ان رسول الله ﷺ قال: «إن من اجلال الله سبحانه اكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه. واكرام ذي السلطان المقسط)[2].

وعن عبادة بن الصامت ان رسول الله (ﷺ) قال: «ليس من أمتي من لا يُجِلّ كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا»[3] أي يعرف له حقه.

وحسبنا أن نذكر ونُذَكِّر هنا بقصة نبي الله وكليمه موسى بن عمران الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، وآتاه التوراة فيها موعظة وتفصيل لكل شيء في زمنه. فلما

---

(١) رواه البخاري - ترغيب ١٦٤

(٢) رواه ابو داود

(٣) رواه أحمد باسناد حسن والطبراني والحاكم الا أنه قال: ليس منا.

أعلمه الله بما عند الخضر من علم ليس عنده، رحل موسى اليه كما أشرنا الى ذلك من قبل، واستعذب العذاب في سبيل ملاقاته والاستفادة منه، فلما وجده قال له موسى في أدب التلميذ، وتواضع المعلم: «هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا؟. بهذه الصيغة الحاسمة «هل أتبعك» فهو اتباع وليس رفقة أو مصاحبة، يستأذنه في هذا لان المعلم هو صاحب الحق في طلبته من يشاء، ويرفض من يريد، ولا معتب عليه. هذا على الرغم من فضل موسى عليه بيقين، فهو قد اختلف في نبوته. على حين موسى من أولي العزم من الرسل، ويكفي قوله تعالى:

«يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي».

وقال ابن عباس: والله ان كنت لآتي الرجل منهم (أي الأنصار) فيقال: هو نائم، فلو شئت ان يوقظ لي. فأدعه حتى يخرج، لأستطيب بذلك حديثه[1].

وعن الشعبي قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه (توقيرا وتعظيماً لعلمه وفضله) فقال له زيد: خل عنك يا ابن عم

(١) الدارمي جـ١ /١١٥

رسول الله. فقال ابن عباس: هكذا نفعل بالعلماء والكبراء[1].

وعن الزهري قال: كنت آتي باب عروة فأجلس بالباب، ولو شئت أن أدخل لدخلت، ولكن إجلالا له[2].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ان من حق العالم: ألا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته في الجواب، وألا تلح عليه اذا كسل. ولا تأخذ بثوبه اذا نهض (أي تريد أن تستوقفه) ولا تفشين له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا تطلبن عثرته، وان زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره - وتعظمه لله، ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه أيَ تدير له ظهرك، وان كانت له حاجة سبقت القوم الى خدمته[3]

ومن توقير المتعلم لمعلمه: ان يحسن الصمت في موضعه، كما يحسن الكلام أو السؤال في موضعه.

قال الحسن بن علي لابنه: يا بني، اذا جالست - العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على ان تقول. وتعلم حسن

---

(١) جامع بيان العلم جـ١ /١٥٥ وقال الوائي في تخريج الاحياء: أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل وقال الحاكم صحيح الاسناد على شرط مسلم.

(٢) الدارمي جـ١ /١١٥

(٣) جامع بيان العلم جـ١ /١٥٦ـ ١٥٧.

الاستماع، كما تتعلم حسن الصمت. ولا تقطع على أحد حديثا وان طال حتى يُمْسك.

وقال شعبة: كل من سمعت منه حديثا، فانا له عبد.

وهذه الكلمة قد شاع معناها عند المسلمين حتى جرت مجرى المثل، وهي قولهم!!«من علمني حرفا صرت له عبدا». وهذه غاية في التكريم للعلماء والمعلمين، لم ترق اليها أمة من الأمم.

ولم يشع بيت من الشعر في عصرنا كما شاع بيت شوقي في مطلع قصيدته الشهيرة في تكريم المعلم:

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا!

حسن السؤال:

وليس من توقير العالم أو المعلم ترك سؤاله فيما يشكل عليه حياء منه. فإن هذا ليس من الحياء الشرعي المحمود، الذي هو من الإيمان، ولا يأتي الا بخير. وانما هو ضعف ومهانة. ولهذا قال مجاهد: لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر[1].

---

(١) رواه البخاري معلقا في صحيحه - كتاب العلم - باب الحياء في العلم ووصله أبو نعيم في «الحلية». باسناد صحيح. كما في الفتح. جـ١ /٢٣٩.

وقالت عائشة رضي الله عنها : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين[١].

وروى البخاري عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت: جاءت أم سليم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، ان الله لا يستحيي من الحق ، فهل على المرأة من غسل اذا احتلمت؟ (تعني اذا رأت في منامها أن رجلها يجامعها) فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اذا رأت الماء.

وهنا نجد أم سلمة تغطي وجهها حياء ، وعائشة تقول لها - كما في صحيح مسلم - فضحت النساء!![٢]

ومن غلبه الحياء في أمر ما ، فليدفع غيره ليسأل له عما يريد ، كما فعل علي بن أبي طالب حين استحيي أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المَذْي ، لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنته التي هي زوجته ، فأمر المقداد وعمارا ، فسألا له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك[٣].

ويقول الامام ابن شهاب الزهري: العلم خزائن

---

(١) رواه البخاري معلقا أيضا. ووصله مسلم كما في (الفتح نفسه).

(٢) الفتح نفسه.

(٣) رواه البخاري في (باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال « الفتح ٢٤٠

ومفاتيحها السؤال. يعني أن الذي يستخرج ما في صدور العلماء من العلم هو مساءلتهم. وفي هذا فائدة للعالم نفسه، ليظهر المخبوء من علمه ويحيا وينتشر، وفائدة للمتعلم، ليعرف ما يجهل، ويؤكد ما يعلم، ويستوثق مما يستريب فيه.

وهذا شأن الطالب النابه، لا يقرأ أو يسمع الا ليعي ويفهم. والا سأل وراجع. روى البخاري عن ابن ابي مليكة: ان عائشة كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه الا راجعت فيه، حتى تعرفه[1].

وقد سأل كثير من الصحابة عن أمور لم يستبن لهم المراد منها، حتى أجيبوا عنها. كسؤالهم عن آية «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم» قائلين: وأينا لم يظلم نفسه؟ فأجيبوا: ان المراد بالظلم في الآية الشرك، كقوله تعالى على لسان لقمان: «ان الشرك لظلم عظيم».

وأمثال ذلك كثير. ومن لم يسأل أضاع على نفسه علما كثيرا. يقول الشاعر:

اذا كنت لا تدري.. ولم تك بالذي
يسائل من يدري، فكيف اذن تدري؟

وقال عمر: من علم فليعلم، ومن لم يعلم فليسأل العلماء.

---

(١) الفتح /٢٠٧.

الفصل الرابع

التعليم ومبادئه وقيمه

بعد أن بيّنت السنة النبوية فضل التعلم وآدابه وحدوده، بيّنت فضل التعليم ومنزلته، وما يجب له من شروط، وما ينبغي له من آداب، وغالت بالمعلم ورفعته مكانا عليا.

يقول (صلى الله عليه وسلم): «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»[1]

كما غالت بالقيم التعليمية أو التربوية الأصيلة التي يحسبها الناس من ثمار هذا العصر، أو من السلع المستوردة من أوروبا وأمريكا، شأن بقية السلع المادية الأخرى.

وسنتحدث في هذ الفصل عن أهم هذه القيم أو المبادىء التي فصلتها السنّة، وعني بها الصحابة وسلف الامة، عسى ان تعود للأجيال الجديدة الثقة بدينها وتراثها، ويعرفوا من حياتهم وفكرهم ما هو أصيل وما هو دخيل. وعسى ان يسيروا على ما سار عليه أوائلهم من النهوض بالعلم، وإعلاء صرح التربية على تقوى من الله ورضوان.

---

(١) رواه البخاري

نبـــني كما كانـــت أوائلنـــا
تبـــني، ونفعـــل مثلما فعلوا

١ - العناية بالمعلم والتنويه بقدره:

وأولى هذه القيم الأصيلة: العناية بشأن المعلم، والإشادة بمنزلته والتنوية بمكانته، فهو يقوم مقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هداية الخلق الى الحق، وتعليمهم ما ينفعهم في أولاهم وأخراهم. وقد تحدثنا عن وجوب توقير المعلم واكرامه في فصل أدب التعلم.

إن المعلم هو العنصر الفعال في عملية التعليم، فعلى قدر ما يحمل في رأسه من علم وفكر، وما يحمل في قلبه من إيمان برسالته، ومحبة لتلاميذه، وما أوتي من موهبة وخبرة في حسن طريقة التعليم، يكون نجاحه وأثره في أبنائه وطلابه.

وكثيرا ما كان المعلم الصالح عوضا عن ضعف المنهج وضعف الكتاب، وكثيرا ما كان هو المنهج والكتاب معا.

ومن هنا كانت عناية النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمعلم، وتنويهه برسالته، وما لها من شأن عند الله، وعند المخلوقات كلها. فهو مشغول بمهمته، وهي مشغولة بالاستغفار له.

يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ان الله وملائكتـه، وأهـل السموات والأرض، حـتى النملة في جحرها، وحـتى الحوت، ليصلون عـلى معلمي النـاس الخير»[1]

وأي فضل أعظم من أن تشتغل هذه المخلوقات المبرأة من الذنوب - في السماء والأرض - بالصلاةوالدعـاء لمن يعـلم النـاس الخير. ويقول عليـه الصـلاة والسلام «لاحسد الا في اثنتين: رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[2]

والحسد هنا معناه: الغبطة. وكيف لا يغبط الغني الشاكر، والعالم المعلم؟

بل جاء في الحديث أن الصدقة بتعليم العلم أفضل من الصدقة بايتاء المال. فعن أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء علما ثم يعلمه أخاه المسلم»[3]

---

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم برقم ٢٦٨٦ من حديث أبي امامة وقال: حديث حسن

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود كما في الترغيب ١٢١

(٣) رواه ابن ماجة باسناد حسن من طريق الحسن عن أبي هريرة. ترغيب ١٢٠

وروى عنه - صلى الله عليه وسلم - حديث آخر يقول: «ما من رجل مسلم تعلم كلمة أو كلمتين او ثلاثا أو اربعا أو خمسا مما فرض الله عز وجل، فيتعلمهن ويعلمهن الا دخل الجنة»[1]

قال أبو هريرة: فما نسيت حديثاً بعد اذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويكفي المعلم فضلا أن له أجرا بمقدار من ينتفع بعلمه، ويهتدي به من الناس، قربوا أو بعدوا. قلّوا أو كثروا.

يقول - صلى الله عليه وسلم - «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله»[2]

ويقول: «من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا»

واذا كان - صلى الله عليه وسلم - يقول: «لَأَنْ يَهْدِيَ الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها» فكيف

---

(١) رواه ابو نعيم واسناده حسن لو صح سماع الحسن من ابي هريرة ترغيب ١١٩.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي - ترغيب ١٩٤

بمن هدى الله به أفرادا او جماعات، يؤجر كلما أجروا؟

وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا الزرع. وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ - فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1]

والحديث يشبه علم النبوة بالغيث، بجامع الإحياء في كل منهما، فالغيث يحيي الأرض بعد موتها، والعلم يحيي العقول والقلوب بعد جهلها.

وشأن الناس مع العلم والهدى كشأن الأرض مع الغيث والمطر.

فهناك أرض تشرب الماء فتحيا به وتنبت الكلأ والعشب الكثير. ويشبهها من حملة العلم من جمعوا بين

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى.

الرواية والدراية من العلماء الدعاة المعلمين، فهم ينتفعون وينفعون.

وهناك أرض تحفظ الماء، كأنما هي أحواض مبنية لجمع الماء أن يتسرب ويذهب سدى، فهي تمسكه ليشرب منه من يشرب، أو يسقي ويزرع. ويشبهها من أهل العلم الرواة الحفظة النقلة الذين يحملون العلم لغيرهم وان لم يكن لهم فيه كبير فهم أو استنباط.

وأرض ثالثة سبخة رديئة، لا تنتفع بالماء لنفسها، ولا تمسكه لغيرها ويشبهها أولئك الذين أعرضوا عن العلم والهدى، فلا ينتفعون ولا ينفعون. ولا يحفظون ولا يفهمون. فلا هم في أهل الرواية، ولا في أهل الدراية[1]

فالعالم العامل المعلم هو وارث النبوة حقا. وقد روي عن المسيح عليه السلام قوله: «من علم وعمل وعلّم فذلك يدعي عظيما في ملكوت السموات».

وكان السلف انما يُسَمُّون الرجل «ربانيّا» اذا علم وعمل بعلمه اشارة الى قوله الله تعالى: «ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» آل عمران: ٧٩

---

(١) لابن القيم كلام جيد في هذا الحديث في كتابه مفتاح السعادة جـ١/٦٠ فليراجع

وناهي المعلم شرفا وفضلا ان رسول الله وخيرته من خلقه سمى نفسه «معلما» فعن ابن عمر ان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - مرّ بمجلسين في مسجده: احد المجلسين يدعون الله ويرغبون اليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه. قال: كلا المجلسين على خير. وأحدهما أفضل من صاحبه. أما هؤلاء، فيدعون الله ويرغبون اليه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل. فهؤلاء أفضل. وإنما بعثت معلما« ثم جلس فيهم »[1]

وقد ضعف سند هذا الحديث ولكن يشهد له الحديث الصحيح الذي رواه مسلم «ان الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا »[2]

بل يشهد له القرآن ذاته، فقد وصف الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في أربع آيات[3] بأن من وظيفته

---

(١) أخرجه الدارمي جـ١/٧٤ بتحقيق السيد عبد الله هاشم يماني، وأبو داود الطيالسي ١/٣٦ والبغوي ١/٢٧٤ - ٢٧٥، وفي اسناده عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم الافريقي وهو ضعيف

(٢) رواه مسلم في كتاب الطلاق من صحيحه حديث ١٤٧٨، ورواه ايضا احمد والنسائي كما في تفسير ابن كثير جـ٣/٤٨١

(٣) اثنتان منها في سورة البقرة، وواحدة في آل عمران، واخرى في الجمعة

الاساسية أن يعلم أمته الكتاب والحكمة

٢ - تكافل المجتمع في تعليم أبنائه:

وينبغي لمن علم علما ان يبدأ بتعليمه لأقرب الناس اليه، ثم من يليهم، ثم من بعدهم، وهكذا. كما بدأ في النفقة: ابدأ بمن تعول[١]

وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً» قال: علّموا أهليكم الخير[٢]

وقال تعالى: «وَأمُر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى» طه: ١٣٢

وفي الحديث «ما نحل والد ولده نْحلةً أفضل من أدب حسن»[٣]

ويأتي بعد حق الأهل والوالد والأقارب: حق الجيران، وللجار في الإسلام حق أكيد على جاره أوصى به جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - وأوصى به النبي أصحابه، وما زال يوصيهم به حتى ظنوا أنه سيورثه.

---

(١) رواه الطبراني عن حكيم بن حزام، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير

(٢) رواه الحاكم موقوفا، وقال صحيح على شرط مسلم - ترغيب ١٩٨

(٣) رواه الترمذي من حديث عمرو بن سعيد وقال: حسن غريب مرسل، والحاكم و صححه ورده الذهبي - الفيض جـ٥/٥٠٣

وقد انتهت هذه الوصايا النبوية المؤكدة - الى جوار ما في القرآن - بأن جعلت كل مجموعة سكنية - قرية من القرى او حي من الأحياء - وحدة مترابطة متكافلة في السراء والضراء، في المجال المادي، وفي المجال المعنوي على السواء

ففي المجال المادي أو الاقتصادي يأبى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يقبل في محيط أهل الايمان من ينعم بالخير والرخاء لنفسه مغفلا أمر جيرانه، فيقول: «ليس منا بمؤمن - وفي رواية: ليس منا - من بات شبعان وجاره الى جنبه جائع وهو يعلم»[1]

وفي المجال العقلي أو المعنوي يفرض على الجيران الذين رزقوا حظا من العلم ألا يدعوا جيرانهم الذين لم يتح لهم أن يستنيروا بنور العلم، دون أن يفقهوهم، ويؤدوا اليهم زكاة علمهم، كما يؤدون اليهم زكاة أموالهم.

وقد رويت في ذلك قصة جديرة أن تسجل عن علقمة ابن سعيدة بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات

---

(١) رواه البزار والطبراني باسناد حسن - الفيض جـ٥/٤٠٧

يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا ثم قال: « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون ولا يتعظون، والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، او لأعاجلنهم العقوبة، ثم نزل، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين، هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياة والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قوما بخير، وذكرتنا بشر فما بالنا، فقال: ليعلمن قوم جيرانهم، وليعظنهم، وليأمرنهم، ولينهونهم، وليتعلمن قوم جيرانهم، ويتعظون، ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا، فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم ،فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك ايضا، فقالوا: أمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم، ويعظوهم (في نسخة: يفقهونهم ويعلمونهم ويعظونهم) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: « لعن الذين كفروا من بني

اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم.. » (الآية ٧٨ من سورة المائدة)[١]

٣ -الترحيب بالمتعلم والبشاشة له

ومن القيم التربوية الجليلة: ما سنّه الرسول - صلى الله عليه وسلم- للمعلم من آداب ينبغي أن تراعى مع المتعلم، حتى يؤتي التعليم أحسن الثمرات وأول آداب المعلم مع المتعلم أن يهش له، ويبش في وجهه، ويظهر له البشر والابتهاج، ويعلن عن الترحيب به، حتى تزول عنه الوحشة، وتنحل من نفسه العقدة، عقدة الخوف من المعلم، والرهبة من العلم.

وهذا ما كان يفعله النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من بعده

عن قيس بن كثير، قال: قدم رجل من المدينة الى أبي الدرداء - رضي الله عنه - وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني انك تحدث به عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا. قال: ما قدمت الا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فاني

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف بن علقمة.

سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: «من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة، وان الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم...»الحديث[1]

وعن صفوان بن عسال المرادي - رضي الله عنه - قال: أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله اني جئت أطلب العلم، فقال: مرحبا بطالب العلم! ان طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب»[1]

وهكذا كان موقف صفوان ممن يجيئه يطلب منه العلم ويسمع الحديث، فهو يرحب به ويبشره بما بشره به من قبل النبي - صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي سعيد ان النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فاذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبا بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم

(١) الحديث قد تقدم. وهذه الرواية عند أحمد في مسنده. انظر: الفتح الرباني جـ١ ص ١٤٩ حديث ١٣ من كتاب العلم.

رواه أحمد والطبراني باسناد جيد واللفظ له. وابن حبان في صحيحه والحاكم. وقال: صحيح الاسناد. وروى ابن ماجة نحوه باختصار. ترغيب. حديث ٨.

وافتوهم »[1] وفي رواية «واقنوهم» أي أرضوهم وأعينوهم.

وكان أبو سعيد اذا جاءه طلاب العلم قال: مرحبا بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم.[2]

ودرج الصحابة ومن بعدهم على قبول وصيته عليه الصلاة والسلام في الترحيب بالمتعلمين وتكريمهم وإعانتهم أدبيا وماديا على الاستمرار في طلبهم للعلم

وكان ابن مسعود - رضي الله عنه - يقول اذا رأى الشباب يطلبون العلم: مرحبا بينابيع الحكمة، ومصابيح الظلم، خلقان الثياب، جدد القلوب، حبس البيوت ريحان كل قبيلة![3]

وكان أبو حنيفة يكثر مجالسة طلبته، ويخصهم بمزيد الإكرام، وصرف العناية في التكريم.

وكان البويطي يدنيهم ويقربهم، ويحضهم على الاشتغال، ويعاملهم بأشرف الأحوال[4]

---

(١) رواه ابن ماجة والطيالسي والديلمي، ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير الفيض جـ٤ حديث ٤٧٣٣

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ج ١/ ١٨٠ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) جامع بيان العلم جـ١/ ٩٢

(٤) فيض القدير جـ٤/ ١١٧

٤ - الرفق بالمتعلم والحنوّ عليه:

ومن أدب المعلم في الاسلام ان يرفق بالمتعلم ويأخذ بيده، ويعامله معاملة الأب لولده، مقتديا بالمعلم الأول، رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه الله بقوله: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» التوبة. والذي وصف نفسه فقال: «انما أنا لكم مثل الوالد لولده»[1]

وأهم ما يميّز علاقة الأبوة بالبنوة هو الرحمة والرفق والحنو، وهذا ما ينبغي ان يحس به التلميذ من أستاذه، ويشعر بحبه له، وحرصه على نجاته وسعادته في الأولى والآخرة، ويغرس الحب والأخوة بين طلابه، كما يغرس الأب المحبة بين أبنائه، حتى يحب بعضهم بعضا، ويعاون بعضهم بعضا، ويعطف بعضهم على بعض، ولا يتغايروا ويتحاسدوا. وكذلك كان علماء السلف في علاقتهم بتلاميذهم.

يقول أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري: والله لو لم

(١) قال في تخريج الأحياء: اخرجه ابو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث ابي هريرة.

يأتوني لأتيتهم في بيوتهم، يعني أصحاب الحديث[1]

وقال الربيع بن سليمان: قال لي الشافعي: يا ربيع لو قدرت أن اطعمك العلم لأطعمتك إياه[2]

وقال الربيع: كان الشافعي - رحمه الله - يملي علينا في صحن المسجد فلحقته الشمس، فمر به بعض اخوانه، فقال: يا أبا عبد الله، في الشمس؟!

فأنشأ الشافعي يقول:[3]

أهين لهم نفس لأكرمهم بها
ولن تكرم النفس التي لا تهينها

ومن دلائل هذا الرفق ان يتبنى روح التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، وهذا ما أوصى به النبي - صلى الله عليه وسلم من بعثه من أصحابه معلمين وهداة وقضاة. مثل معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري حيث قال لهما - وقد بعثهما الى اليمين: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا»[4]

---

(١) متفق عليه

(٢). (٣) روى هذه الآثار ابن عبد البر في كتاب العلم جـ١/١٤٢

(٤) متفق عليه

وفي حديث آخر: «علّموا ويسّروا ولا تعّسروا، وبشروا ولا تنفروا واذا غضب أحدكم فليسكت»[1]

وفي آخر «علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف»[2]

وذلك ان الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وهو يحب الرفق في الأمر كله، ويجزي على الرفق مالا يجزي على العنف، ما دخل الرفق في شيء الا زانه، ولا دخل العنف في شيء الا شانه. وأحق الاشياء بالرفق التعليم فعلى العلماء - كما قال الماوردي - الا يعنفوا متعلما، ولا يحتقروا ناشئا، ولا يستصغروا مبتدئا، فان ذلك أدعى اليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم[3]

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - أرفق الناس بالمتعلمين، وأبعدهم عن التشديد والتعسير، والفظاظة

---

(١) رواه احمد والبخاري في الأدب المفرد من حديث ابن عباس ورمز السيوطي لصحته واعترض المناوي بان به ليث بن ابي سليم وهو مدلس. ولم يخرج له مسلم الا مقرونا بغيره - الفيض جـ٤/٣٢٨ حديث ٥٤٨٠.

(٢) اخرجه الحارث بن ابي اسامة في مسنده. وابن عرس والبيهقي في الشعب وفيه راو منكر الحديث. لكن الزركشي جعل من شواهده حديث ابي موسى: «يسرا ولا تعسرا».

(٣) فيض القدير جـ٤/٣٢٨

والغلظة، وهذا ما نوّه به القرآن من أخلاقه صلى الله عليه وسلم « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » آل عمران:١٥٩.

وكان الرجل يأتي من البادية، يخاطبه باسمه مجردا، ويناديه من بعد ويكلمه بجفوة، وأحيانا يستوقفه في الطريق، فيسع هذا كله بحلمه وحسن خلقه ويجيبه عما سأل، وأكثر مما سأل، وقد يهمّ أصحابه به، أو يثورون في وجهه فيهدىء من ثورتهم، ويسكن من غضبهم.

عن أبي أيوب: ان اعرابيا عرض لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - وهو في سفره، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله، أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة، ويباعدني من النار. قال: فكف النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم نظر في أصحابه ثم قال: لقد وفق، أو لقد هدي. قال: كيف قلت؟ فأعادها. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم. دع الناقة. »[1]

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له. ترغيب ٣٦٣٥

وسيأتي مزيد من صور الرفق في الإشفاق على المخطئ .

وقد تثار هنا قضية الضرب واستخدام العصا في التعليم، وخصوصا بالنسبة للصغار. والتربويون في عصرنا ينكرون الضرب على الاطلاق.

والواقع ان الضرب في الأصل ينبغي ان يمنع ؛ لأنه ينافي الرفق الذي تحدثنا عنه.

وقدوتنا في هذا معلمنا الأول الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى عنه خادمه أنس: انه صلى الله عليه وسلم ما ضرب بيده شيئا قط، لا امرأة ولا خادما ولا دابّة.[1]

ولم يشرع الاسلام ضرب الصغار الا في موضع واحد جاء به الحديث في تعويد الأبناء الصلاة قبل البلوغ حتى يشبوا على أدائها ورعايتها. «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين»

وهنا نلحظ انه لم يجز الضرب في سن الطفولة المبكرة. بل سن العاشرة ولم يجزه الا بعد الأمر والدعوة والترغيب لمدة ثلاث سنين.

وإنما شرع الضرب في هذه الحال لإشعار الولد بجدية

---

(١) رواه البخاري وغيره

الأمر، وحرص الأب وأهمية المطلوب منه، وعدم التهاون فيه.

فان بعض الآباء قد يكتفي بكلمة عابرة يقولها للولد: صل يا بني. ثم لا يحاسبه بعد ذلك: صلى أم لم يصل؟! استجاب لأمر أبيه أم جعله دبر أذنه؟

وكما ان الأب الحازم لا يرضى ان يهمل ابنه أمره في شئون الدنيا، فأحري به ان يكون هذا موقفه مع ولده في شأن الدين، بل هو أهم وأولى.

ومنزلة المعلم منزلة الأب، فيجوز له ما يجوز للأب في بعض الأحيان، على ان يكون هذا استثناء من القاعدة الأصلية. وأن يكون ذلك ضرورة تقدر بقدرها.

وكما قال - صلى الله عليه وسلم في شأن الأزواج: «لن يضرب خياركم» فهذا يقال للآباء والمعلمين أيضا: لن يضرب خياركم.

٥ - الاشفاق على المخطئ:

ويتجلى الرفق كل الرفق في الاشفاق على المخطئ. فالخطأ لا يوجب مقابلة المخطئ بالعنف والقهر، أو التشنيع عليه أو السخرية به، فان هذا قد يؤدي به الى إذلال

نفسيته، وتحطيم شخصيته، وهذا ضرب من القتل المعنوي المذموم دينا وخلقا. أو يؤدي به الى الإصرار على الخطأ، والتمادي في الباطل، والتحدي للحق، دفاعا عن نفسه، وتبريراً لغلطه. وكلا الأمرين شديد الخطر عظيم الضرر.

وأعظم نموذج للرفق بالمتعلمين اذا أخطأوا: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهو خير من يقدر الظروف، ويراعي الأحوال، ويسع الناس جميعا. حتى ذلك الأعرابي الجلف الذي لم يخجل ان يبول في ركن من المسجد ،مما جعل الصحابة يهجمون عليه، يقول لهم الرسول: لا تزرموه او لا تقطعوا عليه بوله وصبوا عليه ذنوبا من ماء فانما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين[1]

راعى بداوة الرجل ونشأته وظروف حياته وعرفهم ان علاج الامر سهل في مسجد لم يكن مفروشا الا بالحصباء وهو صب دلو من ماء

وروى ابو أُمامة ان فتى من قريش جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أئذن لي في الزنا ؟فأقبل القوم عليه وزجروه فقال صلى الله عليه وسلم: ادنه، فدنا فقال:

(١) رواه الترمذي عن ابي هريرة.

اتحبه لأمك؟ قال:لا والله، جعلنا الله فداك قال: ولا الناس يحبونه. لأمهاتهم: ثم قال له مثال ذلك في ابنته واخته وعمته، وخالته: في كل ذلك يقول: أتحبه لكذا؟ فيقول: لا والله، جعلني الله فداك. فيقول صلى الله عليه وسلم: ولا الناس يحبونه: ثم وضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك يلتفت الى شيء[1]

شاب يحب الشهوة، ثائر الغريزة، صريح في التعبير عن نوازعه الى حد الإغراب والإثارة. ورغم غرابة طلبه الذي أثار الجالسين عليه لم يكن منه صلى الله عليه وسلم الا ان لقيه بهذا الرفق العجيب والحوار الهادئ، الذي يحمل المنطق المقنع والروح المحبب، ثم انهى هذا الحوار بلمسة حنان على صدر الفتى المتوقد ومع اللمسة دعوات خالصة لله تعالى ان يغفر للفتى ويطهره ويحصنه، فاذا هو يخرج من مجلس الرسول الكريم، كأنما كان هذا اللقاء لنار شهوته بردا وسلاما.

ولا نظن ايها القارىء الكريم ان هذا الاثر الذي تركه

---

(١) رواه احمد والطبراني في الكبير كما في جمع الفوائد واعذب الموارد حديث (٢٤٠).

موقف النبي صلى الله عليه وسلم في نفس الشاب من هدوء نفس واعراض عن الزنا الذي كان يتوق اليه ويرغب فيهِ.
كأن معجزته خارقة للنبي عليه الصلاة والسلام، لا تتكرر لغيره الا من باب الكرامات، وخوارق العادات، كلا فإن أي معلم رباني الوجه، نبوي الطريقة يقتدي برسول الله ﷺ في سلوكه، قولا وعملا وروحا. سيجد بتوفيق الله تعالى نفس الأثر، او قريبا منه، وفقا لسنة الله تعالى.

وأولى المخطئين بالاشفاق من كان خطؤه عن جهل او غفلة، او ضعف. وبخاصة من أخطأ لاول مرة مثل الاعرابي، والشاب القرشي السابق ذكرها.

ولكن قارئ السنة يجده عليه الصلاة والسلام يسع بحلمه ورفقه من أصر على الخطأ والمعصية نتيجة ضعف ارادته، وغلبة عادته، استبقاء له في دائرة الايمان وفي حظيرة المؤمنين وتنبيها له بحسن المعاملة على سوء صنيعه، عسى ان يستيقظ ضميره فيتوب من زلته، وينهض من سقطته.

وهل نجد مثلا في هذا المجال اوضح من قصة ذلك الصحابي المعروف الذي اشتهر باسمه والذي ولع بالخمر الى حد الادمان، ولم يردعه أن ضرب فيها غير مرة، حتى قال

بعض الصحابة يوما ، وقد ضاق صدره بكثرة ما قبض عليه في هذه الجريمة: ماله لعنه الله؟ ما اكثر ما يؤتي به -!! وهنا تتجلى الرحمة المحمدية والرفق النبوي الرفيع ، فيقول: لا تكن عونا للشيطان على أخيك.. أو : لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم. وفي رواية: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله .

تنبيه المخطئ على خطئه:

وإياك ان تحسب أخي القارئ ان الرفق بالمخطئ يعني السكوت على خطئه والاغضاء عنه ، وفي هذا اقرار للخطأ بل تشجيع واشاعة له .

كلا فالرفق بالمخطئ والاشفاق عليه لا ينافي تنبيهه على خطئه ، بل زجره عنه بالرفق المناسب لظروف المخطئ ومدى خطئه ونوعه ودوافعه ، وارشاده الى الصواب والوضع الصحيح بالتي هي أحسن .

وقد يكون هذا التنبيه أو الارشاد او الزجر ، من باب التعريض لا التصريح وبالتعميم لا بالتخصيص ويدرك المخطئ حين يسمع اللفظ العام انه المقصود مثل: « ما بال اقوام يفعلون كذا وكذا .. ومثل ما ذكروه في قصة من هاجر

من مكة الى المدينة من اجل امرأة يهواها، واطلق عليه بعض الصحابة «مهاجرأم قيس» وقالوا: انه كان سببا في ورود الحديث المشهور «انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه»[1] وطورا يكون التنبيه على الخطأ غاية في الرفق ورعاية الشعور كما في قصة ابي بكر، حين دخل المسجد والنبي صلى الله عليه وسلم في الركوع، فكبر من أول المسجد وركع، وظل يمشي راكعاً حتى وصل الصف. وكان ينبغي الا يكبر ويدخل في الصلاة حتى يصل الى الصف ولا يصلي منفردا خلف الصف. فلما بلغ رسول الله ﷺ فعله قال له هذه الكلمة الطيبة: «زادك الله حرصا ولا تَعُدْ»[2]

فهذه الجملة الموجزة تتضمن دعاء ونهيا. ففي الدعاء تقدير لنبل الدافع الذي دفع الصحابي الكريم الى ما فعل

---

(١) راجع شرح الحافظ في «الفتح» على الحديث وبيابه سبب وروده وهو اول حديث في صحيح البخاري.

(٢) رواه احمد والبخاري وابو داود والعناني في الصلاة كما في الجامع الصغير ٤٥٥١)

وهو الحرص على الا تفوته الركعة في الجماعة مع النبي عليه السلام... وفي النهي اشعار بخطئه لئلا يتكرر منه مرة اخرى دون ان يقول له: قد أخطأت.

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال: بينما أنا اصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ عطس رجل من القوم، فقلت يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون الي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتوني (اي يسكتونني) لكني سكت. فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه فوالله ما كهرني (اي ما نهرني) ولا ضربني ولا شتمني قال: ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس انما هي التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن - او كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قالت يا رسول الله، اني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام. وإن منا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: فلا تأتهم. قلت: ومنا رجال يتطيرون (يتشاءمون) قال: ذاك الشيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم (أي عن وجهتهم[1]

---

(٢) رواه مسلم - حديث ٥٣٧

فهذا العربي الغفل الحديث العهد بالجاهلية، يدخل الصلاة ويتصرف فيها كأنما هو في مجلس من مجالس القوم، يشمت العاطس، ويكلم من حوله، ويرد على من أنكر عليه - والصحابة يرون هذا منه وينبهونه بنظرات اعينهم وحركات ايديهم، وهو لا ينتبه الى خطئه حتى فرغ من صلاته وحكوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما صنعه في صلاته. وهنا تجلى روح المعلم الحق، واسلوبه الرفيق الرقيق في معالجة الخطأ وتنبيه المخطئين، وتعليم المبتدئين. وهو ما لحظه هذا الرجل الأمي البسيط بنور فطرته، وعبر عنه بعباراته القوية البليغة (بأبي هو وأمي. ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني)

كل ما فعله عليه الصلاة والسلام: انه نبهه على خطئه دون أن يقول له أخطأت وأسأت، ولم تعرف للصلاة قدرها، ونحو ذلك من العبارات القاسية. انما بين له حقيقة الصلاة وما لا يليق من القول ان يدخل فيها (ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. انما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن). وكذلك يجب ان يكون المعلمون الصادقون.

وفي قصة تخيير نسائه صلى الله عليه وسلم التي نزل بها القرآن في سورة الاحزاب (يا ايها النبي قل لازواجك: ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله اعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) اقبل النبي صلى الله عليه وسلم على نسائه يعرض عليهن ما أمره الله به من التخيير، وبدأ بعائشة رضي الله عنها، فعرض عليها ان تختار احد امرين: اما الله ورسوله والدار الآخرة، على ما في ذلك من الكفاف وحياة التقشف والزهد وخشونة العيش، وإما الدنيا وزينتها فلها حق المتعة والسراح الجميل، وطلب اليها ان تتريث في الامر والا تقطع فيه برأي حتى تشاور ابويها. وهنا قالت عائشة في حسم ويقين: أفيك أستأمر أبوي يا رسول الله؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة. ثم بدت الطبيعة البشرية النسوية فغلبت على عائشة. فطلبت منه عليه الصلاة والسلام الا يخبر احدا من نسائه بما اختارته حتى لا يؤثر موقفها في موقفهن، كأنما تريد لهن جميعا ان يخترن الدنيا وزينتها وتنفرد هي بهذه المزية، ويخلو لها وجهه صلى الله عليه وسلم وهنا يتجلى

المعنى التربوي الكبير في موقفه عليه الصلاة والسلام، حين قال لها: يا عائشة ان الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا)[1]

فلم يقر الصديقة بنت الصديق على نزعتها الأنانية، وبين لها وظيفته التي لا يتركها ولا تتركه، وهي انه معلم، ومعلم ميسر، غير معنت ولا متعنت.

قال العلامة المناوي: فيه إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم ان يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق باللطف والتعريض ما امكن من غير تصريح، وبطريق الرحمة من غير توبيخ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الاصرار. (ذكره الغزالي)[2]

غير اننا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يزجر عائشة نفسها على خطأ ارتكبته في موقف آخر، وكان الزجر بطريقة فيها لون من الشدة يغاير ما ذكرناه سابقا. وذلك انها اعتدت على حق ضرة من ضرائرها من أمهات المؤمنين،

---

(١) اخرجه مسلم

(٢) الاحياء

فقد قالت للرسول صلى الله عليه وسلم: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة تعني: قصيرة فقال: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[1]

يعني ان هذه الكلمة او هذه الاشارة التي لم تصل الى التصريح الكامل جديرة بأن تعكر بحرا، على عمقه وسعته.

واحيانا يشتد النكير، ويعلو الصوت بالتنديد، في غير اسفاف ولا اسراف وذلك حين لا يكون الخطأ مجرد خطأ في سلوك جزئي فردي، بل يمثل بداية انحراف في الاتجاه وفي المنهج، كقوله لعمر حين رأى معه بعض كتب اهل الكتاب المحرفة - «أمتهوّكون - اي امتحيرون - فيها يا ابن الخطاب؟ والله لو كان موسى حيا ما وسعه الا ان يتبعني»[2]

وتشتد اللهجة بالانكار اكثر واكثر حينما يتمثل هذا الانحراف في جماعة او كتلة كقوله حينما تنادي الاوس: يا للاوس، وتنادى الخزرج: يا للخزرج: أبدعوى الجاهلية وانا

---

(١) رواه ابو داود والترمذي وقال: حسن صحيح - ترغيب ٤٠٩٢

(٢) سيأتي تخريجه في الفصل الخامس.

بين أظهركم؟؟؟[1]

وقوله للثلاثة الذين قرر احدهم قيام الليل كله والثاني صيام الدهر كله والثالث اعتزال النساء ابدا: أما إني اخشاكم لله واتقاكم له ولكني اقوم وأنام وأصوم وافطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

ومثل ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أنه ﷺ سمع قوما يتنازعون في القرآن، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا: ضربوا كتاب الله بعضه ببعض. وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه الى عالمه[3]

وفي بعض الروايات: ان تنازعهم كان في القدر.

وفي بعضها: انه خرج عليهم كأنما يفقأ في وجهه حب الرمان اي من شدة الغضب وانما اغضبه التدافع والمراء في القرآن وضرب آياته بعضها ببعض، فان هذا بداية فتنة في الفكر والعقيدة لا يعلمها، لأن القرآن انزله الله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويجمعهم على كلمة سواء، فاذا أصبح هو مجالاً للتنازع والمراء والاختلاف، فقد أصبح محتاجا إلى حاكم آخر

(١) و (٢) رواه البخاري. (٣) رواه احمد في مسنده وابن ماجة في سننه

يحسم النزاع، ويصفي الخلاف. هذا مبتدأ تمزق الامم، وشيوع الانحرافات والاهواء والبدع. وهذا ما أهلك الامم من قبل، وهو خليق ان يهلك هذه الامة من بعد ومن ثم كان غضبه وزجره.

٦ -تشجيع المحسن والثناء عليه:

وإذا كان من الأسس النافعة في التعلم والتربية تسديد المخطئ والاخذ بيده في رفق، فان مما يكملها تشجيع من أصاب وأحسن، والاشادة باحسانه، والثناء عليه. ليزداد نشاطا في الخير واقبالا على العلم والعمل، ويضيف احسانه الى احسان.

وكان ابو موسى الاشعري حسن التلاوة للقرآن، فقال له النبي - ﷺ - : «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»[1] يعني بآل داود: داود نفسه.

وقال له يوما: لو رأيتني وانا أستمع لقراءتك البارحة! (اي لسرك ذلك) فقال أبو موسى: يا رسول الله، لو أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيرا»[2]

---

(١) متفق عليه من حديث ابي موسى انظر رياض الصالحين حديث (١٠٠٣)

(٢) رواه مسلم.

وعن أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله - ﷺ - يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: الله لا إله الا هو الحي القيوم. (يعني الآية المعروفة بآية الكرسي) فضرب في صدري وقال ليهنك العلم أبا المنذر »

ومن قرأ كتاب المناقب أو الفضائل في صحيح البخاري او صحيح مسلم، أو غيرها من كتب الحديث يجد نصوصا تحمل الثناء على واحد أو جماعة من أصحاب النبي -ﷺ - ولم يكن يلقي النبي -ﷺ - ما يقوله من كلمات الثناء اعتباطاً، أو مجاملة، بل كانت تقديرا لمن يستحق التقدير وتكريما لمن هو أهل التكريم كما اثنى على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من كبار الصحابة في مواقف شتى.

وقال لسعد بن أبي وقاص يوم أحد: (ارم فداك أبي وأمي)

وقدم أهل اليمن على رسول الله -ﷺ - فقالوا: ابعث معنا رجلا يعلمنا السنة والإسلام. قال: فأخذ بيد أبي عبيدة، فقال: « هذا أمين هذه الأمة ».

وقال -ﷺ - خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد (يعني ابن مسعود) ومعاذ بن جبل وأُبَيّ بن كعب، وسالم

مولى أبي حذيفة »[1] واثنى على أبي هريرة لما سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ وفي حديث اشتهر عنه ذكر عددا من أصحابه كل بأبرز ما يميزه عن الفضائل؟ فقال: أرحم أمتي بأمتي ابو بكر، واشدهم في عمله عمر، وفيه أن أقضاهم علي وافرضهم (اي أعلمهم بالفرائض وهي المواريث) واعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل[2] الخ..

وهكذا كان - ﷺ - ينوه بأقدار الفضلاء من أصحابه، وأصحاب المواهب المتميزة منهم، ليعرف الناس ذلك لهم، ويأخذوا عنهم وينتفعوا بهم. كما ذم النبي - ﷺ - في حديث[3] عن الأئمة فقال: ثلاثة من الفواقر: «إمام ان أحسنت لم يشكر وان أسأت لم يغفر» واذا كان هذا مذموما في الرؤساء، فهو مذموم في المعلمين.

وكذلك ينبغي لكل معلم راشد أن يشيد بالمواقف الحسنة لتلاميذه، وينوه بكل من له موهبة أو قدرة، ولينمي فيه الطموح بالحق والتفوق بالعدل ولينبه الآخرين على فضلهم. فينافسوهم في الخير ان استطاعوا، أو

---

(١) انظر هذه الاحاديث كلها في الصحيحين - كتاب فضائل الصحابة.

(٢) رواه الترمذي

(٣) رواه الطبراني عن فضالة بن عبيد باسناد لابأس به - الترغيب ٣٧٠٥

يعترفوا لهم بالفضل إن عجزوا، وإن كلمة تقدير وتكريم من أستاذ له قدر في شأن أحد تلاميذه، قد تصنع منه بتوفيق الله تعالى - نابغة - من نوابغ العلم.

ومن طلاب العلم من أوتي الموهبة والذكاء والقدرة على الفهم والتحليل والتحصيل ولكن تنقصه الثقةبالنفس والأمل في الغدفما أحوجه الى كلمة من أستاذ مرشدتنفعه وترفعه.

ذكر يوسف بن يعقوب بن الماجشون أنه كان هو وأخ له وابن عم - يطلبون العلم عند ابن شهاب الزهري فقال لهم: لا تحقروا أنفسكم لحداثةأسنانكم فان عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الفتيان فاستشارهم، يبتغي حدة عقولهم[1].

٧ -التدرج في التعليم:

ومن المبادئ التي حرص عليها الاسلام في كافة المجالات - مجالات التربية خاصة وجاءت بها السنة القولية والعملية: التدرج في التعليم.

وهذا واضح في جانب التكليف والتشريع، فقد كان

---

(١) جامع بيان العلم جـ١/١٠٢

التكليف في العهد المكي مقصورا على أحكام العقيدة ومكارم الأخلاق. ثم فرضت الصلاة قبيل الهجرة. وفرضت في أول الامر ركعتين ثم اقرت في السفر وزيدت في الحضر.

وفي المدينة فرضت بقية الفرائض، كما حرمت الخمر والربا وغيرها. كل ذلك بمنهج تدرجي حكيم يسهل على المكلفين امتثال الامر واجتناب النهي في غير حرج ولا اعنات.

وهكذا كان الرسول الكريم يعلم أصحابه: ان يأخذوا بسنة التدرج «التي هي سنة الله في الحياة والوجود كله».

عن ابن عباس رضي الله عنه: ان رسول الله - ﷺ - لما بعث معاذا الى اليمن قال: انك تأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم الى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله.. فان هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم ان الله افترض عليه خمس صلوات كل يوم وليلة.. فان هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم...الحديث[1] فقوله: «تأتي قوما من أهل الكتاب» كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون

---

(١) رواه الجماعة كما في المنتقى وشرحه جـ٤/١٧٠

أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا يكون في مخاطبتهم كمخاطبته الجهال من عبدة الاوثان[1]

ثم أمره ان يبدأ دعوته بأمر العقيدة، فيدعوهم الى الشهادتين، لأنها باب الدخول في الإسلام، وأصل الدين كله، ولا تقبل عبادة ولا عمل بغير الإقرار بها والإذعان لها.

فان هم أطاعوا لذلك ورضوا الله ربا، وبمحمد رسولا أعلمهم بالفريضة اليومية والعبادة العملية الأولى التي هي الرباط الدائم بين الإنسان وربه والفيصل الفارق بين المسلم والكافر. وهي الصلاة عمود الإسلام.

فإن هم عرفوا ذلك واستجابوا له. فأعلمهم بالفريضة العملية الثانية - وهي شقيقة الصلاة في القرآن والسنة، والرباط الاجتماعي والاقتصادي بين المسلمين بعضهم وبعض وهيَ الزكاة، قنطرة الاسلام.

وهكذا ينبغي أن تكون الدعوة ويكون التعليم.

والتدرج ذو شقين: شق يتعلق بالكم، وشق يتعلم بالكيف.

---

(١) انظر المصدر السابق.

فالأول يعني أن يعطى المتعلم من العلم المقدار الملائم له، ولا يكثر عليه الأستاذ، ويحمله ما لا يطيق، فينوء به، ويضيعه كله، فهو يريد أن يعطيه الكثير دفعة واحدة، فيضيع بذلك الكثير والقليل، والعلم متين كالدين فيجب ان يوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

وفي هذا أوصى الزهري تلميذه يونس بن يزيد فقال: يا يونس لا تكابر العلم فان العلم أودية فأيها أخذت فيه قطع بك قبل ان تبلغه ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة فإن من رام أخذه جمله ذهب عنه جملة ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي[1].

والشيء الثاني في التدرج هو ما يتعلق بالكيف والنوع. على معنى أن يبدأ الأستاذ مع طلابه بالجلي من العلم قبل الخفي، والبسيط قبل المركب، وبالخفيف قبل الثقيل، والجزئي قبل الكلي وبالعملي قبل النظري.

ومن الحكم المأثورة: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دق منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته،

---

(١) جامع بيان العلم جـ١/١٢٥

أو فروعه قبل أصوله أو مقدماته قبل مقاصده[1]

والمهم ألا يبدأ المعلم تلاميذه بدقائق العلم وعويص مسائله فيغرقهم في بحر عميق لا يستطيعون النجاة منه. بَل يبدؤهم بالأسهل والأيسر لأن الشيء اذا كان في ابتدائه سهلا حبب الى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالبا الازدياد منه بخلاف ضده[2].

وقد كان كثير من كبار العلماء يؤلفون كتبهم متدرجة وفق مراتب الترقي في الطلب. فالغزالي -مثلا - يؤلف في فقه الشافعية؛ الوجيز ثم الوسيط، ثم المبسوط. وابن قدامة يؤلف في فقه الحنابلة على الترتيب التصاعدي: العمدة ثم المقنع، ثم الكافي، ثم المغنى.

وهكذا كانوا يكتبون لكل مرحلة في الطلب ما يليق بها فالمبتدئ غير المتوسط غير المنتهي.

وكذلك ينبغي أن تراعى مراحل العمر. فيعطى للصبي غير ما يعطي للمراهق غير ما يعطى للناضج.

وهذا ما يحرص عليه رجال التربية اليوم في وضع المناهج وفي تأليف الكتب

---

(١) الفتح جـ١/١٧١ (٢) نفسه/١٧٣

٨ -رعاية الفروق الفردية

ومن آداب التعلم ومبادئه وقيمه الأصيلة التي جاءت بها السنة: مراعاة الفروق بين الناس بعضهم وبعض: الفروق الفردية أو البيئية أو النوعية.

فليس كل ما يصلح لشخص يصلح لآخر وليس كل ما يصلح لبيئة يصلح لأخرى وليس كل ما يصلح لفئة أو جنس يصلح لغيرها وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الأزمنة والعصور.

والمعلم الموفق هو الذي يعطي كل إنسان - فردا وجماعة - من العلم ما يلائمه ويصلح له، وبالقدر الذي يصلح به، وفي الوقت الذي ينتفع به.

وكان معلم البشرية الأول خير المراعين لهذا الجانب، نظرا وتطبيقا.

ومن الأدلة على اعتبار هذه الفروق ومراعاتها بالفعل عدة أمور:

١ - اختلاف وصاياه -صلى الله عليه وسلم -، باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصية

٢ - اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد

باختلاف احوال السائلين

٣ - اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الاشخاص الذين يتعامل معهم

٤ - اختلاف أوامره وتكليفاته باختلاف من يكلفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم.

٥ - قبوله من بعض الأفراد موقفا أو سلوكا لا يقبله من غيره لاختلاف الظروف.

وفي البند الاول: نجد أناسا عديدين سألوه -ﷺ- ان يوصيهم إما مطلقا، وإما مقيدا بما يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار أو نحو ذلك من العبارات الجامعة فأوصاهم بوصايا مختلفة

فبعضهم قال له: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم.

وبعضهم قال له: اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن

وبعضهم قال: قل آمنت بالله ثم استقم.

وبعضهم قال له: قل آمنت ولم يزد على ذلك.

وهكذا يراعي - ﷺ - حال المستوصي ويعطي كل

واحد ما يراه أحوج إليه فشأنه مع السائلين كالطبيب مع المرضى.

وفي البند الثاني: نجده -ﷺ- يسأل: اي العمل أفضل أو أي الإسلام افضل؟ فنراه يجيب هذا بغير ما يجيب به ذاك.

فعن عبد الله بن مسعود: سألت رسول الله -ﷺ- أي الأعمال أحب الى الله فقال الصلاة على وقتها. قلت: ثم اي؟ قال: برُّ الوالديْن. قلت ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله[1]

وعن رجل من خثعم قال: اتيت النبي -ﷺ- وهو في نفر من أصحابه فقلت: انت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال نعم. قال: قلت يا رسول الله أي الاعمال أحب الى الله؟ قال: الايمان بالله. قلت: يا رسول، ثم مه؟ (اي ثم ماذا؟) قال: ثم صلة الرحم، قال: يا رسول الله ثم مه: قال: ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... الحديث.

ولا تفسير لهذا الاختلاف في الجواب مع اتحاد السؤال، الا مراعاة أحوال السائلين، وما بينهم من فروق يجب اعتبارها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم كما في الترغيب حديث ٣٥٨٢

ولما سأله النساء عن الجهاد. قال: لَكنَّ افضل الجهاد حج مبرور[1]

وفي صحيح البخاري عن ابي موسى: قالوا : يا رسول الله اي الاسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده »

وفيه عن عبد الله بن عمرو: أن رجلا سأل النبي -ﷺ- اي الاسلام خير؟ قال: تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف.[2]

والسؤال الثاني: كالاول وإن اختلفت الالفاظ ولكن الجواب ليس واحداً كما قلنا من اختلاف أحوال السائلين، أو السامعين، فالجواب في السؤال الاول وجه العناية الى تحدير من خشي منه الإيذاء بيد او لسان، فأرشد الى كفهما عن الاذى وفي الثاني كان الاهتمام بترغيب من رجا فيه النفع العام بالفعل والقول فأرشد اليهما، وخص الخصلتين المذكورتين بالتنويه لمسيس الحاجة اليهما في ذلك الوقت. لما كانوا فيه من الجهد والفاقة ولمصلحة تأليف القلوب[3]

---

(١) رواه البخاري

(٢) الحديثان ذكرهما في كتاب الايمان.

(٣) الفتح جـ١/٦٢

وأوضح من ذلك اختلاف الجواب عن السؤال الواحد في قضية واحدة في مجلس واحد -

وفي البند الثالث: نجده -ﷺ- يعامل الأعراب القادمين من البادية بما لا يعامل به أصحابه الذين رُبُّوا في حْجِرِ النبوة، ويغتفر لأولئك مالا يغتفر لهؤلاء، ويتألف قلوب «مسلمة الفتح وزعماء القبائل بما لا يصنع مثله مع المهاجرين والأنصار ويعامل أصحابه ايضا على منازلهم وطبعائهم فهو يغطي فخذيه او ساقيه ويسوي ثيابه عند دخول عثمان عليه، ولم يفعل ذلك مع ابي بكر وعمر، مراعيا طبع الحياء في عثمان قائلا: الا استحي من رجل تستحي منه الملائكة؟ وقد لاحظت عائشة ذلك: فقالت: يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لابي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ فقال: ان عثمان رجل حييّ، واني خشيت ان اذنت له على تلك الحال الا يبلغ اليَّ في حاجة[1]

واذا دخل عليه كريم قوم اكرمه واذا دخل عليه سفيه أوشرّيرداراه بطلاقة الوجه أو بكلمة طيبة - دون مداهنة أو مدح بالباطل - تألفا له، واتقاء لشره.

---

(١) رواه مسلم عن سعيد بن العاصي: ان عائشة وعثمان - حدثاه.. حديث ٢٤٠٢

ويحدث معاذاً ببعض المبشرات على التوحيد، ولا يأذن له بأن يبشر بها جمهور الناس مخافة ان يتكلوا[1].

والبند الرابع: نجده - ﷺ- يكلف كل انسان، بما يقدر عليه، وما يليق به، وما يلائم حاله.

ففي حدث كحدث الهجرة الى المدينة والاختفاء الى غار ثور، نراه عليه الصلاة والسلام يكلف عددا من الاشخاص بعدد من المهمات المتنوعة، كل فيما يناسبه فأبو بكر كلف رفقته بعد تكليفه إعداد الرواحل، وعليٌّ كلف المبيت في مكانه - ﷺ - احتمالا لأي خطر. وأسماء بنت أبي بكر كلفت ما يليق بها من حمل الطعام والاخبار الى رفيقي الغار وعبد الله بن ابي بكر وعامر بن فهيرة كل منهما له دوْره، وهكذا نجده «ﷺ» يوليّ خالد بن الوليد وعمرو بن العاص على بعض السرايا الحربية وعلى حين كلف حسان بن ثابت أن يدافع عنه أمام هجاء الشعراء من قريش بسلاح الشعر الذي هو أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام، ولم يجب أباذر الى طلبه حين سأله أن يوليه - لما يعرف من صرامة

(١) صحيح البخاري - باب من خص بالعلم قوما. انظر الفتح جـ١/٢٣٦

وَحِدَّةِ طبعه.

وفي البند الخامس: نجده - ﷺ - يقبل من بعض الأعراب الاقتصار على أداء الفرائض حين قال أحدهم: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال ﷺ: أفلح إن صدق وفي رواية: من سره أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا » على حين لم يقل ذلك لغيره من أصحابه المهاجرين والأنصار.

وروى الامام احمد في مسنده حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم - فجاء شاب - فقال: يا رسول الله أُقَبِّل وأنا صائم؟ فقال: لا. فجاء شيخ فقال: يا رسول الله أقبل وأنا صائم؟ قال: نعم. فنظر بعضنا الى بعض! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد علمت نظر بعضكم الى بعض، إن الشيخ يملك نفسه[١]

وهذا من الأدلة الشرعية لما قرره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال.

وهذا هو موقف المربي الحق، والمعلم المرشد من طلابه

(١) حديث رقم (٧٠٥٤) جـ١٢. قال الشيخ احمد شاكر: اسناده صحيح وقد وثقه الشيخ رحمه الله.

وأصحابه أن يراعي ظروفهم وقدراتهم العامة والخاصة وأحوال كل فئةمنهم، بل كل واحد منهم ليعالجه بما يناسبه، فلا يكلم الصغير بما يكلم به الكبير ولا يخاطب الفتاة بما يخاطب به الفتى ولا يعطي العوام ما يعطيه للخواص، ولا يكلف الذكي ما يكلفه الغبي ولا يأمر البدوي بما يأمر به الحضري ،بل يعطي لكل متعلم على قدره وقدرته، ومن العجز بل الاثم ان يبث المعلم كل ما عنده لكل من يجده دون تمييز بين من يفهم ومن لا يفهم، وبين من ينتفع بما يسمع ومن يتضرر به.

وفي الحديث: كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع[1]

وهذا ما حذر منه علماء الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول علي: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله[2]؟

ويقول ابن مسعود: ما انت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[3]

---

(١) رواه مسلم في مقدمة الصحيح من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الصحيح - كتاب العلم - باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهة الا يفهموا.

(٣) رواه مسلم.

وليس هذا من كتمان العلم، بل من حسن إنفاقه في محله وإعطائه لمن هو أهله. ولكل مقام مقال ولكل علم رجال.

وقد ذكر الغزالي في إحيائه ان من وظائف المعلم: ان يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي اليه مالا يبلغه عقله فينفره، أو يخبط عليه عقله، اقتداء بسيد البشر -ﷺ- ولا يبث اليه الحقيقة الا اذا علم أنه يستقل بفهمها. وقد قال علي رضي الله عنه وأشار الى صدره: إن هنا لمعلومات جمة لو وجدت لها حملة! فلا ينبغي ان يفشي العالم كل ما يعلم الى كل أحد. هذا اذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن اهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه؟.. ولذلك قيل: كِلْ لكل عبد بمعيار عقله، وَزِنْ له بميزان فهمه حتى تسلم منه، وينتفع بك والا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

وقد قال تعالى: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم» ومعنى ذلك أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى. وليس الظلم إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق[1].

ويقول الغزالي ايضا: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى

---

(١) الاحياء جـ١/٥٧، ٥٨

اليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له: أن وراء هذا تدقيقا، وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم اليه البخل به عنه، اذ يظن كل احد أنه أهل لكل علم دقيق!.. بل لا ينبغي ان يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الامانة في الصناعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار لما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلق الشبهة في قلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك[1]..»

والمقصود: ان المعلم طبيب يداوي القلوب والعقول بما يناسبها وليس كل دواء يصلح لكل داء.

٩ -الاعتدال وعدم الاملال:

ومن المبادئ المرعية في التعليم والمقتبسة من هدي النبوة: الاقتصاد في التعليم والاعتدال في قدر ما يلقي من الموعظة والمعلومات في زمانه وفي نوعه حتى لا يؤدي الإكثار الى الإملال.

روى البخاري بسنده عن أبي وائل قال: كان عبد الله

---

(١) الاحياء جـ١/٥٨

(يعني ابن مسعود) يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن،لوددت أنك ذكّرتنا كل يوم؟ فقال: أما إنه يمنعني من ذلك أني اكره أن املكم. وإني أتخولكم (اي اتعهدكم) بالموعظة كما كان النبي -ﷺ- يتخولنا بها مخافة السآمة علينا[1]

وروى البخاري أيضا عن عكرمة: ان ابن عباس قال: حدث الناس مرة في الجمعة فان أبيت فمرتين، فان اكثرت فثلاثا. ولا تمل الناس هذا القرآن ولا أَلْفَيَنَّك تأتي القوم وهم في حديث من أحاديثهم فتملهم. ولكن انصت، فاذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه[2] ».

وكان ابن مسعود يقول: إن للقلوب لنشاط وإقبال وان لها تولية وادبار فحدثوا الناس ما اقبلوا عليكم[3]

وقال الحسن البصري: كان يقال حدِّث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم فاذا التفتوا فاعلم ان لهم حاجات[4]

ومعنى هذا، ان على المعلم - كما على الداعية والمحدث - ان يراعي الطاقة النفسية للناس فان من

(١) انظر البخاري مع الفتح جـ١/١٧٣

(٢) جمع الفوائد ج ١ حديث رقم ٢٣٥.

(٣)، (٤) سنن الدارمي جـ١/٩٨ باب من كره ان يمل الناس.

يستمع او يتعلم وهو كاره لا يستفيد مما يتلقاه فهو يسمع بأذنه ولا يعي بقلبه. وكما أن للانسان طاقة بدنية محدودة يجب أن تراعى فلا يحمل من الأثقال المادية مالا يطيق، فكذلك طاقته النفسية.

وعلى هذا الاساس يجب أن توضع مناهج التعليم وتؤلف كتبه، وتحدد مقرراته بحيث يقبل المتعلمون على العلم وهم نشيطون راغبون.

ومن حسن الطريقة في التعليم أن يدخل المعلم على درسه بعض المروِّحات عن النفس من الملح أو الطرائف أو الأشعار حتى لا تسأم النفوس وتمل القلوب

وكان النبي -ﷺ- يمزح ولا يقول الا حقا.

وقد رويت عنه ألوان من الدعابة الحلوة التي تدخل على القلوب الأنس بلا إسفاف ولا إسراف[1]

وقال علي: اجمعوا هذه القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة فإنها تمل، كما تمل الابدان.

وعنه ايضا: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلب اذا اكره عمي.

---

(١) روت كتب السنة من ذلك اكثر من واقعة

وقال ابو خالد الوالي: كنا نجالس -اصحاب النبي -ﷺ - فيتناشدون الاشعار ويتذكرون أيامهم في الجاهلية.

وكان القاسم بن محمد - أحد فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين.اذا اكثروا عليه من المسائل قال: ان لحديث العرب، وحديث الناس نصيبا من الحديث فلا تكثروا علينا من هذا.

وكان ابن شهاب الزهري يحدث ثم يقول: هاتوا من أشعاركم هاتوا من أحاديثكم فإن الأذن بجاجة والنفس حمضة.

وفي هذا اللون من ترويح الأنفس فائدتان:

الأولى: مطاردة السآمة، وازالة آثار ما يصيب البدن من كلل والنفس من ملل، نتيجة مواصلة الدأب والتكرار اليومي الرتيب. وهو ما أشار اليه الامام علي فيما ذكرناه من قوله رضي الله عنه، وفيه يقول الشاعر:

والنفس تسأم ان تطاول جدها

فاكشف سآمة جدها بمزاح.

والثانية: تنشيط النفس لمواصلة السعي الى الجد

ومعاناة البحث عن الحقيقة مهما تكن مشقة الطريق اليها وفي هذا قال أبو الدرداء: اني لاستجم نفسي بشيء من اللهو ليكون أقوى لها على الحق. ولكن ينبغي هنا مراعاة أمرين:

الاول: ألا يكون في هذه المُلَحِ والطرف تجاوز او إسفاف لا يليق بمجلس العلم وأهله، فمجلس العلم ليس مسرحا أو ملهى.

الثاني: ان تكون بالقدر المناسب بحيث يكون الجد هو الأصل والقاعدة وهذه هي الاستثناء فان كل شيء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده. حتى العبادة قد كره الغلو فيها، فكيف بالمباح وكيف باللهو منه؟

وفي هذا جاء عن علي رضي الله عنه قوله: اعط الكلام من المزح بمقدار ما تعطي الطعام من الملح.

١٠ -استغلال المواقف العملية للتربية والتوجيه:

ومن المبادئ التربوية التي ورثتها لنا سنة نبينا صلى الله عليه وسلم: استغلال المواقف الواقعية والتصرفات العملية التي تقتضي موقفا تعليميا معيَّناً، وإلقاء توجيه تربوي خاص ليأخذ المتعلمون منه درسا ايجابيا لا ينسى.

لارتباطه بالواقع المشاهد وصلته بمناسبة لابسها الناس وعايشوها ،فبهذا ترسخ في الذهن وتثبت في القلب ولا تحتاج الى تطويل او تكرار.

وهكذا كان الرسول العظيم لا يدع فرصة من هذه الفرص التي يتيحها القدر للناس في حياتهم تمر دون ان يجعل منها درسا بليغا وموعظة مؤثرة كثيرا ما تدمع منها العيون توجل القلوب.

ومن مِنّا يجهل موقفه يوم أهم قريشا أمر المرأة المخزومية التي سرقت وعز عليهم ان تنفذ فيها عقوبة القطع التي امر الله بها في كتابة للسارق وللسارقة « جزاء بما كسبا ، نكالاً من الله »؟

ولجأوا الى أسامة بن زيد حبُّ رسول الله وابن حبه يشفعونه في هذا الامر الخطير أن يعفي المرأة من حد القطع ويقبل منها أي غرامة أو عقوبة أخرى. ناسين أن العاطفة شيء وإقامة حد الله شيء آخر ،فكان لا بد من درس مبدئي يثبت معنى المساواة في العقوبات، كما هي ثابتة في كل التكاليف ، ويزيل أوهام الفوارق الطبقية بين الناس: أشراف وعامة ،ويعلن في قوة ان شرع الله يسود الجميع ويحكم الجميع ، وكلمته هي العليا . وكل كلمة عداها هي السفلى .

هنا جاء الدرس التربوي في حينة وفي موضعه، فسمعته الآذان وفقهته العقول ووعته القلوب «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة!؟ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»!

ومن نسي فلن ينسى موقفه - ﷺ - يوم مات ابنه ابراهيم، واتفق ان كسفت الشمس في نفس ذلك اليوم، وكانت مناسبة ليقول قائلون: إنها كسفت لموت ابن رسول الله وكان مثل هذا الاعتقاد رائجا في الجاهلية انكساف الشمس أو القمر: لموت عظيم من العظماء - ولو كان - ﷺ - من أولئك الذين يبنون لأنفسهم ولأسرهم عظمة زائفة عن طريق الدجل والمبالغات لسكت على هذا القول الذي يوافق ما كان معروفا عند الناس ولكنه انتهز الفرصة ليصحح المفاهيم، ويطارد الخرافة ويقرر الحقيقة العلمية الناصعة وقال في وضوح مؤمن وفي إيمان واضح: «أيها الناس ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تنكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته».

وقدم يوما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من

عرب مضر، فقراء بدت عليهم الفاقة والحاجة وتألم الرسول لما رآهم على هذه الحالة. فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن واقام فصلى ثم خطب يحث الناس على الصدقة على هؤلاء ولو بشق تمرة.

وهنا سبق بالفضل رجل من الأنصار، فبعد أن أمسك الناس - وجاء بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت وكانت بداية طيبة، واسوة حسنة، قال جرير راوي الحديث: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله - ﷺ - يتهلل كأنه مُذَهَّبَة (صحيفة منقشة بالذهب).

وعندئذ كان المقام مناسبا للتنويه بمن يبدأ في عمل الخير يقتدي الناس به فيه... فقال رسول الله - ﷺ - «من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من اوزارهم»[1].

وبهذا يرتبط العلم بالحياة ويتصل الدرس بالواقع ولا يعيش المعلم مع الكتب وحدها، بعيدا عما تمر به الحياة من أحداث.

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي باختصار القصة - ترغيب - ٩٤.

١١ -استخدام الوسائل المعينة:

ومن المبادئ التربوية الأصيلة في سنة الرسول المعلم: أن يستعين بكل وسيلة بصرية او سمعية متاحة تساعد على إيضاح الحقيقة المقصودة.

ومن المعروف ان البيئة لم تكن تساعد على توفير هذه الوسائل، والرسول -ﷺ- نفسه أمي لا يقرأ ولا يكتب ولكن الذي يهمنا هنا هو تقرير المبدأ والفكرة أولا وتطبيقها في الحدود المتاحة ثانيا.

وهنا نجد بعض الامثلة البينة للدلالة على ما نقول:

يروي ابن مسعود رضي الله عنه فيقول:

« خط لنا رسول الله -ﷺ- خطا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما، وخط عن يمينه وشماله ثم قال: « هذه السبل. ليس منها سبيل الا عليه شيطان يدعو اليه ثم قرأ « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله.. »[١] الانعام:

فترى في هذا الحديث أن النبي -ﷺ- يفسر

---

(١) رواه الامام احمد في مسنده - كما في تفسير ابن كثير للآية في سورة الانعام جـ٢/١٩٠

لأصحابه الوصية الأخيرة من الوصايا العشرة في سورة الانعام، ولكنه لم يقتصر على تفسيرها بالكلام المجرد بل استعمل لذلك ما هو ميسور له وهو الرمل يخط عليه بيده بدل اللوح وهو هنا يرسم صراط الله المذكور في الآية الكريمة في صورة خط مستقيم ولهذا قال: هذا سبيل الله مستقيما «ويرسم «السبل» الأخرى التي حذرت الآية من اتباعها في صورة خطوط متعرجة عن يمين الخط الأوسط المستقيم وشماله ثم يشير اليها قائلا: «هذه السبل، ليس فيها سبيل الا عليه شيطان يدعو اليه» ثم يختم هذا التوضيح العملي بقراءة الآية الكريمة، فتقع أعظم موقع في نفس السامع المشاهد وعقله. فهنا اشتراك البصر مع السمع في استيعاب معنى الآية وفهم مراد الله تعالى منها.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - مر بالسوق، والناس كنفتيه (اي عن جانبيه) فمر بجدي أسك (أي صغير الاذن) ميت فتناوله بأذنه ثم قال: أيكم يحب ان هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب انه لنا بشيء. وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حيا لكان عيبا فيه، لأنه اسك فكيف وهو ميت؟ فقال: والله للدنيا

أهون على الله عز وجل من هذا عليكم»[1]

فانظر ياأخي القارئ كيف بيّن النبي -ﷺ- المفهوم الذي أراد ايصاله الى اصحابه مستخدما هذه الوسيلة العجيبة من الوسائل المعينة، . انها وسيلة لم يشترها ولم يصنعها ولم يتكلف او يفتعل في الاستعانة بها،انها وسيلة يراها الناس ويمرون بها كثيرا ولكن النبي -ﷺ- اراد ان يتخذ منها اداة لتوضيح قيمة الدنيا التي يتهافت الناس بل يقتتلون عليها. ان هذا الدرس في تفاهة الدنيا عند الله. بجوار الآخرة لا يمكن ان يمحى من الذهن أو ينسى من الذاكرة لارتباطه بالجدي الاسك وبمسلك النبي -ﷺ- وهو يتناول بأذنه يسألهم: أيكم يحب ان هذا له بدرهم؟ ويجيبون ويسألهم حتى يقرر لهم الحقيقة المرادة في النهاية« والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم. »[2]

وغير هذا كثير مما استخدمه النبي - ﷺ - وسيلة إيضاح أو وسيلة معينة على غرس القيم الدينية والخلقية أو العقلية التي يحرص على تعليمها.

---

(١) رواه مسلم - ترغيب ٢٦٤٤

(٢) رواه مسلم. ترغيب ٢٦٤٤

ومن الأساليب المعينة على الفهم والاستيعاب، المثبتة للمعنى المطلوب: أسلوب الاشارة الحسية التي يرتبط فيها المعقول بشيء ملموس.

وكان النبي -ﷺ- كثيرا ما يستخدم هذا الأسلوب لتنبيه الغافل ويتأكد المنتبه، ومن أمثلة ذلك قوله في الحديث الذي رواه مسلم وغيره: التقوى ههنا واشار الى صدره ثلاث مرات. فهذه الاشارة الى الصدر في بيان حقيقة التقوى ومحلها أبلغ كثيرا من قوله: التقوى محلها القلب. فهذه كلمة قد تمر على الكثيرين دون أن يلقوا لها سمعا ولا يحضرون مع السمع قلبا.

ومثله حديث جابر: بعثت أناو الساعة كهاتين وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى وفرق بينهما.

فهذه الإشارة باصبعيه في بيان قرب مبعثه من الساعة له مع الوقع في النفس غير ما يقوله: بعثت قرب الساعة.

وكذلك حديث البخاري وغيره: «أناو كافل اليتيم في الجنة هكذا «واشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما» من حديث سهل بن سعيد.

فهذه الاشارة توضح المراد من الحديث الشريف بأكثر

مما تعطيه عبارة معتادة مثل: كافل اليتيم قريب من الرسول في الجنة.

ومن ذلك حديثه لمعاذ بن جبل حين أوصاه بجملة وصايا ثم قال له: ألا أدلك على ملاك ذلك كله؟ قال: بلى. قال: كف عليك هذا وأشار الى لسانه[1] إن هـذه الإشارة الحسية إلى اللسان تجعل معاذاً وكل من حضر هذا القول لا ينسى أهمية اللسان وآفاته التي تكب الناس في النار على مناخرهم.

وكل هذه الامثلة بدت الإشارة فيها الى جزء من كيان المعلم نفسه: صدرا أويدا أو لسانا.

ولكن الإشارة لا تقتصر على هذا فقد يشير المعلم الى شيء آخر يلفت النظر اليه ليتخذ منه وسيلة لتقرير مبدأ معين.

ومن ذلك إشارته الى الرجلين اللذين مرا به في المجلس أحدهما غني ومشهور والآخر فقير مغمور فسألهم حين مر الأول ما تقولون في هذا؟

(١) الحديث رواه الترمذي وفي سنده كلام كثير وهو من أحاديث الاربعين النووية.

١٢ -تخير أحسن الاساليب:

ومن أدب التعليم ومبادئه في السنة النبوية: تخير أفضل الطرائق وأرفق الأساليب، أقربها الى عقل المتعلم وقلبه وأحسنها وقعا في سمعه وبصره.

وذلك لتساعد المعلم على حسن توضيح ما يريد اعطاءه من العلم لتلاميذه وحسن تثبيته في أذهانهم وأنفسهم

ومن درس السنة وعاش في كتب الحديث رأى من الأساليب التربوية واستخدام الوسائل المعينة ما يحسب جمهور المشتغلين بالتربية أنه شيء غريب عن تراث الاسلام

فقد يستخدم عليه الصلاة والسلام الطريقة الالقائية في خطبة العامة في الجمع والعيدين ونحوها، فهذا ما يقتضيه المقام.

ولكنه مع هذا لا يدعها تمر خطبة القائية بحتة بل يطعمها بعناصر تعليميـة خاصة تشد الأبصار وتجذب الانتباه وتدعو الى التركيز.

وحسبنا ان نذكر هنا أشهر خطبة -ﷺ- وهي خطبة حجة الوداع التي ألقاها في اكبر جمع حاشد عرفته جزيرة العرب في تلك العصور في يوم النحر بمنى.

فحين اراد ان يبين لهم حرمة الدماء والاعراض والاموال لم يسق هذا المبدأ الخطير مساقا تقريريا القائيا كما يفعل كثير من الخطباء في خطبهم والزعماء في بياناتهم.

وانما بدأهم بالسؤال الذي يحرك الشوق ويثير الانتباه.

يروى ابو بكرة أنه -ﷺ- قعد على بعيره - وأمسك انسان بخطام البعير ثم قال: اي يوم هذا؟.. فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه. فقال: اليس يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: فأي شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس بذي الحجة؟ قلنا بلى.. ثم سألهم عن البلد ايضا سكتوا ثم بين لهم انه البلد الحرام ثم قال دماؤكم واموالكم واعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا »[١]

قال القرطبي في شرح مسلم: سؤاله -ﷺ- عن الثلاثة، وسكوته بعد كل سؤال منها فإنه لاستحضار فهومهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه ولذلك قال بعد هذا: « فإن دمائكم » الخ.. مبالغة في

---

(١) الحديث مشهور رواه الشيخان وغيرهما. ورواه البخاري في أكثر من موضع من صحيحه. انظر الفتح جـ١ / ١٦٨

بيان تحريم هذه الأشياء[1]

ومناط التشبيه في قوله «كحرمة يومكم هذا» وما بعده: ظهوره عند السامعين، لان اليوم والشهر والبلد كان ثابتا في نفوسهم، مقررا عندهم بخلاف الدماء والأموال والأعراض وكانوا في الجاهلية يستبيحونها فبين لهم أن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم تحريماً من البلد والشهر واليوم[2].

والمقصود هنا أنه - ﷺ - لم يسرد خطبته سردا ولم يلق بيانه القاء رتيبا يثير الملل ويبعث على النوم، بل حرك بأسئلته العقول وأشرك المخاطبين معه فاشرأبت اليه الأعناق ورنت له الأبصار وانصتت له الآذان وفي ختام خطبته يشهدهم على ادائه الامانة وتبليغه الرسالة، بنفس هذا الاسلوب: الا هل بلغت؟.. فتجاوبت معه الاصوات من كل جانب: ان نعم قال: اللهم فاشهد فليبلّغ الشاهد منكم الغائب.

ومن الأساليب الناجحة في التأثير والاقناع: التشبيه وضرب الأمثال بحيث يظهر المعقول في صورة المحسوس

---

(١) (٢) الفتح ١/١٦٨

والغامض البعيد في صورة الواضح القريب.

والدارس للسنة يجدها حافلة بالعديد من التشبيهات والأمثال التي تمثل ذروة البلاغة البشرية وقمة الروعة الأدبية.

وفي الجامع الصغير للسيوطي فقط تجد (٤٢) اثنين واربعين مثلا، وكل واحد منها كانما هو معلم يشرح ويوضح ويقرب.

يكفي ان أذكر نماذج قليلة منها:

«مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة: تضيء للناس وتحرق نفسها[١]» «مثل المؤمن مثل النحلة: ان أكلت طيبا وان وضعت طيبا وان وقعت على عودٍ لم تكسره»[٢]

«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة (المترددة المتحيرة) بين الغنمين: تعير الى هذه مرة والى هذه مرة لا تدري أيها تتبع».[٣]

---

(١) رواه الطبراني والبزار عن ابي برزة وهو ضعيف ورواه الطبراني عن جندب باسناد حسن كما قال المنذري - الفيض - جـ٥/٥١٠

(٢) رواه احمد والبيهقي عن عبد الله بن عمرو. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير ابي سبرة وقد وثق. الفيض جـ٥/١٥٠

(٣) رواه احمد ومسلم عن ابن عمر - الفيض جـ٥/٥١٥

«مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها، وهو يذبهُّن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وانتم تفلتون من يدي[1].

ولم يذكر السيوطي في الجامع أمثالا أخرى مشهورة،منها ما في الصحيحين «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة.. الحديث» ومنها «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأتمه الحديث» ولهذا سماه (الجامع الصغير) لأنه لم يقصد منه الاستيعاب.»

ومن الأساليب المؤثرة في الأنفس والعقول كذلك: أسلوب القصة ولذا عني بها القرآن وقص علينا من أنباء الرسل. وأخبار المؤمنين وصراعهم مع أهل الكفر والطغيان وما يثبت الفؤاد ويدفع ريب المرتابين ويهدي الحائرين ويزيد الذين اهتدوا هدىً.

وكذلك استخدم الرسول القصة في تبيين قيم ومعاني معينة وتثبيتها مثل بيان أثر الإخلاص في نجاة الانسان من المهالك كما في قصة الثلاثة اصحاب الغار ومثل بيان اثر

---

(١) رواه احمد ومسلم عن جابر والبخاري باختلاف يسير - الفيض جـ٥/٥١٨

الشكر في بقاء النعمة وكفر النعمة في زوالها كقصة الأعمى والأبرص والأقرع، ومثل بيان عاقبة الرحمة ولو كانت لحيوان اعجم مثل الكلب كما في قصة الذي سقى كلباً يلهث من شدة العطش فشكر الله له، فغفر له. الى غير ذلك من القصص المنشورة في كتب الحديث وما اجدرها ان تجمع[1]

١٣ -اثارة الانتباه بالسؤال والحوار:

وما أكثر ما استخدم الرسول المعلم الطريقة الاستنباطية لاستخراج الحقيقة العلمية المنشودة من أفواه المتعلمين او على الأقل تفتيح أذهانهم لتلقيها بعد تشوق النفوس لها وتطلع العقول الى معرفتها. وذلك عن طريق طرح السؤال عليهم ليجيبوا عنه ان استطاعوا او يسمعوا الإجابة الصحيحة منه صلى الله عليه وسلم.

ذكر الإمام البخاري في صحيحه بابا بعنوان «باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم» وأخرج فيه حديث عبد الله بن عمر (ان النبي - ﷺ -

---

(١) حاول ذلك مشكورا منذ عدة سنوات الشيخ الصالح محمد خليل الخطيب واعتقد ان كتابه نشر.

قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها (اي لا في الشتاء ولا في الصيف) وانها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ قال: فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: فوقع في نفسي انها النخلة. ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة»[1]

فها هوذا عليه السلام لم يلق عليهم هذه الحقيقة القاء تقريريا: ان المسلم مثل النخلة. بل اراد ان يستثير دافن ما عندهم ويلفتهم الى ملاحظة ما حولهم. ويشركهم معه في البحث وبهذا لا يصبح المتعلم مجرد جهاز تسجيل ينفعل ولا يفعل ويتلقى ولا يفكر، بل هو كائن حي عاقل يبحث ويفكر ويحاور ويناقش ويخطىء ويصيب.

وذكر ابن كثير في تفسيره حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله -ﷺ- أي الخلق أعجب إليكم إيمانا؟ قالوا: الملائكة. ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ قالوا: فالنبيون قال: ومالهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟! قالوا: فنحن. قال: ومالكم لا تؤمنون وانا بين أظهركم؟! فقال: رسول الله -ﷺ- ألا إن أعجب

(١) انظر: البخاري مع الفتح جـ١/١٥٦

الخلق ايمانا لقوم يؤتون من بعدكم، ويجدون صحفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها[1]

فلم يذكر لهم الرسول -ﷺ- ما يريد بيانه لهم الا بعد هذا الحوار الممتع وطرح السؤال ومناقشة الأجوبة حتى اذا تشوقت النفوس الى معرفة الحقيقة جاءت على لسانه -ﷺ- ناصعة جلية.

ومما كان يستخدمه -ﷺ- للتشويق وإثارة الانتباه: أن يسألهم عن معاني بعض الالفاظ المعروفة معانيها عندهم فيجيبوه بما يعرفونه من معانيها المشتهرة بينهم فإذا فعلوا بادر الى تفسيرها لهم بإعطائها المدلول الجديد الذي يريد وهو في الغالب مدلول مجازي قد لا يلتفتون اليه ولكنه عند النبي -ﷺ- أحق أن يفهم من اللفظ.

وذلك كقوله لأصحابه يوما: ما تعدون الصرعة فيكم » قالوا؛ الذي لا تصرعه الرجال. قال: ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب[2].

---

(١) عزاه ابن كثير الى الحسن بن عرفة. وهو منكر الحديث. ولكن ذكر ان له شاهدا عن عمرو مرفوعا عند ابي يعلي وابن مردويه والحاكم وصححه مع ان فيه راويا ضعيفا: وروى نحوه عن انس بن مالك مرفوعا. تفسير ابن كثير جـ١/٤٢ ط الحلبي.

(٢) اخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود.

ومثل ذلك قوله: أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من امتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة... ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته. فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار[1]

ونحو هذا أن يلقي اليهم عبارة يستنكر ظاهرها ليسألوا عن المراد منها فيأتي الجواب مصححا المفهوم الخاطئ لها فيتمكن المعنى من النفس أفضل تمكن.

وفي هذا جاء الحديث الصحيح المشهور: انصر اخاك ظالما أو مظلوما وكانت هذه كلمة متداولة في الجاهلية العربية أشبه بالمثل السائر ودلالته الانتصار للعصبية ودفاع كل امرئٍ عن قومه على حق كانوا أو كانوا على باطل، ولأجل هذا حين قال النبي - ﷺ - هذه الكلمة وقفوا منها موقف الدهشة والاستغراب فالاسلام قد جاء بالعدل المطلق «ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين» ولا

---

(١) رواه مسلم والترمذي وغيرهما عن ابي هريرة - ترغيب ٤١١٢

يجر منّكم شنآنُ قوم على ألا تعدلوا » وبرىء من العصبية بكل ألوانها فكيف يقر الرسول الذي جاء بالهدى ودين الحق هذه الكلمة الجاهلية؟ ولا عجب ان بادر الصحابة رضي عنهم بالسؤال والاستفهام قائلين: يا رسول الله ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟! فقال صلى الله عليه وسلم: تمنعه من الظلم فذلك نصر له[1]

فهذا تعديل أساسي في مفهوم النصرة للاخ والقريب فان إعانته على ظلم وتأييده في الباطل، معناه: جَرُّهُ في الدنيا الى كوارث وفي الآخرة الى النار أما منعه من الظلم فهو إبعاد له عن الشيطان وتقريب له من الرحمن وزحزحة له عن النار وإدناء له من الجنة ولهذا كان هذا هو النصر الحقيقي له.

ولكن هذا المعنى الكبير لو ألقي لهم تقريرا ما آستثار اليقظة الفكرية التي واجه بها الصحابة الكلمة المشهورة وجعلهم يعجبون من ظاهرها وينكرونه ويسألون عن المراد حتى يفهموا.

ويدخل في هذا الباب بعض العبارات التي كان يلقيها

---

(١) رواه البخاري.

الرسول المعلم بصورة تشد الانتباه شدا كمثل قوله يوما عند أصحابه: والله لا يؤمن. والله لا يؤمن. والله لا يؤمن. هكذا بصيغة القسم وبالتكرار الذي يفيد التأكيد ايضا بضمير الغائب الذي لا يعود على مذكور أو احد معروف. فالفعل المنفي حتما لا يعرف من فاعله ولهذا قالت الصحابة حين سمعت هذه الجملة العجيبة المكررة: يا رسول الله لقد خاب وخسر! من هذا؟؟ فقال: عليه صلوات الله وسلامه: من لا يأمن جاره «بوائقه»[1] الا ما اعظم الفرق بين تأثير هذه الجملة «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» حين تذكر جملة تقريرية خبرية كالمعتاد وبين تأثيرها حين ذكرت بالصورة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام.

والمهم بعد ذلك كله: ان يكون المعلم مؤمنا بمهنته محبا لرسالة العلم راغبا في الارتقاء بتلاميذه، شاعرا بأبوته وبنوتهم له حريصا على ان يبلغ ما في نفوسهم وان يبلغهم مع في نفسه، متفننا في بيان ذلك بكل طريقة ميسورة ولو بالكلمة بشرط ان تكون مبينة مشرقة.

وكذلك فإنه -ﷺ- كان حريصا كل الحرص على أن

---

(١) رواه البخاري من حديث شريح الكعبي - ترغيب - حديث ٣٦٨٨

يبين عما في نفسه أبلغ الإبانه وأن يفهم عنه ما يريد ولا يدع سامعه حتى يفهم عنه.

أعان على ذلك أسلوبه البليغ في القول الذي بلغ قمة البيان البشري في اصابة المعنى وحسن التعبير وموافقة المقال للمقام كما اعانه طريقته الحسنة في الاداء التي تختلف من شخص لآخر ومن ظرف الى ظرف.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان كلام رسول الله -ص- كلاما فاصلا يفهمه كل من يسمعه[1]

وعن أنس ان النبي -ﷺ- كان اذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه[2] وكان أصحابه الذين تلقوا عنه واقتبسوا من مشكاته يسيرون على هديه في تعليم الخلق وهديهم الى الحق والافتنان في الأساليب التي تعينهم على الوفاء بما يقصدون من إنارة الالباب وتزكية الانفس.

وأكتفي بهذه الصورة الحية من صور التعليم الذكي ابدعها فكر الصحابي المفترى عليه ابي هريرة رضي الله عنه.

فعن أبي هريرة: أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها

---

(١) رواه ابو داود ٤٨٣٩

(٢) رواه البخاري.

فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم! قالو: وماذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله - ﷺ - يقسم وانتم ههنا ؟ لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: واين هو؟ يا أبا هريرة، قال في المسجد، فخرجوا سراعا ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا ابا هريرة قد اتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئا يقسم، فقال لهم: وما رايتم في المسجد أحدا؟ قالوا: بلى. رأينا قوما يصلون وقوما يقرأون القرآن وقوما يتذاكرون الحلال والحرام... فقال لهم ويحكم فذاك ميراث محمد عليه الصلاة والسلام[١].

---

(١) رواه الطبراني باسناد حسن - ترغيب ط حديث ١٣٨

الفصل الخامس

الرسول والعلم التجريبي

العلم الذي دعا اليه الاسلام، وحث عليه القرآن والسنة: هو كل معرفة مستندة الى استدلال.. ولهذا لا يعد علماء المسلمين التقليد علما، لأنه اتباع لقول الغير بلا حجة.

وعلى هذا يشمل العلم في الاسلام مجالات عدة تقصر عن الدلالة عليها كلمة «العلم» بمفهومها الغربي الحديث.

فيشمل العلم مجال «ما وراء الطبيعة» مما جاء به الوحي، فكشف به عن حقائق الوجود الكبرى، وأجاب به عن الأسئلة الخالدة التي حيرت الانسان منذ فكر وتفلسف وهي: من أين؟ والى أين؟ ولم؟

وبالجواب عن هذه الأسئلة عرف الانسان مبدأه ومصيره ورسالته، عرف نفسه وعرف ربه واطمأن الى غايته.

وهذا أول ما يطلق عليه لفظ «العلم» بل هو كما يسميه ابن عبد البر «العلم الأعلى».

ويشمل العلم مجال (الانسان) وما يتعلق به من دراسات، تبحث عن جوانب حياته وعلاقاته المكانية والزمانية

والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وغير ذلك مما تهتم به العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويشمل العلم مجال (الماديات) المبثوثة في الكون علويه وسفليه، وهي تتضمن علوم الطبيعة والكيمياء والأحياء والفلك والطب والهندسة وغيرها، مما يقوم على الملاحظة والتجربة.

وهذا المعنى أو هذا المجال، هو الذي يقف عنده الغربيون اليوم، لا يجاوزونه اذا تحدثوا عن «العلم».. لأنه وحده الذي يخضع للاختبار والقياس، وتحكم عليه المشاهدة والتجربة، ويمكن ادخاله «المعمل» أو «المختبر».

وأقول: إن الاسلام لا يقف عقبة في سبيل هذا النوع من «العلم» الذي تعتبر المادة موضوعا له، ولا يعده مقابلا للإيمان، او معاديا له، كما اعتبرت ذلك أديان أخرى في مراحل تاريخية معينة.

بل أقول بكل صراحة واعتزاز: ان القرآن والسنة قد هيئا - بمفاهيمها - المناخ النفسي والعقلي الذي يثبت فيه هذا العلم، بحيث ترسخ أصوله، وتمتد فروعه، ويؤتي أكله باذن ربه.

ومن هذه التعاليم:

١ - تكوين العقلية العلمية:

فهناك عقلية عامية او خرافية تصدق غالبا كل ما يقال لها، وتقبل كل ما يلقى اليها، وخصوصا اذا جاء ممن تعظمه من الآباء والكبراء، وتنقاد لما عليه جمهور الناس صوابا كان أو خطئا، لا تمتحن أفكارها، ولا تخضع معلوماتها لمناقشة او اختبار، شعارها:

« هذا ما وجدنا عليه آباءنا » أو « نحن مع الناس » أحسنوا أو أساؤوا.

وفي مقابل هذا اللون: « العقلية العلمية الموضوعية » التي لا تقبل نتائج بغير مقدمات ولا تخضع الا للحجة والبرهان، ولا تحكم العواطف والظنون في مقام يطلب فيه اليقين المجرد والعلم المحقق، وقد وضح القرآن والسنة المعالم الأساسية التي تقوم عليها هذه العقلية العلمية، ونستطيع أن نوجزها في النقاط التالية:

١ - ألا تقبل دعوى بغير دليل مهما يكن قائلها، والدليل هو: البرهان النظري في العقليات « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » النمل. والمشاهدة او التجربة في

الحسيات «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا، أشهدوا خلقهم» الزخرف. وصحة الرواية وتوثيقها في النقليات «ايتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين» الأحقاف.

٢ - رفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين الجازم، والعلم الواثق - ولذا رد القرآن مزاعم المشركين في آلهتهم بقوله: «وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا» النجم.

ورد مزاعم اليهود والنصارى في صلب المسيح فقال «مالهم به من علم الا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا» النساء:

وجاء في الحديث الصحيح: «إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث[1]»

٣ - رفض العواطف والأهواء والاعتبارات الشخصية حيث يطلب الحياد والموضوعية، وحيث يكون التعامل مع طبائع الأشياء وقوانين الوجود، اياً كانت نتائجها. يقول القرآن منكراً على المشركين: «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس» النجم. وقال في خطاب داود: «فاحكم بين

---

(١) رواه أحمد والشيخان وابو داود الترمذي عن أبي هريرة.

الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله » ص:
وفي خطاب الرسول ﷺ « فإن لم يستجيوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؟ « القصص »:

٤ - التمرد على الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين، سواء كانوا من الآباء والأجداد أم من السادة والكبراء أم من العامة والجماهير، وفي القرآن انكار شديد على الذين يقولون:« بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » البقرة. وفي القرآنَ كذلك نعي شديد على موقف الاتباع الذين أطاعوا سادتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيل، وبيان تبرؤهم يوم القيامة، وتحميل الفريقين تبعة ما هم فيه من ضلال قال: « لكل ضعف ولكن لا تعلمون » الأعراف. وفي الحديث أيضاً تحذير من اتباع الجمود وإن كانوا على خطأ، وإدانة لعقلية من يرضى لنفسه أن يكون تابعاً وقد خلقه الله سيداً « لا يكن أحدكم إمّعة يقول: أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألا تظلموا »وهذا

الموقف الأخلاقي الذي يتميز باستقلال الشخصية في السلوك، يدعو إلى مثله في الفكر أيضاً.

٥ - الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمل« في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » الأعراف. وفي الانسان نفسه فهو عالم وحده « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » الذاريات وفي سير التاريخ البشري ومصائر الأمم، وسنن الله في الاجتماع الانساني « قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » آل عمران.

محاربة الأمية:

محاربة الأمية التي كانت منتشرة بين العرب حتى كانوا يعرفون بين الأمم بـ« الأميين » وهكذا سماهم القرآن « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم »، وقال عليه الصلاة والسلام معبراً عن الواقع القائم حينذاك: « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ».

والرائع هنا أن هذا النبي الأمي في هذه الأمة الأمية. كان أول من مَجَّد « القلم » وعمل على إشاعة الكتابة، ومحو الأمية بين أتباعه، بكل سبيل.

ولا غرو، فإن أول آيات أنزلت عليه من ربه، تضمنت

التنويه بالقراءة والقلم والتعليم «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم» وثاني سورة نزلت من القرآن العظيم سميت سورة «القلم» وفي مطلعها أقسم الله بهذه الأداة الصغيرة في حجمها، الكبيرة في أثرها «القلم» فقال «ن والقلم وما يسطرون». وحينما أتيحت للرسول- ﷺ- فرصة لتعليم بعض المسلمين الكتابة، لم يدعها تفوت دون أن يستفيد منها وذلك في غزوة بدر، حيث كان بعض أسرى قريش ممن يعرفون الكتابة، فجعل فداء الواحد منهم من أسره، أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

وذكر ابن سعد عن عامر الشعبي قال: أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون. فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من المدينة فعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه[1].

وذكر أن زيد بن ثابت- أحد كتاب الوحي- كان ممن علمه أسرى قريش. ومعنى هذا أن خطة النبي ﷺ لم تكن

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٢ ص٢٢ ط بيروت.

قائمة على مجرد « فك الخط » كما يقولون، بل لا بد من درجة الحذق والاتقان، حتى لا ينسى ويرتد إلى الأمية من جديد.

ولم يمنع النبي ﷺ اختلاف الدين أن يأخذ من المشركين خير ما عندهم، ولا سيما أن مجرد تعلم الكتابة لا يحمل- في العادة- فكراً ولا ثقافة، ولا يتلون بلون المعلم.

ولم يقف حث النبي ﷺ على تعلم الكتابة عند الرجال فقط بل شمل النساء أيضاً[١] وقد علمت الشفاء بنت عبد الله أُمَّ المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة[٢].

٢ - تعلم اللغات:

وذلك أن رسالته- ﷺ- رسالة عالمية، فهو- وإن كان عربياً- والكتاب المنزل عليه عربي، وقد أرسله الله بلسان قومه ليبين لهم- قد بعث للناس كافة «ليكون للعالمين نذيرا »« وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين » « قل يا أيها الناس

---

(١) أما الحديث الذي رواه الحاكم في المستدرك جـ٢ ص٣٩٦ عن عائشة مرفوعاً « لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة- يعني النساء- وعلموهن المغزل وسورة النور » وقال الحاكم: صحيح الاسناد، فقد تعقبه الذهبي وقال: بل موضوع وآفته عبد الوهاب (ابن الضحاك).

(٢) رواه أحمد وأبو داود وسكت عنه هو والمنذري ورجال اسناده رجال الصحيح غير ابن مهدي البغدادي المصيصي وهو ثقة كما في نيل الأوطار جـ٩ ص ١٠٣ ط دار الجيل - لبنان.

إني رسول الله اليكم جميعا ».

فلا بد من ترجمة بينه وبين أرباب اللغات الأخرى، حتى يمكنه تبليغ الدعوة إليهم، وتلقي الإجابة منهم، وقد كان عنده- ﷺ- من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية والحبشية، ويكفيه هَمَّ الترجمة منها وإليها، ولكن لم يكن عندهُ من يعرف اللغة السريانية التي يكتب بها يهود، فأمر بذلك كاتب وحيه الانصاري النابغة زيد بن ثابت- رضي الله عنه- ليتقنها قراءة وكتابة ويستغني بها عن الوسطاء من اليهود في ذلك.

قال زيد: أمرني رسول الله ﷺ، فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، فما مر لي نصف شهر حتى تعلمته وحذقته، فكنت أكتب له اليهم، وأقرأ له كتبهم[1]، ولعله كان على شيء من المعرفة بها من قبل حتى أمكنه أن يحذقها في هذه المدة القصيرة. ومن هنا حرص كثير من المسلمين على معرفة اللغات، فترجموا منها وإليها، وقال في ذلك الشاعر:

(١) رواه البخاري وأبو داود والترمذي انظر جمع الفوائد وأعذب الموارد جـ١ ص٣١٩ ط المدينة المنورة.

بقـدر لغـات المرء يكـثر نفعه

فتلـك لـه عنـد الملمات أعوان

فأقبـل على درس اللغات وحفظها

فكـل لسان في الحقيقة انسان

٣ - استخدام أسلوب الإحصاء:

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين أو الغوغائيين من الناس فإن النبي ﷺ، قد بادر إلى الانتقاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة.

فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: أحصوا لي كم يلفظ الاسلام.

وفي رواية للبخاري أنه قال: اكتبوا لي من يلفظ بالاسلام من الناس. قال حذيفة فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل[١] الحديث.

---

(١) انظر: جامع الأصول جـ١٠ ص١٠٠ حديث ٧٥٧٠ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

فهو إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به، ولهذا كان الاحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال.

والإحصاء الذي تم في عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة وتم بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويسر، يرينا إلى أي حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية.

وفي مقابل هذا نجد في العهد القديم، أن أحد أنبياء بني اسرائيل أراد أن يعمل لهم احصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم، كأنما «الاحصاء» يمثل تحدياً للقدر أو للإرادة الإلهية، وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أن «التوراة» والكتاب المقدس لا يتيح مناخاً مناسباً لانشاء عقلية علمية.

التخطيط:

وإذا كان الاحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها، والتخطيط إنما يعتمد على الاحصاء، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل.

ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلاً للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان.

والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل. ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته. ولا بد له أن يخطط حياته ويضع لنفسه منهاجاً يوصله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبته.

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافي التوكل على الله أو الإيمان بقضائه وقدره ولهذا لا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط، فضلاً عن أن يوجه إليه، أو يحث عليه.

والحق أن الذي يتعمق في دراسة كتاب الله وسنة رسوله يتبين له أنها يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أعنتها بغير ضابط ولا رابط ولا نظام، وبين الرسول ﷺ ان التوكل على الله لا يعني اطراح الأسباب أو اغفال السنن، التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود. ولا

يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد قائلاً: يا رسول الله، أأعقل ناقتي وأتوكل، أم أطلقها وأتوكل؟[1]

وقال الإمام الطبري يرد على من زعم أن تعاطي الأسباب يؤثر في كمال التوكل: «الحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب، اتباعاً لسنته وسنة رسوله، فقد ظاهر - ﷺ - بين درعين ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وهاجر إلى المدينة، وتعاطى أسباب الأكل والشرب وادخر لأهله قوتهم[2]، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك[3]».

ومن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام، وجد أنه كان يعد لكل امر عدته ويهيىء له أسبابه، وأهبته، آخذاً

---

(1) رواه الترمذي من حديث أنس. وقال: غريب أي ضعيف، وأنكره يحيى القطان لكن أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عمرو بن أمية الضمري، واسناده كما قال الزركشي صحيح ورواه عنه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه بلفظ: قيدها وتوكل. واسناده كما قال الزين العراقي- جيد- انظر فيض القدير ص٧ حديث ١١٩١

(2) نقله الشوكاني في نيل الأوطار جـ٩ ص٩٢ ط دار الجيل بيروت.

(3) جاء في الصحيح انه ادخر لأهله قوت سنة.

حـذره، مقدراً كافة الاحتمالات، واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى.

فهو حين أمر أصحابه بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم- بالهجرة الى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطاً، أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية والدينية والسياسية للحبشة في ذلك الوقت.

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان- مهما بعد- في شبه جزيرة العرب، فإن قريشاً- بما لها من نفوذ ديني وأدبي- تستطيع أن تلاحقهم.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيداً إلى بلاد مثل الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم وتكون الهجرة مهلكة لهم.

لقد كانت الحبشة هي المكان المناسب جغرافياً، فهو ليس جد بعيد، ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب دينياً، فقد كانوا

أهل كتاب من النصارى الذي يعدون أقرب مودة للمسلمين.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسياً، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنصفة، ولهذا قال الرسول لأصحابه: «إن بها ملكاً أرجو ألا تظلموا عنده»

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في عزلة عن العالم من حولهم رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض.

ويدل على ذلك أيضاً موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، مما نزلت فيه اوائل سورة «الروم»«غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون».

وهكذا.. فقد كانوا- وهم في مجرى الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد- على صلة بالصراع العالمي بين الدولتين العظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين/ الشرقي والغربي.

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ في هجرته إلى المدينة، ففيها يتجلى التخطيط العلمي، والتوكل الإيماني جنباً إلى جنب.

لقد أعد عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعنيات.

لقد اطمأن إلى المهجر الذي سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

واطمأن إلى الرفيق الذي سيصحبه في رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجآت، ولم يكن هناك أفضل من أبي بكر رفيقاً.

واطمأن إلى الفدائي الذي سيبيت مكانه، معرضاً نفسه لاحتمالات الخطر، وغدرات المتربصين، ولم يكن ثم أفضل من علي فارس الاسلام لهذه المهمة.

ورتب الدليلَ الخبير الذي يدله على الطريق وما فيه من منعطفات ومخابئ يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين، فكان مشركاً أمينا هو عبد الله بن أريقط.. وهو ما أخذ منها الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية، ومع الاطمئنان والأمان.

وهيأ الرواحل التي سيمتطيها هو وصاحبه ودليله في سفرهم الطويل، واتفقوا على المكان الموعود الذي يستقلون به الركائب.

وتخير المخبأ الذي يختفي فيه أياماً معدودة، حتى تخف حدة الطلب، ويتملك القوم اليأس، واختاره في غير طريق المدينة زيادة في التعمية على القوم، فكان غار ثور.

وأعد فريق الخدمة الذي يأتي بالزاد والانباء خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد الله بن أبي بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتي بغنمه فيحلبون منها، ويعفي على آثارها أسماء وعبد الله.

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، لم تترك فيها فجوة دون أن تملأ، ولا ثغرة دون أن تسد، ووضع فيها كل جندي في دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبي بكر، غير دور علي، غير دور أسماء، وكل في موقعه الصحيح.

ومع هذا الاحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفي لكشف الأمر وإفساد الخطة، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه، ليرى الرسول وصاحبه في الغار، وهذا ما خشيه أبو بكر، وصرح به الرسول ﷺ، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟ «لا تحزن، إن الله معنا»

وهنا تجلى دور «التوكل» الحق، فبعد أن يبذل الانسان ما في وسعه، ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، يدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، لله وحده وهنا تقع «ان الله معنا» موقعها، وتؤتي أكلها.

٣ - اقرار منطق التجربة في الأمور الدنيوية:

ولعل أظهر ما يميز «العلم» بالمفهوم العصري أو الغربي: أنه لا يقوم على المنطق الشكلي أو الصوري أو القياس الذي ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة، ويخضع في نتائجه لما تأتيان به. ولهذا يسمى «العلم التجريبي» ويسمى منهجه «المنهج التجريبي».

وهنا أيضاً نجد الرسول- عليه الصلاة والسلام- سبق إلى اقرار مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها. فما أثبتت التجربة نفعه في هذا فهو مطلوب شرعاً، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعاً.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهي

واد غير ذي زرع، فقال كلمته من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحي والدين الذي لا يجوز مخالفته. فتركوا التأبير، فخرج التمر رديئاً.

والقصة في صحيح مسلم وغيره، رواها عدد من الصحابة منهم طلحة بن عبيد الله ورافع بن خديج وعائشة وانس رضي الله عنهم.

ففي المسند عن طلحة رضي الله عنه قال: مررت مع النبي- ﷺ- في نخل المدنية، فرأى أقواماً في رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قال يأخذون من الذكر فيحطون في الانثى يلقحون به فقال: ما أظن ذلك يغني شيئاً. فبلغهم، فتركوه ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السنة شيئاً. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: إنما هو ظن ظننته، إن كان يغني شيئاً فاصنعوا، فإنما أنا بشر مثلكم، والظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله عز وجل، فلن أكذب على الله »[1]

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسند طلحة حديث رقم ١٣٩٩ قال الشيخ شاكر: اسناده صحيح وقد جاء في المسند مختصراً برقم ١٣٩٥ ورواه مسلم أيضاً برقم ٢٣٦١.

وفي صحيح مسلم[1] من رواية رافع بن خديج أنه قال لهم: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر».

وفيه[2] من رواية عائشة وأنس: أنه ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شيصاً- بسراً رديئاً- مالنخلكم؟!. قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

النزول عند رأي الخبراء وأهل المعرفة:

ومن دلائل العقلية العلمية الحقة: النزول عند رأي الخبراء وأهل الذكر والمعرفة في كل فن من الفنون أو خبرة من الخبرات. وهذا ما هدى إليه القرآن في مثل قوله: «فاسأل به خبيراً» «ولا ينبئك مثل خبير».

ففي الأمور الحربية، يجب الوقوف عند رأي الخبراء العسكريين، وفي الاقتصاد يؤخذ برأي الاقتصاديين، وفي الصناعة تحترم توصيات الصناعيين.. وهكذا.

وفي معركة بدر الكبرى، حيث التقى الرسول والمسلمون بالمشركين من قريش، ونزلت قريش بالعدوة

---

(١) رواه من حديث رافع بن خديج برقم ٢٣٦٢

(٢) رقم ٢٣٦٣.

القصوى من الوادي، وخرج الرسول يبادرهم إلى الماء، حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به.

وهنا يتقدم الحباب بن المنذر الانصاري إلى النبي ﷺ، باقتراح يقول فيه: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل: أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟! قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي ادنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب[1]، ثم نبني عليه حوضاً، فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون: فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي[2].

---

(١) نغور: ندفن ونطمس. القلب: جمع قليب وهو البئر.

(٢) الحديث في سيرة ابن هشام جـ٢ ص٢٧٢ عن ابن اسحق قال: فحدثت عن رجال من بني سلمة انهم ذكروا ان الحباب.. الخ.. قال الشيخ الألباني في تخريج «فقه السيرة» للغزالي: وهذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بين ابن اسحاق والرجال من بني سلمة (وأيضاً هؤلاء الرجال مجهولون، ولا يدري أعاصروا الحباب أم لا) ووصل الحاكم هذا الخبر في المستدرك (جـ٢/٤٢٧) ولكنه لم يصححه، وأنكره الذهبي، ولكن وصله ابن حجر في الإصابة «جـ١/٤٠٢ من طريق ابن اسحاق في السيرة، قال: حدثني يزيد ابن رومان عن عروة وغير واحد في قصة بدر فذكر قول الحباب» الخ وهذا السند إلى عروة صحيح إلا أن الحباب مات في خلافة عمر، وعروة ولد في أواخرها، فلم يدركه فالحديث مرسل، ولكن يعضده شهرة القصة بين الصحابة الذين أدركهم عروة، وهم كثرة، والذين كانوا يروون أنباء الغزوات لأبنائهم- كما أن للحديث شاهداً باسناد

يريد الحباب بسؤاله أن يستوضح عن اختيار النبي ﷺ للمكان الذي نزل به: أهو بوحي من الله، فلا يسعه إلا السمع والطاعة والتنفيذ بكل دقة، أم هو من التدابير العسكرية التي يتخذها النبي ﷺ بوصفه قائداً للمعركة وإماماً للمسلمين؟ وفي هذه الحالة يستطيع أن يدلي بدلوه، ويشير برأيه، وبخاصة أنه خبير بالمنطقة «عالم بها وبقلبها» كما ذكر ابن سعد[1].

وقدم الحباب مشروعه إلى النبي ﷺ فرحب به ونزل عن رأيه الأول إليه، وقال بكل شجاعة ووضوح: لقد أشرت بالرأي.. ووضع الاقتراح موضع التنفيذ.

واقترح عليه سعد بن معاذ بناء عريش له، يكون فيه ويشرف على المعركة من بعيد فأثنى عليه خيراً، ونفذ اقتراحه[2].

وفي غزوة الأحزاب روي أن سلمان الفارسي أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فقبل النبي

ضعيف عند ابن شاهين كما في الإصابة أيضاً، وقد نقلت كل كتب السيرة خبر الحباب، وتلقته بالقبول.

(١) طبقات ابن سعد جـ٢ ص١٥ ط بيروت.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ ص٢٧٢- ٢٧٣ ط دار إحياء- التراث العربي- بيروت

مشورته وبادر بتنفيذها.

ولهذا لما أقبل فرسان المشركين تسرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها[1].

ولا عجب أن يقتبس المسلمون من أساليب الفرس أو الروم أو غيرهم ما يتمنعون به من عدوهم، وما يمكنهم من النصر عليه، وكل ما يعود عليهم بالخير في حياتهم فالوسائل لا حكم لها في ذاتها وإنما حكم مقاصدها.

٤ - اقتباس كل علم نافع:

ويحث النبي ﷺ على اقتباس كل علم ينفع الاسلام وأهله ولو كان من عند غير المسلمين، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجة.

«الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق بها»
وقال علي رضي الله عنه: العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين[2]

وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم المادية

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص٢٣٥
(٢) جامع بيان العلم جـ١/١٢١

المحضة التي لا تصطبغ بعقائد أصحابها ولا بأفكارهم، لأنها قوانين كونية عامة يدين بها المؤمن والكافر، يخضع لسنتها البر والفاجر.

ومن هنا لم يجد المسلمون حرجاً في اقتباس العلوم الكونية من الطب والكيمياء والفلك والبصريات والرياضيات وغيرها من أمم الحضارات القديمة مثل اليونان والفرس والروم، ولا سيما اليونان.

وهذا بخلاف الدراسات الأخرى التي تتصل بالدين والقيم والمفاهيم، وتؤثر في وجهة نظر دارسها إلى الله والطبيعة والانسان والتاريخ والمجتمع.

ومن هنا أنكر النبي ﷺ على عمر حين رآه يقرأ شيئاً من صحائف أهل الكتاب من اليهود، لأن الله قد أغنى بالقرآن المحفوظ عن كتب أصابها التحريف والتبديل، واختلطت فيها كلمات الله بأوهام البشر، وأهواء الخلق، ففقدت الثقة بعصمتها، والدين لا يجوز أن يؤخذ إلا من مصدر إلهي معصوم، ثابت النسبة إلى الله تعالى.

روى الإمام احمد عن جابر بن عبد الله ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من

بعض أهل الكتاب، فرآه النبي ﷺ فغضب فقال: «أمتهوكون[1]فيها يا ابن الخطاب؟والذي نفسي بيده،لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به. والذي نفسي بيده لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني »[2]

وإنما غضب النبي ﷺ وتغير وجهه واشتد في انكاره، لأن الأمر هنا أمر دين لا يؤخذ إلا من الصادق المصدوق.

أما علوم الحياة وفنونها، وما يهتدي إليه الناس بعقولهم وتجاربهم فهو ملك عامة البشر، نأخذه من أي وعاء خرج، ونلتمسه من الشرق أو الغرب، ونقتبسه من المسلم والمشرك، كما رأيناه ﷺ يستفيد من أسرى المشركين في محو الأمية، ويأخذ بفكرة حفر الخندق حول المدينة وهي من أساليب الفرس، ويستخدم المنجنيق في حصار الطائف، ويخطب

---

(١) متهوكون: أي متحيرون، يعني هل أنتم متحيرون أو مترددون في عقيدتكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم ونبيكم؟

(٢) رواه احمد كما في ترتيب المسند للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا- كتاب العلم- وقم ٦٢ ونقل في تخريجه عن صاحب « التنقيح » أن رجاله رجال الحسن، وهو عند أحمد وابن ماجه عن ابن عباس واسناده حسن، وعند ابن حبان عن جابر أيضاً باسناد صحيح. وفي الباب عن عبد الله بن ثابت الانصاري عند احمد وابن مسعود الحاكم في « الكني » والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان، وعن جابر عند الدارمي. الفتح الرباني جـ١ ص١٧٥.

على المنبر وهو الذي صنعه نجار رومي.

ونرى خلفاءه الراشدين يسنون للأمة أموراً لم يكن للعرب بها عهد، إنما اقتبسوها من غيرهم من الأمم، إذ رأوا فيها صلاحاً ونفعاً. فها نحن نرى عمر يستجيب لمقترحات بعض أصحابه فيأخذ بفكرة التأريخ وفكرة تدوين الدواوين.

بل ذهب بعض الباحثين إلى أن التدوين قد بدأ منذ عهد النبي ﷺ، أخذ مما ذكرناه من قبل من الأمر بالاحصاء الكتابي للمسلمين بعد الهجرة[1].

الحملة على الأوهام والخرافات:

وأهم من هذا كله، الحملة المشددة المتكررة على الأوهام والخرافات والشعوذات التي كان لها في الجاهلية سوق نافقة، ولها في ظل كثير من الديانات السماوية والوضعية سماسرة ودعاة، يقولون فيسمعون، ويأمرون فيطاعون، ويدعون فيجابون أولئك هم الكهنة والعرافون والسحرة والمنجمون، الذين يزعمون أنهم قادرون على خرق

---

(١) انظر: التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية للكتاني جـ١ ص٢٢٧، ٢٢٨.

سنن الكون وهتك أستار الغيب وكشف مكنونات الصدور.

وجاء الاسلام فأغلق- بقوة- هذه السوق المخربة وحجز على تجارها المحترفين، وسماسرتها المخادعين، وصادر بضاعتها الزائفة، وأعلن في وضوح مشرق أن سنن الله في الكون لا تتبدل، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن الخير كل الخير في احترام السنن ورعاية قانون الأسباب والمسببات.

ولا غرو أن نقرأ في كتب السنة المشرفة قبل هذه الأحاديث عن رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر.. الحديث[١].

«من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»[٢] أي علق على نفسه تميمة أو حرزا، أو نحوه، مما يزعمون أنه يقي من الجن أو العين أو المرض.

«ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له،

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابي هريرة

(٢) رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة، وقد ذكرنا أن الراجح ثبوت سماعه منه.

أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، كفر بما أنزل على محمد ﷺ[1].

« ومن أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[2]

« من أتى عرافاً، فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً[3] وعن ابن مسعود موقوفاً « من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً يؤمن بما يقول، كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[4].

والكاهن: هو الذي يخبر عن بعض المضمرات، فيصيب بعضها ويخطئ أكثرها، ويزعم أن الجن تخبره بذلك، والعراف: كالكاهن، وقيل: هو الساحر. وقال البغوي: « العراف: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها، كالمسروق: من الذي سرقه؟ ومعرفة

---

(١) رواه البزار باسناد جيد من حديث عمران بن حصين ورواه الطبراني من حديث ابن عباس- دون قوله:- ومن أتى- الخ » باسناد حق كما في الترغيب حديث ٤٣٨٤ وقد روى البزار الجملة الأخيرة من حديث جابر باسناد جيد قوي ترغيب ٤٣٨٨.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وفي أسانيدهم كلام. ذكره المنذري في مختصر السنن والحاكم، وقال: صحيح على شرطها.

(٣) رواه مسلم-

(٤) رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات كما في الترغيب: ٤٣٩٥.

مكان الضالة، ونحو ذلك».

ومثل الكاهن والعراف: المنجم- وهو الذي يدعي معرفة الغيوب المستقبلة عن طريق النجوم وما لها من أسرار وتأثيرات في العالم الأرضي، وبعضهم يسمي المنجم كاهناً.

وفي الحديث: «من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»[1]

وليس المراد بعلم النجوم هنا: علم الفلك أو الهيئة- كما كان يسمى من قبل- والذي نبغ فيه كثير من علماء المسلمين، والذي اتسعت بحوثه وامتدت جذوره في هذا العصر، فهذا علم قائم على الملاحظة والتجربة والقياس واستخدام الآلات وبه استطاع الانسان في عصرنا أن يصل إلى القمر، ويجلب منه بعض الأتربة والصخور ليحللها ويستفيد من ورائها.[2]

وليس في هذا أي منافاة لحقيقة دينية أو لقاعدة شرعية أو لنص ثابت في قرآن أو سنة.

ولست أستدل لذلك بقوله تعالى في سورة الرحمن: «يا

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عباس. وقال النووي في «الرياض» والذهبي في «الكبائر» اسناد أبي داود صحيح. الفيض جـ٦/٨٠

(٢) انظر: فيض القدير جـ٣/٢٥٦ وجـ٦/٨٠.

معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » ولا أفسر السلطان هنا بالعلم كما ذهب إلى ذلك بعض علماء العصر.

فالواضح أن سياق الآية يدل بوضوح أن الخطاب في الآخرة لا في الدنيا وهو خطاب تعجيز للثقلين: انهم لا يستطيعون الفرار من قبضة العدالة الإلهية إلا إذا خرجوا من ملك الله، وأنى لهم أن يخرجوا منه، وأين يذهبون؟ فمعنى «لا تنفذون إلا بسلطان » أي لا تنفذون مطلقاً، لأنه لا سلطان لكم أمام سلطان الله تعالى.

أما الصعود إلى القمر فليس نفاذاً من أقطار السموات والأرض، كيف وهو لا يزال في إطار المجموعة الشمسية، بل أقرب كوكب منها إلى الأرض، وهو القمر فإذا اعتبرنا الصاعد إلى القمر خارجاً من قطر الأرض كما هو في الظاهر- حيث جعل القرآن القمر في السماء (وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) فانه لم يخرج لحظة من أقطار السماء.

وأولى من ذلك الاستدلال بآيات التسخير للكون عامة وللشمس والقمر والنجوم خاصة. وهي كثيرة في القرآن الكريم.

والمقصود: أن علم النجوم المحرم الذي يعد شعبة من السحر هو: علم تأثيرها، لا علم تسييرها كما قال العلماء[1].

الطب نموذج لعناية الرسول بالعلم التجريبي:

وإذا أردنا أن نتخذ مثلاً أو نموذجاً لعناية الاسلام عامة والرسول خاصة بالعلم القائم على التجربة، فلن نجد أفضل من الطب نموذجاً يتجسد فيه موقف القرآن والسنة من هذه العلوم.

وحسبي أن أسجل في هذه السطور أهم المبادئ الأساسية التي جاء بها الاسلام ووضع بها حجارة الأساس لقيام صرح مشيد لطب علمي سليم.

أولاً: قرر قيمة البدن وحقه على صاحبه «إن لبدنك عليك حقا» وإذا كان حقه عليه أن يطعمه إذا جاع، ويريحه إذا تعب، وينظفه إذا اتسخ فإن حقه عليه كذلك أن يداويه إذا مرض. ومعنى هذا أنه حق واجب لا يجوز أن يهمل أو ينسى لحساب حقوق أخرى منها حق الله عز وجل كما بينت ذلك الأحاديث التي دعت إلى الاعتدال

---

(١) رواه مسلم

وبينت منهج الاسلام وسنة نبيه «فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وبهذا أبطل الاسلام الفكرة السائدة في المذاهب الزهدية- مقاومة البدن وتعذيبه لترقية الروح- معتبراً أن كيان الانسان بشقيه: الروح والمادة معاً.

ثانياً: حل مشكلة الإيمان بالقدر الذي كان يعتقده كثير من الناس منافياً للتداوي وطلب العلاج، وهنا نجد أن النبي ﷺ حين سئل عن الأدوية التي تؤخذ للعلاج والأسباب التي تتخذ للوقاية: هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فكان جوابه البين الحاسم: «هي من قدر الله»[1].

فبين بهذا الجواب أن الله يقدر الأسباب والمسببات جميعاً. فكما يقدر أن الداء تنتج من كذا أو كذا، يقدر أن دواءه يكون بكذا وكذا، والمؤمن الفقيه من يدفع قدر الله بقدر الله كما يفر من قدر الله إلى قدر الله.

ثالثاً: فتح باب الأمل أمام الأطباء والمرضى معاً- في إمكان الشفاء من أي مرض كان، وقضى على اليأس المحطم للنفوس. ورفض فكرة الأمراض المستعصية على الشفاء.

---

(١) رواه أبو داود

وجاء في ذلك جملة من الأحاديث:

« ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » رواه البخاري عن أبي هريرة.

جاء اعرابي فقال: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: نعم، فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء. علمه من علمه وجهله من جهله » رواه أحمد عن أسامة بن شربك.

فالدواء موجود فيما خلق الله، وما على أهل الاختصاص إلا أن يبحثوا ويجتهدوا ولا يلقوا سلاحهم يأساً فسيصلون يوماً إلى ما يريدون.

قال الإمام الشوكاني: في الحديث دليل على أنه لا بأس بالتداوي لمن كان به داء قد اعترف الأطباء بأنه لا دواء له وأقروا بالعجز عنه ».

« لكل داء دواء، فإذا أصاب دواء الداء برىء بإذن الله » رواه مسلم وأحمد عن جابر.

رابعاً: اعترف بسنة الله في العدوى، فقال: « فر من المجذوم فرارك من الأسد » وامتنع- ﷺ- عن مبايعة مجذوم بوضع اليد في اليد. بل اعترف بالعدوى في عالم

الحيوان أيضاً، فقال: «لا يوردن ممرض على مصح» والممرض صاحب الإبل المريضة بالجرب يجب أن يجنبها الاختلاط بالسليمة من الإبل ساعة ورود الماء. وأما حديث «لا عدوى» فالمعنى أن الأشياء لا تعدي بطبعها ودائها بل بتقدير الله تعالى وما وضع من سنن في خلقه.

خامساً: قاوم ما يسمى «الطب الروحاني» طب الكهنة والسحرة وأمثالهم من المتاجرين بعمل التعاويذ والتمائم والودع وغيرها مما شاع في الجاهلية، وكانت له سوق نافقة كما أبطلها رسول الله ﷺ واعتبرها من الشرك وأعلن عليها حرباً لا هوادة فيها، ولم يسمح من الرقي إلا بما قد ذكر الله تعالى واسماءه الحسنى لأن هذا مجرد دعاء، وهو مشروع ومحمود.

سادساً: كان النبي ﷺ بقوله وعمله وتقريره اسوة حسنة في الهداية إلى الطب الصحيح القائم على العلم والتجربة، لا علم التهويل والإدعاء.

فهو ﷺ تداوى لنفسه وأمر بالتداوي، لأن الذي خلق الداء خلق الدواء. وأرسل طبيباً إلى أبي بن كعب، فقطع له

عرقاً وكواه عليه[١] أي أنه أجرى له عملية جراحية. وأمر آخر أن يأتي الحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور من ثقيف قال ذلك لسعد بن أبي وقاص[٢].

ولم يثبت اسلام الحارث ولهذا استدل العلماء بما ذكر على جواز الاستعانة بأهل الكفر في الطب، وإن كان الأولى أن يعالج المسلم مسلم مثله ولا سيما أن هناك أحكاماً شرعية كجواز الفطر في رمضان ونحوه تترتب على حكم الطبيب.

وأصيب أحد الصحابة بجرح فاحتقن الدم، فدعا النبي ﷺ رجلين من بني أنمار فنظرا إليه فسألها الرسول-ﷺ- أيكما أطب (أي أحذق وأمهر؟) فقالا: أو في الطب خير يا رسول الله؟ فقال: أنزل الدواء الذي أنزل الداء[٣].

قال ابن القيم: في هذا الحديث أنه ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فانه إلى الإصابة أقرب[٤]..

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه أبو داود

(٣) انظر: التراتيب الإدارية جـ١ /٤٥٧

(٤) رواه مالك في الموطأ

سابعاً: جاء عنه ﷺ: «من تطبب ولم يعلم عنه الطب فهو ضامن[1]» وبهذا طارد الأدعياء الذين يتزيون بهيئة أهل الطب وليسوا من أهله وحملهم مسئولية أخطائهم في التشخيص والعلاج. واحترم أهل الاختصاص والخبرة. فلكل علم رجاله، ولكل صناعة أهلها «ولا ينبيك مثل خبير»

وفي هذه المبادئ السبعة ما يكفي لالقاء الضوء على موقف الرسول من الطب وهو موقف سبق عصر النهضة في الغرب بقرون، وقام على أساسه في عالم الاسلام طب نظري وعلمي، كانت كتبه مراجع لأوروبا وغيرها عدة قرون.

---

(١) زاد المعاد جـ٣/٢٢٥.

خاتمة

لقد بينت لنا الدراسة السابقة مجموعة عن الحقائق المهمة أبرزها:

١ = أن السنة المحمدية نبع سخي ومصدر قوي، للأمة الاسلامية، دائم العطاء، متجدد النفع. وليس ذلك في الناحية التشريعية فقط، كما يقال دائماً: السنة هي المصدر الثاني للتشريع، بل هي مصدر أيضاً لإرشاد الفكر وتوجيه السلوك، وبناء الحضارة الانسانية على أقوى الدعائم.

ولذا تكون كل محاولة للنيل من السنة أو التشكيك فيها، تهديماً لمقومات الحياة الاسلامية الحقة. ولذا كان اعتبار المؤتمر مؤتمراً للسنة والسيرة معاً أمراً ذا أهمية بالغة لما تحتاجه السنة من خدمة وتجلية لائقة بمكانتها وطاقات المسلمين في هذا العصر.

٢. أن العلم في نظر القرآن والسنة ليس خصماً للدين، ولا صداً للإيمان، ولم يعرف المجتمع الإسلامي ما عرفته مجتمعات أخرى من الصراع بين العلم والدين ومن اعتبار العلم مقابلاً للإيمان. فالحقيقة أن العلم عندنا

دين، والدين عندنا علم. والعلم في حضارتنا دليل الإيمان، وإمام العمل، وباب السعادة في الآخرة والأولى.

٣ =أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم المفروض هنا يعني الحد الأدنى الذي لا بد منه سواء كان علم الدين، أو علم الدنيا، والحد الأدنى لعلم الدنيا يتمثل في محو الأمية التي أصبح بقاؤها وانتشارها في العالم الاسلامي، وصمة عار في جبين الأمة الإسلامية يجب أن تمحى. وعلى علماء المسلمين أن يعلنوا وجوب التخلص شرعاً من هذا المنكر الذي وصم أمتنا بالتخلف والعجز، في مواجهة أمم الحضارة. ولن تؤدي امتنا رسالتها وتثبت وجودها واستاذيتها كما أمر الله إلا بتعلم أبنائها جميعاً. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٤ =أن الإسلام- في ضوء ما جاءت به السنة- لا يفصل بين العلم والأخلاق، فالعلم وإن كان مفضلاً في ذاته، « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » فهو يراد للعمل، والعلماء انما يضيئون الحياة بالمعارف

والأخـلاق جميعـاً ومن هنـا ركزت السنـة على أخلاقيات العلم ومسئولية العلماء.

٥ =أن الاسلام- في ضوء ما فصلته السنة- قد وضع مبادئ وأسسا للتعلم والتعليم سبق بها أفضل ما يباهي به عصرنا ومفكروه من قيم تربوية، في جانب التعلم أو التعليم. مثل مبدأ استمرار التعلم أو طلب العلم من المهد إلى اللحد. ومبدأ التخصص في أحد العلوم، ومبدأ التوقير للمعلم، والرفق بالمتعلم والتدرج في التعليم، ومراعاة الفروق، والاشفاق على المخطئ، وتشجيع المحسن، واستخدام الوسائل المعينة، وغير ذلك.

٦ =أن الاسلام لا يضيق بالعلم التجريبي، بل يحترمه ويدعو إليه، ويضع المناخ النفسي والفكري الملائم لازدهاره. مثل: تكوين العقلية العلمية الموضوعية (الـتي ترفض اتباع الظن والهوى والتقليد...الخ) وإشاعة التعلم والكتابة والقراءة، والحث على تعلم لغـات الآخرين عنـد الحاجـة، واستخدام أسلوب الاحصـاء، واسلوب التخطيـط لمواجهـة احتمالات

المستقبل. وإقرار مبدأ التجربة في شئون الدنيا، والنزول عند رأي أهل الخبرة في مجال خبرتهم واقتباس كل علم نافع من أهله. واحترام سنن الله تعالى في الكون، والحملة على الأوهام والخرافات، والمتاجرين بالكهانة والعرافة... الخ كل هذا أتاح للعقل أن يفكر، وللعالم أن يبحث، وللعلم أن يزدهر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك في عصره

للأستاذ الدكتور عز الدين ابراهيم
« دولة الإمارات »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

يعتبر موضوع الرسائل، التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء وقادة الشعوب والجماعات في عصره - صفحة هامة من صفحات السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي. ذلك أن هذه الرسائل تكشف عن وجه من وجوه التطبيق العملي الملموس لعالمية الدعوة الاسلامية، باعتبارها خاتمة الأديان والهداية الالهية الى الناس كافة.

وقد حظي هذا الموضوع بما يستحقه من عناية في دراسات علماء الحديث، والسيرة، والتاريخ، والأدب، قديما ووسيطا وحديثا. وفي هذه الدراسات من التجميع، والتوثيق، والترجيح، والتحليل، ما يدعو الى الرضا. ومع ذلك، فسيظل المجال مفتوحا بطبيعة الحال، الى مزيد من النظر والتدقيق وإعادة العرض، خاصة فيما يتعلق بتفاصيل الوفادات، ونصوص الرسائل والردود، والآثار التي ترتبت على هذه المراسلات، والعبر المستخرجة منها - وكذلك الحال مع جميع فصول السيرة النبوية، توصلا الى التجويد والاتقان.

الا أن موضوع الرسائل، قد جد فيه، خلال النصف الثاني من القرن الحالي أمران على جانب كبير من الأهمية، ويدعوان الى التأمل العاجل:

«أولها»: الدراسات التي نشرها بعض المستشرقين، وتابعهم فيها للأسف بعض الكتاب المسلمين، والتي تشكك في صحة خبر الرسائل من أساسه اذ تزعم هذه الدراسات أن الرسائل والوفادات هي من اختراع الكتاب المسلمين، وأنه لا صحة لها في التاريخ والواقع. وقد يترفق بعض هؤلاء الدارسين فيقبلون بعضا من الرسائل والوفادات وينكرون بعضها الآخر، ولكنهم في مجموع ما كتبوه يشككون في الخبر وما يتعلق به من وثائق واتصالات وأحداث ونتائج.

«وثانيها»: العثور على خمسة رقوق يظن أنها أصول خمسة من الرسائل الرئيسية وهي بترتيب العثور عليها رسائله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط في مصر، والمنذر بن ساوى حاكم البحرين، والنجاشي عظيم الحبشة، وكسرى عظيم فارس، وهرقل عظيم الروم.

وقد دارت حول هذه الرقوق دراسات اشترك فيها عدد من العلماء المسلمين والمستشرقين واختلف الرأي بشأن توثيقها وصحتها. ولكنها في مجموعها قد أضافت الى الموضوع بعدا جديدا لم يكن معروفا من قبل.

ان هذين الأمرين: تشكيكات المستشرقين، واكتشاف

أصول بعض الرسائل يفتحان الباب على مصراعيه لمزيد من الدراسة والمراجعة لهذا الموضوع الهام من موضوعات السيرة النبوية.

وغايتي مع هذا المقال، أن أستعرض ولو باجمال، هذين الافقين الجديدين للموضوع، مع بيان الرأي في كل منهما.

على أنه من المفيد، قبل التعرض لمبحثي التشكيك والرسائل المكتشفة، أن نستعيد باجمال خبر هذه الرسائل، والدراسات المتعلقة بها في مصادرنا الاسلامية.

وأوجز الأخبار عن هذه الرسائل، ما أخرجه مسلم في باب الجهاد عن أنس رضي الله عنه «أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كتب الى كسرى، والى قيصر والى النجاشي، والى كل جبار، يدعوهم الى الله تعالى[1]

ويبسط ابن هشام في سيرته الخبر قليلا، فيقول[2]:

«بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرج على أصحابه ذات يوم، بعد عمرته التي صدر عنها يوم الحديبية، فقال: أيها الناس، ان الله قد بعثني رحمة وكافة،

---

(١) صحيح مسلم: باب الجهاد. انظر الروايات الثلاث للحديث جـ ٣ ص ٣٩١ (بشرح النووي).

(٢) ابن هشام: السيرة بتحقيق السقا. جـ ٤ ص ٢٥٤.

فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم.
فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟
قال: دعاهم الى الذي دعوتكم اليه، فأما من بعثه مبعثا
قريبا فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه
وتثاقل، فشكا ذلك عيسى الى الله، فأصبح المتثاقلون وكل
واحد منهم يتكلم لغة الأمة التي بعث اليها.

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً من أصحابه،
وكتب معهم كتبا الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام.
فبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ملك الروم، وبعث
عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك فارس، وبعث
عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ملك الحبشة، وبعث
حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية، وبعث
عمرو بن العاص السهمي الى جيفر وعباد[1] ابني الجلندي
الأزديين ملكي عمان، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر
بن لؤي الى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي
اليمامة. وبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى
العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدي الى
الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام»

---

(١) في معظم المراجع يذكر الاسمان (جيفر وعبد ابني الجلندي)

ثم أضاف ابن هشام: وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي الى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن.

وتجمع كتب الحديث الرئيسية على ذكر خبر الرسائل. فأورده البخاري مجملا بوصف الكتابة الى أهل الكتاب والروم والاعاجم في باب (اتخاذ الخاتم ليختم به الشيء أو ليكتب به أهل الكتاب وغيرهم). وأورد خبر الكتابة الى كسرى في باب (كتاب النبي الى كسرى وقيصر). أما خبر الكتابة والوفادة الى هرقل فقد أورده مفصلا في ثلاثة أبواب هي (بدء الوحي، ودعوة اليهود والنصارى، وعلام يقاتلون عليه، وتفسير سورة آل عمران).

وأورد مسلم أخبار الكتابة الى كسرى وقيصر والنجاشي والعجم والروم بشكل مجمل في بابي (الجهاد، وتحريم خاتم الذهب)، وفصل القول في الكتابة الى هرقل في بابي كتب النبي الى هرقل، وكتب النبي الى ملوك الكفار)

وأورد أحمد في مسنده خبر الكتابة الى النجاشي وكسرى وقيصر تحت عنوان (حديث رسول قيصر الى رسول الله)[1]: ، وفصل خبر الكتابة الى قيصر عن ابن عباس بنحو ما ورد في البخاري ومسلم[2].

(١) مسند أحمد: جـ ٤ ص ٧٤ - ٧٥ (٢) مسند احمد: جـ ١ ص ٢٦٢.

وذكر الترمذي خبر الكتابة الى كسرى وقيصر والنجاشي وكل جبار في باب (مكاتبة المشركين)، وخبر هرقل في باب (ما جاء كيف يكتب الى أهل الشرك)، والكتابة الى العجم في باب (ما جاء في ختم الكتاب).

أما بقية أصحاب السنن: ابو داود، والنسائي، وابن ماجة، فقد أوردوا الخبر مجملا أيضا[١]

أما أمهات كتب السيرة والتاريخ، ففيها تفاصيل كثيرة، خاصة عند ابن سعد في طبقاته، اذ أفرد للموضوع أكثر من ثلاثين صفحة، ذكر فيها أخبار الكتب المرسلة الى الملوك والى غيرهم رؤساء الشعوب والجماعات، ويزيد عدد الكتب التي ذكرها ابن سعد عن مائة كتاب[٢]. وفعل قريبا من ذلك أبو الفداء بن كثير في سيرته التي هي جزء من تاريخه[٣]. والطبري في تاريخه[٤]. وأورد الأخبار أيضا اليعقوبي في تاريخه.

واعتنت بعض المصادر الأولى بجمع نصوص الرسائل

---

(١) أبو داود: حديث ٤٢١٤ - النسائي: جـ ٨ ص ١٧٤ - ابن ماجة: حديث ٣٦٣٩/٣٦٤٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات جـ ١ ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٣) ابن كثير: السيرة جـ ٣ ص ٤٩٤ وما بعدها.

(٤) الطبري: تاريخ الملوك والرسل جـ ٣ ص ١٥٥٩ وما بعدها.

النبوية، من ذلك ما فعله أبو عبيد في (الأموال) وعمرو بن حزم في مجموعة خاصة نجدها ضميمة لكتاب متأخر هو إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون من مؤرخي القرن العاشر، ناهيك بالكتب التي أفردت لهذا الغرض ولم تبلغنا سوى أسمائها[1].

أما كتب التاريخ والسيرة والأدب الوسيطة، فقد جمعت الأخبار التي وردت في المصادر الأولى، نذكر منها (امتاع الأسماع) للمقريزي و (صبح الأعشى)[2] للقلقشندي وفيها عناية خاصة بنصوص الرسائل برواياتها، وسيرتي ابن سيد الناس (عيون الاثر)[3] وعلي الحلبي (السيرة الحلبية)[4] وفيها تجميع للأخبار مع بعض الترجيح أحيانا.

ومن الطبيعي أن تحذو كتب التاريخ والسيرة الحديثة حذو المصادر الأولى والوسيطة في الاهتمام بأخبار الرسائل. وتمتاز معظم الكتب الحديثة بالتلخيص والاختيار والاهتمام ببيان المغزى الأساسي لهذه الرسائل وهو تأكيد عالمية

---

(١) انظر في ذلك: محمد حميد الله: الوثائق السياسية ص ١١ - الطبري: اخبار سنة ٦ الفهرست ط فلوجل جـ ١ ص ١٠٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٦ ص ٣٧٧ وما بعدها.

(٣) ابن سيد الناس: عيون الأثر جـ ٢ ص ٢٥٩ - ٢٧٠.

(٤) السيرة الحلبية: جـ ٣ ص ٥٥ - ٩٠.

الدعوة الاسلامية. على أنه يلزم التنويه بكتابين من هذه الكتب: أحدهما السفر القيم الذي أخرجه الدكتور محمد حميد الله بعنوان مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، وجمع فيه نصوص الرسائل النبوية في هذا الموضوع وغيره،[1] والثاني السيرة النبوية لمولانا أبي الحسن الندوي الذي عرض لأخبار الوفادات وتناول بالمناقشة النقدية المستنيرة بعض التفاصيل التي تحفل بها كتب التاريخ والسيرة الأولى، والتي لا يكفي نقلها دون نظر وتمحيص كافيين[2].

ان هذا الاستعراض السريع للدراسات المتعلقة بالرسائل النبوية في مصادرنا ومراجعنا الاسلامية: قديمها ووسيطها وحديثها، لم يقصد به التسجيل المرجعي (البيبلوجرافي)، وانما قصد به تحسس مدى الثقة التي أوليت لهذه الرسائل من قبل الدارسين على ممر العصور..

ونستطيع أن نتوصل بعد هذا الاستعراض الى نتيجتين تبدوان واضحتين:

«الاولى»: أن موضوع الرسائل في مجموعه موثق في

(١) محمد حميد الله: الوثائق السياسية ص ٧٤ وما بعدها.
(٢) ابو الحسن الندوي: السيرة النبوية ص ٢٣٣ - ٢٥٤.

مصادرنا توثيقا يرفعه الى مستوى المسلمات التاريخية والحقائق الدينية التي لا تقبل التشكك. وهذا يشمل خبر الكتابة الى الملوك والرؤساء في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، والوفادات التي رافقتها. وهذا لا ينفي أن تشتمل هذه الأخبار على تفاصيل تستأهل النظر والتمحيص الموضوعيين بقصد معرفة صحيحها من غيره، ولكن في اطار التسليم بصحة الخبر العام.

« وثانيتها »: ان الكتب الوسيطة قد اهتمت بالتجميع والتوفيق غالبا، بينما اهتمت الكتب الحديثة بالتلخيص والتحليل واستخراج العبر. وما زالت الحاجة ماسة الى مزيد من الدراسات التوثيقية، وجهود الترجيح خاصة في التفاصيل. ويزيد من ضرورة ذلك المبحثان اللذان جدّا في موضوع الرسائل.

تظهر حملة التشكيك في صحة الوفادات النبوية في كتابات بعض من المستشرقين، نخص بالذكر منهم المستشرق الانجليزي السير وليام ميور في كتابيه (حياة محمد) و (الخلافة)[1]، والمستشرق الايطالي ليون كايتاني في كتابه

---

(١) وليام ميور: حياة محمد ص ٣٥٤ - ٣٥٧ the life of Mahomed. pp. 354 355 - 357.

الخلافة ص ٤٣ - ٤٤ The caliphate, pp. 43 - 44.

(حوليات الاسلام)[1]، والمستشرق اليهودي مرجليوث في كتابه (محمد)[2].

وفي الوقت الذي نجد فيه بعضا آخر من المستشرقين لم يساير هذه الحملة، بل سلم بصحة الوفادات وأكد عالمية الدعوة الاسلامية كما فعل المستشرق الانجليزي سير توماس أرنولد في كتابه (الدعوة الى الاسلام)[3]، والمستشرق الالماني نولدكه الذي ذهب الى حد التسليم بأصالة الوثيقة التي عثر عليها في مطلع هذا القرن، والتي يترجح أنها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط في مصر[4] - في هذا الوقت، نجد أن بعض الكتاب المسلمين قد نقلوا حملة التشكيك الى المكتبة العربية[5]، ورددوا بعضا من الحجج التي ساقها المستشرقون في كتاباتهم.

وتتلخص حجج المشككين والمتشككين فيما يلي:

١ ● دعواهم بأن الاسلام دين يخص الجزيرة العربية، وخبر

---

(١) ليون كايتاني: حوليات الاسلام ج١ ص ٧٢٥ وما بعدها Caltani, Annali dell Islam,V. 1 p. 725.

(٢) مرجليوث: محمد ص ٣٦٤ وما بعدها Margoliouth, Mohamed, pp. 364

(٣) توماس أرنولد: الدعوة الى الاسلام ص ٤٨ وما بعدها.

(٤) دبلوماسية محمد: ص ٨٣

(٥) د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٥٣٧ وما بعدها، وانظر دبلوماسية محمد ص ٥٧ وما بعدها.

الوفادات يخرج به عن نطاقه.

٢ ●دعواهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حالة ضعف سياسي وعسكري لا يمكنه من تحدي قوى العالم بالرسائل والوفادات.

٣ ●الزعم بأن ابن اسحق لم يذكر قصة الرسائل، والاستدلال بذلك على ضعف التوثيق التاريخي للأخبار.

٤ ●اشتمال أخبار الوفادات على تفاصيل وصفت بأنها أسطورية، مما يدعو الى رفض الأخبار برمتها.

٥ ●اشتمال بعض هذه الرسائل على آية قرآنية قيل ان نزولها قد تأخر عن تاريخ الرسائل بسنتين.

ولا بد من مناقشة سريعة لهذه الادعاءات.

(١) فأما الادعاء بخصوصية الاسلام لجزيرة العرب، وعدم عالميته، والاعتلال بذلك على عدم صحة أخبار الرسائل والوفادات - فهو منهج خاطئ في الاستدلال التاريخي، يكشف عن الدوافع الحقيقية لحملة التشكيك برمتها. ذلك أنه لا يحكم على الوقائع التاريخية، اثباتا أو نفيا، بما يتصوره الباحث عن طبيعة الدين الذي ترتبط به هذه الوقائع. بل العكس هو الصحيح، وهو أن الوقائع نفسها، مثبتة أو منفية بناء على التحقيق التاريخي المجرد،

هي التي تدل الباحث على الطبيعة الحقيقية للدين.

وقد كانت الوفادات والمراسلات في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم مجرد مقدمة لسياحة الاسلام في العالم: دعوة، وحضارة، وجيوشا. واذا أخذنا بلاد الشام والروم مثلا، فانه لم تمض سنة على الوفادات حتى وصل دعاة الاسلام الى (ذات الطلح) على حدود الشام يبلغون رسالة الاسلام، حتى استشهدوا جميعا بسبب ذلك. فأتبعتهم سرية اسلامية بقيادة زيد بن حارثة لتأديب المعتدين، فلقيت الروم في (مؤتة)، واضطرت بسبب الكثافة العسكرية للروم أن تنسحب. ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه على رأس جيش العسرة ليحارب الروم في عقر ديارهم بما عرف بغزوة تبوك. ويكتمل الأمر بعد ذلك بوقوع الشام في أيدي المسلمين في عهد أبي بكر، وسقوط مصر في عهد عمر. وقد كانا قلعتي الروم في المشرق.

ان وقائع التاريخ تؤكد أن الاسلام كان قد قدر له أن يصل الى العالمين كما بينا: دعوة، وحضارة، وجيوشا - فكيف تستل من هذا السياق المتتابع من الاحداث واقعة الوفادات والرسائل فتكذب؟

ويعجبني في هذا، ما كتبه الدكتور حسن ابراهيم حسن في تاريخه[1] مستغربا موقف المستشرقين من فكرة عالمية الاسلام: «لو قيل ان الاسكندر المقدوني كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالم القديم كله.. لصدقنا، ولو قيل ان نابليون كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد.. لصدقنا. أما اذا قيل ان محمدا بن عبد الله فكر في أن يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب والمتصلين بقريش، فذلك أمر يعز على الباحث النزيه العقل الحر أن يقبله»

فاذا تركنا الوقائع الى النصوص والتعاليم، فان عالمية الاسلام أوضح من أن تحتاج الى دليل. وحسبنا أن نقرأ آيات القرآن الكريم التي تؤكد الدعوة الى الناس، والعالمين، كافة، وجميعا. قال تعالى: «وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا[2]»، «قل يا يأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا[3]»، «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا»[4]، «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»[5]. ثم ان في النداء المتكرر

---

(١) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي.

(٢) سبأ ٣٤: ٢٨

(٣) الاعراف ٧: ١٥٨

(٤) الفرقان ٢٥: ١

(٥) الفتح ٤٨: ٢٨

في القرآن الى بني آدم، والى أهل الكتاب، بل والى الانس والجن جميعا - لدفعاً لأي شبهة في أن رسالة الإسلام عالمية التوجيه.

(٢) وأما الدعوى بأن الرسول عليه الصلاة والسلام، كان في حالة ضعف سياسي وعسكري، وأنه ما كان له في تلك أن يتطلع الى تحدي القوى العظمى حوله - فغير مسلمة من ثلاثة أوجه:

«أولها»، أن الاسلام بعد الحديبية، أي بعد السنة السادسة من الهجرة، لم يعد ضعيفا، فالحديبية كانت بداية المد الاسلامي من المدينة المنورة، أعقبتها عمرة القضاء، ثم فتح مكة. وكان الرسول متثبتاً من موقفه، وقد بشرته السماء بالفتح القريب. ويظهر التثبت في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هوذة بن علي شيخ اليمامة في شرقي الجزيرة العربية اذ يقول فيها: «واعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر»[١] أي الى أقصى حد تصل اليه

(١) القلقشندي: جـ ٦ ص ٣٧٩

الركائب. ومثل هذا القول لا يصدر عن ضعيف.

« وثانيها » أن القوى العظمى الروم والفرس والحبشة لم تكن بالقوة المتخيلة لها في تلك الفترة. فقد تتابعت الحروب بين الروم وفارس، ومنيت فارس بهزيمة على يد هرقل في الأشهر التي سبقت عام الرسل، تلاها صراع داخلي على الحكم. وذكر ميور[1] أن الدولة الرومانية الشرقية كانت تعاني من التمزق المذهبي بين الملكانيين واليعاقبة والنسطوريين. كما ذكر الواقدي[2] أن هرقل كان يدرك تزايد القوة العسكرية للعرب، حتى بلغت ما بلغت في تبوك، فقال حينئذ: « قد صارت العرب تأتي مسيرة شهر تغير عليكم، ثم تخرج من ساعتها لم تكلم ».

« وثالثها » أن الدعوة الى الاسلام بطريق الرسائل والوفادات هي من أعمال النبوات، وليست من قبيل التحدي العسكري أو السياسي فتخضع

---

(١) وليام ميور: حياة محمد ص ٣٥٤

(٢) الواقدي: المغازي ط أوربا ج ٣ ص ١١٢٤

لمقاييسه الدنيوية. وقديما دعا موسى فرعون وهو في ذروة تآلهـه، كما واجـه عيسى اليهود والرومان، فما وجدنا من باحثي الغرب من استغرب ذلـك عليهما. وقد رد بعض هؤلاء الملوك الذين راسلهم النبي صلى الله عليه وسلم ردا رقيقا، والذين غضبوا مثل كسرى، لم يتبعوا غضبهم بانتقام عسكري[١].

(٣) تأتي بعد ذلك مسألة التوثيق التاريخي لأخبار الرسائل. ومن غريب ما أورده المشككون في ذلك ما زعمه كايتاني من أن ابن هشام في سيرتـه لم يورد لابن اسحق مصدره الرئيسي خبرا عن الرسائل. واعتبر كايتاني ذلك سكوتا من ابن اسحق وبالتالي إضعافاً للخبر[٢].

ولست أدري أي طبعة لابن هشام اعتمد عليها كايتاني، لأن الطبعة التي بين يديَّ بتحقيق السقا قد أوردت خبر الرسائل بروايتين: احداهما لابن هشام بسنده عن ابي بكر

---

(١) لم يسجل التاريخ أن أحدا من رسل النبي صلى الله عليه وسلم قد أوذي الا الحارث بن عمير الازدي قتله شرحبيل الغساني، فكان ذلك بداية للحملات العسكرية على الشام والروم.

(٢) كايتاني: جـ ١ ص ٧٢٥ وانظر **J. R. A. S. Jannasy 1940, p, 59**

الهذلي، والثانية لابن اسحق بسنده عن يزيد بن أبي حبيب المصري[1].

على أن خبر الرسائل قد استفاض كما بينا من قبل في كتب السيرة جميعا، بل وفي أمّهات كتب الحديث التي تعلو كتب السيرة في مقام التوثيق. ولها بعد ذلك توثيقات من غير هذا الوجه:

فمن ذلك أن المراجع التاريخية غير العربية المختصة بتاريخ الجهات التي راسلها النبي صلى الله عليه وسلم قد أكدت هذه الأخبار. فخبر الكتابة الى هرقل يذكره جيبون في كتابه المعروف (انهيار الدولة الرومانية وسقوطها) مستندا في ذلك الى مصادر يونانية متعددة[2]. وخبر الكتابة الى المقوقس أورده أبو صالح الأرمني في كتابه (كنائس مصر وأديرتها) الذي كتبه في القرن السادس الهجري[3] ولا يجوز التقليل من أهمية الشهادة التي توردها هذه المراجع وأمثالها بحجة أنها استفادت من المصادر العربية. ذلك أنها تذكر مصادر لأخبارها غير المصادر

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية. تحقيق السقا. جـ ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥

(٢) Gibbon: (Decline and fall of the roman Empire), ch. 50
وانظر بوجه خاص مصادره التي اعتمد عليها في ابراز الخبر.

(٣) أبو صالح الارمني: كنائس مصر وأديرتها. تحقيق ايفات. ص ١٠٠

العربية، ثم انها لا يمكن أن تقر خبرا آتيا من مصدر عربي لو وجدت ما يعارضه من مصادرها المحلية.

ومن التوثيقات أيضا أن بعض التفصيلات التي تضمنتها الأخبار قد أكدها الواقع والعيان. مثال ذلك: ما ورد من أن المقوقس أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاريتين هما مارية وسيرين. فالمعروف بلا خلاف أن رسول الله قد تزوج مارية وانجب منها ابنه ابراهيم الذي توفي عام تبوك، وأن سيرين قد تزوجها حسان بن ثابت. ومن أمثلة ذلك أيضا ما ورد في البخاري من أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على كسرى أن يمزقه الله كما مزق رسالة الرسول وقد ثبت تاريخيا أن كسرى باروين الذي عناه النبي قد قتله ابنه شيرويه في نفس التاريخ الذي أوردته المصادر العربية[1].

(٤) أما رفض أخبار الرسائل لاشتمالها على تفاصيل لا يثبت بعضها للتمحيص التاريخي فغريب، لأن المفروض أن يبقى أصل الخبر ثابتا ومسلما ما دامت الادلة قد قامت على

---

(١) الطبري ٢: ١٥٧١ ويبدو أن هذا التوافق بين الواقع التاريخي وبين مدلول الدعاء النبوي وما ذكرته المصادر العربية لم يرق المستشرق مارجوليوث، فعلل الأمر بأن عيون الرسول المبثوثة في كل مكان قد نقلت اليه الخبر. انظر مارجوليوث: محمد ص ٣٦٨، وانظر

Browne, literary History of persia, V. 1, p. 183

صحته، ثم يجتهد الباحث في تمحيص التفاصيل. وهذا المنهج في التحقيق هو الذي يتبعه علماء المسلمين في دراسة أخبار السيرة. اذ المعلوم أن في السيرة أخبارا أساسية قد ثبتت إما بالكتاب وإما بالسنة وإما بالدليل التاريخي الواضح. فهذه هي أصول السيرة وأخبارها المعتمدة. وفيها بعد ذلك أخبار وتفاصيل يجتهد الباحث في دراستها، فيوثق أو يرجح أو يتحفظ وفقا للادلة.

ومن الأمثلة التي أثيرت في هذا الصدد، مسألة الرسل الذين أوفدهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف أنهم أصبحوا بعد ليلة التكليف بالوفادة وقد عرفوا لغات من أرسلوا اليهم عن غير سبق تعلم. يقول المتشككون ان الخبر ورد هكذا في طبقات ابن سعد الذي يصرح بأن ما حدث كان معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم كما أنه ورد عند غيره. وهم يستبعدون الخبر ويعتبرونه من صنع الرواة مضاهاة لخبر مشابه عن المسيح عليه السلام، وقد أرسل حواريين لنشر تعاليمه فأصبحوا أيضا وقد تعلموا لغة من أرسلوا اليهم[١].

ويعجبني في هذا الصدد تعليق العلامة أبي الحسن

(١) دبلوماسية محمد: ص ٥٨

الندوي في سيرته اذ يقول: والمؤلف، حين لا يستبعد وقوع المعجزة.. يرجح أن ذلك كان مبنيّاً على الحكمة وحسن الاختيار من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلم يكن وجود من يحسن الرومية والفارسية والحبشية ولغة الأقباط في مصر - غريبا لكثرة اختلاط العرب بهذه الأمم الأربع، وكانت القضية محصورة في هذه اللغات الأربع، اذ كانت لغة أمراء الجزيرة العربية الذين كتب اليهم الرسول كتبه هي اللغة العربية[1].

وأحب أن أضيف الى كلام العلامة الندوي ملاحظتين:

الأولى: أن الخبر عند ابن هشام معروف الى حواريي المسيح، وليس الى رسل النبي صلى الله عليه وسلم، اذ يقول ابن هشام.. فقال أصحاب الرسول: وكيف اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم؟ قال: دعاهم الى الذي دعوتكم اليه، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى الى الله، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الامة التي بعث لها[2]

(١) الندوي: السيرة ص ٢٣٣ باختصار. (٢) ابن هشام: السيرة جـ ٤ ص ٢٥٤.

فالذين أصبحوا يتكلمون لغات من أرسلوا اليهم، وفقا لهذا النص، هم الحواريون، بلا لبس.

فاذا قبلنا رواية ابن هشام، وحملنا ما عداها من الروايات عليها، انتهت المسألة ولم تقم شبهة التقليد.

الثانية: أنه على فرض توجيه الخبر الى رسل النبي صلى الله عليه وسلم، وباعتبار أن معظم من راسلهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا من الجزيرة العربية، فان المسألة كما قال الندوي محصورة في أربعة رسل. وربما كانت محصورة في اثنين فقط. ذلك أن الثابت في الصحيحين أن هرقل قد استدعى الترجمان، كما ذكرت المراجع أن المقوقس قد دعا كاتبا يعرف العربية لكتابة الرد، فلا يستبعد أن يكون قد قام بالترجمة أيضا.

فلا تبقى الا وفادة الضمري الى النجاشي والسهمي الى كسرى. أما الضمري فنلاحظ أنه اختير بالذات مرتين للذهاب الى الحبشة،

أولاهما لحمل رسالة الى النجاشي المؤمن أصحمة والثانية الى النجاشي الثاني، وبين الرجلين خمس عشرة سنة، فلا يستبعد وقد تكرر الاختيار، ان الضمري كان على معرفة بالحبشية. وأما السهمي فقد وجه أولاً الى المنذر ابن ساوى حاكم البحرين لييسر قدومه على كسرى، فلا يستبعد أن يكون المنذر قد زوده بمن يترجم له،والا فهل في معرفة احد العرب بلغة فارس المتاخمة ما يدعو الى العجب؟

وسواء أصحت رواية ابن هشام التي تصرف الخبر عن الصحابة، أم اختير الرسل عن حسن تدبر فوجه الى كل جهة الرسول الذي يعرف لغتها، أم أن القصة قد انطوت على معجزة للرسول تشبه معجزة المسيح - فان الموضوع برمته من أمور التفصيلات التي ان صحت وان لم تصح، فلا تأثير لها على صحة أصل خبر الوفادة.

وما يقال عن قصة اللغات، يقال عن سائر التفصيلات:

(٥) والحجة الأخيرة أطلقها المستشرق (فيل/ Weil ولكن عمقها من تابعه من باحثي العرب[١].

(١) انظر وليام ميور: حياة محمد ص ٣٥٧ الهامش - ديبلوماسية محمد ص ٦١.

وخلاصتها، أن ايفاد الرسل الى الملوك قد وقع في نهاية السنة السادسة للهجرة، أو أوائل السابعة. ومع ذلك فان ثلاثا من هذه الرسائل، وهي رسائله صلى الله عليه وسلم الى هرقل والمقوقس والنجاشي، قد تضمنت آية كريمة، يقال انها نزلت في السنة التاسعة من الهجرة في وفد نصارى نجران. وبهذا يحصل التناقض الذي يدعو الى الشك.

والآية التي يشير اليها أصحاب هذا الرأي هي الآية (٦٤) من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» والمصدر الذي يعتمدونه لبيان نزول الآية الكريمة في وفد نجران في السنة التاسعة هو تفسير الطبري وتفسير ابن كثير ويستبعد هؤلاء القول بتعدد النزول.

أما أن ايفاد الرسل الى الملوك قد وقع في السنة السادسة من الهجرة فقول وارد، وبه قال ابن سعد والواقدي، وحددا لذلك شهر ذي الحجة من تلك السنة وان كان للمؤرخين اجتهادات أخرى في تقدير الزمن[1].

---

(١) لا يستبعد ابن كثير التاريخ الذي ذكره ابن سعد والواقدي ويعتبره محتملا =

وأما أن آية آل عمران قد نزلت في وفد نجران في السنة التاسعة في الهجرة فقول غير مسلم. لأن الطبري الذي اعتمد عليه أصحاب هذا الرأي قد ذكر ثلاثة أقوال في سبب النزول:

أولها: انها نزلت في اليهود.

وثانيها: انها نزلت في نصارى نجران.

والثالث: وهو الراجح لديه أنها نزلت في اليهود والنصارى جميعا.

قال أبو جعفر الطبري «وإنما قلنا: عنى بقوله (يا أهل الكتاب) أهل الكتابين، لأنهما جميعا من أهل الكتاب، ولم يخصص جل ثناؤه.. واسم (أهل الكتاب) يلزم أهل التوراة وأهل الانجيل[1]. ويؤكد هذا ابن كثير في تفسيره فيقول: «هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن

= ولكنه يوسع المدة فيقول «ان بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد الحديبية» وابن اسحق يعتبر المدة «فيما بين الحديبية ووفاة الرسول». وفي دراسة للشيخ محمد أبو زهرة، رجح الفترة بين عمرة القضاء في السنة السابعة وغزوة مؤتة في السنة الثامنة. والذي يتخلص لنا من ذلك أن الايفاد قد استغرق زمنا، وأنه بعد الحديبية على أي حال، مما يجعل نهاية السنة السادسة واردة في معرض هذا البحث، ولو باعتبارها موعدا لبدء الايفاد، وفيها حررت الرسائل او بعضها.

انظر: ابن سعد: جـ ١ ص ٢٥٨ - وابن كثير: السيرة جـ٣ ص ٤٩٤

محمد أبو زهرة: خاتم النبيين جـ ٣ ص ١٢٦

(١) الطبري بتحقيق شاكر جـ ٦ ص ٤٨٣ - ٤٨٥

جرى مجراهم » ثم يبين أن الآيات التي نزلت في وفد نجران من النصارى انتهت بالآية (٦٣) أي السابقة للآية المدروسة[١].

وعليه فالقول بأن الآية قد نزلت في السنة التاسعة ضعيف. والراجح أنها قد نزلت قبل ذلك مما ينفي التناقض المزعوم مع تاريخ الايفاد. والمقرر عند علماء التفسير، أنه اذا كان النازل واحداً والأسباب متعددة، أخذ بأرجح الاسباب (لا بأضعفها كما فعل أصحاب هذه الشبهة).

وأما استبعاد أصحاب الشبهة القول بتعدد نزول هذه الآية مرة في التاسعة، ومرة قبل التاسعة، وهو ما احتمله بعض العلماء، ووصفهم ذلك بأنه من تخيلات علماء المسلمين - فيدل على عدم تفهمهم الكامل لمعنى (تعدد النزول). ويكفي في هذا الموضع أن نقتبس قول الزركشي في البرهان[٢] « وقد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه، وتذكيرا عند حدوث سببه، خوف نسيانه » وترجمة ذلك بلغة العصر، أن الآية تنزل في مناسبتها الاولى، ثم تجد مناسبة ثانية فتنزل بمعنى اعادة تطبيقها على الظرف الجديد،

---

(١) ابن كثير: التفسير باختصار الرفاعي جـ ١ ص ٢٧٩/٢٨٠.

(٢) الزركشي: البرهان جـ ١ ص ٢٩.

الزرقاني: مناهل العرفان جـ ١ ص ١٠٩ وما بعدها.

للحكمة التي ذكرها الزركشي.

- ٤ -

لم تذكر المصادر القديمة شيئا عما آلت اليه أصول الرسائل التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء، باعتبار أنها استقرت لدى الجهات التي أرسلت اليها اللهم إلا ما كان من اشارة السهيلي من علماء القرن السادس الهجري الى انتقال رسالة هرقل الى بعض ملوك أسبانيا. وتابع هذه الاشارة فيما بعد عالم مغربي آخر معاصر هو الشيخ عبد الحي الكتابي[1].

الا أنه منذ سنة ١٨٥٠م بدأت بعض هذه الرسائل في الظهور، فاكتشف حتى الآن خمسة رقوق دارت حولها دراسات لبيان مدى صحتها:

(١) ففي سنة ١٨٥٠م كان المستشرق الفرنسي بارتليمي (Barthelemy) يفحص بعض الكتب والاناجيل الموجودة في أحد الأديرة بناحية اخميم من صعيد مصر فعثر على رق جلدي قديم، اتضح بالدراسة أنه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط في مصر. وأسهم المسيو بلين

---

(١) السهيلي: الروض الأنف جـ ٣ ص ١٩٧

عبد الحي الكتاني: التراتيب الادارية جـ ١ ص ١٤٦.

(Belin) في تحقيق الرسالة، ومقارنة نصها بما ورد في الأصول ثم أعلن بعد ذلك عن الثقة في أصالة المخطوط. ونشرت عن ذلك دراسة في المجلة الآسيوية سنة ١٨٥٤، ثم في مجلة الهلال المصرية في نوفمبر سنة ١٩٠٤.

وقد اهتم الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد بالأمر فاقتنى المخطوط، وأمر بحفظه في صندوق ذهبي، معروض الآن في الغرفة التي تضم ما نسب الى النبي صلى الله عليه وسلم من آثار في متحف طوب سراي باستنبول. والرسالة تبدو داكنة ورقيقة، وقد أصابها تشقق من وسطها، ولكنها ما زالت مقروءة.

وقد أثار اكتشاف هذه الرسالة ردود فعل قوية بين المستشرقين، فمنهم من وثقها مثل نولدكه ومنهم من رفضها ورفض قصة الرسائل برمتها مثل كايتاني كما بينا.

وأهم الدراسات التي صدرت في الموضوع عن عالم مسلم هي دراسة الدكتور محمد حميد الله سنة ١٩٥٥ في مجلة (Arabica).

(٢) وفي سنة ١٨٦٣ نشر الدكتور بوش (Busch.) الألماني مقالا في مجلة المستشرقين الألمان يعلن فيه العثور على مخطوط جلدي يحتمل أن يكون أصل الرسالة النبوية

الى المنذر بن ساوى حاكم البحرين. وقد حمل هذا المخطوط الى وزير المعارف التركي كمال أفندي، ولكن قيل أن درجة توثيقه لم تبلغ مبلغ سابقه.

ولا نعرف الآن مكان هذا المخطوط، ولكن يظن أنه لدى آل القوتلي أو آل المرادي في دمشق[1]. وقد أمر سمو أمير البحرين الحالي بنقش صورة هذه الرسالة على قطعة من الرخام ثبتت في مطار البحرين الدولي. وقد سبق لي أن رأيت هذا النقش، ولكنني بعد توسيع المطار مؤخرا لم أر ذلك النقش في مكانه.

والملاحظ أن خط هذه الرسالة يشبه الى حد كبير خط الرسالة المحفوظة في استنبول. فلو ثبتت أصالة هذه الرسالة فهي وسابقتها بلا شك مكتوبتان بيد واحدة. والا فان كاتب رسالة المنذر قد احتذى بمهارة صفات الخط في رسالة المقوقس.

(٣) وفي سنة ١٩٤٠ نشر المستشرق الانجليزي دانلوب (Dunlop مقالا في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية، أعلن فيه أنه تحصل على رق جلدي يملكه تاجر سوري، يظن أنه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى نجاشي الحبشة. وذكر

---

(١) الكتاني: التراتيب الادارية جـ ١ ص ١٦٦

أن المالك السوري تحصل على المخطوط من قسيس اثيوبي جاء الى دمشق وقت الحرب العالمية الثانية.

وقد نشر دانلوب صورة المخطوط وأوصافه، ولكنه أكد شكه في صحته بعد أن استشار عددا من خبراء المتحف البريطاني والمستشرقين وغيرهم. وان كان قد نقل أيضا رأي الدكتور محمد حميد الله في احتمال كون المخطوط صورة من أصل قديم. وقد أعاد دانلوب المخطوط الى مالكه، ولا علم لنا الآن بمكانه.

(٤) وفي مايو سنة ١٩٦٣ نشر الدكتور صلاح الدين المنجد مقالا في جريدة الحياة ببيروت، يعلن فيه الكشف عن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى. وذكر أن الأصل الجلدي لهذه الرسالة محفوظ لدى السيد هنري فرعون أحد الوزراء اللبنانيين السابقين والمعروف بهوايته لجمع الآثار..

وقد اطلعني السيد فرعون على هذا الأصل، وهو محفوظ بين لوحين زجاجيين، وفيه تمزيق واضح من أعلى الوسط يتجه الى يمين الرسالة والى أسفلها. وقد خيط هذا التمزيق بمهارة للمحافظة على مظهر الرسالة. وذكر لي السيد فرعون أنه قد ورث الرسالة مع مخطوطات أخرى من

والده الذي كان قد اشتراه من أحد الأتراك في فترة من فترات الاضطراب السياسي في تركيا.

وبعد دراسة مستفيضة من الدكتور المنجد لنص الرسالة وصفات الخط والرق، أعلن ترجيح صحة المخطوط وأصالته.

(٥) وفي سنة ١٩٧٣م كشف النقاب عن وثيقة خامسة كانت لمدة غير قصيرة في حيازة الملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن الأسبق، ثم آلت بعد وفاته الى أرملته الأميرة ناهدة حجازي. وقد رغبت الأميرة حين تقدمت بها السن أن تحفظ الوثيقة لدى أحد الحكام المسلمين، فعلمت بذلك حكومة الكويت وحكومة الإمارات العربية المتحدة، وأجريت بسبب ذلك ثلاث دراسات عنها.

الاولى: في لندن مقر اقامة الأميرة، أعدها الاستاذ ياسين حامد صفدي رئيس قسم المخطوطات العربية بالمتحف البريطاني.

والثانية: في الكويت أعدتها لجنة من الأساتذة: الدكتور حسين مؤنس والدكتور شاكر مصطفى والدكتور محمود علي مكي.

والثالثة في أبو ظبي أعدها كاتب هذا المقال.

درس الأستاذ صفدي نص الرسالة وصفات الجلد

والخط وانتهى الى تأكيد أصالتها. ودرست لجنة الكويت السند الذي وصلت به الرسالة عبر التاريخ وكذلك صفات الخط، وانتهت الى الشك في الوثيقة وعدم استبعاد كونها مزورة. وقد راجعت في دراستي موضوعي المتن والسند اللذين درسا من قبل وأضفت بعدا جديدا في الدراسة وهو الفحص المختبري الموسع، متعاونا في ذلك مع خبراء المتحف البريطاني في لندن وخبير الجلد الدكتور (ريد Reed) من جامعة ليدز في انجلترا. واشتمل الفحص على دراسة لخصائص الرق بالمكبرات وتحت الأشعة فوق البنفسجية، وخصائص الحبر، وكذلك على فحص الانكماش الجلدي لتقدير عمر الوثيقة، وهي طريقة تختلف عن الفحص الكربوني المعروفة.وانتهيت من هذه الدراسة إلى أن الوثيقة قديمة جدا، اذ يزيد عمرها عن ألف سنة، وبأنها قد تكون أصيلة، كما قد تكون نسخة قديمة عن الأصل، ونشرت هذه الدراسة في جريدة الاتحاد بأبو ظبي في مايو سنة ١٩٧٤م. أما الوثيقة نفسها فقد أصبحت الآن في حيازة جلالة الملك حسين ملك الأردن.

ان اكتشاف هذه الوثائق في العصر الحديث، مع اتضاح أن بعضها صحيح، يضيف بعدا جديدا في

دراسات الرسائل النبوية، اذ يساعد على توثيقها، وتأكيد مدلولاتها.

على أنه ينبغي التأكد بأن الباحث المسلم، يقبل على دراسة هذه الرسائل ما اكتشف منها وما لم يكتشف، من منطلق الثقة. فأصل الخبر بالنسبة له ثابت. ونسبة شيء الى رسول الله عليه الصلاة والسلام من قول أو خبر أو رسالة، يخضع لديه لقواعد التحقيق الصارمة التي تستهدي بقول النبي صلى الله عليه وسلم، [من كذب عليَّ عامدا متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار] ،فهو لا يعتسف الأمر في اثبات أو نفي، ولا يصطنع من الأدلة الا ما يصح، ولا ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس منه. كما أنه من جهة أخرى، يعتز بما يعثر عليه من أدلة التراث والتاريخ، فلا يفرط فيه، ولا يخفي أمره عن الناس بيانا للحقيقة.

وهذا يدعونا الى اعادة النظر في المنهج الذي اتبع حتى الآن في تحقيق الرسائل، سواء من قبل الباحثين المسلمين ام من قبل المستشرقين، بقصد ضبطه وتجويده لمضاعفة الثقة بنتائجه.

وبتأمل هذا المنهج نجد أنه، باستثناء رسالة هرقل التي وجهت اليها دراسات متنوعة، فان الدارسين يركزون على

محتوى الرسائل بمقابلتها بما ورد في الأصول من نصوص، وعلى هيئة الرقوق وما تظهره من علامات القدم، وصفات الخط ومدى توافقه مع ما عرف من خطوط الوثائق القديمة.

ولا شك أن هذا المنهج، بعناصره الثلاثة، يعين الى حد كبير على تقييم الوثائق المكتشفة، خاصة ما كان منها في حالة لا تمكن من فحوص أخرى، كما هي الحال مع وثيقة طوب كابي سراي، التي قدمت جدا، وأصبحت معرضة لمزيد من التشقق وربما التفتت لو زاد مسها أو تكرر نقلها. وهناك وثائق تاريخية لها أهمية بالغة لدى العالم الغربي والمسيحي، لم تجر عليها من الدراسات التوثيقية أكثر مما ذكر. وأعني بوجه خاص الأناجيل الأربعة المعتبرة أقدم ما عثر عليه من أناجيل، والتي يوجد منها ثلاثة في المتحف البريطاني في لندن وواحد في الفاتيكان بروما[١].

الا أن هذا المنهج وحده لا يعتبر كافيا، ولا بد من تعزيزه بأمرين:

أولها: دراسة مستفيضة للسند الذي وصلت الوثيقة

---

(١) هذه الاناجيل معروفة في المتحف البريطاني بالاسماء الآتية:

of unkwn gospel. Codex Alexandrinus, Codex Sinaiticus, Codex Vaticanus and Frangments

المكتشفة، وفقا له، الى أيدي مكتشفيها[١].

وثانيها: تطبيق وسائل البحث المختبري التي تقدمت في زماننا الى حد كبير. والاتجاه الحديث الآن لدى المحققين هو استخدام هذه الوسائل. وهذا ما اتبع أخيرا في تحقيق مخطوطات البحر الميت التي تملكها الاردن[٢]، وما يطالب المحققون بتطبيقه على (ثوب تورينو) الذي ادعي من قديم انه ثوب المسيح عليه السلام يوم ادعاء الصلب.

وفي رأيي أن الفحص المختبري يجب أن يسبق الفحوص الأخرى ليتقرر أولا ما يسميه الباحثون (عذرية الوثيقة المفحوصة) ويقصدون بذلك كونها أصيلة لغرضها، وليست رقا قديما قد غسل بالمواد الكيماوية ثم أعيدت الكتابة عليه، ثم لتقرير العمر الزمني التقريبي للوثيقة. والوثيقة التي لا تثبت عذريتها وقدمها لا تستحق أن تعرض لما عدا ذلك من الدراسات لأنها تكون بكل تأكيد مزورة.

واني اذ أدعو الى ذلك، أدرك تماماً أن الفحص المختبري نفسه ما زال قاصرا، وأن تقدير العمر الزمني ما

(١) من أمثلة ذلك دراسة د. محمد حميد الله، ود. حسين مؤنس وزميليه لسند وصول رسالة هرقل الى حيازة الملك عبد الله الحسين.

(٢) انظر محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت.

زال تقريبيّاً ، ولكن هذا لا يبرر اهدار هذه الوسيلة من وسائل التحقيق .

على أن الوثيقة المزورة لا تخلو من قيمة تاريخية اذا ثبت قدمها ، وأن تزويرها ليس حديثا . ذلك أنها تشير الى صفات كانت شائعة في عصر تزويرها ، كما أنها قد تكون نسخة عن أصل أقدم منها . ولعل هذا ما قصد اليه العلامة محمد حميد الله في تعليقه على الرق الذي يظن أنه رسالة النجاشي .

وفي ضوء هذه الملاحظات ، ونظرا لقلة ما نعلمه عن الفحوص التي أجراها المستشرق بوش على وثيقة المنذرابن ساوى والمستشرق دنلوب على وثيقة النجاشي أعتقد أن هاتين الوثيقتين على الأقل يجب أن تدرسا من جديد .

والخلاصة التي ننتهي اليها ، بعد استعراض الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء وقادة الشعوب والجماعات في زمانه هي ما يلي :

أن موضوع الرسائل موثق في المصادر توثيقا يجعله من المسلمات التاريخية التي لا تحتمل الشك .

ومع ذلك فهو يحتاج الى اعادة كتابة : لتجميع أطرافه ، واضافة ما جد من أبحاث اليه والترجيح بين النصوص

الواردة فيه ، والتدقيق في التفاصيل الجزئية لأخبار الوفادات.

٢ أن حملات التشكيك التي بدأها المستشرقين لا تثبت للمناقشة ، وربما كان دافعها الرئيسي نفي صفة العالمية عن الدين الاسلامي. وهي صفة واضحة لا يمكن جحودها.

٣ أن الرسائل التي اكتشفت ابتداء من سنة ١٨٥٠م قد أضافت الى الموضوع بعدا جديدا ، وساعدت على المزيد في توثيقه.

ومن هذه الرسائل ما هو واضح الأصالة والصحة ، ومنها ما يحتاج الى اعادة درس بمنهجية أكثر ضبطا.

أبو ظبي في: ١٤٠٠/١/٢هـ

١٩٧٩/١١/٢٢م

د. عز الدين ابراهيم

المستشار الثقافي لسمو رئيس دولة الامارات

العربية المتحدة

والاستاذ بجامعة الرياض سابقا

رسالة

سيرة النبي الأمين

إلى

إنسان القرن العشرين

لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي
« الهند »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة سيرة النبيّ الأمين

الى انسان القرن العشرين

كلما قرعت آذاننا كلمة «الجاهلية» تمثل أمامنا عفوا عهد القرن السادس المسيحي المظلم، الذي بعث فيه النبيّ الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وظهرت أولى معجزات تعاليمه وتربيته وتوجيهه.. فما أن نسمع كلمة «الجاهلية» الاّ وتتمثل أمام أعيننا الأمة العربية بخصائصها ومزاياها، وملامحها وقسماتها الجاهلية، تلك التي صوّرها كتابنا في موضوع السيرة.

لكن «الجاهلية» لا تختص بذلك العهد، فكل عهد يعتبر عهد الجاهلية لدى الاسلام اذا حرم هداية الوحي الالهي ونور النبوة، وتغاضى عن تعاليم الأنبياء وتنكر لها بعد أن تبين له الهدى، أو لم يحظ به بتاتا، ولا فرق في ذلك بين جاهلية القرن السادس المسيحي العالمية، أو القرون الوسطى في تاريخ أوربا، التي تعرف في الأغلب بالقرون المظلمة (العصور

المظلمة) أو عهد الحضارة والرقي الزاهر في القرن العشرين الذي نجتازه.

يصرح القرآن الكريم أن النور فرد، ومشكاته واحدة، «الله نور السماوات والأرض» والظلمات لا حد لها ولا نهاية، ولو لم يتجلّ النور الالهي (الذي يأتي عن طريق الأنبياء والرسل وحدهم) لخيم على العالم من الظلمات المتراكمة ما لا يحصى ولا يقاس، ولأظلمت كل مرحلة من مراحل الحياة، وعمّت الظلمة وطمت، وتراكمت وتكاثفت.

«كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور[1]»

وكلما يذكر القرآن الكريم النور والظلمة متقارنين، يذكر النور فردا والظلمة جمعا، مما يدل على أن الظلمة أنواع وأشكال، وأما النور فهو واحد، ولو لم يسطع هذا النور الإلهي لما استطاع نور صناعي أن يشق هذه الظلمات الحالكة المطبقة، ولكان العالم البشري كمقبرة مظلمة مترامية الأطراف، ليس فيها منفذ من نور، ولم يكن

---

(١) النور: ٤٠

ليستضيء مهما أوقد الموقدون «شموعا صناعية» ذات أضواء قوية قاهرة، ساطعة باهرة».

«أو من كان ميتا فأحييناه، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها[1]»

يبدو وكأن أرض الغرب - التي لا تطلع منها الشمس وإنما تغرب فيها - قلما حظيت بنور النبوة، وحاول أهلها أن يستعيضوا عنه النور البشري الصناعي.. انّ عهد اليونان والروم الذهبي لهو العهد الزاهر الرائع جدا في التاريخ البشري، بالنسبة الى ازدهار العلوم والفنون البشرية، لكنه أحلك العهود - كأحلك العهود الجاهلية - بالنسبة الى تعاليم الأنبياء، وقد خبطوا خبط عشواء فيما يتعلق بذات الله وصفاته، وكان عمادهم في ذلك الظن والتخمين، والحرص والترجيم دون استناد الى توجيه سديد، واشراقة مستقيمة «مالهم به من علم، ان هم الا يخرصون»، ولا تقل فلسفتهم والهياتهم التي دونها حكماؤهم وفلاسفتهم طرافة وخرافة، من أساطير الشرق وألاعيبها وأعاجيبها، وقد تلمع في أقوال سقراط وأفلاطون - دون أرسطو- وتعليمات فلاسفة الأخلاق أثارة من تعاليم الأنبياء

---

(١) الأنعام: ١٢٣

لمعان اليراعة في الليلة المطيرة الشاتية ، مما يدل على أن تعاليم الأنبياء قد طرقت آذانهم في حين من الأحيان ، لكن هذا النور لم يكن من السطوع والثبات بحيث يمكنهم أن يعولوا عليه في دياجير الحياة « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا » .

ومما يبعث العجب أن مصباح الهداية الذي أوقده سيدنا المسيح عليه السلام ظلّ يسطع وينير في الشرق طوال مدة قرنين ، رغم العواصف الهوجاء ، لكنه خبا في الغرب في حضانة المعنيين به والحارسين عليه ،فقد فقدت تعاليم المسيح عليه السلام أصالتها في الغرب ، حيث حظيت المسيحية لأول مرة بالحكم والسيادة ، وانصب تيار الوثنية والشرك في نهر المسيحية ، وربما لم تشق ديانة في العالم البشري بمتبعيها الجدد ، كما شقيت المسيحية بامبراطور قسطنطين ، و« بولس القديس » (القديس بولس) وبعد ما أنطفأ هذا المصباح الالهامي الالهي ، بقي رجال الكنيسة يخدعون العالم المسيحيّ الغر المفتون بحسن الظن ، بمصابيح صناعية من عند أنفسهم ، وحاولوا أن يؤكدوا للناس أنهم لا يزالون يحتفظون بالنور الكريم الوهاج الذي جاء به المسيح عليه السلام من

عند ربه، والواقع أنه كان قد توارى في الظلمات المتراكمة المترامية منذ القرون، وابتلعته الوثنية الرومية المتطرفة:
(مثلهم كمثل الذي استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله، ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون)[1].

وعلى الرغم من ذلك كله يجب الاعتراف بأن الغرب ظل يسعد بالاعتقاد بالاله، والايمان بالآخرة، بفضل المسيحية، وذلك لأن الدين السماوي مهما تغير وتبدل، فانه يجعل الايمان بالله وبالآخرة يجري في المؤمنين به مجرى الدم، ويتغلغل في أحشائهم، بحيث لا يمكن نزعه من القلوب نزعا تاما.. هبت في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر المسيحي في أوربا ريح العقلانية بل المادية العاتية، التي وضعت الغرب على طريق المادية الجامحة في صورة جوفاء، وعلى طريقة عمياء، ودرج عليه الغرب وقطع أشواطا بعيدة، فعاد أسلوبه للحياة والتفكير لا يقبل الاله والآخرة. إن الغرب كله لم يعلن كفره بالاله أو رفضه لعقيدة الآخرة نهارا وجهارا، لكن أسلوب حياته الذي يعيشه لا ينم عن الايمان بالاله والآخرة، ويصح اليوم أن نقول: إنّ أوربا لا تدين بالمسيحية وانما تدين بالمادية، وقد

(١) البقرة: ١٧

ظلت الوثنية ديانة أوربا قرونا، وتدعي الآن منذ مدة طويلة أنها تدين بالمسيحية، لكنها لم تخلص لها، ولم تحرص عليها، ولم تبذل لها حبها وودها كما صنعت هذه الديانة (المادية) وكنائس هذه «الديانة» الجديدة ومعابدها - المصانع ومراكز الصناعة والتجارة، والمتنزَّهات - غنية ليل نهار، آهلة في كل حين وآن، ورجال هذه الديانة - هم أصحاب رؤوس الأموال، والمليونيرون - ينظر اليهم نظرة الاجلال والاكبار، بل يقدسون ويعبدون، وبالعكس من ذلك أصبحت المسيحية في الغرب ظلا شاحبا.

وقد ظهر - ولا يزال - في الغرب جميع ما هو نتيجة منطقية لهذا التناسي للذات ولهذا الأسلوب من الحياة، وأولى هذه النتائج الوخيمة بأن الانسان الغربي تنكر للاله الأحد الصمد، وعاد يتضرّع الى مئات الآلهة، قد رفع جبهته من عتبة واحدة - كان فيها له غنى عن كل العتبات - وبدأ يطّرح على كل عتبة، وتلك هي عاقبة محتومة لكل من تنكر للاله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وهؤلاء الأرباب من دون الله «قد تسلطوا على الغرب في عدد لا يحصيه الاّ الله، وغلبوا على الغرب أمره، فلا يجد من دونهم موئلا، وهذه الأصنام أشكال وألوان، تتمثل

حينا في الزعيم السياسي، وحينا آخر في اله الاقتصاد، وفي مكان هي التزامات وقيود، ومستوى الحياة التي افترضها الانسان، وتبناها، وفي مكان آخر واجبات وضروريات، التزمها الانسان بنفسه، وهذه الأصنام بمجموعها قد ضيقت الخناق على عبادها، وأرغمتهم على عبادة، تجعل عبادة الله مقابلها أيسر وأحلى منها آلاف المرات، وتعاملهم معاملة شاقة قاسية، دونها معاملة الانسان مع العجماوات والآلات الصماء، وتضطرهم الى تضحيات هائلة ما قام بها أحد من قبل لصنم أو إله، وهناك صراع مرير بين أغراض هؤلاء الأرباب من دون الله، ومطامعهم وأهوائهم، جعل العالم يقوم ويقعد. ومن بين هؤلاء الأصنام الكثيرة المتنوعة صنم «الوطنية» الذي يتطلب لنفسه قرابين النفوس البشرية والدماء الانسانية، ومن بينها صنم «المعدة» الذي عكف على عبادته انسان القرن العشرين، ولا يبرحها، ولا يحول عنها، لكنه لا يكاد يرضى عنه بأي كميّة من التضحية والعبادة، وقد أجاد (المستر آليورلاج) حيث قال قبل مدة في محاضرته:

«أصبحت بساطة الحياة حلما من الأحلام، ولا يهم أحدا غرض كريم، وفكرة سامية وأصبح كل من الناس

يدور حول مصنعه أو مكتبه ليل نهار كثور الطاحون، ويخدمه خدمة العبيد، وأدى اختراع المراكب السريعة الى أن أصبح انسان القرن العشرين دوامة لا هدوء لها ولا قرار».

وأدى تقصير الانسان في جنب الله الى أنه وقع فريسة التناسي للذات، وقد صرّح القرآن أن ذلك عاقبة محتومة لمن نسي الله، وطوى عنه كشحا:

«ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم[١]».

حقا انّ انسان القرن العشرين هو نموذج كامل للتناسي للذات قد نسي حقيقته وخصائصه الانسانية، وغرضه من هذه الحياة، ومقصده من وجوده، وعاد يعيش عيشة البهائم والجمادات، وصار ماكينة تصوغ الدولارات التي لا تستطيع هي أن تنتفع بها في قليل أو كثير، وبلغ الى حد أن الراحة البدنية، والطمأنينة القلبية التي قد تكون بعض قيمة هذه الجهود والجهاد، أصبح لا ينالها في حياته، ولا يفكر فيها ولا ينتبه اليها، وقد صدق البروفيسور (جود) حينما قال:

«يقول (دزرائيلي) ان المجتمع في عصره يعتقد أن الحضارة هي الراحة أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن

(١) الحشر: ١٩

السرعة، فالسرعة هي اله الشباب العصري، وأنه يضحي على نصبه بالهدوء والراحة والسلام والعطف على الآخرين من غير رحمة »

وقد تغيرت وظيفة هذا الانسان بفعل التناسي للذات، وبحكم اهماله لحقيقته وحقيقة نفسه، فتقدم أشواطا بعيدة في مجال الرقي في غير دائرته الطبيعية، ولم يخط خطوة في دائرته الانسانية، ولا تزال خصائصه وأخلاقه وصفاته الانسانية في انحطاط، واذا رحت تحلل الرقي الذي أحرزه الانسان العصري، فلن تجد الاّ أنّه عبارة عن بعض فضائل السباع الضواري، والطيور، والأسماك، وقد اعترف الكتاب الأوربيون بهذه الحقائق، وقد جاء الكثير من شهاداتهم واعترافاتهم في كتابنا «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ».

وكيف يرجى من الغرب أن يتضرّع إلى الله، ويلجأ إلى كنفه، ويطّرح على عتبته وقد بلغ الى هذا الحد من التناسي للذات، انه مصداق صحيح لما قاله الفيلسوف والشاعر الاسلامي الدكتور محمد اقبال في بيته الفارسي: «اذا نسيت ذاتك وتنكرت لنفسك، فلماذا تبحث عن محب لك، عارف

بك؟ اذا لم تتعرف على الانسان وحقيقته، فأنى لك أن تتوصل الى الله خالق الانسان وفاطر الكون؟ ».

أما نسيان الغرب للآخرة، فأولى نتائجه الطبيعية أنه فتن بالمادية، وأمعن الى الحياة الدنيا، وأخلد اليها، ونشأ في قلبه الحرص المجنون الجامح على التمتع بلذائذ الحياة، وأصبح كل ذلك غاية عليا، ومقصدا أسمى، وهدفا أسنى في حياته، فتتسامع اليوم من كل جوانب الغرب نداء قويا عاليا الى الحصول على الخبز ولقمة العيش، والاهتمام بالمعدة، والتلذذ بالحياة الدنيا والولوع بمظاهرها الجوفاء والتمسك بأسبابها، والحصول على وسائلها، ولا يصرف فرصة حياته الا في التنافس في احراز قصب السبق في هذا المجال، وقد جعلت هذه المسابقة والتنافس، الحياة في الغرب مضمار الرهان الذي لا نهاية له، فهم في سكرة من الحياة الدنيا، لديهم منها عليل لا يشفى، وغليل لا يروى، وكل يتطلع الى الجديد المزيد، ويردِّد هل من مزيد » وتتجدد كل يوم ضروريات الحياة وتتنوع وتتكاثر وسائل إشباع متطلبات الحياة وتتكثف، وقد ولد كل ذلك مشكلات مستعصية، وقضايا معقدة، وقد أمدها وزاد في حدتها وشدتها، التنافس

التجاري، ولا يزال مستوى الحياة يترفع مع الأيام، وكل يرى الغاية بعيدة، والمسافة شاسعة، فأصبحت الحياة قلقة متبلبلة، فقدت هدوءها وطمأنينتها من أجل انصراف الهمة كليا الى اتخاذ الوسائل للحصول على هذه الأمور، وأضحى الانسان الأوربي في عذاب من الحرص والطمع والجشع لا ينتهي، ورهينا للجهد والسعي للحياة الدنيا الذي لا يكاد يقف عند حد، وأصبح الصبر والقناعة - اللذان هما اكسير يضفي على القلب طمأنينة وسكينة - كالعنقاء التي يسمع عنها الانسان ولا يراها.

وهذا الحرص على التمتع بالحياة الدنيا - الذي نراه نحن المسلمين جنونا وهوسا - هو كل السعادة والنجاح، وتمام الحظ لدى المنكرين للآخرة، وذلك أمر طبيعي، لأن الذي أنكر الآخرة، وأخلد الى هواه، واطمأن الى الحياة الدنيا، ما الذي يمنعه من التمتع بها، والفوز بأكبر حظ من اللذة، واشباع كل نهمة، وتلبية كل حاجته، ولماذا يقصر فيما يمكنه من التنعم والتمتع والمرح والطرب، ومن أن يشهد اللذات ويبادرها بما ملكته يداه:

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام،

والنار مثوى لهم[1] » « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهُمُ الأمل ، فسوف يعلمون[2] » .

والنتيجة الثانية المشئومة التي تترتب على انكار الآخرة ، هي أن هذه الحياة الدنيا ومطامعها ، وأمتعتها وزخارفها ، والوسائل التي تسعف الانسان فيه ، تتزين في القلوب ، وتتجمل في الأعين ، وتتحسن لدى العقول :

« ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ، زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون[3] » .

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً[4] » .

ومن نتيجة ذلك ، أن الحياة أصبحت تتميز باللهو واللعب ، وبدأت تفقد عناصر الجد والحقيقة ، وعادت تشغلها وسائل اللهو والطرب والتسلية والسرور ، ولا يغير في وضعهم هذا تغييرا ما ، أخطر الساعات العصيبة ، ولا يحد من غلوائهم أدهى الأوقات وأمرها :

---

(١) محمد : ١٢

(٢) الحجر : ٣

(٣) النمل : ٤

(٤) الكهف : ١٠٣/١٠٥

«(وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، وغرتهم الحياة الدنيا[1] »).

ومن نتيجته، أنهم لا يعللون الحوادث والوقائع الا بالعلل المادية الظاهرة المحسوسة المشهودة، ولا يتوصلون الى الأسباب الحقيقية، ولا يدركون حقيقة الأمر، ولا يمسون صميم الواقع، فلا يقع خلل في امعانهم في وسائل التنعم والتسلية واللهو، في أدق الساعات وأحرجها، ويعللون الحوادث بما يشاؤون، ويسترسلون الى العلل الجوفاء التي يفترضونها، ولا يقع تغير ما في موقفهم وأسلوب حياتهم:

«(ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون[2] »).

ومن خصائص إنكار الآخرة وجزائها، العلو والاستكبار، فمنكر الآخرة لا يمنعه شيء من الأنانية والتكبر والخيلاء، لأن الذي لا يؤمن بقوة فوق قوته وبحياة بعد هذه الحياة، وبيوم يحاسب فيه العبد على كل صغيرة وكبيرة أتاها في الحياة الدنيا، لا يحول بينه وبين أن يكون

(١) الأنعام: ٧٠

(٢) الأنعام: ٤٢/٤٣

فرسا جامحا حبله على غاربه، وانسانا سادرا في غلوائه، يصنع ما يشاء، ويسير على الأهواء ويركب العمياء، ومن ثم قد شفع القرآن الكريم في أكثر مواضعه ذكر انكار الآخرة بذكر التكبر، فكأنهما يلزم أحدهما الآخر:

«(فالـــذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون[1] »).

وجاء في معرض الحديث عن فرعون وجنوده:

«(واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وظنوا أنهم الينا لا يرجعون[2] »).

ومثل هذه الأمة، المنكرة للآخرة، المؤمنة بالمادية، يكون بطشها شديدا وضربها موجعا أليما، وفتحها اذلالا للعباد، وتدميرا وافسادا للبلاد:

«(واذا بطشتم بطشتم جبارين[3] »)، «(ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون[4] »).

وكذلك بقي الغرب محروما من الايمان بالرسالة والنبوة، وقد آمن بالمسيح عليه السلام ابنا لله، ولكنه لم يؤمن بـه - في الواقع العملي- رسول مطاعا، وهاديا في الحياة

---

(١) النحل: ٢٢
(٢) القصص: ٣٩
(٣) الشعراء: ١٣٠
(٤) النمل: ٣٤

وقائدا لسفينة النجاة، كان الأمر الأول شيئا اعتقاديا نظريا، لا يؤثر على الحياة، ولا يغير في الأعمال والأخلاق، والسلوك والعادات، أما الأمر الثاني - وهو الايمان به كهاد في الحياة، وداع الى الفلاح والنجاة، والاستضاءة بسيرته وحياته في ظلمات الحياة، واعتباره نموذجا كاملا للسلوك الأمثل - فكان شيئا يغير مجرى الحياة، لكن الغرب لم يصنع ذلك، ولم يكن له ذلك سهلا ميسورا، فلم يكن يعرف الاّ أحوال خمسين (٥٠) يوما من حياة المسيح عليه السلام، وهي نبذات متبعثرة لا تعطي صورة واضحة للنبي المبعوث من الله، فلا تمكن الانسان من الاقتداء، ولا تيسر له الائتساء، يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات في مقال له في دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الرابعة عشرة ج/١٣، ص/١٧١٠:

« ينبغي أن يتنازل الانسان عن محاولة وضع كتاب في سيرة المسيح بكل صراحة فانه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوما ».

وعلى ذلك فلو أراد الغرب أن يهتدي هدي المسيح عليه السلام، وأن يجعل أقواله وأفعاله وتعاليمه وارشاداته، منارة نور في طريق الحياة لواجهتهم صعوبات عملية، ولم يكن عند قادة المسيحية رصيد موثوق به من التراث الديني يستندون اليه في قيادة أمة بأسرها، وتوجيهها، ولا كانوا يحملون من الألمعية والفراسة الدينية، والحكمة الربانية ما يستطيعون به أن يحصروا الأمم الأوروبيّة الفتيّة المتوثبة في نطاق الدين مع التقدم الدنيوي، والرقي المادّي، فكانت نتيجة ذلك أن الأمم المسيحية تحررت - في حياتها العملية - من قيادة المسيح عليه السلام ومراقبة الكنيسة، وحطمت كل الحدود والقيود التي كانت تمنعها من الانطلاق بحرية، وبدأت تعيش الحياة كأنها ليست من أمة نبي... وذلك لأنه لم تؤثر تعاليم المسيح الساذجة في عقولها وقلوبها تأثيرا قويا عميقا، ولم تتفاعل هي الأخرى معها تفاعلا مطلوبا، ولم تحظ بالتربية الخلقية، والتزكية العقلية والنفسية، التي يتلقاها أتباع الأنبياء والرسل، فنشأ من ذلك أنها وفرت الوسائل أشكالا وألوانا. ولكنها بقيت مجردة عن عاطفة الصلاح، ونزعة الخير والرشد، لأنها لا تتأتى الاّ عن طريق تعاليم الأنبياء وتربيتهم واصلاحهم،

ولا تولدها العلوم والاختراعات والاكتشافات، فعادت هذه الوسائل والآلات البريئة - التي كان لها أن تكون طريقا إلى سعادة البشرية بنية الخير وحسن استخدامها - وبالاً على النوع البشري، وطريقاً الى العلو والاستكبار، والعبث والافساد، والتدمير والهدم، لأن الذين يستخدمونها لا عهد لهم بالتوجيه الرباني القرآني الحكيم:

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، والعاقبة للمتقين». (القصص ٨٣)

وهـذا الاستغنـاء عن الله، والإعراض عن تعاليـم الأنبياء، ورفض الآخرة، كل ذلك أدى الى أن الغرب بينما هو منور مستضيء حتى أصبح ليله نهارا، اذا هو مظلم حالك حتى ان نهاره ليل، ويقع في عهد الرقي والنور كل ما كان من خصائص عهد الوحشية والبربرية، وكان كما قال الشاعر الاسلامي الكبير المرحوم أكبر حسين الاله آبادي في بيته الأردي:

«سيسجل القلم (قلم المؤرخ) بكل أسف ودهشة أن «الظلمات» كانت سائدة في «ضوء الكهرباء».

وهذا الوضع المزري هو الذي اضطر وزير بريطانيا الأسبق المستر لويد جورج أن يقول لدى وضع الحرب العالمية أوزارها:

«لو بعث المسيح عليه السلام في هذه الدنيا مرة ثانية، لما استطاع أن يعيش مدة طويلة، لأنه سيلاحظ أن الإنسان لا يزال - بعد ألفي عام - على حاله من الفتنة والفساد، والقتل والنهب، واراقة الدماء والاغارة، أما اليوم فان جسم الانسانية لا يزال يتقطر دما بعضة أكبر حروب التاريخ، وخربت الأرض حتى عمت المجاعة، وما عسى أن يراه سيدنا المسيح؟، هل يرى أن الانسان يصافح بعضه بعضا بدافع من الاخوة والمساواة، أو يرى - عكس ذلك - عكوفا على اعداد واستعداد لحرب أكثر ضراوة وقساوة ودمارا من هذه الحرب العالمية، واقبالا على اختراع آلات أكثر تدميرا وهدما وابادة، والتفكير في أحدث أساليب التعذيب[1] ».

ان العالم المتحضر - فيما قبل ١٣ قرنا ونصف قرن - الذي كان يقوده امبراطوريتا رومة وفارس كان يضاهي العالم الجديد الذي نعيش فيه الى أبعد مدى، فقد كان الانسان في ذلك العالم نسي ربه، فنسي نفسه بالتالي، ولم يكن الاعتقاد بالله، الا نظرية تاريخية، فكان الناس

---

(١) نقلا من جريدة «سج» الأردية لصاحبها المرحوم الاستاذ الكبير عبد الماجد الدريابادي.

يؤمنون على النمط التاريخي وحده، أن هذا العالم قد خلقه الله في زمن من الأزمان «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله». ولكن هذا الاعتقاد لم يكن يتدخل في الحياة العملية، وكانوا يعيشون الحياة كأن الله ليس له وجود - نعوذ بالله من ذلك - أو هو موجود لكنه يعيش في عزلة، قد تنازل للآخرين عن سلطته وحكمه.

كانت شبكة عبادة غير الله، وأرباب من دون الله منبثة في أرجاء الأرض، في مكان تعبد الأصنام والأوثان، وفي آخر تعبد العناصر والأجناس والأقوام، وفي أرض تعبد الأهواء والشهوات، وفي أخرى تعبد القوة والسلطة، وفي مكان تعبد الملوك والسلاطين، وفي مكان تعبد الأحبار والرهبان، كان الانسان قد نسي هدف حياته، ، بدايتها ونهايتها وتغاضى عن الأشغال الأصلية في الحياة، وأمعن في الانتحار التدريجي والأعمال الخاطئة والأشغال التي لا تعينه، ساد العالم كله وضع قاتم من التناسي للذات، كان رجال الحكومة لا يهمهم الاّ الظلم والجور، والجبر والبطش والاستيلاء والاستبداد، وجمع الثروة والارستقراطيون في شغل شاغل من البذخ والتنعم، وقد تنوعت متطلبات الحياة وتكثرت الى حد كان لا يكفي لاشباعها أكبر قدر

ممكن من الضرائب والإتاوات المستحدثة وارتفع مستوى الحياة والمجتمع، إلى حد أنه لا يعتبر انسانا من لا يتمتع بلوازم الامارة والتزامات الحياة الارستقراطية فكان لا يعامله المجتمع معاملة الانسان، وكان الانسان يرزح تحت أثقال الحياة، ويذوب هما وراء كسب الاعتبار والاحترام فيما بين بني جنسه، وكان أصحاب الطبقة الوسطى لا تدعهم محاكاة أصحاب الطبقة العليا ومنافستهم للتفكير في شيء آخر، - أما الفقراء والطبقة الكادحة والمسحوقون فكانت ظهورهم مثقلة بألوان الضرائب والأتاوات، وبأنواع العبودية والرق - كانوا منهمكين في توفير وسائل اللذة والتنعم للأمراء والحكام واشباع متطلباتهم المشروعة وغير المشروعة كالعجماوات والبهائم فلئن سعدوا بفرصة سانحة في وقت ما فانهم كانوا يتسلون بوسائل التسلية المحرمة وأنواع المسكرات لترويح أنفسهم من عناء الأشغال وربما لا يوجد في دولة واسعة رجل واحد يهمه دينه وآخرته وعقيدته، ويقض مضجعه ذكر الموت، وكان الشعب البريء مسحوقا بين حجري رحى طمع الملوك ورغبتهم الجامحة في الاستيلاء والاستعباد وتوسيع رقعة الملك والنفوذ فقد غزت امبراطورية فارس دولة الشام المسيحية دون مبرر.

وسقت أرض الله بدماء تسعين ألفا من النفوس البريئة، وقد فعلت امبراطورية رومة بامبراطورية «فارس» الأفاعيل - كاجراءات انتقامية وانتصار للشعب البريء ودامت هذه الحرب الدامية سنين طوالا من غير غرض سام، وبدون مبرر كاف، وظلَّ أبناء الامبراطوريتين العظيمتين المتحضرتين في العالم، يتصارعون فيما بينهم ويتعاركون، ويلغ بعضهم في دماء بعضهم كالوحوش والضواري في الغابة، فكان العالم كله ظلاما في ظلام، وفسادا في فساد، وانحطاطا في انحطاط، وذلك كله من أجل صنيع الانسان نفسه:

«(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون»)[1].

وهنالك بعث الله في أمة أمية تعيش في عزلة من هذا العالم المتمدن المتداعي المنهار الذي كانت تتوزعه الامبراطوريتان (الشرقية والغربية) المتحاربتان المتنافستان على قرب من الامبراطوريتين بل في منطقة متوسطة بينهما- نبيا أميا لكي ينقذ العالم من العذاب الذي بقي يأكله منذ قرون طويلة، ويحذره من عذاب الآخرة ويخرجه من

(١) الروم: ٤١

الظلمات الى النور ويضع عنه إصره والأغلال التي كانت عليه:

«(يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم[1] »).

وقد بعث هذا النبي الأمي الى الامبراطور الرومي «هرقل» رسالة من المدينة المنورة في ٧هـ/ ٦٣٠ - كانت تتضمن الدعوة الآتية: -

«يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألاّ نعبد الاّ الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله[2] ».

وقد اعترف هرقل بصدق الدعوة لكنه لم يستطع أن يتنازل - بضعف في نفسه وعجز في رأيه - عن الربوبية» التي كان يتمتع بها، وعلى ذلك فلم يسعد بالتخلص من عذاب الحياة الرومية وويلاتها الاّ حين طرده المسلمون من ربوع الشام وروما وبدأت تخفق على مروجها الخضراء راية الاسلام، راية الرحمة والعدل، والمساواة والحرية تحت ظل التوحيد.

---

(١) الأعراف: ١٥٧

(٢) آل عمران: ٦٤

لكن الأمة العربية الأمية المسكينة قد آمنت برسالة النبي الأميّ صلى الله عليه وسلم فحازت جميع النعم التي كانت نتيجة هذه الرسالة، ووليدة هذه الدعوة، تقطعت كل سلاسل عبوديتها تلقائيا، واستغنت عن جميع العتبات باطراحها على عتبة العبودية لله الواحد القهار، وتحررت من عبودية النفس والسلطان، وتخلصت من أغلال السيادة والأعراف والتقاليد الجاهلية، وقيود المجتمع والبيئة الظالمة الخانقة، والبلايا التي كانت ترزح تحتها من عند نفسها أو بيد غيرها، وتبعثرت عظمة الآلهة الصناعية والأصنام المنحوتة بيد البشر، أمام معرفة الله، وذاته وصفاته وعظمته، وجبروته وكبريائه، وأصبحت الأمة العربية البائسة، الجائعة المنعزلة، المنطوية على نفسها، الصفيقة الثياب، المتزرة بأرديتها البالية - التي لم تتجاوز بواديها وصحاريها، ولم يكن لها عهد بمظاهر الزينة والفخفخة والأبهة - أصبحت تتحدث مع ملوك العجم وسلاطينها حديث الند للند، وصارت لا تحفل بمظاهر الفخفخة وزينة البلاط العجمي كأن هذه كلها صور ودمى قد كسيت ملابس أو زينت بأوراق ذات ألوان متنوعة زاهية، وعادت

واقعية نفّاذة الى الحقيقة، مدركة للواقع، فكانت لا تحسب حسابا للمظاهر الجوفاء والأشكال الفارغة، والأبهة الكاذبة، ولا تحيد قيد شعرة عن مبادئها ومستواها الخلقي الأعلى، وكانت ترى نفسها مكلفة باخراج عباد الله من عبادة العباد الى عبادة الله، وتحطيم ألوهية البشر للبشر في الأرض[1].

وقد تقلبت حياتهم ظهرا لبطن، بهذا التحول في نفسيتهم وعقليتهم الذي أحدثه الايمان بالله الواحد القهار، وافراد العبادة والعبودية له، فتحولت الرذيلة فضيلة، وتحول الانسان الضاري ملكا في صفاته السامية، وقاطع الطريق حارسا أمينا محافظا على أعراض اخوانه وأموالهم ونفوسهم. والذين كانوا يفجرون أنهار الدماء على شيء تافه، على سقي الماشية مقدما أو مؤخرا، أصبحوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويفضلون الموت عطشا لسقي اخوانهم، والذين كانوا يئدون بناتهم بأيديهم عادوا يحتضنون بنات الآخرين ويكفلونهنَّ على الفقر وقلة ذات اليد، والذين كانوا

---

(١) ليرجع الى قصة ربعي بن عامر وحديثه مع رستم القائد العام للقوات الايرانية ورجل المملكة الثاني، وحديث المغيرة بن شعبة معه في «البداية والنهاية» ج/ ٧/ ص/٤٠ وفي «تاريخ الطبري» ج/٣/ ص/٥٢٢.

يرون أموال غيرهم أموالهم.. صاروا يرون في أموالهم حقا للآخرين، والذين كانوا يهجمون على الأعراض وينهبون أموال الناس نهارا وجهارا، عادوا يدفعون في الليلة الحالكة تاج الامبراطور الايراني الذهبي الذي كان يقوم بالملايين الى أميرهم مستورا في ثيابهم.

وقد وضع الاقبال على الله والآخرة من شدة التهالك على الدنيا ونعيمها، تلك التي قد ضيقت الأرض على البشر بما رحبت، وحولت الدنيا الى سوق ومتجر... وكذلك روح التنافس الطبيعية - التي كانت تشعل باتجاهها المستقيم المواهب الانسانية وتوقظ الطاقات الكامنة في الانسان، والتي كانت قد حولت الحياة باتجاهها الخاطئ مضمار صراع لا ينتهي - أيقظت في الانسان باتجاهها الى الدين، الأريحية، والمزايا الانسانية النبيلة الزكية وزكت السيرة، وهذبت الأخلاق، وطهرت السلوك والعادات، فلم تزل روح التنافس تفعل فعلها القوي في الطبقات الانسانية المختلفة وفيما بين أفرادها المختلفين، ولكن كان ذلك فيما يتصل بالصلاح والخير، والحصول على الأجر والثواب، والطمع في رضا الله ومغفرته..

شكا الفقراء من الصحابة الى النبي صلى الله عليه وسلم

أن الأغنياء قد سبقوهم في الفوز بالثواب، فيصلون كما يصلون، ويصومون كما يصومون الخ... ولكنهم يفوقونهم في الصدقة والزكاة، وانفاق المال في وجوه الخير، فدلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذكر يمارسونه ويساوون به الأغنياء بل يسبقونهم، وما ان سمع الأغنياء هذا الذكر حتى جعلوا يمارسونه، فشكا الفقراء الى النبي صلى الله عليه وسلم تخلفهم وسبق الأغنياء في الأجر والثواب فسلاهم النبي صلى الله عليه وسلم:

« عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من الأموال، يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، فقال: ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم الاّ من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين « متفق عليه » وزاد مسلم في روايته: « فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: سمع

اخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ».

حوّلت روح القناعة والعفاف الدنيا كلها جنة ونعيما، يتمثل فيها معنى «(لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »)، وتآلفت القلوب - من أجل تجرد النفس البشرية من الطمع في المال والمنافسة في الحصول على أسباب الدنيا وحطامها الحقير - وتخالطت وتصافت الى حد تمثل قوله تعالى: «(ونزعنا ما في صدورهم من غل ») - الذي جاء في وصف أهل الجنة - في هذه الدنيا، وحل الشعور بالمسئولية محل المطالبة بالحقوق، وعاطفة الايثار محل الطمع والشره، حتى رأى الناس بأم أعينهم مظاهر «(يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »)، ورأت السماء في حيرة واعجاب كيف نوم المضيف الكريم أطفاله يعضهم الجوع، وأقنع الضيف - باطفاء السراج بحيلة - بأنه يشاركه الأكل فنهض الضيف وقد شبع وارتوى، وبات المضيف مع أهله وأولاده جائعا يطوي الأمعاء[1].

وهذا التحول، والصلاح، والانقلاب العجيب - في

---

(١) اقرأ قصة أبي طلحة الأنصاري في كتب الحديث. وتفسير قوله تعالى «ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة في كتب التفسير.

كل معاني الكلمة - كان وليد الايمان بالله الذي لا اله الا هو، وتفويض النفس اليه، والى تربية النبي المعصوم، فتوطدت عرى حياتهم، ونال كل شيء محله اللائق، ورجع كل أمر الى نصابه.

ولكن زهد العالم المسيحي في هذه الرسالة - نعم قد خضع لها شطره الشرقي بعد قليل، ودان للنبي الذي جاء بهذه الرسالة والذين اتبعوه وخلفوه، ولكن شطره الغربي والشمالي (أوربا) ظل محروما من نشاطات الدعاة والمجاهدين، عاش مدة تسعة قرون.. متتابعة في ظلام حالك، وجهالة مطبقة، وقد دعاها بنفسه «القرون المظلمة» وسيبقى هذا العهد الطويل العريض - الذي عاشته أوربا في وحشية سوداء وجهالة عمياء، وفي محاربة العقل والمنطق، والشذوذ عن الفطرة، والخضوع للأوهام والأحلام، وتحت إشراف رهبانية قاسية ضارية، ومراقبة من رجال الكنيسة عنيفة متطرفة، ومؤاخذة جائرة - حسرة في قلب أوربا، وغصة في حلقها الى يوم القيامة، وسيبقى وصمة عار في جبينها، ويتندى لها جبينها وينتكس منها رأسها، وكان كل ذلك نتيجة عبادة العباد للعباد «(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم

أرباباً من دون الله، والمسيح بن مريم »)[١].

ولما هبت أوربا في القرن السادس عشر من غفلتها الطويلة ورقدتها العميقة، رأت أن العلاج الوحيد الشافي لهذه الأمور كلها، هو التحرير من عبودية الكنيسة، لكنها لم تقطع مرحلة « لا اله » كاملة، وظنت « لاكنيسة » مرادفة لِ « لا اله » فنفت الكنيسة وأسقطتها من الحساب، وسلطت على نفسها آلهة أخرى كثيرة، ولم يتوصل الى « إلاَّ الله »، وظلت تنحت آلهة جديدة - متفادية من الاله الأحد الصمد - عبر ثلاثة قرون من تاريخها الأدق، وبقيت تمثل « أتعبدون ما تنحتون »، ولا تزال كارهة لآلهتها القديمة، ناحتة لآلهة شتى جديدة، بأسماء طريفة، وعناوين جديدة، من « ديمقراطية » و « دكتاتورية » و « رأسمالية » و « اشتراكية » و « وطنية » و « قومية »، تهوم أوربا وتتيه، قد تنشر لحمة حياتها وسداها، وقد تطويها وقد تبعثر أدوات ساعة حياتها ثم تؤلفها وتضعها في مكانها، ولكن بدون جدوى، عييت حيلها، وعجزت آلتها، أرادت أن تحكم عرى حياتها فتفككت، وأن توطد أركانها فتقوضت، وأن تشيد بنيانها فتداعى، وتحاول أن تقيم الأمور فتتعقد

---

(١) التوبة: ٣١

بقدر ذلك، وبقدر ما تحاول أن تتخلص من المآزق تتورط فيها، ولن تجد مخلصا ولا ملجأ من الله الا إليه...

ومهما خططت حياتها تخطيطا بارعا، وعدلت فيها وغيرت، وحذفت منها وأضافت اليها، ومهما اخترعت لها عناوين جديدة، وأشكالا حديثة، ومهما وزعت مسئولية فرد على أفراد، أو أسندت مسئولية أفراد الى فرد من خلاصة الأفراد، وصفوة الأشخاص الأمناء الشاعرين بالمسئولية، وطوقته بآلاف الحدود والقيود، وكبلته بآلاف القوانين والضوابط، فلن يقدم ذلك في القضية ولا يؤخر - سواء كان المسئول الأمين هو الفرد أم الجماعة، أو الأمة بأسرها - ما لم يتغير القلب ويخضع صاحبه أمام قدرة قاهرة، عليمة بصيرة، هي القدرة الالهية، وما لم يخش قلبه مؤاخذة الله، ومحاسبة الآخرة، وما لم يتملك عليه الشعور بالخير والرغبة في الصلاح، والنزعة الى الأمانة.. وذلك أن الأسماء والعناوين لا تغير في الحقائق والمفاهيم.

ورسالة السيرة النبوية الى عالم القرن العشرين - الذي تقوده اليوم أوربا من غير جدارة واستحقاق- أن يفر الضالون عن الله الى الله، وأن لا يتخذوا من دونه إلها، وأن يرتموا في حضن رحمته، ويطّرحوا على عتبة عبوديته ارتماء الطفل

الصغير في حجر أمه، واطراح العبد المطيع الخاضع، الخائف الخاشع على عتبة سيده:

«(ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين، ولا تجعلوا مع الله الها آخر اني لكم منه نذير مبين»)[1]

وهي رسالة تخاطب بها السيرة النبوية العالم البشري كله كل عام، وترسلها الى أجزاء العالم، يحملها الأثير الى أرجاء العالم، والبحار على أمواجها، الى الأمم والأقوام، وجميع الأقطار والبلاد، ولو هدأت قليلا هذه الضوضاء والضجّة التي كدرت على العالم صفو الحياة، والتي تحول دون سماع العويل والنحيب، لسمعنا النداء الذي سمعه أهل الكتاب في فجر الإسلام:

«(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه، ويهديهم الى صراط مستقيم»)[2].

ان الأنبياء هم مجدفو سفينة البشرية، وهم الذين قادوها الى ساحل النجاة عبر التاريخ البشري، ومهما تنكر أحد لهذه السفينة، واستغنى عنها، وتفاداها الى «جبل» فان مصيره المحتوم هو مصير ابن نوح الشارد المارد العاتي

---

(١) الذاريات: ٥٠ - ٥١

(٢) المائدة: ١٥ - ١٦.

الطاغي، الـذي قـال: «(سآوي الى جبل يعصمني من الماء »).

فقال له: «(لا عاصم اليوم من أمر الله »)، وقد قرر الله بعد بعثة النبي الأعظم خاتم الرسل والأنبياء محمد بن عبد الله، أن سعادة الأمم والأفراد، والشرق والغرب، والأولين والآخرين، منوطة بالايمان برسالته، والاهتداء بسيرته، والتشبث بذيله، والتمسك بسنته، ومن اتجه عنه الى الشرق أو الغرب، وآوى الى «جبل» فلن يعود الاّ بالويل ولن ينال الاّ الشقاء، ولن يستقبله الاّ البلاء ولن يظلم الاّ نفسه.

ندوة العلماء – لكناؤ، الهند

أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٥ من رجب ١٣٩٩هـ

الإسلام
ومستقبل الإنسانية وحاجتها
إلى
الضوابط الدقيقة من الكتاب وصحيح السنة

للدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان
« العراق »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسلام ومستقبل الانسانية

وحاجتها الى الضوابط الدقيقة من الكتاب وصحيح السنة

دكتور

عبد الحميد أحمد أبو سليمان

الأمين العام للندوة العالمية للشباب

الاسلامي - والاستاذ المساعد بكلية

العلوم الادارية - جامعة الرياض

مقدمة:

لا بد للباحث في هذا الموضوع من مقدمة تسهل مهمة القارىء في فهم الاطار الذي يدور فيه البحث.

ان الباحث الواعي أحوال الامة الاسلامية وما بلغته من العجز والضعف والتدهور بميزان العصر ومواقع أمم العصر - خاصة ان لم يؤمن وعي القارئ على جوانب الموضوع - لا بد له من الاعتذار والتوضيح قبل أن يبدأ العرض.

لأن المسلمين على ما هم عليه انما يدعون الانتماء الى الاسلام.

وما كان لمنهج حياة هذه حال من ينتمون اليه أن يؤخذ مأخذ الجد في ساحة التقدم الأفضل للانسانية نحو المستقبل.

وهذا حق لو وقف الأمر عند هذا الحد.

ولكن القضية بالفعل أبعد آفاقا مما يدل عليه ظاهرها.

ولا بد للمفكر والباحث أن لا يقف عند حد الظواهر بل وأن يتمعن تلك الظواهر اذا كان جادا في البحث واذا دعت دواعي الجد.

والأسباب التي تستوقف الباحث الجاد في الأمر عديدة منها:

١- ان الاسلام دين وينتسب اليه ما لا يقل عن خمس البشرية.

٢- ان الاسلام ظل يسيطر على خيال وثقافة وفكر الأمة الاسلامية عددا كبيرا من القرون.

٣- ان المسلمين رغم كل الظروف والأحوال والهجوم المر الذي يتعرضون له لانتسابهم لهذا الدين وهذا المفهوم للحياة، فانهم يتمسكون بالانتماء اليه رغم ما في واقعهم من انحراف عن مثله

٤- ان المسلمين قد حاولوا كل السبل في تقليد غيرهم واستيراد أساليبه ومناهجه لاصلاح شأنهم وفشلوا لعدة قرون وتحت ظل مختلف الظروف والمؤثرات من أقصى الشرق الى أقصى الغرب دون جدوى.

٥- ان المتأمل في أحوال الانسانية والحضارة المادية المعاصرة رغم كل ما حققته من انجازات عملية وتقنية مادية لا يخفى عليه وجوه العجز ومواطن الخطر في مسار هذه الحضارة بل وبسبب ما أنجزته هذه الحضارة من قدرات مادية وهائلة مدمرة دون أن تحقق له النمو والاستقرار النفسي والعاطفي والروحي المتكافئ ، وهذه القدرات.. ولا أن توفر له المنطلقات الفلسفية اللازمة للسيطرة على هذه القوى الهائلة فلا تكون وبالا عليه وعلى أسس وجوده

من هنا لا يمكن للباحث أن يتجاهل كل هذه القضايا والظواهر ، فلا يبحث في أسس بلاء هذا الجزء الهام من البشرية الذي هو الشعوب المسلمة ، كما لا يمكنه أن يمر بهذه الشعوب الكبرى من البشرية دون أن يتفحص مفاهيمها ومنطلقاتها في مواجهة أزمة البشرية القائمة في أبعاد حالكة

نحو المستقبل اذا قسنا مستقبل البشرية بماضيها المعاصر في حروب عالمية بربرية مدمرة تفتقد دواعي حكمة المنطق الانساني السليم.

ان من المهم في هذه المقدمة تحديد عدة قضايا:

أولا: ان تدهور المسلمين قديم تمتد جذوره الى قرون طويلة حتى قبل أن تسقط بغداد وقرطبة وسمرقند.

ثانيا: رغم كل الكوارث فان المسلمين مصرون على الانتماء لا على التحول.

ثالثا: ان كل محاولات الحلول المستمرة من المنطلقات الحضارية الأجنبية ولعدة قرون قد فشلت في تغيير حال الأمة وتحريك طاقاتها وحل مشاكلها.

رابعا ان منطلقات الحضارة الغربية المادية على مختلف أشكالها تضع الانسانية في مآزق خطيرة ومستقبل مظلم لا يغير من تلك الحقيقة كل المنجزات الايجابية لهذه الحضارة بل إن تلك المنجزات تجعل وجوه القصور مطاعن قاتلة للوجود الانساني ككل.

أزمة فكر لا أزمة عقيدة:

ولكي تعي الانسانية موضوع الاسلام الذي غطى قدرا

كبيرا من تاريخها وكيان شعوبها ووجه اليابسة من تحتها ومن مستقبلها.

ولكي يعي المسلمون حقيقة الأزمة المزمنة التي يعانون منها لا بد لهم من تفحص القواعد الاساسية التي يرتكز اليها كيانهم لتحديد سبب الأزمة والغوص الى أعماق تلك الأزمة ومعالجتها معالجة جذرية، فلم يعد في واقع حالهم من الخارطة الانسانية الحضارية ما يحرصون عليه ويخشون ضياعه في بحثهم عن أسباب الأزمة الساحقة المزمنة التي يعانون منها.

وفاعليات الانسان ترتكز الى عاملين أساسيين هما:

١- امكاناته وفاعلياته المادية.

٢- وامكاناته وفاعلياته المعنوية.

ولذلك فالسؤال الأساسي هل سر الأزمة التي يعاني منها المسلمون تكمن في قصور امكاناتهم وفاعلياتهم المادية.

والجواب بالتأكيد بالنفي.

فالمسلمون يتحكمون في رقعة واسعة من الأرض تضم في جنباتها مختلف الامكانات المادية التي لا تقصر عن حاجتهم الحضارية، كما أن كيانهم يضم أعدادا بشرية هائلة تنتمي الى أجناس الأرض وشعوبها ولها من الثقة النفسية قدر كبير فيما سبق

لها أن حققته من انجازات ومواقع تاريخية حضارية.

ومع ذلك فان سمة العجز والقصور سمة تلاحق كياناتهم على اختلاف مكوناتها ومواقعها المادية.

واذا لم يكن القصور يكمن في امكاناتهم وفاعلياتهم المادية فليس من بد في أن القصور يكمن في امكاناتهم وفاعلياتهم المعنوية.

ولكن السؤال يكون حينئذ في أي مكونات الفاعليات المعنوية يكمن الضعف؟

وقد تبرع الدارسون من أصحاب الغايات والأغراض من الامم المناجزة للمسلمين حضاريا والطامعين في مقدراتهم، الساعين الى السيطرة عليهم بالتبرع بالاجابة على هذا السؤال بالقول إن العلة تكمن في الاسلام دين الأمة ومنهجها.

وكانت تلك الاجابة هي منطلق محاولات طويلة مرة لأكثر من قرنين للخلاص من سيطرة الاسلام على الأمة ونظامها الاجتماعي وما تزال الأمة في ضعف وهوان وعجز تزداد هوته وتتعاظم آلامه.

ولكن الحيرة والتخبط يزدادان ولا ينقصان.

ولا يبدو أمام الأمة الآن مخرج ولا منفذ.

والسبب في تصورنا أن قضايا البحث اختلطت بقصد ودون قصد.

فالقضية ليست ان كانت تكمن في منهج الأمة واسلامها أو لا تكمن ولكن القضية في وضعها الصحيح هي في أي مكونات هذا المنهج يكمن الضعف وسبب الأزمة؟

هل تكمن الأزمة في عقائد الأمة الأساسية وقيمها المثالية وغاياتها الاجتماعية؟

لا يستطيع عاقل أن يقول إن الأزمة لها علاقة بهذا الجانب من مكونات الأمة المعنوية.

ولا يخفى على عاقل سمو تلك القيم والعقائد والمبادىء والغايات الاجتماعية.

وليس يخفى على الناظر أن من مظاهر الازمة هذا القصور البين بين هذه القيم والتطلعات وبين واقع السلوك والممارسة الاسلامية للأمة.

من منا يشك في غايات الاخاء والعدل والكرامة والقصد والتطهر في عقائد المسلمين وقيمهم؟

ومن منا لا يفتقد تلك القيم والغايات في البنية الاجتماعية في واقع الشعوب الاسلامية وممارستها؟

هل يشك أحد في وجوب الصدق والامانة والرحمة والبذل والتكافل والعدل وحسن الاداء والاتقان في قيم الاسلام؟

وهل يشك أحد في تفريط المسلمين في هذه القيم وغيبتها وغيابها في سلوكهم وعلاقاتهم؟

نعم من المهم أن نعلم أن عقائد الاسلام التي تقوم على التوحيد والاخاء وقيم الحق والعدل والبذل هي من ضمن أهم مقومات الأمة وفاعلياتها الايجابية في مواجهة أسباب الازمة التي تغوص بها في دوامة الضعف والعجز والانهزام.

ولولا قوة دفع هذا الدين رغم كل التشويه والضباب والقصور في فهمه لكان حال الأمة من الهمجية والبربرية أشد هولا ولكان مصيرها الموت والفناء منذ آماد طويلة.

اذن ما سبب الأزمة؟ ان حقيقة الازمة التي تعاني منها الأمة هي في أساليب دربتها الفكرية وعلاقاتها التنظيمية الاجتماعية. أي إن الأزمة ليست في جوهرها أزمة عقائد وغايات ومثل بل هي أزمة فكر وأسلوب وتمثل وتنظيم.

ماهية الازمة الفكرية وكيف نشأت:

من الواضح والمسلم به أن فترة صدر الاسلام تمثل قاعدة البناء الاسلامي التي أرست أسس تكوين الأمة وبنائها ومن المعروف والمسلم به أيضا ما تميزت به تلك الفترة من علاقات اجتماعية وقدرات وانجازات هائلة تركت آثارها التي لا

تنمحي في قسمات وكيان الأمة.

ولا تخطىء عين الدارس أنه بزوال دولة المدينة وانقضاء عصر الصدر الأول حدث تغير وتحول في كيان الأمة ومسيرتها وعلاقاتها، ولكن الباحثين لا يقفون طويلا، عند هذا التحول الحاسم في محاولة فهم التدهور اللاحق.

وكثيرا ما ينصرفون الى محاولة تفهم الاسباب في الاحداث المباشرة لصعوبة الربط بين تلك الاحداث والتدنيات والتحولات التي حدثت في خلال عصور من التاريخ الاسلامي يتميز كيان الأمة فيه بكل مقومات المهابة والقدرة والانجاز الحضاري في الدولة الأموية والعصر العباسي الأول.

أو بسبب الارهاب السياسي في عصور الضعف؟ والانحطاط الذي يقاوم النظر السليم والمنطق المستقيم.

أو بسبب الخشية من مزيد من العناء ينكأ جراح الأمة وذكريات محنها وحروبها وصراعاتها الكبرى.

أو بسبب الرهبة والاجلال لتلك العصور والشخصيات التاريخية التي لم يبق للأمة سوى ذكراها.

وبذلك يبقى البحث عاجزا ناقصا يرد الظواهر الى ظواهر والنتائج الى نتائج دون قدرة على معرفة حقيقة

الاسباب، ولكن تبقى الحقيقة ماثلة في أن الازمات الكبرى في حياة الأمم والشعوب لا تفسرها الاحداث المباشرة ولا بد من النوص في أعماق كيان الأمة وتاريخها وتتبع مجرياته لمعرفة البدايات البعيدة والأسباب الأولية والأساسية وتحديد مساراتها لمواجهتها وتصحيحها والتصدي لمضاعفاتها.

وتبقى الحقيقة أن تحولا أساسيا وفي ميدان فاعليات الأمة وامكاناتها المعنوية قد حل بها بزوال عهد الصدر الأول والخلافة الراشدة وعلاقاتها الاجتماعية رغم امتداد الدفع المادي وطرح ثماره خلال العهود الأولى اللاحقة لعهد الصدر الأول.

ولكن كيف حدث ذلك التحول؟

في تصورنا أن ذلك التحول بدأ بانضمام أفراد القبائل العربية من غير المهاجرين (من قريش) والانصار (من الأوس والخزرج) الى صفوف الجيش الاسلامي في مسيرته نحو الشمال لمواجهة الخطر الداهم من قبل الامبراطوريتين العظيمتين في ذلك الوقت الرومانية والفارسية.

وجنود الأعراب لم يكن لهم من الرؤية العقائدية والتربية الاسلامية ما كان لجيش من أبناء دولة المدينة بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام يشهد عليهم القرآن

الكريم بقوله: (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) (٩: ٩٧) - (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم....) (٤٩: ١٣) - وتشهد عليهم قسوة البيئة التي لم تكن تسمح لهم بما وراء حياة الكواسر كثيرا ولقرب عهد التحول الى مجتمع الانسان المسلم.

ولذلك وقد أصبحوا قوام جيش الأمة ولتعاظم ضعف رجال القيادة في المدينة بالسن وفي العدد. كان لا بد أن يملي جيش القبائل وجوده السياسي وقيمه وتصوراته وعلاقاته الاجتماعية التي لم تكن في جملتها جاهلية بحتة ولا اسلاما ناصعا نقيا ولكن كانت مزيجا من الأمرين،وما تجلب به ممارساتهم بعد ذلك من المحافظة على الهياكل والرسوم هو في جملته على حساب المحتوى وحقيقة الغايات والأهداف وطبيعة العلاقات الاجتماعية الاسلامية.

وفي ظل هذه المعطيات كان لا بد من الصراع ولا بد من زوال دولة المدينة وكان لا بد من قيام دولة جديدة كانت هي دولة بني أمية التي لم يقف التغير فيها فقط عند تحول الخلافة الى ملك عضوض كما يعترف الكتاب الاسلاميون ويقفون في دراستهم عند هذا الحد فالتغيير

السياسي لا يمكنه أن يقف عند ذلك الحد، فلا مكان لمثل هذا التغيير السياسي ولا موضع له دون أن تكون له آثاره الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

وكان أبعد آثار ذلك التحول هو حال الانفصام والمواجهة بين فكر المدينة ومنطلقاتها وبين السلطات السياسية في الدولة الجديدة، ومثالا على ذلك وتحديدا للمسؤولية وحفظا للحقوق ومنعا للتبرير وسوء الاستخدام - كان لا بد أن يقف أبو ذر ليرد على معاوية رضي الله عنهما وهو على المنبر قوله: بأن «المال مال الله» وهو يبني عصبية ويتألف أعوانا يتحكم بهم في الرقاب في قوم يريدون أن يصطنعوا وأن يميزوا وأن يستخدموا أعوانا على رقاب الناس، وليقول له «بل» مال المسلمين.

وبقي اقليم النشأة أي المدينة ثائرا رافضا هذا التحول- رغم أن رجال الحكم في دمشق كانوا من قريش - فكانت ثورة الحسين وابن الزبير ومحمد النفس الزكيةوزيد بن علي وكانت حروبا أهلية طاحنة.

وبقي رجال الفكر الاسلامي وأمناء الفكر الاسلامي في مركز المناجزة والمعارضة فيموت الامام أبي حنيفة سجينا ويضرب الامام مالك ويهرب الامام الشافعي ويعذب الامام أحمد.

وكانت تلك المواجهة والانفصال بين القيادتين الفكرية والسياسية في الأمة هي أخطر آثار ذلك التحول وأس البلاء. حيث انعزل الفكر واضمحل وجفت مصادر نمائه وتجدده في ميدان التطبيق والممارسة والقيادية وهزلت السياسة والقيادة االسياسية لجفاف منابعها من القيم والتطورات والفكر وارتكزت الى الجهل والقهر.

الجمود والتدني:

وكان ذلك التحول وما يتبعه من تحولات من دولة المدينة الى دولة دمشق ثم بغداد وما وراء دمشق وبغداد بكل ما أضافت تلك التحولات من ضباب الرؤية وعاوات جاهلية قبلية عربية وفارسية وهندوكية ورومية وغربية بداية الانحراف الذي أرسى وعمق عزلة القيادة الفكرية الاسلامية عن القيادة السياسية الاجتماعية للأمة.

وتركت تلك العزلة والفرقة آثارها الرهيبة على الفكر الاسلامي جمودا وعلى السياسة الاسلامية قهرا وجهلا وعلى كافة الامة خرافة وضياعا واستضعافا.

ويهمنا هنا أن نناقش قضية هذا الجمود جمود الفكر الاسلامي وما ترتب عليه من ضباب رؤية الأمة، فنحن اذا

استطعنا في تصوري توضيح هذين الجانبين أمكن لنا أن نشخص الداء وأن ندرك طبيعة الدواء - إنْ شاء الله.

ان عزلة الفكر والمفكرين المسلمين عن الدولة نتيجة ما حدث من تحول أدى بهم الى الانزواء والتحفز والمعارضة.

وقد انصرفوا في البداية الى توثيق التصور والتطبيقات الاسلامية فنشأ علم الحديث وعلم الفقه (بروحه الوصفية) ونشأ علم العقائد بعيدا عن النظر في النظام الاجتماعي وتنظير تطبيقاته وبقي في حدود قضايا غيبية كمباحث الأسماء والصفات والقضاء والقدر.

ومع تطور الاحوال الاجتماعية فان عزلة المفكرين الاسلاميين جعلتهم أقل قدرة على ادراكها ومواكبتها والمبادرة الى قيادة اتجاهاتها، وجعلتهم في نفس الوقت أشد خوفا على التراث الذي في أيديهم من غايات القيادات السياسية وأساليبها المغايرة مما انتهى بالفكر الاسلامي الى الغرق في بحر الاسلوب الوصفي والتعلق بالقناعات الذاتية الناجمة عن النظر الجزئي في القضايا التاريخية والعجز عن ادراك التطورات المحيطة أو احتوائها وتوجيهها والاغراق في العزلة والانغلاق وتأكيد الذات.

وهكذا انتهى الفكر الاسلامي الى الجمود والركود

والوقوف بعيدا عن مجرى الاحداث وعرف ذلك في تاريخ التشريع الاسلامي باغلاق باب الاجتهاد.

ولهذا لم تأت الومضات الاجتهادية التطبيقية الا من رجال أضافوا الى حصيلة علمهم الممارسة الاجتماعية والنظرة الكليـة والنزول الى دائرة العمل السياسي أمثال إمام المدرسة الاصلاحية السلفية الامام ابن تيمية.

وما أحرانا في هذا المجال أن نعي معنى اجتهادات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الهائلة رغم قرب عهده بالرسول عليه السلام.

وعلى سبيل المثال اجتهاده في نظام الخراج واجتهاده في وقوع الطلقة الواحدة بلفظ الثلاث طلاقا بائنا رغم معارضة ذلك لظاهر النص القرآني في الأمر (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (٢ : ٢٩)، أخذا منه بحق ولي الأمر المشروع في تقويم أمر الرعية.

من هذا ننتهي في هذا المجال الى أن المنهج الدراسي الفكري للمدرسة الاسلامية التقليدية يحتاج الى اصلاح جذري ينقله الى أسلوب النظـرة الكلية والى اعتبارات الممارسة والنظم والتطبيق والخروج على الأسلوب الوصفي المحدود واعادة الوحدة الى الفكر الاسلامي بين النظرية

والتطبيق بين علم العقائد وعلم الفقه، وحتى ترتكز التطبيقات والممارسات الاجتماعية في كل صورها الى العقائد والتصورات الاساسية التي تحكمها.

الخروج من دائرة الفهم والنظر الجزئي لأحداث الصدر الأول ونصوصه وممارساته الى الفهم والنظر الكلي الذي يعي عنصر الزمان والمكان في تلك التصرفات والاحداث ويربط بين أجزائها وغاياتها ومساراتها التاريخية الكلية ويوظف الاسلوب التحليلي في فهم الامور ووعي دلالاتها. وبذلك تعود للمشاهد حياتها وللأحداث معانيها وللقرارات والأوامر دلالاتها وتزول ذاتية الأحكام ومحدوديتها وغيبيتها.

وعندئذ فقط يتخلص الفكر الاسلامي من الاسباب الموضوعية لجموده ويعود الى مكان الصدارة في توجيه قرارات القيادة السياسية والاجتماعية وإمدادها بالحلول والبدائل والخطط الرائدة لحسن سير الحياة الاجتماعية وفاعليتها.

الحلقة المفرغة

وستبقى الأزمة قائمة والداء مستفحلا والاستقرار مفقودا والعجز متفاقما تتردى به الأمة من هاوية الى قعر

هاوية على بحر هائج من التضحيات والآلام ما لم يكسر الطوق ويوضع حد للدوران في حلقات مفرغة من الحلول الفاشلة اليائسة من التقليد الاجنبي أو التاريخي.

ان الحل يكمن بتهيئة الظروف لقرار سياسي بكل تبعاته من قبل الأمة وأخذ نفسها به ثمنا لآلامها ومعاناتها وآمالها.

هذا القرار هو اعادة صياغة «التعلم» و «الاعلام» لبناء ثقافة موحَّدة تكون قيادات اسلامية تؤمن بهذه الثقافة وتتفاعل معها.. فكراً وممارسة بشكل ايجابي وفعال وتوفر قاعدة اجتماعية واسعة وتراقب وتدعم هذا اللون من القيادات.

تعليم يقدم المهارة الفنية والبحث الفني على أقل المستويات على أسس ولغايات اسلامية.

واعلام يقدم المهارة الفنية والبحث الفني على أقل المستويات على أسس وغايات اسلامية.

واعلام يقدم الترويج والثقافة والتصورات للمشاهدين والقراء والناشئة على أساليب ونماذج تمثل القيم والغايات الاسلامية ولا تتعارض معها.

ان المهمة في هذه المرحلة التاريخية تقع على عاتق المفكرين والقيادات الاسلامية في توضيح طبيعة القرار

السياسي المطلوب من الأمة حتى اذا ما اتضحت الغاية اتضح الطريق والحل. وأخذت الأمة بكل الأسباب لتحقيق تلك الغاية ومارست الحل بكل الطرق والأساليب وعلى كل المستويات الرسمية وغير الرسمية والمباشرة وغير المباشرة.

وأقامت محاضن الوحدة الفكرية بكل الأساليب والوسائل في التعليم الرسمي والتعليم الخاص وفي سياسة النشر وفي سبل نشر الثقافة والترويج لها وفي سياسة العلم والتوظيف وفي كل المواقع وبكل الأساليب في جهاد لا يني وعزم لا ينثني.

عندئذ يتحقق المسار الصحيح لسيرة الأمة.،.. وتحل الأزمة الفكرية في أسسها ومنابعها.

تصحيح المفاهيم الاسلامية:

وخلال هذه المسيرة في سبيل اتخاذ القرار السياسي من قبل الأمة في اصلاح مسار «التعليم» و «الاعلام» وتنشئة القيادة الاسلامية الفكرية والسياسية والاجتماعية الموحدة التي ترتكز على قاعدة متينة تسندها وتستجيب لها، خلال هذه المسيرة على المفكرين الاسلاميين تصحيح المفاهيم الاسلامية لدى الأمة وازالة الغبش التاريخي الذي لحق بها

من المؤثرات الوافدة والرواسب العالقة والمصالح السياسية الفاسدة التي تحرص على إبقاء الازمة والترويج لها.

وهذا يكون بتوظيف الطاقات الاسلامية الفنية في كل ميدان لمراجعة المفاهيم السائدة التي لا تعكس روح الاسلام الخلاقة من خلال الفهم السليم والاستنباط الدقيق للاحوال التي تعنيهم في الواقع والتاريخ، والرصد من خلال اللقطات المحدودة للنصوص وربطها بأحداث الحياة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وسياساته وخلفائه الراشدين،وبحياة الرسول عليه السلام وأصحابه في صدر الاسلام حتى تعود للأمة مفاهيمها الحية الفاعلة الصحيحة التي أعطت للأمة جيلاً من الأصحاب أكثر ما يكونون فاعلية وأكثر ما يكونون عطاء وبذلا دون إشراف نفسي أو طمع أو شره، قوما رأوا في الحياة والمادة وسيلتهم الى الوجود والتعبير الخير بها عن إرادتهم وذواتهم فكانوا بذلك حركة دائمة على سبيل الحق وفعلا خيرا مستديما. حياتهم فاعلية وعطاء وبذل وليست جمعا وحرصا وتكديسا لاهثا فاسدا رخيصا لا يتوقف ولا ينقطع.

وكان الاسلام بالنسبة لهم ليس لحظة ذكر أو بذلا وتضحية مرة ولكنه مسيرة دائمة على سبيل الحق والخير

واتخاذ القرارات الفاعلة السليمة كان لهم أسلوب حياة ومسيرة وجود حتى تلقى وجه ربها خيرا وسعادة أبدية.

ولذلك لا يحقر المرء منهم من المعروف شيئا ولو أن يلقى أخاه بوجه طلق، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وفي بضع أحدهم صدقة، والراحمون يرحمهم الله، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، والمسلم من سلم جاره من بوائقه، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، وكان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ولافضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى (ولا يجر منكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)، والبر حسن الخلق، وما آمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم به، والنظافة من الايمان، وإن الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه.

وهكذا أمكن لبضع آلاف من الناس آمنوا بهذه الحقائق والفضائل وعاشوها أن يجتاحوا جل العالم المتمدن في عصرهم وأن يتحول الناس الى عقائدهم وسمعتهم بل وحتى

لغتهم وهو ما لم يحقق مثله فاتح في مثل هذه الحقبة من التاريخ.

ولأضرب مثلا كيف ينحرف الفهم وكيف يجب أن يستقيم بالعمل الصالح عند أولئك الأصحاب لا يقف عند الحد السلبي المساعد وهو حد الذكر أو ما يطلق عليه العبادات بل هو الى جانب ذلك عمل ايجابي موضوعي فاعل خيِّر يبذل تعبيرا عن الذات والارادة.

كما أن مفهوم العبودية لم يكن يرادف لديهم الاستعباد بل التعبد وهو أخذ النفس بالحق والصواب وتعبيدها وتذليلها، فالله هو الحق وللمؤمنين القوة والقدرة والفاعلية والعزة.

ومثل آخر كيف أن الدارسين من غير المختصين في علم الحكم أو السياسة لم يمكنهم أن يعوا درسا مثل درس تصرف أبي بكر رضي الله عنه في حرب الردة.

لقد رأوا في ذلك حين لم يعوا طبيعة مجتمع الأصحاب المحدود ومعرفتهم الكاملة ببعضهم البعض وانشغالاتهم الهائلة بأعمال الفتح والإدارة وانعدام الهياكل الرسمية والتنظيمات الاجتماعية المسبقة مما يجعل فهم تصرفاتهم وأعمالهم ودلالاتها من خلال الاهتمام بالهياكل والتصرفات الرسمية ناقصا

مبتورا ولا يمكن فهمها الا بفهم البناء غير الرسمي في تلك العلاقات والتصرفات.

فأبو بكر كان من خيرة الأصحاب والقائد الذي اختاروه لجماعتهم وكان معروفا عندهم بالرحمة ولين القلب وكثرة البكاء رقة وشفقة ولكنه كان ذا بصر ثاقب ورؤية واضحة وجنان ثابت ولذلك سمي الصديق.

فلما واجه ثورة العرب على السلطة المركزية لله ثم له وأعلنوا العصيان وامتنعوا عن دفع الزكاة، كان الأمر بالنسبة لأبي بكر واضحا وهو أن الأمر ليس أمر عقيدة فقد خاطبهم القرآن الكريم، «ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم» فالقضية في جوهرها قضية النظام الاجتماعي واظهار الولاء له في الحياة والعلاقات الاجتماعية العامة وليس قضية إيمان.

فلما ارتفعت أصوات بعض الأصحاب لهول فكرة القتال بين من يدعون الإسلام واختلط الأمر عليهم كان من الطبيعي ألا ينكص القائد الخليفة على عقبيه عند أول صيحة بل يصمد ويوضح رؤيته في هذا الأمر المصيري، فاما أن يرى ما يرون أو يرون ما يرى أو لا يتحمل مسئولية العمل دون قناعته في قرارات مصيرية.

وأخذ النظر والنقاش مجراه بين الأطراف وهنا يتضح لهم الأمر ويرون ما يرى أبو بكر ويعلن عمر الثقة المطروحة في أبي بكر ويقول « فوالله ما ان رأيت اصرار أبي بكر على الأمر حتى شرح الله صدري »

وهكذا مارس أبو بكر دوره القيادي واتخذ القرار المصيري الصائب في قتال الردة بقناعة وتقبل الصحابة رضوان الله عليهم دون قسر أو رهبة لم يكن لأبي بكر وسائلها على أي حال.

وهكذا لا يرى في مثل حادثة حرب الردة مثالا على عدم إلزام الشورى الا من ليس له دراية بعلم الحكم ولا ممارسة اجراءات اتخاذ قراراته.

وهذا شبيه بمن يرى الديمقراطية والشورى أمرا واحدا دون أن يدرك الفوارق الاساسية النابعة من الفلسفات والمرتكزات التي ترتكز كل واحدة من هذه المفاهيم والمصطلحات اليه.

فالديمقراطية هي التعبير عن مفهوم الفلسفة المادية الفردية في اتخاذ القرار السياسي ولذلك فهي تستند الى حق الفرد المطلق في تحقيق ذاته وأن كل شيء هو وسيلة لتحقيق تلك الذات ومقياس الحق والخير والصواب.

وبذلك فان الاغلبية حين تتحقق يكون لها الحق المطلق

لان لها القوة للحصول على ارادتها ، ولا يكون للأقلية حق والدساتير الحديثة وحقوق الانسان الاساسية هي ترقيع لذلك النقص الخطير في التعبير الديمقراطي السياسي وواقع الممارسة في تلك المجتمعات ، بينما الشورى تعبير عن مجتمع الاخاء الذي يسعى في حدود الحقوق المترتبة مسبقا وشرعا لكل فرد وفقا لاحكام الاسلام بغض النظر عن موقعه من اتخاذ القرارات أقلية أو أغلبية وذلك باتخاذ القرارات بروح الاخاء وتوخي المصلحة العامة والسعي نحو الحق لذاته بما يمليه روح الاسلام ، ولذلك فالتعبير يحمل معنى التناصح والتشاور دون أن يمس بعد ذلك الزامية المشورة الصحيحة من قبل المؤهلين لها . (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ... فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ..) ٤ : ١٣٥

هذا اللون من الجهد المكثف المتخصص القادر على تصحيح المفاهيم والتأثير في التربية والسلوك والمؤسسات الاجتماعية سيكون خير عون على توضيح الرؤية والمفاهيم في سبيل الحسم لمصلحة القرار السياسي المطلوب لاصلاح « التعليم و « الاعلام » وحل « الأزمة الفكرية » وتوحيد القيادات الفكرية والاجتماعية وارتكازها الى القاعدة

السياسية المطلوبة في وحدة ثقافية اسلامية شاملة وتكون الأمة عند ذلك قادرة على السير في الطريق مهما سبب ذلك من معاناة وجهد مقابل الواقع المر من العجز والضعف والألم التي ظلت تتجرعه على مر قرون من الانحراف والسحق والهزيمة والهوان.

الاسلام ومستقبل الانسانية:

ولكن ما الذي يعني الانسانية من هذا الاسلام ومشاكل أمته التي حاولنا القاء الضوء عليها فيما مضى في الصفحات السابقة؟

الذي يعنى الانسانية من هذا الدين هو ما يعني المسلمين بل أن الانسانية والشعوب القادرة علميا وماديا هي فيما أرى أشد حاجة له لأنه يحوى المفاهيم التي تجيب على جوانب الضعف في كيانها القائم، والمتفاقمة على مدى المستقبل.

ويتلخص ذلك في أمرين:

الأمر الأول:

ان الاسلام يقيم مجتمعا يبنى على اساس الوحدة ويقوم على مفهوم الاخاء ويركز النظر على الاستجابة لحاجة الفرد الاساسية والاهتمامات المشتركة بينه وبين الآخرين على كل

المستويات انطلاقا من الاسرة الى الجار الى القوم الى الانسانية.

وهذه الشعوب وهي تفجر الطاقات المادية التدميرية الهائلة لا يسعها أن تعيش في ظل فلسفات المواجهة و «الصراع» بين الأفراد أو القوميات أو الطبقات أو ما اسميه فلسفه «الحراب المتقابلة» فلا شك أنه مع توفر آلات الدمار الكونية وفي ظل نفسية الصراع والمواجهة والتركيز على وجوه الاختلاف والتعرض، ليس هناك ما يدعو الى الظن الا أن يفلت الزمام في لحظة جنون انساني انتحاري شهدت الازمان ما يماثلها مع فارق الآثار المدمرة في عالم الغد.

ومن هنا فان عالم الاسلام أو عالم «الحلقات المتداخلة» و «الامن الجماعي» هو فلسفة الغد التي لا سبيل سواها لتحقيق النمو والامن النفسي والروحي والعاطفي الانساني الذي يحقق الامن والسلام الصحيح لعالم الغد.

يقول الله تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء..» ٤ :١

«يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير « ٤٩ :١٣

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم والوانكم « ٣٠ :٢٢

« وما كان الناس الا أمة واحدة، فاختلفوا.... »
١٠:١٩

« وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجارذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل.... »٤ : ٣٦.

« من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.. » ٥ : ٣٣

« ولا تنسوا الفضل بينكم.... » ٢ : ٨٣

« وقولوا للناس حسنا.... » ٢ :٨٣

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم، ان الله يحب المقسطين « ٦٠ : ٨

« وإنْ عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين « ١٦ : ١٢٦

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » ٢ :١٩٠

« فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين « ٢ : ١٩٣
« ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ٦٠ : ٨
« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى « ٦: ١٥٢
« واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ٤ : ٥٨
« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ٥ :٢
« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين »، « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »، « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب... » ٤٩ : ٨ - ١٠

الأمر الثاني:

يتعلق بمعنى المعرفة وطرق البحث العلمي: فالحضارات والفكر المادي يقوم جوهريا على الاسلوب العقلي التجريبي الاستقرائي وهو ينطلق من العالم المحسوس والتجارب

والمعلومات المتوفرة للتعرف على القوانين التي تحكم الحياة والكون، وهو فكر منبثق عن أي معرفة مسبقة أو وحي منزل لانه لاسباب خاصة بالاديان الكبرى الاخرى عدا الاسلام خاصة المسيحية ليس بامكان أتباعها علميا الثقة بأي معلومة بعينها مما جاءت في كتبهم المقدسة ولان كثيرا مما بها لا يقبله العقل والعلم.

واذا أدركنا التعقيد الهائل للطبيعة الاجتماعية للانسان وتعدد العوامل التي تؤثر على السلوك الانساني في وقت واحد واستحالة تثبيت بعضها أو إخضاع البشر للتجربة المعملية، أدركنا التخبط الهائل للعلوم الاجتماعية وتوالي النظريات المتناقضة في ميدان العلوم السلوكية والاجتماعية والتربوية

ولما كانت آثار الاخطاء في هذه المجالات لا تتضح في أمد قصير ولا يسهل تلافي آثارها المدمرة بعد أن تصل الى مداها في تكوين الجماعات الانسانية والتأثير على بنيتها.

واذا أدركنا ذلك أدركنا الميزة الموروثة في مجال المعرفة الاسلامية، فالمعرفة الإسلامية تنطبق على المعرفة المادية ولكنها لا تقف عند حدها بل تهذبها وتمنع أضرارها.

ففي الوقت الذي يجب فيه على المسلم النظر والفهم في

الخلق والمخلوقات والتعامل معها والإفادة منها ورعايتها الا أن المسلم لديه كمية من المعلومات والمسلمات المسبقة بلغت اليـه وحياً من عند الله تختص بالقضايا الاجتماعية السلوكية الأساسية ، فاذا شط الفهم والنظر بالمسلم في قوانين الكون والوجود والعلاقات فان له من الوحي عاصما يمنعه من الندم بعد فوات الأوان فليس صوابا ولا حقا ما عارض حلالا أو حراما بفهم صحيح لنص صريح. وهكذا فان المعرفة الاسلامية توظف وفي وقت واحد مصادر المعرفة التجريبية الاستقرائيـة الى جانب مصادر المعرفة الكونية الكلية الاستنباطية فللمسلم أن يتعامل ما شاء له التعامل وأن يتاجر وأن ينتج ما شاء الله له المتاجرة والانتاج الا ان يكون عملا يسبب أذى للخلق أو ربا أو ظلما لهم لا بذل جهد وتبادل نفع.

وللمسلم أن يتخذ له ما شاء من أساليب العيش وتقاليد الحياة الأسرية الكريمة وأن يكيفها وفق ظروفه الخاصة ، الا أن يبيح لنفسه نيل الجنس على غير الغاية منه ودون عقد مشروع يرتب للمرأة وللطفل كرامتها وحقوقها النفسية والمادية المترتبة على نيله لوطره وحاجته ، فاذا فعل ذلك فقد ظلم وأفحش واعتدى والله لا يحب المعتدين.

وهكذا حال الوحي وتعاليم الاسلام ليست قيودا ولا قوالب وانما هي مشاعل وعلامات على دروب الحياة لدرء الضلال والغواية والفحش وتحقيق الوجود والعلاقات الاجتماعية الامثل.

«ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون »٦٠ :٩٠

لا يغير من هذه الحقيقة عن المعرفة الإسلامية ووسائلها جهل أتباع الإسلام لموضع العقل من النقل ولا استهانتهم بشأنه فذلك أمر كان وراء طاقتهم بسبب العزلة والانفصام الذي فرضته ظروف الأحداث على قياداتهم الفكرية وقياداتهم الاجتماعية ولعدة قرون.

هذان الأمران اللذان هما « مجتمع الوحدة » في مقابل « مجتمع الصراع » واستكمال « ضوابط » العلاقة في مصادر المعرفة الانسانية سيكون لهما في تصوري في عالم الغد أهمية خاصة حين لا يستطيع المجتمع البشري دفع ثمن الأخطاء كما تعود في الماضي حين كانت المعارك التاريخية الفاصلة يموت فيها عشرات أو مئات الرجال. وكانت الأمم في مأمن مما يجري على ساحات سواها الى وقت تصبح فيه الأرض

قاطبة كالحجرة الواحدة كل صرخة منها تخدش أسماع كل من في الغرفة وكل مأساة منها تصدم أبصار كل من في الغرفة وكل أذى يقع بها ينال كل من حضر الغرفة.

وحين تتيقن الإنسانية ما بلغته من وسائل التدمير والخراب ومن تهديد وجود الأرض في عالم الفضاء.

حينئذ فقط تدرك الإنسانية حاجتها الى الضوابط الدقيقة الحاسمة - المعلومة في كتاب الله وصحيح السنة والتي فرضت احترامها والثقة بها لكل منصف متأمل - لتقيها من الانزلاق الى هاوية الفناء.

وحينئذ فقط لا يكون المخرج بالتطلع الى المواجهة والغلبة ولكن الى الوحدة والتقارب والى البحث عن عوامل الوجود المشترك والمصلحة المشتركة.

ان على المسلمين حقا فهم رسالتهم أداء للحق وانفاذا للغاية منها في هذا الوجود على مقتضى حكمة الخالق.

وصدق الله ... «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس....» ٢ : ١٤٣.

«فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» ٩٦ :٦

خاتمة:

هذه تأملات فيما آل اليه أمر الأمة ونظرة حاولت أن استبطن بها التاريخ لأرى كيف بدأ التغير المأساوي في حياة

المسلمين وأسبابه والانطلاق من ذلك الى أسس التغيير والعلاج في اطار موضع الامة الاسلامية من الانسانية في أزمتهاالكبرى وقلقها الأبلغ.

وإنني أرجو بهذه التأملات أن أشحذ همم المفكرين بالنظر على امتداد آفاق الوجود الاسلامي والانساني وعلى أبعد الاعماق علَّ ذلك يوفر الجهد المطلوب على مستوى المعاناة التي تلقاها الامة الاسلامية والقلق الذي يساور الانسانية

ان على قيادات هذه الامة ومفكريها في اعتقادي أن يعلمواان مناجزيهم يدركون أن قيم الاسلام وعقائد الاسلام وحضارة الاسلام هي تحدٍّ للمستقبل ووارث المستقبل، ولذلك فهم يحرصون على أن يصرفوا المسلمين عن فهم هذه الحقيقة وجرهم الى متاهات فيها المزيد من الجهد والمزيد من العمل والمزيد من المعارك ولكن دون تغيير في فهمهم لانفسهم واعادة لبناء علاقاتهم ونسيجهم الاجتماعي وفقا لقيم الاسلام ومنطلقاته الصحيحة.

ان في تصحيح المفاهيم والمنطلقات واعادة بناء العلاقات الاجتماعية على أسس الاخاء والبذل والعطاء والفاعلية الاسلامية هو تغيير كامل لكل معادلات الوجود

والقـدرة والفاعلية للأمة الاسلامية، وهو توحيد اتجاه وتفجير طاقة وهو ما يخشاه المناجز. أما الجهد والكد من واقـع الامة السقيم ومفاهيمها الفجة وأساليبها العاجزة وعلاقاتها الفاسدة ونسيجها الاجتماعي الواهن المنتن فهو مزيد من الضياع والوهن والعجز وهو ما يحرص على إبقائه المناجز، إن عامل الحسم في الأمر ليس في كم الجهد والعمل بقدر ما هو في نوع العمل ووجهة العمل.

هل هو في تنمية قدرة الامة على الفعل أو في مزيد من انهاك قدرتها على الفاعلية والانجاز.

ان حقيقة ميدان المعركة هو فكري أيدولوجي وليس اقتصاديا، وهو أمر على أي حال لا يعني التعارض ولكن يوضـح علاقـة ووجهة وأولوية العمل والبناء، فالبنية الاجتماعية الفكرية النفسية القادرة السليمة، ميدان انجازها وتعبيرهـا في شكله هو مادي اقتصادي عملي تكنولوجي لغايات سليمة، ولا بد أن يكون كذلك بشكل أو بآخر والعكس ليس صحيحا فليس للمريض العاجز أن يفعل مهما تبجح أو تمنى.

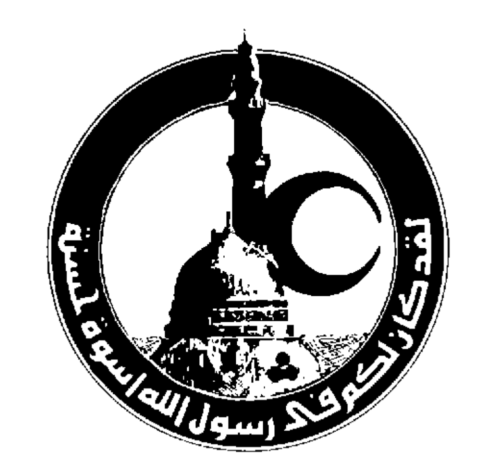
ان مـا يدعو الى التأمل هنا هو الإنجاز الإسلامي وهو

أيضا انجاز إنساني وإن في تحقيق الذات الاسلامية انقاذا لمستقبل الذات الانسانية.

ان هـذه حقيقـة أرجو أن يعيهـا عقلاؤنا وعقلاء المناجزين لنا وأن ينصرفوا الى ما فيه الخير لكافة الفرقاء وعلى امتداد الأبد...

والله أسأل أن يهدي الى الحق والصواب.،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

مجتمع المدينة

قبل

الهجرة وبعدها

للأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري
« العراق »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مجتمع المدينة قبل الهجرة

وبعدها

بقلم

الاستاذ الدكتور/ أكرم ضياء العمري

رئيس قسم الدراسات العليا

بالجامعة الاسلامية

بالمدينة المنورة

المجتمع المدني:

« يثرب » - وهو الاسم القديم للمدينة المنورة - واحة خصبة التربة كثيرة المياه تحيط بها الحرات من جهاتها الاربع وأهمها حرة واقم من الشرق وحرة الوبرة في الغرب. وحرة واقم أكثر خصوبة وعمرانا من حرة الوبرة، ويقع جبل احد شمالها وجبل عسير في جنوبها الغربي، وتقع فيها عدة وديان أشهرها وادي بطحان ومذينيب ومهزور والعقيق وهي منحدرة من الجنوب الى الشمال حيث تلتقي عند مجتمع الأسيال من رومة.

وقد ورد اسم يثرب في الكتابات المعينية بما يدل على قدمها[1]، ولكن معلوماتنا عن تاريخها الذي يسبق الإسلام قليلة ومشتتة وتبدو أكثر وضوحا كلما اقتربنا من الفترة الإسلامية.

اليهود:

تختلف النظريات حول أصل يهود المدينة المنورة - والحجاز عامة - والمكان الذي هاجروا منه والزمان الذي قدموا فيه، ولكن أقواها يميل الى أن بداية نزوحهم من الشام في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول. ق. م. وعلى اليهود ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد، مما أدى باليهود إلى الهجرة الى شبه جزيرة العرب التي كانت بعيدة عن سيطرة الرومان الذين أفزعوهم.

غير أن هجرة اليهود الى الحجاز اشتدت بعد فشل الثورة اليهودية ضد الرومان والتي أخمدها الامبراطور تيتوس في عام ٧٠م، وقد وصل بعض هؤلاء اليهود المهاجرين إلى يثرب كما وصلت مجموعة أخرى من اليهود الى

---

(١) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٩٥/٣

السؤال الأول فنذكر أن كثيرين ادعوا النبوة وحاولوا أن يأتوا بمعجزات، أدعاها الأسود العنسي وادعاها طلحة وادعتها سجاح، ولكن كُلاً من هؤلاء كانت دعوته مهلهلة وكان عمرها قصيراً- انزل بين جماعة وادع أنك معلم أو مهندس أو رجل قانون أو حتى زارع أو طباخ أو حلاق ولست كذلك، لا شك أن أمرك سيكشف بعد قليل وسيطاردك أولئك الذين قد يخدعون بك. هل النبوة أقل من ذلك؟ اللهم لا، إنها مسئولية خطيرة ودعوة عريضة، وهي امتحان قاس وتعال بنا إلى السؤال الثاني: ما هدف محمد، هل أراد المال، هل أراد الجاه، هل حصل على شيء لنفسه أو لذويه؟ الإجابة واضحة يقصها علينا التاريخ، فقد كان محمد قبل البعثة غنياً بمال زوجته، ولكنه رهن درعه عند يهودي في قوت أهله قبيل وفاته، وقد أراده قومه على المال وعرضوا عليه الجاه ولكنه أبى وقاسى من أجل النبوة ألواناً من العناء وماذا حصل لذويه؟ لقد وضع حداً لما يقال عن جلب النفع فقال قبل موته: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، وهكذا حرم أهله من ميراث يناله جميع الناس، ويبرهن على أنه إنسان ليس لأهله وإنما

ولا تذكر المصادر إحصاء لعدد اليهود، لكن كتب السيرة ذكرت اعداد المقاتلين - وهم عادة الرجال البالغون - من كل قبيلة وهم سبعمائة من بني قينقاع ومثلهم تقريبا من بني النضير وما بين السبعمائة والتسعمائة من بني قريظة...[1] فالمقاتلون من يهود القبائل الثلاث يزيدون قليلا على الالفين، هذا سوى بقية بطون يهود الأخرى الأقل أهمية والتي تسكن في أماكن متناثرة من يثرب أيضا حيث يذكر السمهودي أنها تزيد على العشرين بطنا[2]

ولا شك أن المجتمع المدني الذي خضع لسيطرة اليهود قبل أن يقوى كيان العرب فيه خضوعا تاما اقتصاديا وسياسيا وفكريا حيث ترك اليهود بعض طوابعهم عليه. من ذلك أن اليهود نقلوا من الشام إلى يثرب فكرة بناء الآطام حيث بلغ عددها في يثرب تسعا وخمسين أطما[3]. كما حملوا معهم خبراتهم الزراعية والصناعية مما أثر في ازدهار بساتين

---

(١) ابن هشام: السيرة ٢٤٨/٢ - ٢٥٩/٣ (تحقيق محي الدين عبد الحميد) وانظر احمد ابراهيم الشريف ص ٢٩٤.

(٢) وفاء الوفاء ١١٢/١

(٣) السمهودي: وفاء الوفاء ١١٦/١

يثرب حيث النخيل والاعناب والرمان وبعض الجوز، كما ظهر الاهتمام بتربية الدواجن والماشية، وبرزت صناعات النسيج الذي تحوكه النسوة الى جانب الاواني المنزلية وبعض الادوات الأخرى اللازمة للمجتمع الزراعي . وكما أثر اليهود على مجتمع المدينة فقد تأثروا بالعرب من حولهم فظهرت طوابع الحياة القبلية على يهود بما فيها من عصبية وكرم واهتمام بالشعر وتدريب على السلاح. وطغيان النزعة القبلية على يهود جعلهم لا يعيشون ككتلة دينية واحدة بل قبائل متنازعة لم تتمكن من توحيد صفها حتى في عصر النبوة عندما واجهت أحداث الجلاء.

وبالطبع كان على رأس الاعمال الاقتصادية التعامل بالربا والذي يتقنه اليهود في كل مكان. وإن كان الربا معروفا في مجتمع مكة التجاري أيضا.

العرب:

وقد سكن الأوس والخزرج يثرب التي سبقهم اليها يهود، وتملكوا أخصب بقاعها واعذبها مياها، مما اضطر الأوس والخزرج إلى سكنى الأراضي المهجورة من يثرب وينتمي الأوس والخزرج الى قبيلة الأزد اليمانية الكبيرة والتي خرجت من اليمن الى الشمال في فترات مختلفة ربما اقدمها في

حدود عام ٢٠٧م عندما هاجرت خزاعة الى مكة.

واختلف المؤرخون في سبب هجرة الأزد فبعضهم يرجع ذلك الى انهيار سد مأرب وحدوث سيل العرم، وبعضهم يقلل من أثر انهيار السد ويعزو ذلك الى الاضطرابات السياسية والتدهور الاقتصادي الذي نجم عن سيطرة الرومان على البحر الاحمر وانتقال تجارة الهند عبره وهو الارجح لشمول تأثير ذلك على السكان ومنهم الأزد التي كان معظمهم يسكن خارج منطقة سد مأرب.[1]

وممن هاجر من الأزد الاوس والخزرج الذين استقروا بيثرب الى جانب يهود.

فسكن الاوس منطقة العوالي بجوار قريظة والنضير، وسكن الخزرج سافلة المدينة حيث جاوروا بني قينقاع وكانت ديار الاوس أخصب من ديار الخزرج مما كان له أثر في المنافسة والصراع بين الطرفين[2].

ويحدد سديو تاريخ هجرتهم بعام ٣٠٠م ثم سيطرتهم على يثرب في عام ٤٩٢م[3]؛ ولا شك أن ثمة تحولات اقتصادية

---

(١) احمد ابراهيم: مكة والمدينة ص ٣١٥ ومحمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص ٤٥٨ - ٤٥٩.

(٢) احمد ابراهيم الشريف: مكة والمدينة ص ٣٣٧ - ٣٤٠.

(٣) سديو: تاريخ العرب العام ترجمة عادل زعيتر ص ٥١.

وسكانية حدثت لصالح العرب وتمثلت في زيادة عددهم وثروتهم[١]، ولا يوجد احصاء لعدد الأوس والخزرج ولكن القبيلتين قدمتا أربعة آلاف مقاتل للجيش الاسلامي الذي ذهب لفتح مكة سنة ٨ هـ[٢]،وقد مهدت هذه التحولات لسيطرتهم على يثرب التي كانت السيادة فيها ليهود وقد حاول اليهود الدفاع عن تسلطهم بتفتيت وحدة العرب من أوس وخزرج وإثارة الشقاق بينهم فأفلحوا في إذكاء العداوة وقيام الحروب بين الجانبيين، وآخر ذلك يوم بعاث[٣] قبل الهجرة بخمس سنوات حيث هزم الأوس الخزرج الذين طالما غلبوهم من قبل لتفوق قواتهم عليهم حتى لجأت الأوس الى محالفة يهود النضير والقريظة فغلبتهم في بعاث ،ولكنهم فطنوا الى خطورة الإجهاز عليهم وأن ذلك يمكن لليهود من استعادة سيطرتهم على يثرب لذلك سعوا الى المصالحة معهم، بل إن الجانبين اتفقا على ترشيح رجل من الخزرج هو عبد الله بن أبي بن سلول الذي وقف مع أهله على

---

(١) السمهودي: وفاء الوفاء ١/١٢٥ - ١٢٦ واحمد ابراهيم الشريف: مكة المدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٣٢٥

(٢) احمد ابراهيم الشريف: مكة والمدينة ٣٤٨

(٣) ابن الاثير الكامل ١/٦٦٠ - ٦٦٦، ٦٦٨ - ٦٧١، ٦٧٦، ٦٧٨ - ٦٨٠

الحياد في « بعاث » ليكون ملكا على يثرب مما يدل على تمكن العرب من المحافظة على قوتهم وتفوقهم على يهود بعد بعاث.

ولا شك أن وقائع أيام العرب بين الأوس والخزرج ولدت شعورا بالمرارة عند الطرفين ورغبة قوية في العيش بهدوء وسلام وهذا الشعور كان يرافق استقبال يثرب للاسلام حاملا معه بشائر التآخي والسلام، وقد عبرت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أثر الحروب والمنازعات في إقبال أهل المدينة على الإسلام بقولها: « كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا، قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم الاسلام[1].

اثر الهجرة في التكوين الاجتماعي لسكان المدينة:

وقدم المهاجرون الى المدينة المنورة - كما أطلق على يثرب في الاسلام - وكانوا في البدء من عشائر مختلفة من قريش، ثم استمرت الهجرة وصار حقا على المسلمين الجدد في ارجاء الجزيرة ان يهاجروا اليها، وظل الأمر كذلك حتى اوقفت الهجرة رسميا بعد فتح مكة عام ثمان للهجرة.

والهجرة حدث عظيم استحق ان يكون بداية العام

---

(١) صحيح البخاري ٥/٤٤ وانظر ٥/٦٧ منه أيضاوابن هشام السيرة ١/٢٨٣

الهجري الجديد عند المسلمين منذ أن وضع الخليفة عمر ابن الخطاب التقويم الهجري.

فالهجرة كانت دليلا على الإخلاص والتفاني في سبيل العقيدة فقد فارق المهاجرون وطنهم ومالهم وأهليهم ومعارفهم استجابة لنداء الله ورسوله. ولما اعترضت قريش سبيل صهيب الرومي بحجة انه جمع امواله من عمله بمكة ولم يكن ذا مال قبل قدومه مكة، ترك لهم أمواله وهاجر بنفسه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ربح صهيب[1]. ومنع المشركون أبا سلمة رضي الله عنه من الهجرة بزوجته وابنه فلم يمنعه ذلك من الهجرة وحيدا تاركا زوجته وطفله، وقد ظلت زوجته أم سلمة تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تمسي نحو سنة حتى تمكنت من الهجرة بابنها ولحقت بزوجها[2]. وهكذا فإن الهجرة اقترنت بظروف صعبة كانت تمحيصا لإيمان المؤمنين واختبارا لقوة عقيدتهم، واستعلاء ايمانهم على الاعراض والمصالح والعلائق الدنيوية.

وقد دلت أحداث الهجرة على سلامة التربية المحمدية للصحابة رضوان الله عليهم فقد صاروا مؤهلين للاستخلاف

(١) الحاكم: المستدرك ٣/ ٣٩٨ وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) انظر سيرة ابن هشام.

في الارض وتحكيم شرعالله والقيام بأمره والجهاد في سبيله وهم يقبلون على بناء دولة المدينة المنورة بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس.

وقد اختار الله تعالى المدينة لهجرة المسلمين لما صح عن رسول الله ﷺ: «قد أُريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين» رواه البخاري ومسلم[1].

وتأخر الرسول صلى الله عليه وسلم في الهجرة وأخر معه أبا بكر الصديق رضي الله عنه حتى اذن الله تعالى له بالهجرة. قالت عائشة رضي الله عنها: وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي، فلما اذن الله لرسوله بالخروج لم يعلم احدا بذلك الا عليا وأبا بكر وآله، وكان المشركون قد غاظتهم هجرة المسلمين فأتمروا لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «(واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين »). الأنفال ٣٠

وقد خرج الاثنان الى جبل ثور حيث أويا الى غار فيه وتعقبهم المشركون الى المكان حتى بدت اقدامهم خارج الغار

---

(١) صحيح البخاري ١٨٦/٧ وصحيح مسلم ٥٧/٧.

فقال الصديق رضي الله عنه - :لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، متفق عليه[1] لكن الله تعالى صرف المشركين عنهما فلم يفطنوا لهما وخرج الاثنان بعد ثلاثة ايام في طريقهما الى المدينة[2] يقطعان الصحراء ورسول الله قد بلغ الثالثة والخمسين وأبو بكر الحادية والخمسين، لكن القلوب الموصولة بالله تعالى لا يعيقها شيء عن بلوغ القصد وتحقيق أهداف الرسالة، ورسالة الاسلام جاءت تنظم أمور العبادات والمعاملات فهي دستور للحياة لا بد لتطبيقه من ارض وامة تقام فيها أحكام الله تعالى التي اكتمل تشريعها فيما نزل في المدينة المنورة من قرآن وما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عمله أو أمره من سنة... وهي تعطي صورة لأمثل دولة ضمت امثل مجتمع ظهرت في تاريخ البشر، وهي النموذج الذي ينبغي على المسلمين في كل زمان ومكان ان يحتذوه ليكفلوا لأنفسهم سعادة الدارين ويبتعدوا عن الشقاء والحياة الضنكى والضياع وسط ركام

---

(١) صحيح البخاري ٢١٧/٧ وصحيح مسلم ١٠٩/٧

(٢) احمد: المسند رقم ٣٥١ وانظر ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٧/٣ - ١٨٨.

الجاهلية الذي يزحف من كل مكان ولا منجى لهم الا بالعودة الى الله تعالى والاقتداء بهدي رسوله.

استجابة المسلمين للأمر بالهجرة:

منذ امر الله تعالى المسلمين بالهجرة الى المدينة المنورة نزلت الآيات القرآنية في الحث على الهجرة وبيان فضل المهاجرين، فقد كانت الدولة الاسلامية الناشئة في المدينة المنورة بحاجة الى المهاجرين من المؤمنين ليتوطد سلطان الاسلام فيها اذ يغالبه اليهود والمشركون والمنافقون، وتحيط به قوى الأعراب والمشركين من حول المدينة، ويترصد كفار قريش الذين اقضّت الهجرة مضاجعهم فمضوا يخططون للاجهاز على كيان الاسلام الفتي ودولته الناشئة، لذلك تابعت الآيات في الامر بالهجرة وبيان فضلها وعظيم أجرها حتى وعد الله تعالى المهاجرين بمنعهم وتمكينهم من مراغمة أعدائهم والتوسعة عليهم في ارزاقهم، قال تعالى: (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرة وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله)[1] أي ان الذي يخرج بنيَّة الهجرة فيموت في

---

(١) سورة النساء ١٠٠

الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر. وقال تعالى: (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين)[1] فهنا اقسم تعالى ان يرزق المهاجرين في سبيله رزقا حسنا سواء قتلوا في الجهاد أو ماتوا في فراشهم في غير جهاد.

وقد منع القرآن الكريم المسلمين القادرين على الهجرة من الاقامة مع المشركين قال تعالى: (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الارض، قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها. فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا). (النساء ٩٧ ٩٨ ٩٩)

وذلك لان الإقامة مع المشركين فيها تكثير سوادهم وانتفاعهم بالمسلمين في صناعاتهم وزروعهم، بل ربما اضطروهم للمشاركة معهم في حربهم ضد المسلمين كما وقع في غزوة بدر الكبرى، بالاضافة الى تعرضهم للفتنة من قبل الكفار لصرفهم عن دينهم، ولا يخفى ما في بعدهم عن دولة

---

(١) سورة الحج ٥٨

الإسلام من منع استفادة المسلمين منهم في حربهم ومصالحهم وتكثير سوادهم لذلك قال رسول الله ﷺ: « من جامع مشركاً وسكن معه فانه مثله » رواه ابو داود.

وقد تأخر بعض المسلمين بمكة عن الهجرة تحت ضغوط ازواجهم واولادهم فلما هاجروا من بعد ورأوا الذين سبقوهم من المهاجرين وقد تفقهوا في الدين هموا بمعاقبة ازواجهم وأولادهم وكان ذلك سببا في نزول الآية الكريمة: (يا ايها الذين آمنوا إن من أزواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم)[1].

ويتضح من ذلك كله أن الهجرة كانت فرضا في أول الاسلام على من اسلم حتى اذا كانت غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة وتبينت قدرة الدولة الاسلامية على الدفاع عن نفسها وحماية كيانها امام قوى الاحزاب مجتمعين لم تعد بحاجة الى مهاجرين جدد، فقد تغيرت خطة الدولة الاسلامية من الدفاع الى الهجوم وعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ».

---

(١) سورة التغابن آية ١٤ والحديث أخرجه الترمذي سنن ٢٠٢/٤ وقال هذا حديث حسن صحيح. والحاكم: المستدرك ٤٩٠/٣ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الحافظ الذهبي.

وكذلك ضاقت المدينة بسكانها المتزايدين وما يحتاجونه من القوت والمسكن فطلب رسول الله الكريم من بعض المهاجرين بعد الخندق العودة الى ديارهم قائلا (هجرتكم في رحالكم) اذ لم تعد ثمة حاجة لاقامتهم في المدينة بل صار بقاؤهم في قبائلهم اجدى لقيامهم بالدعوة الى الاسلام خارج المدينة وتوسيع انتشار الاسلام.

ولكن ذلك لا يعتبر وقفاً رسميا للهجرة، بل ان اعلان وقف الهجرة كان بعد فتح مكة حيث قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا» أخرجه البخاري. وبهذا سقط فرض الهجرة الى المدينة وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به او نزل به عدو، لكن الهجرة باقية الحكم في حق من اسلم في دار الكفر ولم يأمن الفتنة على دينه مع قدرته على الخروج منها.

لقد أدت الهجرة المستمرة الى تنوع سكان المدينة المنورة فلم يعودوا قاصرين على الاوس والخزرج ويهود بل نزل معهم المهاجرون من قريش وقبائل العرب الأخرى... والمجتمع المدني الجديد ارسيت قواعده وشيد بنيانه على اساس روابط العقيدة التي استعلت على ارتباطات القبيلة وعصبيتها وسائر الروابط الاخرى، وبرزت فكرة الأمة

الواحدة كما سيتضح عند دراسة دستور المدينة المنوره وتقسيمات السكان صار أساسها عقديا وصاروا يقسمون الى ثلاث مجموعات هي: -

المؤمنون   المنافقون   اليهود

نظام المؤاخاة في عهد النبوة:

وقد واجه المسلمون المهاجرون من مكة الى المدينة مشاكل متنوعة حيث تركوا اهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة، ولم تكن لهم مهارة في الزراعة والصناعة المنتشرتين في المدينة، وممارستهم للتجارة تحتاج الى رؤوس اموال كانوا لا يمتلكونها، وكانت علاقاتهم بالمجتمع المدني حديثة، فقد ترك المهاجرون اهليهم ومعارفهم بمكة بالاضافة الى اختلاف مناخ مكة عن المدينة وإصابتهم بالحمى، فتولد عندهم إحساس بالحنين الى مكة. ولمواجهة هذه المشاكل والتخفيف عن المهاجرين عقد النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار المؤاخاة وتم ذلك في السنة الاولى للهجرة في دار انس بن مالك رضي الله عنه[١]، ونظام المؤاخاة يعبر عن الحب

---

(١) ابن سعد: الطبقات: جـ١ قسم ٢ ص ٩ وابن سيد الناس: عيون الاثر١/٢٠٠

والتعاون والمواساة التي غرسها الاسلام في قلوب الصحابة الاولين.

ولم يبخل الانصار في مواساة المهاجرين بشيء بل قدموا من التضحيات وضروب الإيثار ما خلّد ذكرهم في القرآن الكريم قال تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1] وبلغ كرم الانصار ان اقترحوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقسم نخيلهم بينهم وبين المهاجرين، مع ان النخيل كان مصدر معيشة الكثيرين منهم. على ان الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من الانصار ان يقوموا بادارة بساتين النخيل ويحتفظوا بها لانفسهم على ان يشركوا المهاجرين في التمر.[2]

ويبدو ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يشغل المهاجرين بالزراعة ليتفرَّغوا لمهام الدعوة والجهاد، كما انهم (لا يعرفون العمل)[3] كما عبر الرسول الكريم مما يؤدي الى خفض الإنتاج الزراعي الذي تحتاجه المدينة.

كما وهبت الانصار كل فضل في خططها وقالوا: ان

---

(١) سورة الحشر ٩

(٢) البخاري: الصحيح ٣٢٩/٥

(٣) المصدر السابق ٣٢٩/٢

شئت فخذ منازلنا فقال لهم خيرا وابتنى لأصحابه في اراض وهبتها لهم الانصار واراض ليست ملكا لاحد[1].

وقد أثر هذا التعامل الكريم في المهاجرين، فلهجت السنتهم بكرم الانصار، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم احسن مواساة في قليل، ولا احسن بذلا من كثير. لقد كفونا المؤونة واشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالاجر كله. قال: «لا، ما اثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»[2].

ومع هذا البذل والإيثار الذي اظهره الانصار فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أوجد نظام المؤاخاة بين المهاجرين والانصار، فآخى بين كل مهاجري وأنصاري اثنين فشملت المؤاخاة تسعين رجلا من المهاجرين والانصار[3]، وقد ترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة بين المتآخين كالمواساة التي تشمل كل أوجه العون

---

(١) البلاذري: انساب الاشراف ١/٢٧٠

(٢) ابن سيد الناس: عيون الاثر ١/٢٠٠ وابن كثير: السيرة النبوية ٢/٣٢٨

(٣) ابن سعد: الطبقات ت ج ١ قسم ٢/٩.

والبلاذري: انساب الاشراف ١/٢٧٠.

على مواجهة أعباء الحياة سواء كان عونا ماديا أو رعاية أو نصيحة أو تزاورا ومحبة. كما ترتب على المؤاخاة ان يتوارث المتآخون دون ذوي ارحامهم مما يرقى بالعلاقة بين المتآخين الى مستوى ارفع من أخوة الدم.

وقد طابت نفوس الانصار بذلك، وتصور الروايات عمق التزامهم وتفانيهم في تنفيذه. ومن النماذج الفريدة لهذه المؤاخاة بين سعد بين الربيع (الانصاري) وعبد الرحمن بن عوف (المهاجري). فقد قال سعد لعبد الرحمن: ان لي مالا فهو بيني وبينك شطران، ولي امرأتان فانظر أيها أحب اليك فأنا اطلقها فاذا حلت فتزوجها. فقال عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: بارك الله لك في اهلك ومالك. دلوني على السوق.............. فلم يرجع حتى رجع بسمن وأقطّ قد أفضله[1].

ولا شك أن المرء يقف مبهورا أمام هذه الصور الرائعة من الأخوة المتينة والايثار المتبادل الذي لا نجد له مثيلا في تواريخ الأمم الأخرى. وليس موقف ابن عوف في أنفته وكرم خلقه وعدم استغلاله لأخيه بأقل روعة من ايثار ابن

---

(١) النسائي: سنن ٦/١٣٧.

الربيع... لذلك بورك له في عمله ونمت ثروته حتى صار من أغنياء المسلمين فقد أبى الا أن يكون صاحب اليد العليا التي تعطي ولا تأخذ.

ونظراً لأن التوارث بين المتآخين كان في ظروف استثنائية اقتضته، فقد رجع التوارث الى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين بنص القرآن الكريم (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله[1]) وكان ذلك بعد غزوة بدر الكبرى التي أصاب المسلمون من غنائمها الكثير. وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنه أن ما أنفي من نظام المؤاخاة هو الارث فقط وأما النصر والرفادة والنصيحة فباقية[2]. وقال الحافظ النووي: وأما المؤاخاة في الاسلام والمحافظة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى واقامة الحق فباق لم ينسخ[3].

(١) الانفال الاية ٧٥. وانظر تفسيرها للشوكاني: فتح القدير ٣٣٠/٢ - ٣٣١ وعن سبب النزول أنظر بسند الطياسي ١٩/٢ ومجمع الزوائد للهيثمي ٢٨/٧.

(٢) البخاري: الصحيح ١١٩/٣، ٥٥/٦ - ٥٦، ١٩٠/٨ - ١٩١

(٣) صحيح مسلم: ١٩٦٠/٤ الحاشية.

ان استجابة المسلمين لأوامر الله تعالى تظهر في انخلاعهم عن علاقاتهم الاجتماعية والمكانية اذا اقتضت ذلك مصلحة العقيدة.

آصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين الناس:

ولا شك أن الروابط التي تجمع بين الناس مختلفة، وهم يجتمعون بشكل قبائل وشعوب وأوطان وقوميات، وقد يجتمع أبناء القوميات المختلفة تحت لواء واحد بسبب الدين أو المصالح المشتركة. وتعتبر آصرة القربى أو الدم والانتماء الى أصل عرقي من أقدم الروابط التي كونت المجتمعات البشرية .ويوم أن ظهر الاسلام كانت تجمعات الناس تظهر بشكل قبائل كما في جزيرة العرب وأماكن أخرى وقوميات كما في بلاد فارس، ومجتمعات دينية كما في الامبراطورية البيزنطية، وقد جعل الاسلام رابطة العقيدة هي الأساس الأول في ارتباط الناس وتآلفهم وإن أقر بعض الأواصر الأخرى اذا انضوت تحت هذا الأصل مثل الأرحام التي حث الاسلام على وصلها. ورتب على ذلك الاحكام المتعلقة بالتكافل الاجتماعي والارث ومثل صلة الجوار وما يترتب عليها من حقوق الجار ومثل الصلة بين افراد العشيرة وما يترتب عليها

من تضامن في الديات، ومثل الصلة بين أبناء المدينة وجعلهم أولى من سواهم بزكاة أغنيائهم.. لكن هذه الصلات ينبغي أن تنضوي تحت آصرة العقيدة فاذا خالفتها وأضرت بها لم يبق لها أي اعتبار، فأساس الارتباط في الاسلام هو العقيدة التي قد تقتضي مصلحتها التفريق بين المرء وأبيه أو ابنه أو زوجته أو عشيرته.. وهكذا قاتل أبو عبيدة رضي الله عنه أباه - وهو يمجد الاصنام فقتله عندما التقى به في معركة بدر الكبرى. ورأى أبو حذيفة رضي الله عنه أباه المشرك يسحب ليرمى في القليب ببدر دون أن ينكر قلبه ذلك.[1]

قال ابن اسحق:[2]

وحدثني ابن وهب أخو بني عبد الدار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل بالاسارى فرقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بهم خيرا وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الاسرى قال أبو عزيز: مر بي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال - أشدد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك....

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٧٥

(٢) انظر ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٣٠٦ - ٣٠٧.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر- وهو الذي أسره ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب إنه أخي دونك.

وروى الترمذي[1] باسناد قال عنه صحيح وهو: حدثنا ابن ابي عمر أخبرنا سفيان عن عمر وابن دينار سمع جابر ابن عبد الله يقول: كنا في غزاة - قال سفيان يروون أنها غزوة المصطلق - فكسح رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار... وفيه فسمع ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فقال: أوقد فعلوها؟ والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وقال غير عمرو: فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: «والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ففعل.

وقد كان عبد الله بن عبد الله بن أبي بارا بأبيه هيابا له[2] لكن مصلحة العقيدة هي المعتبرة عنده أولا فلما رأى أباه يؤذي المسلمين عرض على النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتله ويأتيه برأسه[3].

---

(١) سنده في كتاب التفسير ٩٠/٥٥

(٢) الحميدي: المسند ٥٢٠/٢

(٣) الهيثمي: مجمع الزوائد ٣١/٩

وقد أوضح القرآن الكريم أن العقيدة هي الأساس في ارتباط الناس بعضهم ببعض فيما قصه عن نوح عليه السلام وابنه: (ونادى نوح ربه فقال ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين

وهكذا بين الحق سبحانه ان ابن نوح وان كان من أهله باعتبار القرابة لكنه لم يعد من أهله لما فارق الحق وكفر بالله ولم يتبع نوحا نبي الله. وصرح القرآن الكريم بعلة انقطاع الآصرة بين نوح وابنه بقوله(إنه عمل غير صالح).[1] فاذا كانت القرابة من الدرجة الأولى تنبتّ عندما تصطدم بالعقيدة فالأحرى أن تنبت صلات الدم والعرق والوطن واللون اذا اصطدمت بمصلحة العقيدة.

وقد حصر الاسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط قال تعالى: (إنما... المؤمنون إخوة)[2] وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى حتى ولو كانوا أباءهم أو اخوانهم أو أبناءهم ووصف من يفعل ذلك

---

(١) سورة هود آية ٤٥، ٤٦

(٢) سورة الحجرات ١٠

من المؤمنين بالظلم مما يدل على أن موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم الذنوب قال تعالى: (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولّهم منكم فاولئك هم الظالمون)[1].

وقد وضع القرآن الكريم مصالح المسلم وعلاقاته الدنيوية كلها في كفة ووضع حب الله ورسوله والجهاد في سبيل العقيدة في كفة أخرى، وحذر المؤمنين وتوعدهم إن هم غلّبوا مصالحهم وعلاقاتهم الاجتماعية على مصلحة العقيدة قال تعالى: (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)[2] وقد نزلت هذه الآيات من سورة التوبة في الحض على الهجرة الى المدينة المنورة للدفاع عن الدولة الاسلامية التي نشأت فيها... وقد نجح الصحابة الكرام في امتحان العقيدة... ففارقوا الأهل والأموال والمساكن التي يحبونها وهاجروا الى الله ورسوله والجهاد في سبيله.

---

(١) سورة التوبة ٢٣

(٢) سورة التوبة ٢٤

وخلاصة القول أن المجتمع المدني الذي أقامه الاسلام كان مجتمعا عقديا يرتبط بالاسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسولـــه وللمؤمنين. وهو أعــلى أنواع الارتبـــاط وأرقاها إذْ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم. وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتمي اليه مهما كان لونه أو جنسه على أن ينخلع من صفاته الجاهلية ويكتسب الشخصية الاسلامية ليتمتع بسائر حقوق المسلمين.

الحب أساس المجتمع المدني:

وقـد أقام الاسلام المجتمع المدني على أساس الحب والتكافل، كما في الحديث الشريف «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى لـه سائر الجسد بالسهر والحمى» فالتواد والرحمة والتواصل أساس العلاقة بين أفراد المجتمع كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم حاكمهم ومحكومهم.

وقد تكفّلت تعاليم الاسلام بتدعيم الحب وإشاعته في المجتمع ففي الحديث النبوي (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) فيعيش المؤمنون بعيدا عن الأثرة

والاستغلال وهم يتعانون في مواجهة أعباء الحياة فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي والامام أحمد (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي وأبو داوود.

وعلاقات المؤمنين قائمة على الاحترام المتبادل فلا يستعلي غني على فقير ولا حاكم على محكوم ولا قوي على ضعيف «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم» رواه الامام مسلم.

وقد تفتر العلاقة بين المسلم وأخيه أو تنقطع ساعة غضب لكن انقطاعها لا يستمر فوق ثلاث ليل «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» كما في الصحيحين.

وتدعم أسس الحب بالصلة والصدقة (تهادوا تحابوا) ويضع الغني أمواله في خدمة المجتمع وسد الثغرات التي تظهر في بنائه الاقتصادي بسبب التفاوت في توزيع الثروة فيخرج زكاة أمواله فريضة من الله يواسي المحتاجين بأمواله حتى إنهم ليفرحون إذا كثرت ثروته إذ تعود عليهم بالخير والمواساة.

اخرج الامام البخاري (٦/٣١ كتاب التفسير) عن أنس

ابن مالك رضي الله عنه قال: «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله اليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)[1] قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله ان الله يقول: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء)، وانها صدقة لله ارجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك مال رايح[2]، ذلك مال رايح، وقد سمعت ما قلت واني ارى ان تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في اقاربه وبني عمه)

وكان أغنياء الصحابة يعرفون أنهم مستخلفون على المال الذي اكتسبوه، فإذا وجدوا ثغرة تعجز الدولة عن سدها أو لا تنتبه لها بذلوا أموالهم في سدها... وقد ثبت في التاريخ أن عثمان رضي الله عنه تصدق بقافلة ضخمة الف بعير تحمل البر والزيت والزبيب على فقراء المسلمين عندما

---

(١) الى عمران اية ٩٢

(٢) اي ان اجرها يروح ويغدو عليه (فتح الباري ٣/٣٢٦).

حلت الضائقة الاقتصادية بالمدينة المنورة في خلافة الصديق رضي الله عنه وقد عرض عليه التجار خمسة أضعاف ثمنها ربحا فقال: أعطيت أكثر من ذلك. فقالوا: من الذي أعطاك وما سبقنا إليك احد، ونحن تجار المدينة؟ قال: إن الله اعطاني عشرة امثالها ثم قسمها بين الفقراء المسلمين.

ومثل هذا كثير في سير المسلمين من سلفنا الصالح لذلك لم تظهر الروح الطبقية ولم يحدث الصراع الطبقي... ولم يتكتل الناس وفق مصالحهم الاقتصادية لحرب من فوقهم أو تحتهم... إن المجتمع الاسلامي لم يشهد صراع الطبقات ولا يعرف استعلاء غني على فقير ولا حاكم على محكوم ولم يعترف ابتداء باختلاف البشر تبعا لألوانهم وأعراقهم أو دمائهم فالمسلمون سواسية كاسنان المشط لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى.. والمجتمع الاسلامي مفتوح أمام الجميع ففرص الارتقاء والكسب متكافئة أمام افراده، والعلاقات الاجتماعية متكافئة أيضاً، فلم يحدث ان منع فقير من الزواج بغنية أو حجب ضعيف عن الترقي الى أرفع مناصب الدولة وأعلى مراكز القيادة والتوجيه في المجتمع، فليست هناك طبقية يصطدم رقي الفرد بسقوفها ولو قدر للمجتمع الاسلامي ان يستمر في تقدمه العلمي والحضاري ويمسك

بزمام البشرية اليوم لظهرت مزايا الاسلام في بناء مجتمع متراص على أساس الحب والتكافل وليس الحقد والصراع الذي ليس وراءه إلا الدمار.

واذا كان هذا هو موقف أغنياء المسلمين في المجتمع المدني فما هو موقف ضعفائهم وفقرائهم؟

الأغنياء والفقراء يجاهدون في صف واحد:

لقد وقف الأغنياء والفقراء يجاهدون في صف واحد: فالعقيدة الاسلامية منعت ظهور الصراع الطبقي في المجتمع الاسلامي وآخت بين الاغنياء والفقراء ووحدت الصف الداخلي لمواجهة متطلبات الجهاد، وهذه صورة من المجتمع المدني توضح كيف عاشت مجموعة من أفقر المسلمين في عصر السيرة.

قال تعالى: (للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس الحافا، وما تنفقوا من خير فان الله به عليم)[1]

ذكر ابن سعد في طبقاته[2] باسناده الى محمد بن كعب

---

(١) البقرة آية ٢٧٣

(٢) الطبقات الكبرى ١/٢٥٥.

القرظي أن هذه الآية نزلت في أهل الصفة، وذكر الطبري[1] في تفسيره باسانيده عن مجاهد والسدي انها نزلت في فقراء المهاجرين.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يفكر في ايجاد مأوى للفقراء المقيمين والوفود الطارقين لأن تدفق المهاجرين الى المدينة المنورة استمر خاصة قبل غزوة الخندق حيث كان الكثيرون منهم يستقرون داخل المدينة الى جانب الوفود الكثيرة التي طرقت المدينة آنذاك، ومنهم من لم يكن على معرفة بأحد من المدينة، وقد حانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة الشريفة وذلك بعد ستة عشر شهرا من الهجرة الى المدينة حيث بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي فسقّف واطلق عليه اسم «الصفة»، وكان أول من نزلها فقراء المهاجرين، ثم من اخلاط القبائل حتى زادوا على السبعين[2]، وكان ابو هريرة رضى الله عنه عريف أهل الصفة فكان واسطة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعرف مراتبهم في العبادة والمجاهدة[3]

---

(١) تفسير الطبري ٥/٢٩١ (ط محمود محمد شاكر).

(٢) ابو نعيم الحلية ١/٣٣٩ - ٣٤١.

(٣) ابو نعيم الحلية ١/٣٧٦.

وقد انقطع أهل الصفة للعلم والعبادة وألفوا الفقر والزهـــد فكانوا في خلوتهم يصلون ويقرأون القرآن ويتدارسونه ويتعلم بعضهم الكتابة، حتى اهدى احدهم قوسه لعبادة بن الصامت رضي الله عنه لانه كان يعلمهم القرآن والكتابة[1]، واشتهر عريفهم ابو هريرة رضي الله عنه بكثرة حديثه وسعة حفظه.

لكن انقطاع أهل الصفة للعلم والعبادة لم يعزلهم عن المشاركة في أحداث المجتمع والاسهام في الجهاد، بل كان منهم الشهداء ببدر وأحد وخيبر وتبوك واليمامة فكانوا رهبانا في الليل فرسانا في النهار[2]. فالاسلام لا يعرف العزلة عن الحياة بل يربي اتباعه على السلوك الإيجابي المؤثر في واقع المجتمع.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم كما كان يكثر مجالستهم ويرشدهم ويواسيهم ويذكرهم ويقص عليهم ويوجههم الى قراءة القرآن الكريم ومدارسته وذكر الله

---

(١) ابو داوود: السنن ٢/٢٣٧.

(٢) اكرم العمري: أهل الصفة ص ١٥١ (بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الاسلامية سنة ١٩٦٨م

والتطلع الى الآخرة ،ويشجعهم على احتقار الدنيا وعدم تمني متاعها ، وكان اذا أتته صدقة بعث بها اليهم ولم يتناول منها شيئا ، واذا اتته هدية ارسل اليهم واصاب منها ، وكثيرا ما كان يدعوهم الى تناول الطعام في إحدى حجرات ازواجه أمهات المؤمنين(١) ، ولم يكن يغفل عنهم ، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه ، وقد جاءه مرة مال فسألته ابنته فاطمة - رضي الله عنها - شيئا فعلمها وزوجها عليا رضي الله عنهما كلمات يدعوان بها وقال: (لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تلوي بطونهم من الجوع)(٢). وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوزع أهل الصفة بين أصحابه بعد صلاة العشاء ليتناول الطعام ويأخذ بقيتهم معه ، وكان سبعون من الفقراء - وهم الذين استشهدوا يوم بئر معونة - يقرأون القرآن ويتدارسونه ويتعلمون بالليل ويعلمون ويتصدقون على أهل الصفة بالنهار وكان ذلك أول الاسلام « حتى جاء الله بالغنى ».

رحم الله القوامين الصوامين المجاهدين الزاهدين أهل الصفة وصدق الله العظيم « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا.

---

(١) البخاري (صيحيح) - رقاق باب ١٤ والاستئذان باب ١٤

(٢) واحمد المسند ١/٧٩، ١٠٦. واحمد المسند ٢/٥١٥، ٣/٤٢٩، ٤٩٠.

فأين هذا النموذج مما يحدثه الفقراء المدقعون في المجتمعات الجاهلية من تكوين العصابات التي تتولى اعمال السرقة والقتل وانواع العدوان الذي يفقد المجتمعات الاستقرار والاحساس بالامن... الا أنه الفرق بين تربية محمد صلى الله عليه وسلم والتربية الجاهلية... والفرق بين نظام الله ونظام البشرية.

فهذه صورة من الارتباط القوي الذي اوجده الاسلام عمليا في المدينة المنورة حيث تظهر صورة المجتمع الاسلامي بازهى واكمل حالاتها، ومنها تتبين لماذا لا يحدث الصراع الطبقي في المجتمع الاسلامي ولماذا يقف الأغنياء والفقراء في صف واحد لدعم رسالة الاسلام.

دستور المدينة:

تعتبر الوثيقة التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار من ناحية وبين المسلمين واليهود من ناحية أخرى اول دستور أعلنه الاسلام. حيث أوضحت التزامات جميع الاطراف داخل المدينة المنورة وحددت الحقوق والواجبات، وقد شك بعض الباحثين المعاصرين في صحتها[1] لكن معظمهم اعتمدوا عليها في دراساتهم عن

---

(١) ذهب الدكتور يوسف العش الى انها موضوعة (الدولة العربية وسقوطها ص ٢٠ حاشية رقم ٩)

المجتمع المدني في عصر السيرة. والحكم بوضع الوثيقة مجازفة لان كتب الحديث النبوي المعتمدة اوردت مقتطفات كثيرة تشمل عدداً كبيرا من بنودها المتعلقة بتنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار[1]، ولكن الوثيقة بجملتها لم ترد باسناد صحيح متصل بل جاءت في سيرة ابن اسحق دون اسناد وفي تاريخ ابن ابي خيثمة باسناد ضعيف فيه كثير بن عبد الله المزني، وفي كتاب الاموال لابي عبيد من مراسيل الزهري ومراسيله ضعيفة عند المحدثين لكنه إمام في المغازي. واسلوب الوثيقة يشبه اسلوب كتب النبي صلى الله عليه وسلم الاخرى مما ينم عن أصالتها.

والوثيقة في الاصل وثيقتان، الأولى تتناول تحديد العلاقة بين المسلمين واليهود والراجح انها كتبت قبل موقعة بدر الكبرى حيث صرح ابو عبيد بأن ذلك قبل ان يظهر الاسلام ويقوى[2] كما بين البلاذري أن ذلك قبل الاذن بالقتال[3].

وأما الوثيقة الثانية التي تحدد علاقات المهاجرين

---

(١) وردت هذه المقتطفات في صحيحي البخاري ومسلم وسنن ابي داوود وابن ماجة والترمذي ومسند الامام احمد.

(٢) الاموال رقم ٥١٨.

(٣) انساب الاشراف ١/٢٨٦.

والانصار بعضهم ببعض فقد كتبت بعد بدر في السنة الثانية للهجرة وكانت صحيفة معلقة في جفن سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذي الفقار الذي غنمه ببدر والذي صار للامام علي رضى الله عنه ومعه الصحيفة فكان يحدث بها[1].

وقد التزم اليهود بموجب الوثيقة بالمشاركة مع المسلمين في الدفاع عن المدينة المنورة ولكن هل نفذ ذلك عمليا؟ ان سائر الأحاديث المروية عن اشتراك اليهود مع الرسول صلى الله عليه وسلم في الحروب ضعيفة[2] بينما وردت احاديث صحيحة تدل على منع الرسول صلى الله عليه وسلم لهم من الاشتراك مع المسلمين في الحروب[3] عندما حاولوا الاشتراك تعزيزا للأحلاف القديمة بينهم وبين الأوس والخزرج من ناحية وسعيا لتوثيق الصلة بينهم بغية الافادة من ذلك في التأثير عليهم وغلغلة النفاق في صفوفهم. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قطع عليهم الطريق برفض معونتهم ما داموا على الشرك.

---

(١) البخاري الصحيح ١٤/٩. والترمذي (الجامع ١٨٢/٦
وابن ماجه (السنن) ٨٨/٢ واحمد (المسند) ٧٩/١، ١١٩، ١٢٢.

(٢) ابو يوسف: الرد على سيرة الاوزاعي ص ٤٠ والبيهقي (سنن) ٥٣/٩ والترمذي (سنن) ٤٩١٧ والزيلعي: (نصب الراية) ٤٢٢/٣.

(٣) الحاكم: المستدرك على الصحيحين ١٢٢/٢ والبيهقي (سنن) ٣٧/٩.

ان استمرار المحالفات القديمة بين الأوس والخزرج واليهود يتضح من قول الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم في أحد: (الا نستعين بحلفائنا من يهود)[1]

كما يتضح من شفاعة عبد الله بن ابي سلول كبير المنافقين في بني قينقاع حلفاء قومه الخزرج، ومن محاولة بعض الأوس تخليص حلفائهم يهود بني قريظة من القتل بعد نزولهم على حكم النبي صلى الله عليه وسلم فحكّم النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فحكم بقتلهم وبذلك تبرأ من حلفهم كما تبرأ من قبله عبادة بن الصامت (من بني عمرو ابن عوف من الخزرج) من بني قينقاع حين حاربوا المسلمين.

وقد كفلت الوثيقة الحرية الدينية مِمَّا يدل على أن أحداث جلاء اليهود لا علاقة لها باختلاف العقيدة، خاصة وأن الحرية الدينية لغير المسلمين ظلت مكفولة في الدولة الاسلامية كما أنها في أبرز خصائص الحضارة الاسلامية.

وحددت الوثيقة مسؤولية الإجرام وحصرتها في مرتكبيها من اليهود، فالمجرم ينال عقابه وإن كان من المتعاهدين، وقد اعترف اليهود بوجود سلطة قضائية عليا

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٦٤ وسحنون: المدونة الكبرى ٣/ ٤٠ وابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٩٢.

يرجع اليها سائر سكان المدينة بما فيهم اليهود، لكن ذلك لا يتعلق بالقضايا الخاصة بين اليهود ولا باحوالهم الشخصية فهم يرجعون في ذلك الى أحبارهم وإن كان من حقهم أن يعرضوا ذلك على القضاء الاسلامي أيضا.

وقد منعت الوثيقة اليهود من إجارة قريش أو نصرها أو التعهد بحماية تجارتها كما منعتهم من القيام بنشاط عسكري خارج المدينة مما يؤثر على أمن المدينة واقتصادها

فاليهود كمواطنين في الدولة الاسلامية يجب أن يخضعوا للنظام العام، وقد اعتبرت الوثيقة منطقة المدينة المنورة حرما لا يحل انتهاكه وبذلك احلت إلا من داخل المدنية ومنعت الحروب الداخلية.

أما الوثيقة التي كتبت بين المهاجرين والأنصار بعد غزوة بدر الكبرى فقد ذكر فيها مصطلحا «المؤمنين» و«المسلمين» مما يشير الى التمييز بين المصطلحين لظهور المنافقين في مجتمع المدينة. وقد قررت الوثيقة ان المؤمنين والمسلمين امة واحدة من دون الناس فهم يرتبطون برابطة العقيدة التي توحد مشاعرهم وافكارهم وسلوكهم وتجعلهم يخضعون للشرع وليس للعرف، كما تجعل ولاءهم لله ولرسوله وليس للقبيلة، وتميز الجماعة الدينية في المجتمع المدني كان

مقصودا ليزداد تماسكها واعتزازها بذاتها، ويتضح ذلك في تميزها بالقبلة واتجاهها الى الكعبة بعد أن اتجهت ستة عشر أو سبعة عشر شهراً الى بيت المقدس، وقد اذن النبي صلى الله عليه وسلم لأتباعه بالصلاة بالنعل وصبغ الشيب بالحناء والكتم مخالفة لليهود، وصار التمايز مبدأ اسلاميا للحديث الشريف(ومن تشبه بقوم فهو منهم) لكن هذا التمايز والاستعلاء لا يشكل حاجزا بين المسلمين وغيرهم فكيان الجماعة الاسلامية مفتوح وقابل للتوسع ويستطيع الانضمام اليه من قبل (ايديولوجيته).

وقد ذكرت الوثيقة الكيانات العشائرية التي ينتسب اليها الانصار، ولا يعني ذلك الابقاء على العصبية القبلية والعشائرية لأن الاسلام حرم ذلك (ليس منا من دعا الى عصبية) وانما اعترف الاسلام بالارتباطات التي تنضوي تحت رابطة العقيدة وتخدم المجتمع الاسلامي وتسهم في بناء التكافل الاجتماعي بين ابنائه، مثل الارتباطات الخاصة بين افراد الاسرة الواحدة والعشيرة الواحدة وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات كالتضامن في دفع الديات وفكاك الأسرى واعانة المحتاج منهم، فقد رتب الاسلام على الوحدات الاجتماعية الصغيرة والقيام بمهام التكافل

الاجتماعي وبذلك سد ثغرات كبيرة مما يرفع عبئا كبيرا عن كاهل الدولة تنوء به الدول الحديثة.

وهكذا فإن اقرار الروابط العشائرية قصد به الاستفادة منها في التكافل الاجتماعي ولكن لا تناصر في الظلم ولا عصبية، وبذلك حول الاسلام وجهة الروابط القبلية واستفاد منها بتكييفها وفق أهدافه العليا، ولا شك أن هذا التحول الخطير وضعت أمامه عراقيل خطيرة من قبل المنافقين واليهود الذين حاولوا اثارة العصبية في مواقف شتى، ولكن العقيدة الاسلامية غالبت هذه العراقيل وغلبتها وتمكنت من إحلال المفاهيم الاسلامية الجديدة محل العصبيات الجاهلية.

وكذلك أكدت الوثيقة على المسؤولية الجماعية واعتبرت سائر المؤمنين مسؤولين عن تحقيق العدل والأمن في مجتمع المدينة اذ لم توجد بعد قوة منظمة كالشرطة لتعقب الجناة.

ونظرا لكون تشريع الحدود مصدره الله تعالى فان السعي لتطبيقها واجب ديني على المؤمنين، وهذا يكسب الاحكام قدسية ويعطيها قوة كبيرة ويمنع ما ينشأ في نفوس بعض الناس من الرغبة في تحديها والخروج عليها كما يحدث في ظل القوانين الوضعية.

وقد حصرت الوثيقة مسؤولية اعلان الحرب والسلم بالنبي صلى الله عليه وسلم، فاذا أعلن الحرب فان سائر المؤمنين يصبحون في حالة الحرب مع الخصم ولا يمكن لفرد منهم مهادنته لانه مرتبط بالسياسة العامة للمؤمنين.

كما أقرت الوثيقة مبدأ الجوار وجعلته حقا لكل مسلم، كما حصرت الموالاة بين المؤمنين، والموالاة تقتضي المحبة والنصرة، فلا تجوز موالاة غير المؤمنين.

واكدت الوثيقة في ختام بنودها أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المرجع الوحيد في كل خلاف يقع بين المسلمين في المدينة.

وهكذا حددت الوثيقة العلاقات بين الاطراف المختلفة في المدينة المنورة وأوضحت الحقوق والواجبات العامة فكانت بذلك أول دستور أعلنه الاسلام [1]

ما أحدثه الاسلام من تغيير في الحياة عند ظهوره:

لا شك أن لكل حضارة وفكر ودين طابعا يطبعه وصبغة تصبغه ولونا يميزه، وعلى قدر أصالة الحضارة وعمقها وشمولها يكون تأثيرها في الانسان الذي يعيش في

---

(١) انظر بحثي: (اول دستور أعلنه الاسلام) مجلة كلية الامام الأعظم ببغداد، العدد الأول ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م)

إطارها وقد تتشابه الافكار والمعتقدات ولا تستقل عن بعضها إلا في جوانب معينة كما هو الحال في الفلسفات المادية المهيمنة على عالمنا المعاصر ، فإن التحول من واحدة الى أخرى لا يتطلب تغييرا جذريا وانقلابا شاملا في حياة الانسان بل يكفي أن تتغير قناعته بمبدأ منهاوتزداد بآخر ليتم التحول الفكري الى المبدأ الجديد..إن هذا التحول لا يحتاج الى مجهود كبير اذ ليس له أثر على السلوك اليومي والعادات المتأصلة في النفس فلا ينعكس اذاً على واقع الحياة.

ان هذه الظاهرة لا تنطبق على الاسلام، فهذا الدين منذ ظهوره أحدث انقلابا جذريا في حياة الفرد والجماعة بحيث تغير سلوك الأفراد اليومي وعاداتهم المتأصلة تغيرا كليا، كما تغيرت مقاييسهم واحكامهم ونظرتهم الى الكون والحياة والانسان... وكذلك تغيرت بنية المجتمع بصورة واضحة فاختفت مظاهر وصور وبرزت معالم وظواهر جديدة...

ان النقلة التى أحدثها الاسلام في تاريخ الجزيرة العربية عميقة وشاملة، ففي عالم العقيدة يمثل طفرة من عبادة الاشياء المحسوسة كالاصنام والاوثان والكواكب التي

يرونها ويلمسونها الى عبادة الله الواحد الذي «ليس كمثله شيء والذي لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار».

والذي لايمكن تصوره وتمثله ومعرفة كنهه، بل يعرف بما وصف به نفسه في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الامين دون تمثيل ولا نفي أو تعطيل.

وهذه طفرة من «العقل البدائي» الذي يتعامل مع المحسوسات الى «العقل الحضاري» الذي يتمكن من فهم التوحيد والتنزيه لله رب العالمين. وفي سلوك الانسان اليومي أحدث الاسلام تغييرا جذريا.. فالنقطة كبيرة بين ما كان عليه في جاهليته وما صار اليه في اسلامه... لم يعد العربي كما كان متفلتا من ضوابط القانون في معاملاته وعلاقاته الاجتماعية بل صار منضبطا بضوابط الشريعة في جزئيات حياته من أخلاق وعادات ونوم واستيقاظ وطعام وشراب وزواج وطلاق وبيع وشراء... ولا شك أن العادات تتحكم في الانسان ويصعب عليه التخلص منها واكتساب عادات وصفات جديدة.. لكن ما ولده الاسلام في انفسهم من ايمان عميق مكنهم من الانخلاع من الشخصية الجاهلية بكل ملامحها واكتساب الشخصية الاسلامية بكل مقوماتها.

فاعتادوا على عبادة الله تعالى واتجهوا بكل نشاطهم

الاجتماعي والاقتصادي اليه لأن العبادة في الاسلام شاملة لكل نشاط وحركة يقصد بها وجه الله تعالى، والتزموا بأداء الصلاة التي هي عماد الدين يوميا خمس أوقات محددة.. ولا شك ان النفس تكسل وتحاول التنصل من الواجبات والالتزامات، لكن المسلم وقد اسلم وجهه لله تعالى تمكن من الاعتياد عليها قال تعالى مبينا ما تحتاجه الصلاة من صبر (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها[1]).

وكذلك الامر بالنسبة للصوم بما فيه من خرق لعادات الانسان اليومية في تناول الطعام والشراب يحتاج الى ارادة قوية وعزيمة مؤمنة.. والتخلي عن جزء مما يملك الانسان من مال كل سنة لأداء الزكاة يحتاج الى التخلص من الحرص والشح فلا بد أن يكون حب السلم لله أعظم من حبه للمال ليخرج زكاته ولذلك فان كثيرا من المرتدين في خلافة الصديق رضي الله عنه اعلنوا استعدادهم للبقاء على اسلامهم اذا أعفوا من الزكاة. والى جانب الاعتياد على الاوامر الجديدة وحمل النفس عليها كان لا بد للمسلم ان يتخلص من كثير من العادات المتأصلة كشرب الخمر والانكحة الجاهلية التي ابطلها الاسلام والربا الذي كان

(١) سورة طه ١٣٢

يقوم عليه اقتصاد مكة وغيرها. ان المسلمين تخلصوا من هذه العادات وغيرها استجابة لله تعالى.. فلما نزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون)[١] حتى خرجت الانصار بدنان الخمر إلى الأزقة وأراقوها وقالوا: «انتهينا ربنا انتهينا ربنا» وشرب الخمر التي أقلعوا عنها كان عادة متأصلة في حياة الفرد والمجتمع والخمر التي أراقوها كانت مالا ضحوا به تسليما لله رب العالمين.

ولم يكن العربي ليخضع لدولة وانما كانت الوحدة السياسية والاجتماعية هي القبلية وكانت الدويلات التي نشأت في أنحاء من شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام بوقت طويل قد اندثرت وطغت البداوة والقبلية بما فيها من عصبية ونزاع وصراع وتفكك في سائر شبه الجزيرة، فلما جاء الاسلام أرسى مفهوم الدولة وربط سائر القبائل والافراد بها، فقامت دولة المدينة المنورة على أساس فكري

---

(١) سورة المائدة: ٩٠، ٩١

بحت وتوسعت لتوحيد شبه الجزيرة العربية لأول مرة في تاريخها تحت راية الاسلام فكانت هذه نقلة في تاريخ شبه الجزيرة العربية السياسي.

وهكذا فان الاسلام احدث تغييرا جذريا في حياة الفرد والمجتمع في المدينة المنورة لما تميز به من عمق وشمول وقدرة على التأثير حتى صبغ الحياة بكل جوانبها بصبغة (صبغة الله ومن احسن من الله صبغة).

صدق الله العظيم

معركة النبوّة مع الزعامة

للأستاذ محمّد عزّة دروزة
« فلسطين »


لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

البحث الأول

معركة النبوة مع الزعامة

- ١ -

في القرآن الكريم وبخاصة المكي منه آيات كثيرة في سور كثيرة فيها صور مما كان من مواقف ذوي الزعامة والثروة - وكانتا تجتمعان على الأغلب - في مكة من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، مترافقة بحملات عليها من جهة وبالتسلية والتطمين والتشجيع والتصبير والوعد بالنصر للنبي ودعوته من جهة أخرى بأساليب قوية بحيث يصح أن تسمى ملحمة أو معركة قرآنية عظمى.

ولقد كان في مكة ما يمكن أن يسمى بجمهورية زعماء الأسر العريقة حيث كان يتولى هؤلاء الزعماء شئون مكة العامة على اختلافها في نطاق ما يسمى بدار الندوة التي سماها القرآن الكريم (النادي) في آية سورة العلق في سياق ما كان من تصدي أحد هؤلاء الزعماء للنبي صلى الله عليه

وسلم حينما باشر دعوته وأخذ يصلي صلاته الجديدة (فليدع ناديه. سندعو الزبانية. كلا لا تطعه. واسجد واقترب)، وحيث كان لزعيم أسرة سقاية الحج ولآخر رفادة الحج ولآخر سدانة الكعبة ولآخر قيادة الجيش ولآخر السفارة ولآخر عقد اللواء ولآخر النسيء ولآخر الإفاضة.. إلخ.

وحيث كان الزعماء والأغنياء في مكة بصورة عامة يتمتعون بالنفوذ والسيادة.. يأمرون فيطاعون، ويدعون فيستجابون، ويسنّون فيتبعون. وتكون لهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والقضايا العامة الداخلية والخارجية والدينية والسياسية والاجتماعية.. فلما اقتضت حكمة الله اختيار محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة والرسالة والله أعلم حيث يجعل رسالته، وأخذ يدعو بدعوته ويبلغ عن ربه، ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب كثيرا كما لم يكن بارزا في مجال الزعامة والثروة - بغتوا وعظم عليهم أن يكون داعية يستجاب له ومرشدا يهتدي به الناس ولواء ينضوون اليه دونهم. ولا سيما أنهم كانوا هم من المدعوين الذين يطلب منهم الاستجابة الى دعوته والانضواء الى لوائه كسائر الناس رأوا في ذلك تهديدا لمركزهم وخطرا يمكن ان يعصف بما

كانت مكة تعيشه وتتمتع به من أمن وسلام واحترام عربي عام. ولا سيما أنهم رأوه يسوي بين متبعيه بدون تمييز بين غني وفقير ووضيع ورفيع وقوي وضعيف وحر وعبد وامرأة ورجل. ويدعو الى عتق الرقاب وهي من مقومات حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، والى منح الاموال للفقراء والمساكين، ويحمل على آلهتهم التي يستشفعون ويقربون القرابين ويقومون بطقوسهم عندها. ويشجب العصبية القبلية وهي التي تقوم عليها صلاتهم وحياتهم وأمنهم. ويشجب كذلك التفاخر بالأحساب والأنساب والأموال والأولاد. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحض على مكارم الأخلاق. ويدعو الناس الى ذلك، ويدعو الى وحدة انسانية، وينذر بيوم أخروي رهيب للكافرين الظالمين والطغاة والمترفين والمنحرفين عن الحق والصدق والمانعين عن الناس الخير والماعون.. ويبشر المؤمنين المتقين المنفقين الملتزمين للحق والعدل والصدق القائمين بواجباتهم نحو الله والناس المانحين الخير والماعون للناس بمصير أخروي سعيد، فوقفوا منه موقف المناوئ المحرض المؤذي فكانت تلك المعركة التي تعددت وتنوعت فصولها وصورها في القرآن الكريم.

- ٢ -

ولقد بدأت المعركة منذ الخطوة النبوية الأولى.. واستمرت قوية حامية طيلة العهد المكي النبوي الذي امتد نحو ثلاث عشرة سنة، ثم طيلة ثماني سنوات أخرى بعد الهجرة النبوية الى يثرب (المدينة المنورة) ولم تضع أوزارها نهائيا الا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة. وكان لذلك الأثر الأكبر في بقاء الاسلام ضيقا في نطاقه وعدده وقوته، وعانى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مما لاقوه من شدة الأذى والحرمان والمناوأة والعدوان ما عبرت عنه آية سورة الأنفال في معرض تذكير المسلمين الأولين: (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس... ٢٦).

- ٣ -

ولقد كان جمهور اهل مكة الأعظم متأثرين بزعمائهم في كل أمر وشأن، لأنهم أصحاب المال والقوة واليد والنفوذ ولهم المنح والمنع والبسط والقبض فتبعوهم في الامتناع عن الاستجابة والاستماع لدعوة الحق والخير والايمان الا أفرادا لم يتجاوز عددهم المئات القليلة. مما عبرت عنه آيات سورة سبأ بالاضافة الى ما فيها من مشهد أخروي فيها تنديد بهذا

الجمهور وانذار له (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون ٣٠ - ٣٣) ويلفت النظر الى جملة (بل مكر الليل والنهار) حيث تفيد ما كان الزعماء يبذلونه من جهد متواصل في الصد والتأليب. لقد جاء بعد هذه الآيات هذه الآية لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم ولبيان كون موقفهم تجاهه هو موقف أمثالهم من قبله (وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون). ثم جاءت هذه الآيات (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء

الضعـف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون. والـذين يسعون في آياتنـا معاجزين أولئك في العذاب محضرون..) وفي الآيات دليل على أن القائلين هم الأغنياء الأقوياء المعتزون بأموالهم وقوتهم. وقد ظنوا أن ما أوتوا من مال وأولاد هو حظوة من الله فردت الآيات عليهم، فضيق الرزق وسعته مظهر لناموس اجتماعي، وكثرة الأموال والأولاد لا تقرب الى الله وإنما الذي يقرب اليه هو الإيمان والعمل الصالح.. وفي سورة الأحزاب آيات من باب الآيات الأولى من آيات سبأ وهي (ويوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله واطعنا الرسولا. وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا.. ٦٧ - ٦٨).

وهذا يستتبع القول أن الجمهور الأعظم لم يكن طرفا في المعركة. وان المعركة كانت وظلت قائمة بين الطبقة المستكبرة المتزعمة الغنية وبين النبي صلى الله عليه وسلم من أولها الى آخرها. وحينما غلبت وسقطت اندفع الجمهور في الاستجابة والدخول في دين الله أفواجا. وهو ما عبرت عنه سورة النصر (اذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره

انه كان توابا). ولقد كانت مكة اماما وقدوة لسائر العرب في مختلف أنحاء الجزيرة يتأثرون بها في مواقفهم، فلما تم فتحها تم الفتح والنصر وسيادة الاسلام.

ومن الجدير بالذكر أن موقف الزعماء المناوئ ليس ناشئا عن غباء وغفلة حيث كان أهل بيئة النبي وبخاصة الزعماء والنبهاء منهم على حظ غير يسير من التفتح والحضارة لاتصالهم بالبلاد المجاورة لهم[1]. ولقد حكى القرآن أنهم سخروا وعجبوا مما كان عليه الكتابيون من نزاع وخلاف وأنهم اقسموا لو جاءهم نذير عربي وكتاب عربي من عند الله ليكونن أهدى منهم. ويمثل ذلك آيات سورة الأنعام (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون. أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا انزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم... ١٥٤ - ١٥٦) وآيات سورة فاطر هذه (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا

---

(١) انظر تفصيلا وافيا لذلك في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة في الجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي.

يحيق المكر السيء الا بأهله... ٤٢ - ٤٣). وكانوا على ما قرره القرآن مؤمنين بالله خالقهم وخالق السموات والأرض ومدبر الكون ورازق الناس والمؤثر في كل شيء. وقصارى أمرهم أو أمر أكثرهم أنهم كانوا يشركون مع الله في الاتجاه والعبادة الملائكة كشفعاء، ويتوسلون بهم لديه لدفع الضرر وجلب النفع، ويتخذون رموزا مادية يقيمون عندها طقوسهم.. ولعل من أقوى البراهين على ذلك ما ظهر من عشرات منهم آمنوا مبكرين أو متأخرين من عبقرية في العقل والحكم والفهم والسياسة والحرب والقيادة والادارة والقضاء مما امتلأت بأسمائهم كتب التراجم. وهذا فضلا عن أن الزعماء المناوئين لو لم يكونوا ذوي شأن وكلمة لم يكونوا على درجة كبيرة من النضج وقوة العقل والشخصية. وقد يكون مِمَّا منعهم من الاهتداء وجعلهم يناوئون النبي ودعوته استكبارهم عن متابعة شاب غير زعيم وغير غني. وهذا المعنى ملموح في آية سورة فاطر. وفي سورة الزخرف آية تفيد ذلك وهي (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ٣١) وشيء من هذا في آية سورة ص هذه (أؤنزل عليه الذكر من بيننا.. ٤٠) حيث كانوا يرون أن دعوة الناس وقيادتهم لا يصح أن تكونا الا للزعماء العظماء

الذين يدعون فيجابون ويأمرون فيطاعون. ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم منهم. ولعل منهم من سمع القرآن ينعى على أهل الأموال أموالهم وعلى المسرفين اسرافهم وعلى البخلاء بخلهم ويدعو الى البر بالفقراء والمساكين فخاف على ثروته. ومنهم من رأى النبي بوحي الله والقرآن يسوي بين الزعماء والصعاليك والأحرار والعبيد والأغنياء والفقراء فاستعظم واشمأز.. ومنهم من رأى الضعفاء والفقراء والارقاء والشباب يسارعون الى الانضواء الى الدعوة ويلتفون حول النبي فتحسبوا مما ينجم عن ذلك من عواقب وخيمة لهم. ومنهم من كان يحتل مركزا عاليا في قومه فاستكبر عن أن يغدو تابعا بعد أن كان متبوعا. ومنهم من خشي أن تفقد مكة ما كان لها من امتيازات متنوعة بسبب حرمها وأمنها ومواسم الحج مما يعود على أهلها منها المنافع العظمى فظن أن الدعوة سوف تنسف كل ذلك. وقد عبروا عن ذلك بما حكته آية القصص هذه عنهم (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا.. ٥٧) ومنهم من كان متأثرا بعصبية التقاليد الشديدة الرسوخ من دينية وغير دينية التي تعمى بها الأبصار والبصائر ويتعطل أمامها المنطق أحيانا كثيرة.

ولقد لعبت المنافسات الأسروية أيضا دورا في هذا الميدان. فبنو هاشم أسرة النبي صلى الله عليه وسلم وقفوا الى جانبه وتفاخروا به وحموه. وبنو مخزوم وبنو أمية من أعز أسر قريش وأقواها وأغناها كانوا على رأس المناوئين حتى لا تنجح الدعوة ويفخر عليهم ويعلو عليهم بنو هاشم ويبزوهم. ومما روي في هذا الصدد أن عمرو بن المغيرة ابن هشام المخزومي الذي كان يسمى في الجاهلية بأبي الحكم وسمي في الاسلام بأبي جهل تحاور مع صاحب له فقال له هذا: ألا ترى أن ما جاء به محمد هو الحق. فقال له اسمع. اننا تنازعنا نحن وبنو مناف الشرف. اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا. واعطوا فاعطينا. حتى اذا تجاثينا على الركب وكنا فرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا؟. فوالله لن نؤمن به ولن نصدقه (انظر تفسير آيات سورة الأنعام في ابن كثير) وكان أبو جهل أول من تصدى للنبي ونهاه عن الصلاة الجديدة والدعوة وهو الذي عنته آيات سورة العلق (كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى. ان إلى ربك الرجعي. أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى. كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية. ناصية

كاذبة خاطئة. فليدع ناديه. سندعو الزبانية. كلا لا تطعه واسجد واقترب). ولقد كان أبو سفيان حرب بن أمية أقوى زعماء قريش البارزين. وكان له قيادة الجيش. وبنو هاشم وبنو أمية من أب واحد هو عبد مناف. فخشي بنو أمية أن يبزهم بنو هاشم ويزاحموهم على مراكزهم القوي ويفخروا عليهم فجعل ذلك أبا سفيان من رؤساء المناوئين للنبي صلى الله عليه وسلم الصادين عن دعوته. وكان هو الذي يقود الجيش لمحاربته ومحاربة المسلمين بعد الهجرة الى المدينة. ولقد كانت أخته أم جميل زوجة أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان اسمه عبد العزى وسماه القرآن أبا لهب فكانت اعتبارات أسرتها أقوى فيها من اعتبارات أسرة زوجها، فساقها ذلك الى الالحاح على زوجها حتى جعلته يتابعها دون بقية الأسرة الهاشمية وخلافا لتقاليد العصبية الشديدة السائدة، فكان الزوجان هما الوحيدين اللذين هجاهما القرآن بصراحة واندرهما (تبت يدا أبي لهب وتب. ما غنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نار ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد). ولقد كان أحد أبناء أبي لهب أو ابناه خطيبين أو زوجين لبنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على اختلاف الروايات قبل البعثة، فلما

زالت أم جميل تلح عليهما حتى طلقاهما. وكان بيتها مجاورا لبيت النبي صلى الله عليه وسلم فكانت أم جميل تضع الأقذار والأوساخ أمام بيته زيادة في النكاية والأذى فاستحقت ما استحقته في السورة.

- ٧ -

ولقد كان وقوف الزعماء الأغنياء من أنبيائهم موقف المناوأة والصد من سنن الاجتماع فأخبر الله تعالى نبيه والمسلمين بذلك في آيات عديدة في معرض التسلية والتصبير والانذار ومن ذلك الآيات:

(١) (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا. ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) - الأنعام ١٩٢.

(٢) (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون. واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون). الأنعام ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا انا بالذي آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين). الأعراف ٧٥ - ٧٨.

(٤) (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين) (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم اذا لخاسرون. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) الأعراف ٨٨ و ٩٠.

- ٨ -

وصور هذه المعركة وآثارها ملموحة في معظم سور القرآن المكي القصيرة والمتوسطة والطويلة. في كل أو جل ما احتوته من واضيع متنوعة متكررة الصيغ والأساليب من قصص ومشاهد خلق وكون سماوية وأرضية ومشاهد أخروية وأخبار غيبية عن الملائكة والجن والشياطين

وابليس ومن انذار وتبشير وترهيب وترغب.. الخ.
وهذه هي مواضيع السور المكية بالاضافة الى الدعوة الى الله وحده وعبادته ومحاسن الأخلاق والأعمال. لأن كل هذه المواقف تورد وتشاهد في مجال الصد والمناوأة والتحدي التي كان يقفها الزعماء الأغنياء. ويستطيع كل قارئ أن يلمح ذلك بكل قوة ويسر حينما يتروى في سياق السور المكية. وهكذا يمكن القول إن معظم القرآن المكي دار حول هذه المعركة ونزل بسبب منها أو كان مظهرا من مظاهرها. وفي هذا ما فيه من الدلالة على قوة هذه المعركة وخطورتها.

وفي سياق هذه المواقف كلها آيات واضحة الدلالة على أنها كانت تساق للزعماء والأغنياء والنبهاء أو توحى بسبب مواقفهم المتنوعة كأنهم هم الطرف الرئيسي أو الوحيد في المعركة دون العامة أو الجمهور. ومن ذلك آية سورة سبأ هذه (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين ٤٣). وواضح ان الخطاب هو من الزعماء للعامة لصدهم ومن ذلك آية سورة القلم هذه (ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد

ذلك زنيم. ان كان ذا مال وبنين. اذا تتلى عليه آياتنا قال
أساطير الأولين. ١٠ - ١٥) والمقصود بالكلام زعيم قوي
غني كما هو واضح.. من ذلك آية في سورة الأنفال تحكي
موقفا في العهد المكي وهي (واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد
سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين
٣١) وهذا القول يعزى الى واحد من الزعماء والنبهاء. ومن
ذلك آية سورة الحج هذه (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات
تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين
يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلك النار وعدها
الله الذين كفروا وبئس المصير ٧٢) وهذا الموقف لا يقفه الا
زعيم قوي معتد بقوته وسلطانه. وفي سور أخرى أمثلة كثيرة
من هذا الباب، ومنها ما يذكر أن بعضهم كان يستهين بالنبي
صلى الله عليه وسلم ويستهزئ به كما جاء في آية سورة
الأنبياء هذه (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا
هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون
٣٦). وآيات سورة الفرقان هذه (واذا رأوك ان يتخذونك
الا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا. ان كاد ليضلنا عن
آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون

العذاب من أضل سبيلا ٤١ و ٤٥) وهذا الموقف والقول لا يقوله الا الزعماء للجمهور بسبيل الصد عن الاستجابة للدعوة. وقد أخبر الله تعالى نبيه أن هذا كان شأن من قبلهم فحاق بهم شر استهزائهم على سبيل التسلية والتطمين والتصبير (ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب.. الرعد ٣٢). ومن ذلك آيات سورة الروم هذه (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. ٩ و ١٠).

وواضح أن الخطاب موجه الى الأقوياء والزعماء باعتبارهم طرف المعركة.. ومن هذا الباب آيات أخرى مثل آيات سورة غافر (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق. ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا

فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب. ٢١ و ٢٢) وقد تكرر مثل هاتين الآيتين في آخر السورة أيضا.

- ١٠ -

ولقد قلنا أن هذه المعركة نشبت منذ الخطوة النبوية الأولى بسبيل تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم رسالة ربه والعمل بها. ويمثل ذلك آيات سورة العلق التي أوردناها سابقا، وقد وضعت بعد الآيات الخمس الأولى التي كانت أول ما نزل من القرآن على ما جاء في حديث صحيح. والحديث يذكر الآيات الخمس فقط (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم) والمتبادر أن الآيات وضعت بعدها مع أنها نزلت بعد مدة مما نزل فيها سورة وآيات فيها تقرير لمبادئ الرسالة مثل (الأعلى، والليل، والفاتحة، والعصر) لأنها تمثل تلك الخطوة الأولى. ولقد باشر النبي صلى الله عليه وسلم مهمته حالما نزلت عليه آيات العلق الأولى والسور الأخرى التي فيها مبادئ الرسالة فصار يدعو بعض معارفه وأصدقائه ويتلو ما نزل عليه من القرآن ويصلي الصلاة التي علمه اياها جبريل بعد تبليغه النبوة على ما ذكرته أحاديث أخرى فتصدى له الزعيم الغني الطاغية

التي ذكرت الروايات أنه أبو جهل فانتهره ونهاه عن صلاته وطلب منه الكف عن دعوته. فأنزل الله تعالى الآيات لتحكي هذا الموقف وترد عليه بانذار قارع صاعق وتأمر النبي بالاستمرار في صلاته ودعوته. ويمثل ذلك أيضا آيات سورة القلم التي أوردناها سابقا والتي سبقتها هذه الآيات (فستبصر ويبصرون. بأيكم المفتون. ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. فلا تطع المكذبين، ودوا لو تدهن فيدهنون) وسورة القلم في ترتيب نزول السور ثانية سورة والراجح أن آياتها الأربع الأولى نزلت لحدتها كما كان شأن الآيات الخمس الأولى من سورة العلق. والآيات التي بعدها نزلت بعد مدة ما والحقت بها لأنها قريبة عهد بها. وهي تحكي موقف زعماء مكذبين حاولوا حمل النبي على المسايرة والملاينة. ثم موقف زعيم غني ذي مال وبنين وأقواله. والمتبادر أن الزعماء ساوموا النبي صلى الله عليه وسلم على مبادئ أساسية من مبادئ الرسالة وعلم الله أنهم كاذبون سيئو الأخلاق خبثاء الطوية فأمر رسوله بعدم تصديقهم وطاعتهم وأنذر زعيمهم الغني ذي المال بالعقاب الشديد (سنسمه على الخرطوم). ويمثل ذلك آيات سورة

المدثر هذه (ذرني ومن خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدودا. وبنين شهودا. ومهدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيد كلا انه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا. انه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال ان هذا الا سحر يؤثر. ان هذا الا قول البشر. سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر) ١١ - ٢٩. وسورة المدثر هي رابعة سورة في ترتيب النزول والراجح ان هذه الآيات نزلت بعد مدة قصيرة من آياتها الأولى ولحدتها كما هو الشأن في آيات سورة القلم والعلق التي جاءت بعد آياتها الأولى وهي تحكي موقف زعيم بارز قوي ذي مال وبنين وتنذره انذارا قارعا.

ثم استمرت المعركة حامية قوية تتمثل صورها في مختلف السور ومختلف مراحل العهد المكي مما هو ملموح مبثوث في السور لا يحتاج الى تمثيل آخر في المقال.

- ١١ -

ولقد اشتد الأذى على المؤمنين والنبي صلى الله عليه وسلم في بدء الأمر وصار من المتعذر عليهم الصلاة جهرا. فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة المزمل (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا. وذرني والمكذبين أولي

النعمة ومهلهم قليلا . ان لدينا انكالا وجحيا . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ١١ - ١٣) وسورة المزمل هي ثالثة سورة في ترتيب النزول . وجملة (أولي النعمة) تعني كما هو واضح الطبقة الغنية المتزعمة . ولقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بدء نبوته يجتمع بالمؤمنين الأولين ويصلي بهم سرا ويعلمهم الكتاب والحكمة في دار (الأرقم) في فترة من فترات نبوته الأولى . والمتبادر ان ذلك كان نتيجة لهذه المواقف التي حكتها الآيات في سور العلق والقلم والمدثر وللامر الذي جاء في آيات المزمل بالهجر هجرا جميلا . وفي هـذا صورة من صور المعركة مع التنبيه الى ما في جملة (الهجر الجميل) من تحديد . فليس فيها قطع للحبل مع الناس ولا أمر بالكف عن دعوتهم . ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن النبي صلى الله عليه وسلم استمر في الدعوة وتبليغ ما انزل عليه الله تعالى من القرآن الذي كان يتوالى نزوله . ويؤمر فيه بالاستمرار في الدعوة والتذكير والتبليغ .

- ١٢ -

ولقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن موقف الزعماء هو المؤثر في الجمهور وأن نطاق دعوته سوف يبقى ضيقا وأنها سوف تتعثر وأن الأذى سوف يشتد على المؤمنين ما دام

الزعماء في هذا الموقف. وكان بعضهم معتدلا أو أقل اندفاعا في المناوأة والكيد والصد من بعض فأداه اجتهاده الى بذل الجهد في تألفهم واقامة الصلات معهم بل ومسايرتهم شيئا ما ولو كان في ذلك بعض الغض أو الاهمال لأصحابه على أمل كسبهم للدعوة وكسر الطوق المضروب حولها. وكان هذا الاجتهاد خلاف الأولى في علم الله عز وجل، فاقتضت حكمة الله تنبيهه الى ذلك والى أن مهمته هي الإنذار والتبشير والدعوة والاهتمام بالذين آمنوا به وانضووا اليه. وعدم المبالاة بالزعماء الذين امتنعوا عن الاستجابة أو وقفوا موقف الصد والأذى بسبب استكبارهم وخبث نياتهم وسوء أخلاقهم واعتباراتهم الشخصية والأسرية. وان كل ما عليه هو أن يتلو القرآن ويدعو الى الله ومكارم الاخلاق. فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وانه ليس هو وكيلا عنهم ولا مسئولا ولا جبارا ولا مسيطرا وانما هو منذر. على ما جاء في آيات عديدة في سور عديدة منها هذه الآيات كمثال:

١ - (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ). الأنعام ١٠٤.

٢ - (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل. واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين). يونس ١٠٧ و ١٠٨.

٣ - (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين). النمل ٩٢ و ٩٣.

٤ - (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد). ق ٤٥.

٥ - (فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر. إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر. إن الينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم). الغاشية ٢١ - ٢٦.

- ١٣ -

ويمثل ما كان من اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في صدد تألف الزعماء وتنبيهات الله عز وجل الى ما هو الأولى في علمه آيات سورة عبس هذه (عبس وتولى أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى.

أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى. فأنت عنه تلهى. كلا إنها تذكرة. فمن شاء ذكره..) ١ - ١٢ وصورة الموقف واضحة في الآيات لا تحتاج الى شرح. ويمثله كذلك آيات سورة الأنعام هذه. (وانذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون. ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين. وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين.. الأنعام ٥١ - ٥٣)

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بعض الزعماء المعتدلين الى الجلوس إليه والاستماع لما يتلوه فيقولون له: صد عنك هؤلاء الفقراء والأرقاء حتى نجلس إليك. ويستهزئون بهم قائلين أهؤلاء منّ الله عليهم من دوننا فصاروا مهتدين معززين عند محمد ويطلب منا أن نتساوى بهم. وفحوى الآيات قد يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لشدة رغبته في كسبهم خطر له أن يوعز للفقراء من أصحابه أن ينسحبوا من مجلسه اذا جاء أحد من الزعماء

ليجلس إليه. فكان تنبيه الله عز وجل حاسما في الآيات. وشيء من هذا ملموح في الموقف الذي حكته الآيات في سورة عبس حيث تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم تصدى لزعيم وأخذ يحاوره ولما جاء الأعمى المسلم ليسأله ويتعلم منه عبس وولى وجهه وتلهى عنه وظل يتحاور مع الزعيم فعاتبته الآيات ونبهته. ويمثل هذا الموقف أيضا آيات سورة الكهف هذه (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا. وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. أنا اعتدنا للظالمين نارا احاط بهم سرادقها وأن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا.. ٢٨ - ٣١) وجملة (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) تعني: لا تهمل

المؤمنين لتهتم بالاغنياء الزعماء. ويمثل موقف النبي صلى الله عليه وسلم واجتهاده في تألفهم آيات في سورة الاسراء ذات خطورة هامة وهي (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا. اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا.. ٧٣ - ٧٥) وقد روي في صدد هذه الآيات أن بعض الزعماء طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم شفعاءهم بالخير حتى يتلاقوا معه في منتصف الطريق ويتم حل وسط بينه وبينهم. والآيات قد تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم خطر لباله أن يتساهل بعض التساهل معهم حرصا على هداهم فعصمه الله وثبته. وفحوى الآيات نفسها تدل بقوة وصراحة على أن ما خطر لباله كان شيئا غير أساسي. ولكن حكمة الله اقتضت أن هذا لا ينبغي أن يكون أيضا لأنه نتيجة مساومة بينه وبين الكفار في ميدان دعوته التي لا تتحمل أي مساومة ولا مسايرة ولا حلا وسطا.

وفي كل ما تقدم صور خطيرة من صور المعركة كما هو ظاهر.

ولقد كان من مظاهر ووسائل المعركة من ناحية الزعماء

تحدياتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في أمور عديدة. فقد تحدوه بالاتيان بالمعجزات المؤيدة لصلته بالله تعالى الذي كانوا يعتقدون بوجوده كما ذكرنا قبل. ولا سيما أنهم كانوا يعرفون أن الانبياء السابقين أتوا بالمعجزات المؤيدة لصلتهم بالله تعالى على ما تفيده بعض الآيات القرآنية مثل آية سورة الأنبياء هذه (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون. ٥) وآية سورة القصص هذه (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى.. ٤٨). ولقد كثر تحديهم هذا حتى زاد على الخمس عشرة مرة. ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون القرآن هو معجزة النبوة الخالدة لأن فيه الرحمة والهداية والشفاء والموعظة وكل ما فيه خير وضمان لسعادة الانسان في الدنيا والآخرة. ولأن رسالة القرآن دائمة لمختلف الأجيال الانسانية ما دامت الحياة في حين أن المعجزات زمنية محدودة الأثر والمعاينة واقتضت حكمة الله تعالى بناء على ذلك أن لا يستجاب تحديهم ولا سيما أنه يعلم بأنهم لن يؤمنوا مهما رأوا معجزات لأنهم فاسدو النيات والقلوب. وأن شانهم كشأن أمثالهم السابقين الذين أظهر الله على أيدي

أنبيائهم معجزات فكذبوا بها ولم يؤمنوا وأن الذين حسنت نياتهم وصدقت رغباتهم في الحق والايمان واستيقظ ضميرهم يستجيبون ويؤمنون بدون معجزة. ويمثل ما تقدم آيات كثيرة في مختلف سور القرآن نورد منها بعض الأمثلة للتوضيح وتمثل مختلف مراحل العهد المكي. لأن التحدي استمر يتكرر طيلة هذا العهد.

١ - (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون. وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) الأنعام ٣٦ و ٣٧

٢ - (واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) الأنعام ١٠٩ - ١١١.

٣ - (والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله

لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون. فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين). الأعراف ٧٢ - ٧٨.

٤ - فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين). الاعراف ١٣٣.

٥ - (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد..) الرعد ٧.

٦ - (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب. الذين

آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ٢٧ - ٢٨.

٧ - (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله. إن الله لا يخلف الميعاد) الرعد ٣١.

٨ - (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) الحجر ١٤ و١٥.

٩ - (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) الاسراء ٥٩.

١٠ -(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن

لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا).. الاسراء ٩٣.

١١ -(وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى).. طه ١٣٣.

١٢ -(وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين. أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون).. العنكبوت ٥٠ و ٥١.

ونستدرك أمرا وهو أن عدم اقتضاء حكمة الله عدم الاتيان بالآيات هو في معرض عدم الاستجابة لتحدي الكفار وحسب. وان في القرآن والحديث ما يفيد ان الله تعالى أظهر على يد رسوله آيات عديدة لتأييده ونصرته ونصرة المؤمنين وفي مواقف لا صلة لها بتحدي الكفار..

وقد تحدى الزعماء النبي صلى الله عليه وسلم بانزال ملك يؤيده حيث كانوا يعتقدون بوجود الملائكة وكونهم بنات الله ورسله الى أنبيائه والقائمين بخدمته. ويشركونهم معه في العبادة بقصد الاستشفاع بهم عند الله لقضاء مطالبهم. وهذه بعض الآيات التي تذكر عقائدهم فيهم:

١ - (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون. أم خلقنا

الملائكة إناثا وهم شاهدون. ألا انهم من افكهم ليقولون. ولد الله وإنهم لكاذبون. اصطفى البنات على البنين. مالك كيف تحكمون. أفلا تذكرون).. الصافات ١٤٧ - ١٥٣.

٢ - (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى)... الزمر ٤.

٣ - (وجعلوا له من عباده جزءا إن الانسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين. واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم. أو من ينشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سنكتب شهادتهم ويسألون. وقالوا لو شاء الله ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون..) الزخرف ١٥ - ٢٠.

وهذه بعض الآيات التي تحكي تحديهم بإنزال الملائكة:

١ - (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون). الأنعام.

٢ - (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين. ما ننزل

الملائكة الا بالحق وما كانوا اذاً منظرين) .. الحجر ٦ - ٨.

٣ - (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ..) الفرقان ٧.

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يستجاب تحديهم هذا أيضا وأن يرد عليهم بأن الله جرت عادته اذا انزل ملائكة أن ينزل بعدهم العذاب. وقد اقتضت حكته أن يؤخر العذاب الى يوم القضاء.

ونستدرك أمرا وهو أن اقتضاء حكمة الله عدم انزال الملائكة هو في معرض عدم الاستجابة للتحدي أيضا. وأن في القرآن والأحاديث ما يفيد أن الله تعالى أنزل ملائكته لتأييد رسوله والمؤمنين في مواقف أخرى.

- ١٦ -

وتحدى الزعماء النبي صلى الله عليه وسلم مرارا عديدة بالتعجيل بالعذاب الذي كان يتوعدهم به القرآن. ولقد اقتضت حكمة الله أن لا يستجاب تحديهم وأن يرد عليهم بأن لذلك موعدا في علمه سوف يحل ويكون فيه عذابهم الشديد على ما تفيده آيات عديدة منها هذه الآيات:

١ - (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى

ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا. وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما انذروا هزوا.) و (وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) الكهف ٥٥ و ٥٦و ٥٨،.

٢ - (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون).. الحج ٤٧.

٣ - (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون. يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) العنكبوت ٥٣ - ٥٥.

٤ - (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا).. فاطر ٤٥.

- ١٧ -

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

يودون لو يستجاب تحدي الكفار لما سمعوهم يقسمون بأنهم سيؤمنون اذا ما جاءتهم آية على ما جاء في آية سورة الأنعام ١٠٩ - ثم على ما تفيده جملة (وما يشعركم) الموجهة على الأرجح الى أصحاب رسول الله.. وعلى ما تفيده أيضا جملة (أفلم ييئس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) في آية سورة الرعد ٣١.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يشعر بالحرج أمام أصحابه الذين كانوا يودون أن يستجاب تحدي الزعماء وأمام الزعماء الذين كانوا يواصلون تحديهم حينما رأوا أنه لا يستجاب واتهام النبي بأنه يفتري القرآن وبأنه شاعر وساحر ومسحور وكاهن ومجنون وبه جنة وبالاقتباس من أساطير الأولين وبالاستعانة بالآخرين على ما حكته آيات عديدة هذا بعضها:

١ - (وقال الذين كفروا إنْ هذا الافك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلما وزورا. وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا..) الفرقان ٤ و ٥.

٢ - (وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغي لهم وما يستطيعون..) الشعراء ٢١٠ - ٢١١.

٣ - (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا

مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد. افترى على الله كذبا ام به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد).. سبأ ٧ و ٨.

٤ - (وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب). ص ٤.

٥ - (فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون).. الطور ٢٩ و ٣٠.

ولقد كاد هذا أن يجعل النبي يتحاشى من تلاوة القرآن أمامهم. ولكن الحكمة استمرت قائمة ازاء تحديهم وظلت توحي بالآيات التي فيها تنديد بهم وتسفيه لأقوالهم. وايذان بأنهم لن يؤمنوا مهما جاءتهم الآيات لأنهم فاسدو النيات ومصرون على الكفر استكبارا ومكرا، والتي فيها كذلك تطمين للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية وتصبير وايعاز بأنه غير مسئول عن هداهم وان كل ما عليه هو الانذار والتذكير وانه لا ينبغي عليه أن يهلك نفسه ويجعلها تذهب حسرات لعدم استجابتهم مما يمثله آيات كثيرة جدا مبثوثة في مختلف السور النازلة في مختلف حقب العهد المكي وهذا بعضها:

١ - (قد نعلم انه ليحزنك الذين يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين. وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين. انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون).. الأنعام ٣٣ - ٣٦.

٢ - (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون).. يونس ٣٣.

٣ - (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم).. يونس ٩٦ - ٩٧.

٤ - (فلعلك تارك بعض ما يوحي اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شيء وكيل).. هود ١٢.

٥ - (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا

الحديث أسفا) الكهف ٦.

٦ - (فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين). الذاريات ٥٤ و ٥٥.

٧ - (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ق ٤٠.

ويسلك في سلك هذه آيات الأنعام ١١ ويونس ١٠٧ و ١٠٨ والرعد ٣١ التي أوردناها قبل.

وواضح مما تقدم أن الموقف السلبي القرآني انما كان تجاه الاستجابة للتحدي. وأنه في صدد الدعوة من مختلف نواحيها ودواعيها من شرح للمباديء وبرهنة عليها وتنديد بالمواقف المنحرفة وحجاج وجدل وكان ايجابيا كل الايجابية مما تفيده الآيات التي أوردناها وكثير غيرها مبثوثة في مختلف السور. ويستتبع هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمر يقوم بمهمته بكل نشاط وجهد. رغم ما ذكرته الآيات من شعوره بالحرج والضيق ازاء الزعماء.

- ١٨ -

ولقد شاءت حكمة التنزيل لما قال الزعماء والنبهاء (لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا الا أساطير الأولين).. ولما وصفوا النبي صلى الله عليه وسلم بالمفتري والساحر

والكذاب والشاعر والكاهن والاستعانة بالغير واقتباس أساطير الأولين على ما حكته الآيات التي أوردناها وغيرها ان تتحداهم ما دام الأمر بهذه السهولة والبساطة وطلبت منهم أن يأتوا بسور أو سورة أو حديث من مثله أو بكتاب أهدى منه وأن يستعينوا بكل معين وشهيد فعجزوا عجزا مطلقا سجله القرآن الكريم عليهم بحسم بليغ قاطع. وهذه آيات تمثل كل ذلك مرتبة السور حسب ترتيب المصحف الشريف.

١ - (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) البقرة ١٢ - ١٤.

٢ - (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين. بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله).. يونس ٣٨ و ٣٩.

٣ - (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله. ان كنتم صادقين. فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وأن

لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) هود ١٤ .

٤ - (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ..) الاسراء ٨٨ .

٥ - (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين.. فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . ان الله لا يهدي القوم الظالمين) القصص ٤٩ و ٥٠ .

٦ - (ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) الطور ٣٣ و ٣٤ . وفي هذا صورة من صور المعركة كما هو ظاهر .

- ١٩ -

ولقد انبرى الزعماء من أول خطواتهم لأذى من تطاله أيديهم من المؤمنين لاجبارهم على الارتداد عن الاسلام . فكانت محنة أذى وفتنة استمرت وتنوعت صورها طيلة العهد المكي بل وبعده . وهذا من وسائل معركتهم لأنهم أرادوا بذلك تخويف الناس وارهابهم حتى لا يستجيبوا للدعوة . ولقد آمن عدد غير يسير من شباب الأسر القرشية

فرأى آباؤهم وأعمامهم وأولياؤهم من زعماء أسرهم أن في ذلك عارا عليهم فجنحوا الى مضايقتهم وأذيتهم وحرمانهم. ومنهم من حبسوا وقيدت أيديهم بالأغلال ولقد آمن بعض أرقاء الزعماء فعظم عليهم ذلك فعمدوا الى تعذيبهم أشد العذاب بالالقاء بعد التعرية على الرمال والصخور المتوهجة من حرارة الشمس وجلدهم بالسياط أشد جلد. ومنع الماء والطعام ومنهم من زهقت نفسه نتيجة لذلك ومنهم من اضطر الى الارتداد عن الاسلام وكان منهم نساء ومنهم رجال مما أشارت اليه آية سورة البروج هذه (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق).. ولقد كان في مكة أفراد من أهل الكتاب وكان فيهم أهل علم. فآمنوا بالرسالة المحمدية وأعلنوا تصديقهم للقرآن وكونه منزلا من الله تعالى وأعلنوا فرحهم به فأغاظ ذلك الزعماء لأن فيه تأييدا للنبي من جماعة عندهم كتب سماوية ومؤمنون بالله ورسله. ولا سيما أن الله تعالى أمر في القرآن رسوله صلى الله عليه وسلم بتحديهم بهم وبما كان منهم من تصديق للقرآن وفرح به وخشوع له على ما جاء في آيات منها هذه الآيات:

١ - (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) الأنعام ١١٤.

٢ - (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك).. الرعد ٣٦.

٣ - (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا).. الاسراء ١٠٧ - ١٠٩.

٤ - (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين).. القصص ٥٢ - ٥٥.

والآية الأخيرة من آيات القصص تتضمن إشارة الى موقف التهجم والتجهم والسخط الذي وقفه الزعماء

من المؤمنين من أهل الكتاب.

ولما اشتد الاذى على المؤمنين أذن الله تعالى لرسوله بأن يوعز لمن كان متعرضا للأذى ولا يجد حماية بالهجرة الى الحبشة وهو ما اشارت اليه آيات سورة النحل هذه (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون).. ٤١ و ٤٢.

ومعظم المهاجرين من الأسر القرشية وهم مزيج من رجال ونساء. وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه معهم كرئيس لهم ونائب له فيهم ومتكلم عنهم[١]. واختار الله ورسوله الحبشة لأن ملكها ومعظم سكانها نصارى أهل كتاب. وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو خرجتم اليها فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه).

ولقد عظم على الزعماء فرار أبنائهم وأقاربهم بعد أن

---

(١) رجحنا هذا في تمحيص كتبناه في كتابنا الجزء السادس من تاريخ الجنس العربي (العروبة تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم) لأن جعفر رضي الله عنه كان يلقى الحماية من أبيه وبني هاشم كما كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم.

كان عظم عليهم اسلامهم وحاولوا مضايقتهم واجبارهم على الارتداد فأرسلوا خلفهم أناسا فلم يدركوهم. ثم أرسلوا وفـــدا برآسة عمرو بن العاص الى ملك الحبشة ليقنعه بخطرهم ويغريــه بطردهم وإعادتهم اليــه وحملوه هدايـا للملـك وحاشيته. حيث توجسوا على ما يبدو من نتائج هذه الرحلة وقيام صلات عبرها بين النبي والمسلمين وملك الحبشة النصراني ولا سيما أنهم رأوا الكتابيين عندهم قد آمنوا بالرسالة وصدقوا القرآن. وقد رفض الملك طلب الوفد. ولكن الوفد لم ييئس وقال له اسألهم رأيهم في المسيح فهم على غير رأيكم فيه فعقد الملك مجلسا ودعا بعض المهاجرين وتكلم جعفر بن أبي طالب عمـا كانوا عليه في الجاهلية من تقاليد ووثنية وشرك وعما جاء به الاسلام من مباديء إيمانية وانسانية واجتماعية تضمن سعادة الدنيا والآخرة وتخرج الناس من الظلمات الى النور. ثم قرأ آيات سورة مريم الأولى. فلما سمعها الملك وأساقفته بكوا حتى اخضلت لحاهم وقال الملك ان هذا والذي جاء به عيسى يخرجان من مشكاة واحدة. وقال للوفد انطلق فلا أسلمهم لكم وقال للمسلمين اطمئنوا فلا تكادون لديَّ وقد روي أنه اعتنق الاسلام..

وفي سورة الإسراء آية قد تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد فكر بدوره بعد هجرة فريق كبير من أصحابه وفي ظروف اشتداد المحنة والأذى أن يهاجر هو الآخر وهي (وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا.. ٧٦).

وهناك حديث طويل رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها جاء فيه فيما جاء أن أبا بكر رضي الله عنه خرج من مكة مهاجرا نحو البحر. فالتقى بزعيم اسمه ابن الدغنة فسأله وجهته قال أريد أن أذهب الى بلد أعبد ربي فيه. فقال له إن مثلك لا يخرج. فارجع في جواري واعبد ربك كما تشاء. ثم اصطحبه وعاد به الى مكة وقال لزعمائها إن مثل أبي بكر لا يخرج وأنه في جواري ليعبد ربه كما يشاء. فاحترموا جواره بشرط أن تكون عبادته في بيته. وأبو بكر هو الصديق الصدوق للنبي ورفيقه في الهجرة الى المدينة. فمن المحتمل القوي على ضوء آية الاسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم اتفق معه على الخروج واللحاق بالحبشة فخرج هو أولا ثم ثبت الله رسوله فلم ير أبو بكر بدا من العودة. وهذه صورة هامة من صور المعركة. وآية الاسراء موضوعة

في المصحف بعد الآيات التي عاتب الله تعالى رسوله فيها لأن الزعماء كادوا يفتنونه عن الذي أوحاه الله اليه ليفتري على الله وأنه كاد يركن اليهم شيئا قليلا لولا أن ثبته الله والتي أوردناها سابقا وشرحنا مداها. فمن المحتمل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قطع ما كان من اتصال بينه وبين الزعماء الذين كان يتجاور معهم نتيجة لتنبيه الله وعتابه فتجهَّم الموقف وتوتر بينه وبينهم وكانوا على الأرجح من المعتدلين نوعا ما فكان ذلك ما جعله يفكر في الهجرة على النحو الذي ذكرناه استلهاما من الآية والله تعالى أعلم.

- ٢٢ -

وفي سورة النحل آيات فيها صورة هامة من صورها أيضا وهي هذه (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين. ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذين

يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين. إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب اليم- إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون. من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وان الله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون. لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون. ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) .. ٩٧ - ١١٠.

وروح الآيات ومضمونها في الجملة يلهمان انها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن. ويلهمان انه أوحي للنبي صلى الله عليه وسلم ببعض آيات لتكون مكان بعض آيات أخرى. فلما تلا الجديدة وأهمل الأولى استغل زعماء الكفار ذلك فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحيا إلهيّاً وينسبون اليه الافتراء والتعلم من الشخص الأجنبي المعين ولعلهم قالوا أيضا ان الشيطان يوسوس ويلقي عليه لا ملك من الله. وان التبديل دليل على ذلك.

فالشيطان محل خطأ والملك لا يصح أن يخطئ . واستغلوا الحادث في الصد والتأثير في بعض المسلمين وتوسلوا بالاغراء الى جانب الاستغلال والتشويش. وكان نتيجة ذلك أن ارتد بعضهم استجابة لهذه الدعاية واستحباباً بالمنافع الدنيا معا. فنزلت الآيات تثبت النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين. وتهاجم الصادين والمرتدين. وتحمل عليهم الحملة الشديدة التي تمثلها الآيات. فليس للشيطان سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله وإنما سلطانه على الذين يشركون، وهم المشركون. وأن الله هو الأعلم بمقتضيات حكمة التنزيل. وكل تبديل وتنزيل انما هو من وحي الله وتنزيل ملك الله الأكبر روح القدس. وليس للنبي إلا اتباع ما يوحي به اليه. وأن الذين لا يؤمنون بآيات الله كما تتنزل وفق حكمة تنزيله هم الكاذبون المفترون. وهذا مما تنزه عنه النبي. والرجل الذي ينسبون اليه تعليم النبي هو أعجمي اللسان في حين أن القرآن عربي مبين فحجتهم ساقطة،ومما تلهمه أو تفيده الآيات أن من الذين ارتدوا أي كفروا بالله بعد إيمانهم فريق مكره نتيجة تهديد أو ضغط أو إرهاب وظل قلبه مطمئنا بالايمان. كما أن منهم من ندم واغتنم فرصة سانحة فهاجر وعاد الى ايمانه بالله وتحمل وصبر وجاهد.

ومن صور المعركة الشديدة المقاطعة التي أعلنها زعماء مكة على بني هاشم أسرة النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه المقاطعة لم ترد اليها إشارة في القرآن ولكنها ذكرت في روايات وكتب السيرة القديمة المعتبرة. فقد كان بنو هاشم يحمون رسول الله بزعامة عمه أبي طالب فطلب الزعماء من هذا العم حمل ابن أخيه على الكف عن شتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم. وأظهروا استعدادهم لاغداق ما يشتهيه من نعم عليه ودعا العم رسول الله الى مجلس هم فيه وسمعوا منه وسمع منهم ثم قال قوله العظيم المأثور: (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تركت الدعوة الى الله، فما كان من العم إلا أن قال له استمر في ما تريد والله لن أسلمك. وحينئذ اتفق معظم الزعماء على مقاطعة بني هاشم وكتبوا وثيقة عهد عرفت بالصحيفة تعهدوا فيها بأن لا يزوجوا بني هاشم وبني المطلب ولا يتزوجوا منهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا للأمر على أنفسهم. وكان ذلك من أشد الضربات التي وجهها الزعماء للنبي صلى الله عليه وسلم. وقد انحاز بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب فدخلوا في شعبه وتضامنوا

معه وشذ عنهم أبو لهب. وقد استمرت المقاطعة سنتين في رواية وثلاثا في رواية حتى جهدوا ولم يصل الى أحد شيء إلا سرا ممن أراد صلتهم ممن كان لهم رحم معهم.. وكان أبو جهل أشد الزعماء مراقبة لتنفيذ العهد. حتى لقد تشاجر مع غير واحد ممن كان يشعر بالألم والعطف ويحاول أن يواصل ويمد بني هاشم بشيء من المئونة. ثم تحرك ضمير بعض الزعماء المعتدلين ممن كانت لهم صلة قربى مع بني هاشم واتفقوا على السعي في نقض الوثيقة وانضم اليهم آخرون وغدوا الى فناء المسجد فقال أحدهم وهو زهير بن أبي أمية: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل كذبت والله لا تشق، فصاح واحد أنت - والله - الكذاب وهتف آخرون صدقت فانخذل أبو جهل وقاموا الى جوف الكعبة فأخرجوا الصحيفة فاذا الأرضة قد أكلتها عدا جملة (باسمك اللهم) على ما رواه الطبري الذي روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتوقف عن الدعوة الى سبيل الله ليلا ولا نهارا أثناء القطيعة.

وبعد قليل مات أبو طالب عمه وحاميه. وتوفيت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها أقوى العاطفين عليه المثبتين له فكان وقع ذلك عليه شديدا. ورأى الزعماء الفرصة سانحة للجرأة على شخص النبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا يغرون بعض السفهاء حتى نثروا عليه التراب في يوم من الأيام وعاد رسول الله الى بيته فأخذت إحدى بناته تغسل عنه التراب وتبكي فقال لها لا تبك يا بنية. إن الله مانع أباك. ثم قال (ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب) على ما رواه ابن هشام. وقد روي بعد هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج الى الطائف رجاء هداية الله ثقيفا فيها وحصوله منهم على النصر والمنع والحماية. وقد جتمع الى زعمائهم وتحدث معهم ودعاهم الى الله وطلب منهم نصرته على زعماء قومه فسخروا منه، وأغروا بعض سفهائهم وعبيدهم فسبوه وحصبوه حتى ألجأوه الى بستان فجلس تحت شجرة عنب فيه وأخذ يناجي ربه ويقول (اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلني. الى بعيد يتجهمني أم عدو ملكته أمري. إن

لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي. ولكن عافيتك أوسع لي.
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات. وصلح عليه
أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي عقابك أو يحل عليَّ
سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)
ورق له قلبا صاحبي البستان ابني ربيعة فأمرا غلاما لهما
اسمه عداس بأخذ قطف من عنب وتقديمه اليه. ففعل.
وسمى رسول الله بسم الله ثم أكل فقال (عداس) ليس هذا
مما يفعله أهل هذه البلاد. فقال له وما دينك؟ قال أنا
نصراني من (نينوى) قال من قرية الرجل الصالح (يونس ابن
متى). فقال له وما يدريك به؟ فقال له هو أخي كان نبيا
وأنا نبي. فأكب على رأس رسول الله ويديه وقدميه يقبلها.
فسأله صاحب البستان عما فعل فقال لهما ما في الأرض خير
منه لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي.

وغادر الطائف يائسا كسيرا فأراد الله عز وجل تسليته
فصرف اليه نفرا من الجن يستمعون القرآن وأوحى اليه
بذلك في آيات سورة الأحقاف (واذ صرفنا اليك نفرا من
الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى
ولوا الى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل

من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم).. ٢٩ - ٣١.

ولم يجرؤ رسول الله على دخول مكة بدون جوار. لأنه لم يبق له حام قوي زعيم فيها. فأرسل الى الأخنس بن شريق يسأله اذا كان يجيره حتى يبلغ رسالة ربه فاعتذر، فأرسل الى سهيل بن عمرو فاعتذر، فأرسل الى المطعم بن عدي فأجاب ثم لبس سلاحه هو وبنوه فدخلوا فناء الكعبة فسأله أبو جهل أمجير أم تابع قال بل مجير، قال قد أجرنا من أجرت. فأرسل الى النبي ائت مكة وادع الى ربك وأنا لك جار.. وما يرويه الطبري الذي ننقل عنه هذا أن النبي جاء الى فناء الكعبة بعد ذلك والزعماء عندها فلما رآه أبو جهل قال هذا نبيكم يا بني عبد مناف فقال عتبة بن ربيعة وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك. وسمع النبي صلى الله عليه وسلم المحاورة فقال لعتبة أما أنت فوالله ما حميت لله ولرسوله ولكن حميت لأنفك. وأما أنت يا أبا جهل فوا الله لا يأتي عليك غير كثير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكي كثيرا. وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم

كارهون.. وفي كل هذا صور من المعركة.

- ٢٥ -

ثم كان أشد مواقف الزعماء عنفا وأذى ضد شخص النبي صلى الله عليه وسلم في تآمرهم على قتله أو حبسه أو نفيه الذي ذكرته آية الأنفال هذه في معرض التذكير (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ٣١). وكان ذلك حينما علموا بما تم بينه وبين جماعة من الأوس والخزرج من أهل يثرب (المدينة المنورة) فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم- وقد يئس من زعماء قومه- بعرض نفسه على زعماء العرب الذين كانوا يؤمون مكة للحج. واتصل في جملة من اتصل بهم في موسم قبل الهجرة بسنتين بثلاثة منهم. وتلا عليهم شيئا من القرآن ودعاهم الى الاسلام ونصرته. وكانوا يسمعون من اليهود الذين كانت جالية كبيرة منهم في يثرب أن نبيا من العرب سيبعث وشيكا ويكونون معه حزبا. والى هذا أشارت احدى آيات البقرة والله أعلم (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين.. ٨٩) فقال رجال يثرب لبعضهم: إنه لهو فلا يسبقنكم اليه يهود. فآمنوا وقالوا لرسول الله إنا

تركنا قومنا وبينهم من العداء ما ليس بين أحد وعسى الله أن يجمعهم عليك ،ووعدوه بالقدوم في الموسم التالي بعد أن يتحدثوا مع قومهم. وقد شرح الله صدر آخرين من قومهم وجاءوا في الموسم التالي اثني عشر رجلا ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج فالتقوا برسول الله وآمنوا وبايعوه على النصرة والدفاع اذا هاجر اليهم مع أصحابه. وأرسل معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه أحد أبناء عمومته معلما واماما وداعيا فلم تمض السنة حتى كان الاسلام قد دخل كل بيت في يثرب. فلما كان الموسم الثالث جاء وفد كبير مؤلف من ثلاثة وسبعين من الأوس والخزرج وفيهم بعض النساء فالتقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا وصدقوا وقالوا له: خذ لنفسك ولربك ما أحببت فقال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. واختار منهم اثني عشر رجلا بارزا جعلهم نقباء. ومن ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالخروج بمفرده ومنهم من خرج بأهله. ومنهم من خرج مستخفيا. وقد تركوا أموالهم ووطنهم في سبيل الله ودينهم. وقد لقوا من الأوس والخزرج الترحيب والعون. والى هذا أشارت آيات سورة الحشر هذه (للفقراء

المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ٨ و٩.

وقد بقي النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بعض الوقت ليشرف على هجرة أصحابه منتظرا أمر ربه بالهجرة في الوقت المناسب. وجاء الى زعماء قريش من أخبرهم بما جرى فاستشعروا بالجد والخطر فكان ذلك التآمر الذي حكته آية الأنفال. ولقد كانوا يظنون أن أمر النبي سوف يبقى ضيقا ضعيفا نتيجة لموقفهم منه وصدهم عنه وملاحقتهم له بالتكذيب والسخرية وملاحقته وملاحقة أصحابه بالأذى والاضطهاد وبتأثيرهم على جمهور أهل مكة وعلى العرب خارجها الذين كانوا يرون في مكة أم القرى إماما. وأهلها أهله وأدرى الناس به. حتى لقد كانوا يقولون إنما هو شاعر نتربص به حتى يموت فيموت أمره معه على ما حكته آية سورة الطور هذه (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون.. ٣٠) ولا سيما وقد رأوا عددا كبيرا من أتباعه فر الى ديار

بعيدة. ورأوا بعد وفاة عمه أبي طالب أمارات الانهيار حينما يئس منهم وذهب الى الطائف ورده زعماؤها ردا سيئا ولم يجرؤ على الدخول الى مكة إلا بجوار أحدهم. وبينما الأمر كذلك رأوه يقوم بحركة التفاف خطيرة فيتعاقد ويتعاهد مع قبيلتي الأوس والخزرج القويتين. وتقوم حركة هجرة قوية من أصحابه ويوشك هو أن يخرج فتوقعوا من هذه الحركة العواقب الوخيمة من حيث احتمال نجاح دعوته وانتشارها في العرب وسقوط هيبة مكة وإمامتها ومنافعها ونشوب العداء والحروب بينهم وبين أهل يثرب وهي على طريق قوافلهم التجارية.

وقد تداولوا على ما ذكرته آية الأنفال في أمر حبسه أو قتله أو نفيه ثم قر قرارهم على القتل لأن فيه الحسم. ودبروا أن يباشر ذلك شباب من جميع الأسر البارزة حتى يتفرق دمه ولا يقدر بنو عبد مناف على حروبهم جميعا. وأخذ الشباب يترصدون رسول الله ثم قرروا اقتحام البيت عليه في ليلة من الليالي. فأنبأه الله بذلك فأمر علــي بن ابي طالب رضي الله عنه بالنوم في سريره والتسجي ببرده الذي كان يتسجى به وخرج في أول عتمة الليل وأعمى الله

المتربصين وحينما اقتحموا البيت وجدوا النائم في الفراش عليا وأن النبي قد أفلت منهم. وذهب النبي الى بيت أبي بكر رضي الله عنه وقال له إن الله قد أذن لي بالخروج فقال له الصحبة يا رسول الله فقال نعم. وكان أبو بكر كلما هم بالهجرة صبره رسول الله قائلا لعل الله يجعل لك صاحبا فاستبشر وأعـد راحلتين. فلما جاء رسول الله أخبره بذلك فاستأجرا دليلا وخرجا ورأيا أن يعميا رحلتهما فدخلا الى غار في جبل ثور ولبثا أياما حتى اذا اطمئنا ركبا راحلتهما وسارا على بركات الله... وسلك الدليل بهم طريقا غير مألوفة. ولقد اهتم الزعماء وأرسلوا من يتعقبوهما. وقد مر بعضهم بالغار حتى لقد تسلقه أحدهم وشعر أبو بكر فارتاع أشد الروع فقال له رسول الله: لا تحزن إن الله معنا. والى هذا أشارت آية سورة التوبة في معرض التذكير (إلاَّ تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم - ٤٠) وقد جعل زعماء قريش مائة ناقة لمن يرد محمدا وخرج شخص اسمه سراقة طمعا بالجائزة وأدرك النبي وصاحبه

وأخذت فرسه تتعثر فاستشعر بالرهبة وقال للنبي إنه لا يريد به شرا وطلب منه كتابة عهد فأمر أبا بكر بكتابة عهد له. وكان أهل المدينة عرفوا بخروج رسول الله فصاروا يتوكفون قدومه في ظاهر المدينة الى أن طلع عليهم في مساء يوم، وكان أول من رآه رجل من يهود فهتف يا بني قيلة هذا جدكم قد أقبل. فأقبلوا عليه يحيونه ويرحبون به. وبهجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة انفتح باب العهد الاسلامي الجديد بعد أن كان ما كان فيه من ضيق وحصر وخطر انهيار فتوطد دين الله فكانت أبرك أحداث التاريخ الاسلامي بعد ليلة القدر التي تنبَّأ فيها النبي ونزل عليه وحي الله لأول مرة بالقرآن.

- ٢٦ -

ولم تنته المعركة. وقد استمرت ثماني سنين أخرى حتى تم فتح مكة. ولم تبق في نطاق الجدل الكلامي ومواقف الصد والتحدي والكيد بل تطورت الى كفاح مسلّح. وقد صار النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قادرين على ذلك في عهدهم الجديد. وصار ينشب بين الطرفين وقائع حربية صغيرة وكبيرة. وكان زعماء قريش هم الذين يقودون الأعمال الحربية ضد النبي والمسلمين. وفي سورة الأنفال آية تؤيد

ذلك (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون.. ٣٦).

والروايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا في السبعة عشر شهرا التي أعقبت الهجرة هم المباشرين لذلك. وأن ذلك كان اعتراضات لقوافل قريش الغادية والرائحة حيث قاد النبي صلى الله عليه وسلم غزوتين وسير أربع سرايا بقيادة بعض أصحابه. وكانت القوافل تنجو فلم يقع قتال باستثناء الأخيرة التي كانت بقيادة عبد الله بن جحش رضي الله عنه في الشهر السابع عشر حيث كان اشتباك وقتل المجاهدون أحد المشركين وأسروا اثنين واستولوا على القافلة.

غير أن في القران آيات تلهم أشياء أخرى. ففي سورة الحج هذه الآيات: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) ٣٩ - ٤٠. ويكاد الرواة يجمعون على أن هذه الآيات

أولى آيات أذن الله فيها للمسلمين بالقتال. وقد أذن الله لهم فيها بالقتال لأنهم يقاتلون ظلما ووعدهم بالنصر. وفي سورة الحج هذه الآية (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا وماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا) ٥٨. وفي سورة البقرة آيات عديدة نزلت عليه تلهمه روحها ومضمونها في عهد مبكر وهذه هي:

١ - (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون. ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) ١٥٦.

٢ - وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه

بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله
مع المتقين) ١٩٠ - ١٩٤.

٣ - أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ٢١٤.

٤ - (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم)... ٢١٦ - ٢١٩.

فهذه الآيات قوية الدلالة على أن المؤمنين كانوا يقاتلون

ظلما وأن الكافرين كانوا يقاتلونهم وأن منهم من قتل في سبيل الله وأن الكفار كانوا يصدون عن سبيل الله ويضطهدون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم وأن المسلمين كانوا يشعرون بالكرب العظيم. فاذن الله لهم بالانتصار وكتب عليهم القتال وحدد لهم حدودا لذلك.

ولقد بقي في مكة أفراد من المؤمنين رجال ونساء عجزوا أو منعوا من الهجرة ولا بد من أنهم كانوا يتعرضون للأذى والاضطهاد والافتتان. ولقد ترك المهاجرون منازلهم وأموالهم ولا بد من أن الزعماء قد استولوا عليها أو دمروها ومن المحتمل أن من المؤمنين من قتل في ظرف من الظروف. وكل هذا تعنيه الآيات. بحيث يمكن القول أن ما كان من حركات كفاحية من المؤمنين كان أيضا على سبيل المقابلة والانتصار..

والآية (٢١٩) الأخيرة من آيات البقرة تلهم أن المهاجرين هم الذين كانوا يباشرون الكفاح المسلح في هذه المرحلة دون الأنصار (أهل يثرب المؤمنين) ولقد كان الثأر ثأرهم أولا ولقد كان الاتفاق ثانيا بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار على منعه والدفاع عنه. وكان هذا لا

يعني أن يباشروا حربا هجومية وخارجا عن حدود مدينتهم.

ثم كانت وقعة بدر الكبرى التي كانت في أصلها عملية اعتراض لقافلة قرشية كبرى وقد خرج زعماء المشركين من مكة مع أنصارهم لانقاذها. ونجت القافلة التي كانت بقيادة أبي سفيان. ولكن ذلك لم يمنع نشوب المعركة حيث انفعل الطرفان حتى اشتبكا. ولقد كان الأنصار خرجوا مع من خرج لاعتراض القافلة. وقبل الاشتباك طلب رسول الله رأي أصحابه فيه فتحمس المهاجرون وأيدوا الاشتباك وظل رسول الله يطلب رأي أصحابه فلمح زعماء الأنصار أنه يريد رأيهم فهتف غير واحد منهم قائلا: امض يا رسول الله فيما أمرك الله به ونحن معك إن خضت البحر خضناه. ولتجدن منا صبرا في الحرب مؤيدين لك الى النهاية. فاستبشر وبشرهم بالنصر. وحقق الله بشارته فكان النصر للمؤمنين. وقتلوا من صناديد قريش نحو سبعين وأسروا نحوا من ذلك.

وفي سورة الأنفال شيء من سير ومشاهد المعركة للعبرة والعظة. ولقد أمر الله تعالى رسوله بالهتاف للمشركين أو

بالاحرى لزعمائهم من مركز القوة وبعـــد النصر: (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم) و (إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف) حيث تجلى في هذا الهتاف مقاصد الله ورسوله وهي الانتهاء من حالة العداء والدخول في الاسلام الذي فيه خيرهم وصلاحهم. وهذا الهتاف ورد في آيات البقرة التي كان فيها تحديد الأهداف للقتال ونطاقه..

- ٢٨ -

وحرك الثأر زعماء قريش فزحفوا بجيش كبير على المدينة. وخرج إليهم رسول الله وأصحابه من مهاجرين وأنصار. وكان عدد الزحف أكثر منهم بثلاث مرات. ونشبت المعركة عند سفح جبل أحد. وانتصر المسلمون مع ذلك في بدئها ثم كانت نكسة بسبب مخالفة بعض المجاهدين لخطة وصاهم بها رسول الله فأدى ذلك الى دوران دائرة الحرب على المسلمين وهزيمتهم وإصابة عدد كبير منهم قتلا وجرحا، وهذا ما أشارت اليه آية سورة آل عمران التي نزل قدر كبير منها في مشاهد هذه المعركة على سبيل التهدئة (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعـد ما أراكم ما تحبون

منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم).. ولقد شج رسول الله وكسرت رباعيته وشاع أنه قتل فكان ذلك مما زاد في الارتباك والنكسة. وهتف الله عز وجل هتافه العظيم السامي (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم...) الذي هو في غنى عن كل شرح.

- ٢٩ -

ولم ير زعماء قريش ما كان شافيا لثأرهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ظلوا متماسكين أقوياء. حتى لقد كان الزعماء عينوا موعدا آخر للقاء في السنة التالية ووافق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليه وخرجوا في الموعد للقاء أعدائهم. ولكن هؤلاء لم يخرجوا... وبذل اليهود الذين كان الرسول قد أوقع عليهم النكال في المدينة جهدهم في تحريك ذلك الثأر فكان الزحف العظيم الذي سماه القرآن (الأحزاب) حيث زحف الزعماء على رأس جيش لجب عدته نحو عشرة آلاف من مكة وحلفائها لاستئصال شأفة النبي والمسلمين والاسلام وظاهرهم اليهود فكان من ذلك ما

عرف بوقعة الخندق. لأن النبي وأصحابه قرروا الدفاع وحفروا خندقا حول المدينة لمنع الزاحفين. وقد زلزل المؤمنون زلزالا شديدا من هذا الزحف. وقد دام الحصار مع مناوشات فردية نحو عشرين يوما. ثم أوقع الله في الأحزاب الارتباك وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال على ما جاء في إحدى آيات سورة الأحزاب التي ورد فيها قدر عن هذه الوقعة على سبيل الموعظة والتذكير.

- ٣٠ -

ولقد كانت هذه الغزوة خاتمة العمل الهجومي من ناحية زعماء قريش. ولقد علم الله ورسوله أن حالتهم لم تبق قوية متماسكة فأوحى الله لرسوله في المنام بزيارة الكعبة فانتدب رسول الله أصحابه وخرجوا بقصد العمرة. وعظم الأمر على الزعماء فصمموا على منعهم ولكن حالتهم التي علمها الله يسرت الأمر بعد مفاوضات ومحاورات ومحاولات فكانت مفاوضة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم أدت الى عقد هدنة لمدة عشر سنوات عرفت بصلح الحديبية وهذا اسم المكان الذي نزل فيه رسول الله مع أصحابه على بعد قليل من مكة. وقد سمى الله هذا الصلح فتحا مبينا وفتحا قريبا

في سورة الفتح التي نزلت في صدد هذه الزيارة للتذكير والعظة وكان من آثار هذا الفتح اعتراف الزعامة القرشية بالنبي والمسلمين أندادا وموافقتهم على زيارته مع أصحابه الكعبة. وقد اطمأن بال النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية قريش فانصرف الى كسر شوكة اليهود الذين كانوا يسعون فسادا ويؤلبون على النبي والمسلمين. وأرسل رسله الى ملوك وأمراء جزيرة العرب والعالم القريب لها مصر والروم والفرس. وقويت هيبة الاسلام وهيبته وعاد المهاجرون من الحبشة مستبشرين مطمئنين. وأخذت وفود متنوعة النحل والجنس تفد على المدينة للاستطلاع والاسلام. واستطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جمع جيش لجب قوامه عشرة آلاف زحف به بعد سنتين على مكة وفتحها.

- ٣١ -

وكان سبب الزحف والفتح نقض حلفاء لقريش عهد النبي صلى الله عليه وسلم لحلفاء له كانوا على عداء معهم ودخلوا في حمايته وعهده ومساعدة بعض الزعماء لهذا النقض حيث رأى النبي صلى الله عليه وسلم الظروف مواتية فصمم على ذلك. ولقد شعر قائد قريش وزعيم حربهم أبو سفيان

بخطورة الموقف فقدم الى المدينة لرتق الفتق فأخفق.
وزحف رسول الله بجيشه اللجب المؤلف من المهاجرين والأنصار والقبائل التي أسلمت. واستنفر زعماء قريش حلفاءهم أهل الطائف وهوازن فلم يستطيعوا القدوم في الوقت المناسب ووجدوا أنفسهم أمام ما لا طاقة لهم به فاستسلموا وتم الفتح وخطب رسول الله فيهم ومن خطبته المأثورة (لا اله الا الله وحده لا شريك له. صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب. يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم فأجابوا خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم. فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء. إن الله حبس عن مكة الفيل. وسلط عليها رسوله والمؤمنين. ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما حلت لي ساعة من نهار. وقد طهر ساحة الكعبة وداخلها من الأصنام وأقبل الناس على مبايعته على الاسلام حتى عم وظهر فيها دين الله وكلمته على الدين كله كما قال الله تعالى: هو الذي

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا.. الفتح) وانتهت معركة النبوة مع الزعامة القرشية بالنصر المبين.

ثانيا - معركة محدودة بين النبوة والزعامة في العهد المدني

- ١ -

ولقد كانت معركة بين النبوة والزعامة في العهد المدني. ولكنها كانت محدودة أولا واتسمت بسمة (النفاق) ثانيا. اذ كان النفاق يشمل قطاعات متنوعة من أهل يثرب (المدينة المنورة) والقبائل. والمعركة كانت في يثرب في الدرجة الأولى أو صورتها الهامة. وسوف يكون الكلام في هذه النبذة قاصرا عليها دون موضوع النفاق بصورة عامة.

- ٢ -

ولقد كانت أولى آيات القرآن في صدد هذه المعركة وحركة النفاق عامة آيات سورة البقرة هذه (ومن الناس من يقول آمنا باللهوباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذينَ آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن

مصلحون الا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون)..
٨ - ١٢.

وواضح من الآيات: (أولا) إن المعنيين فيها كانوا يظهرون الاسلام خداعا. و(ثانيا) أنهم كانوا من الطبقة المتزعمة المترفعة عن العامة. و(ثالثا) انهم كانوا متضامنين في موقفهم مع جماعة غريبة عنهم سمتها الآيات (شياطينهم) وتجمع الروايات على أنهم من يهود يثرب الذين كان موقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته مناوئا وعدائيا على ما سوف نزيده شرحا في البحث الثاني. وفي سورة التوبة آيات تدل على أن هذه الطبقة كانت ذات مال وقوة أيضا (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون. فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) ٥٤و٥٥. و(كالذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا

فاستمتعوا بخلاقهم فاستمعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدينا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) ٦٩ . وفي سورة المنافقون آيات تحكي أقوالاً لهم وهي (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) ٧و٨ . حيث تفيد إنهم كانوا أصحاب مال وأنهم كانوا يشعرون بأنهم الأقوى والأعز في المدينة.

- ٣ -

ولقد أخذ الاسلام ينتشر في قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانتا كل أو جل أهل يثرب من العرب قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم حتى لقد دخل كل بيت، ولم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا إما عن جهل وغباء وإما عن غيظ وحقد وعناد موقف الجحود والعداء العلني للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المهاجرين والأنصار. وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير يسير في عدم الوقوف هذا الموقف لأن سواد الأوس والخزرج ومعظم زعمائهم أصبحوا

أيضا أنصار النبي صلى الله عليه وسلم مرتبطين بمواثيق الدفاع والنصر وغدوا يرون أن رسول الله هو قائدهم الأعظم الواجبة له الطاعة والاتباع. فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ويتحكم فيهم مرض القلب والحقد الذي يحملهم على المناوأة للنبي ودعوته ونفوذه أن يظهروا نزعتهم وعداءهم وحقدهم علنا. ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالاسلام والشهادة لله وحده ورسالة محمد نبيه والقيام بأركان الاسلام من صلاة وزكاة وصوم وجهاد وتضامن مع قبائلهم وإلا جعل مكرهم وكيدهم ومؤامرتهم بأسلوب المراوغة والمواربة والخداع والتمويه. ولقد كانوا يجرأون فيقفون مواقف علنية فيها كيد وتآمر. ولكن ذلك كان منهم في الأزمات الحادة التي كانت تمر بالنبي وأصحابه من المهاجرين والأنصار والتي كانوا مع ذلك يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط.

– ٤ –

ولقد كان لمواقفهم ومكائدهم أثر بعيد المدى على ما تلهمه الآيات القرآنية حتى لكأنه نضال قوي يذكر بما كان من نضال بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء مكة أحيانا وإن اختلفت الأدوار والنتائج. اذ أن النبي صلى الله عليه

وسلم لم يلبث أن توطد مركزه وازدادت قوته وصار صاحب سلطان نافذ وجانب عزيز. ولم تلبث دائرة الاسلام أن اتسعت. وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة، وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيرا نسبيا عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي صلى الله عليه وسلم واتساع دائرة الاسلام وتوطد عزته وسلطانه وبعد أن كانوا يستشعرون بالقوة والعزة والاستعلاء ويقولون كما ذكرته آيات البقرة عن المؤمنين (سفهاء) و(إنما نحن مستهزئون) ويقولون كما ذكرته آيات سورة المنافقون هذه (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) و(لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) معتبرين أنفسهم أنهم هم الأعز الأقوى صاروا كما حكته آيات سورة التوبة (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون) وبين الموقفين نحو ست سنين.

ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي لعبه زعماء المنافقين ومن تابعهم في أوائل العهد أن تلاحظ أنهم كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر

في نفوس قبائلهم والتي لم تضعف إلا بعد جهد وتنبيه وانذار متوال من القرآن الكريم والنبي كما أنهم لم يكونوا مفضوحين بصورة تامة. وأن نلاحظ كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كانوا محاطين بالمشركين الجاحدين من كل جانب وأن أهل مكة خصومه الألداء وهم قبلة جزيرة العرب كانوا وظلوا يتربصون بهم وبالاسلام الدوائر ويتحينون كل فرصة ووسيلة للانقضاض عليهم. وأن يهود المدينة ومن حولها قد تنكروا له ولدعوته منذ عهد مبكر وتطيروا بها ثم جاهروا بالكفر والعداء والمكر والكيد ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين زعماء المنافقين ومن تابعهم حلف طبيعي على توحيد المسعى والتضامن في موقف المعارضة والكيد على ما سوف نزيده شرحا بعد حتى ليمكن أن يقال إن زعماء المنافقين لم يقووا ويثبتوا ولم يكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد وإيحاء وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق. ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من اليهود وأظهره عليهم وكفاه شرهم.

ولقد استمرت حركة النفاق ومعركة النبوة والزعامة عبرها بعد كسر شوكة اليهود لأن القائمين بها ذوو جذور في

الأرض وعصبيَّة في قبائلهم. بل ظلت مستمرة تقوى حينا وتضعف حينا الى آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم ما تلهمه الآيات وتفيده الروايات.

- ٥ -

والروايات مجمعة على أن قائد هذه المعركة أو الحركة في يثرب هو عبد الله بن أبي سلول زعيم عشيرة بني عوف القوية من عشائر قبيلة الخزرج. وقد روى ابن هشام عن ابن اسحق أن قومه كانوا ينظمون الخرز ليضعوا له تاجا ويتوجوه عليهم ملكا حيث يصح أن يقال إن الزعيم حقد على النبي وهجرته واغتاظ من انتشار دعوته وتوطد مركزه وانصراف كل أو جل قومه عنه وخيبة أمله وحلمه بالملك وأبهته. وقد استطاع أن يؤثر على فريق من عشيرته ويحملهم على التعصب له والاتسام بسمة النفاق. ولقد كانت مناوأته ونفاقه حتى قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم حيث أخذ يثبط الناس عن الاستجابة لمصعب بن عمير رضي الله عنه الذي أرسله الله صلى الله عليه وسلم داعيا وإماما ومعلما بعد أن أخذ بيعة زعماء الأوس والخزرج للمرة الأخيرة على ما ذكرناه في النبذة السابقة ويناوئه ويسمعه شديد القول.

وفي القرآن المدني آيات كثيرة جدا في سور عديدة في

النفاق والمنافقين منها ما يحكي مواقفهم. ومنها ما فيه إنذار ووعيد وفضح لهم. ومن خلالها تبدو ملامح المعركة وصورها المتنوعة وفي كثير منها ما يبدو زعيم المنافقين ابن أبي بن سلول كقائد للمعركة. ففي سورة آل عمران هذه الآيات:

١ - (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كان غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) ١٥٦.

٢ - (وماأصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لا تبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) ١٦٦ - ١٦٨.

حيث تتضمن الآيات صورة من التثبيط عن الجهاد والتنديد بالخروج له. وكان ذلك في ظرف وقعة أحد. وقد روي في صدد ذلك أن زعيم المنافقين اقترح عدم الخروج الى خارج المدينة لمواجهة غزو قريش في سفح جبل أحد والبقاء في موقف الدفاع. فلما خرج النبي وكان برأي أكثرية

المهاجرين والأنصار تلكأ أو انسحب وأثر على جماعته فتابعوه وقال مبررا ذلك: (إنه أطاع الآخرين وعصاني)...

وفي سورة الحشر هذه الآية:

(ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكـــم) وهي من آيات أنزلت في ظروف وقعة بني النضير اليهود. فقد استحقوا التنكيل وحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم. وهم حلفاء الزعيم ابن أبي بن سلول وعشيرته فحرضهم على المقاومة ووعدهم بالنصر مبررا ذلك بما كان بينه وبينهم من حلف.

- ٦ -

وفي سورة المنافقون هذه الآيات:

(هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) ٧ و٨.

وقد صدرت هذه الأقوال التي حكتها الآيتان من زعيم المنافقين ابن أبي بن سلول. وروي في صدد ذلك أن مشاجرة

حدثت بين مهاجر وأنصاري أثناء غزوة قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرف باسم غزوة بني المصطلق وكان الزعيم وجماعته ضمن جيش رسول الله. واستنصر الانصاري بجماعته واستنصر المهاجر بجماعته وكاد يستفحل أكثر فتدخل رسول الله وزعماء المهاجرين والأنصار وهدأوا الحالة. فما كان من الزعيم إلا أن هتف في الأنصار (هذا ما فعلتموه في أنفسكم. آويتموهم وساعدتموهم حتى يستعلوا عليكم في عقر داركم وصدق علينا المثل (سمن كلبك يأكلك) ثم دعا قومه بالكف عن مساعدة المهاجرين حتى يتفرقوا كما هتف (والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) وقصد بالأعز نفسه وقومه والأذل المهاجرين. وقد أثار الموقف رسول الله وأصحابه المهاجرين وأشعرهم بالمضاضة والمرارة. واستأذن بعض المهاجرين والأنصار بقتل الزعيم. وقال أحد زعماء الأنصار المخلصين أرفق به يا رسول الله. إن الله قد جاءنا بك وأن قومه ينظمون له الخرز ليصنعوا له تاجا ويتوجوه عليهم ملكا وأنه يرى أنك استلبته ملكا. وكان للزعيم ابن مؤمن مخلص هو كعب رضي الله عنه فجاء الى رسول الله فقال له: اني علمت بما قال أبي. وإذا كنت أمرت بقتله فأمرني أنا

فأقتله. ولا يقتله غيري حتى لا يتحرك فيّ الثأر فأقتل مؤمنا بكافر. فقال رسول الله بل نرفق به. فقال كعب أما وقد قلت ذلك فليعلمن الغداة الناس أنه هو الأذل وأنك أنت الأعز. ثم وقف في باب المدينة وقال لأبيه لن تدخلها حتى تعلن أنك الأذل وأن رسول الله هو الأعز ورأى الأب التصميم في وجه ابنه فلم يكن له مناص من قول ذلك.

- ٧ -

وفي سورة الأحزاب هذه الآيات:

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا. واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا. ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا.

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإ خوانهم هلمّ الينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فاذا جاء الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اشعالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا) ٩ - ٢٠ .

وهذه الآيات نزلت في ظرف زحف أحزاب المشركين بقيادة زعماء مكة ووقعة الخندق مما ذكرناه في النبذة السابقة . وفيها صورة قوية من التثبيط والجبن والاستعداد للكفر الصريح والهروب من المعركة . والروايات تذكر أن زعيم المنافقين ابن أبي سلول كان من أبرز زعماء هذا الموقف أو قائده . .

- ٨ -

ولقد كان بين كل من قبيلتي الأوس والخزرج وبين يهود

يثرب محالفات قبل الاسلام. حيث كان بين القبيلتين منافسات ومنازعات. وكان بين طوائف اليهود مثل ذلك فتحالفت بطون من قبيلتي العرب مع بطون من اليهود ليكونوا حلفا محاربا ضد خصومهم معا. فلما وقف اليهود موقف الصد والكفر والمناوأة والعداء من النبي والاسلام والمسلمين اقتضت حكمة الله ورسوله الإيعاز للمسلمين من قبيلتي الأوس والخزرج وهم أكثريتهما العظمى بعدم التمسك بتلك المحالفات لأن ذلك ضار بمصلحة الاسلام والمسلمين وأمنهم وسلامتهم فأبى زعيم المنافقين ابن أبي سلول الانصياع وحمل جماعة من عشيرته التي كانت تتابعه في مواقفه على مثل موقفه هذا. وفي هذا صور وملامح من المعركة كما هو واضح. وقد ردد القرآن هذا الموقف مندداً منذرا في آيات عديدة. منها آيات سورة الحشر ١١ - ١٢ التي أوردناها قبل ومنها هذه الآيات:

١ - (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا. وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم

اذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) ٣٩ - ٤١ .

٢ - (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) المائدة ٥١ و ٥٢ .

٣ - (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم) محمد ٢٥ و ٢٦ .

٤ - (ألم تر الى الذين تولوا غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) المجادلة ١٥ .

وفي سورة النور آيات في صدد ما عرف بحديث الافك حيث اتهمت عائشة رضي الله عنها زوجة النبي صلى الله عليه وسلم. وكان حادثا ممضا جدا للنبي صلى الله عليه وسلم وزوجته وآلها.

وتفيد الروايات أن زعيم المنافقين ابن أبي سلول قد استغل الحادث وساهم مساهمة كبيرة في التشويش والتعكير. وفي الآيات القرآنية المذكورة آيات ذكرت الروايات أنه المعني بها وهي:

١ - (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ١١.

٢ - (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون)١٨.

٣ - (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) ٢٣.

وفي سورة الأحزاب آيات في صدد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بمطلقة ابنه بالتبني بأمر الله للتشريع والتعليم ورفع الحرج عن المسلمين بعد أن ألغى الله تعالى آثار التبني الجاهلية على ما جاء في هذه الآيات وفي آيات أخرى في أول السورة. فاستغل زعيم المنافقين الحادث وأخذ يشغب وينتقد

النبي وبناله بالكلام المؤذي. وفي السورة آيات أخرى فيها بعض مواقف أخرى من بعضهم كانت تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمؤمنات حيث يبدو من خلال صور من المعركة أيضا. وقد أنزل الله الآيات الآتية مندددة منذرة.

(إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا. والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) ٥٧ و ٥٨. و (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا. ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) ٥٩ و ٦١.

- ١٠ -

وفي سورة التوبة آيات كثيرة في مناسبة استنفار النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين لغزوة تبوك لمواجهة تحشيدات نصارى في مشارف الشام المؤيدين بالروم بقصد غزو المدينة. ولقد استأذن زعيم المنافقين ابن أبي بن سلول ومن تابعه من عشيرته بالتخلف عن الغزوة فاحتوت الآيات صورا متنوعة عن مواقفهم في ظروف الغزوة وقبلها.. وبالأحرى صورا من ملامح المعركة التي نحن في صددها ونكتفي بإيراد بعضها فيما يلي:

١ - (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون) ٤٢.

٢ - (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) ٤٧ و ٤٨.

٣ - (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون. ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) ٥٦ - ٥٨.

٤ - (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل أذن خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) ٦٠ و ٦١.

٥ - (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير. يحلفون بالله ما قالوا

ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم. وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا إن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) ٧٥.

٦ - فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون. فإن رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) ٨١ - ٨٤.

- ١١ -

وفي سورة التوبة أيضا هذه الآيات:

(والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن

إن أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون. لا تقم فيه أبدا لمسجد اسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه- فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين. أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) ١٠٦ - ١١٠.

والجمهور على أن الذين بنوا هذا المسجد الذي عرف بمسجد الضرار اتساقا مع الوصف القرآني هم فريق من المنافقين من جماعة أو عشيرة الزعيم ابن أبي بن سلول كانوا يقطنون محلة قباء. وكان في المحلة فريق مخلصون من الأنصار استأذنوا النبي (ﷺ) في بناء مسجد في مكان صلاتـه صلى الله عليه وسلم حينما جاء لأول مرة من مكة وأقام بعض الوقت تبركا به وليصلوا فيه في أيام الشتاء بسبب بعد المحلة عن مسجد النبي فاذن لهم. وكان راهب عربي اسمه أبو عامر وعرف في تاريخ الاسلام بالفاسق قد تلاحى مع النبي وأقسم أن يحاربه فلما انتصر المسلمون وفتحوا مكة تآمر هذا مع جماعة المنافقين على أن يبنوا مسجدا في قباء ليكون محلا لاجتماعاتهم وينتظروا عودته من

بلاد الروم حيث أزمع أن يذهب ليدبر المكائد للنبي والاسلام والمسلمين فاستأذنوا النبي ببناء مسجد مثل رفاقهم فأذن لهم. ورجوه أن يصلي فيه للتبرك به خداعا وتظاهرا فوعدهم بذلك بعد عودته من غزوة تبوك. والصورة التآمرية واضحة في الآيات وليس فيها ما لا يتسق مع الروايات. والمروي أيضا أن الآيات نزلت أثناء غزوة تبوك. وأن النبي علم في الرحلة بخبث نية بناة المسجد وأنه ارسل فور عودته الى المدينة من هدمه وحرقه.

- ١٢ -

هذا ومع أن آية سورة التوبة (٧٣) تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدة المنافقين مع الكفار. وقد تكررت الآية نصا في سورة التحريم. ومع أن آيات سورة الأحزاب (٦٠ و٦١) تنذر المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين بالطرد من المدينة والتقتيل أينما ثقفوا وتصفهم بالملعونين فانه ليس هناك روايات موثقة ولا آيات قرآنية صريحة تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك. أو أمر بقتلهم أو قتل بارزيهم بسبب صفة النفاق أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار العهد المدني

من أوله الى آخره والتي احتوت صورا كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته والتناجي بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وعدم الانصياع للنهي الرباني والنبوي عن ذلك[1]... والتثبيط عن الجهاد والختل فيه ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد وإشاعة الفاحشة والارجاف بين المسلمين والتعرض لنساء المسلمين بل لنساء النبي بالأذى والكيد والقصاص مع أعداء الاسلام وموالاتهم رغم الأوامر القرآنية المشددة وتقرير كونهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهذا وحده يبرر قتلهم على ما جاء في حديث نبوي صحيح[2].

ازاء ذلك لا نعدو الصواب إن شاء الله.اذا قلنا:

(١) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتبر المنافقين أعداء محاربين فلم يقابلهم فعلا كما كان شأنه مع الكفار. ولا

---

(١) جاء هذا في آية سورة المجادلة هذه (ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول واذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) ٨.

(٢) روى الخمسة عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله الا باحدى ثلاث: النفس بالنفس. والثيب الزاني. والمفارق لدينه التارك للجماعة).

سيما أن حرب النبي للكفار إنما كان لبدئهم بالعدوان العملي واستمرارهم فيه. وحربه لليهود انما كان لمثل ذلك. وغزوته لتبوك كانت لمواجهة تحشيدات لغزو المدينة وتسييره السرايا الى مشارف الشام قبل غزوة تبوك واشتباكها مع نصاراها انما كان لمواقف عدوانية من هؤلاء. ولم يكن حال المنافقين على كل حال يشبه حال الكفار من العرب أو اليهود أو النصارى المحاربين.

(٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك اليه أمر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الاسلام والمسلمين. ولا سيما ان بعض الآيات الواردة قد تخللها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل (فإن يتوبوا يك خيرا لهم) و (لئن لم ينته المنافقون) و (فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم) و (الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله).. كما تخلل الآيات الواردة في شأنهم إشارات الى أنهم كانوا يصلون ويؤدون الزكاة. وأن

وصف ذلك منهم رياء وكرها.. وكانوا يشتركون في الجهاد وكانوا يحلفون الأيمان على حسن نيتهم وصدق اسلامهم. وأن وصف ذلك منهم كذبا. فرأى أن يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر الى النهاية لما كان بينهم وبين كثير من المخلصين من روابط القربى والرحم ورأى أن خلاف هذه الخطة قد يفتح في صفوف الاسلام ثغرات واسعة ويثير أزمات داخلية[1] ولا سيما أنه كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائي وإظهار دينه على الدين كله. وقد أخذ يرى منذ أوائل النصف الثاني من العهد المدني وبعد ما خضدت شوكة اليهود وطردوا من المدينة وضواحيها وكانوا هم شياطينهم المحركين لهم للفساد. وهذا هو الوقت الذي صار في إمكانه أن يشن حربا عملية ضدهم مأمونة العواقب بعض الشيء. أن صوتهم بدأ يخفت ونشاطهم يخمد وعددهم يقل وتزلفهم يشتد ومداراتهم تزداد وخوفهم بدا واضحا.

(١) لما كان من ابن أبي سلول الموقف الذي وقفه أثناء غزوة بني المصطلق وجاء عمر الى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في قتله قال له لا أريد أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه.

وربما ندم منهم كثيرون فعادوا الى حظيرة الحق والاسلام الصحيح فكان كل هذا مما ثبته في خطته ورأى فيها الصواب والمصلحة. وما ينطق وما يفعل عن الهوى إن هو الا وحي يوحى.

صلى الله عليه وسلم

معركة

النّبوّة مع أهل الكتاب

للأستاذ محمد عزة دروزة
« فلسطين »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

أولا - في العهد المكيّ

- ١ -

لم تكن معركة بين النبوة وأهل الكتاب في هذا العهد، اذ لم يكن في مكة كتلة كتابية ذات عدد كبير ومركز سياسي واقتصادي ومصالح متشعبة، وإنما كان فيها أفراد من النصارى واليهود. والأولون كانوا أشتاتا: منهم أقباط مصريون، ومنهم أحباش، ومنهم روم، ومنهم سوريون. ومن هؤلاء من كان مملوكا لبعض زعماء مكة. ومنهم من كانوا نازحين يعملون في صناعات الحدادة والنجارة. أما اليهود فكانوا اسرائيليين، يتسربون الى مكة من يثرب، التي كان فيها طوائف كبيرة منها، صار لها فيها وفيما حولها مركز ومصالح متنوعة. وكان الى هؤلاء بعض أفراد عرب متنصرين من أشهرهم ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة رضي الله عنها أولى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، والذي أخذته اليه، حينما نزل عليه الوحي لأول مرة، فقال له: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى. يا ليتني فيها

جزعا، ليتنى أكون حياً اذ يدركني يومك، ويخرجك قومك، أنصرك نصرا مؤزرا، على ما جاء في حديث رواه البخاري عن عائشة، وجاء فيه أنه تنصر، وكان يكتب الانجيل بالعبرانية، وقد صار شيخا أعمى.

– ٢ –

والى هـذا فقد كان بين أفراد الكتابيين في مكة من الأجانب من هو ذو علم واطلاع، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتردد عليهم قبل بعثته، وكان زعماء مكة يرون ذلك حتى أنهم حينما تنبأ ووقفوا منه موقف المناوأة، استغلوا ذلك، وصاروا يقولون ما حكته عنهم آيات عديدة كما نرى فيما يلي:

١ – (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحـدون اليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين) النحل ١٠٣.

٢ – (وقال الذين كفروا إن هذا الا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاؤوا ظلما وزورا. وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) الفرقان ٤و ٥.

٣ – (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا

عنه وقالوا معلّـم مجنون) الدخان ١٤ و١٥؛

- ٣ -

وأولى آيات قرآنية ذكر فيها أهل الكتاب -والله أعلم- آية سورة المدثر هذه (وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين آوتوا الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيمانا، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) ٣٢.

والأسلوب الذي ذكروا فيه يفيد -والله أعلم- أن الله سبحانه يعلم أن الذين أوتوا الكتاب يعرفون مدى ما جاء في الآية، وأن ذكره سوف يكون سببا لاستيقانهم بأن القرآن منزل من الله تعالى على رسوله. وفي سورة سبأ هذه الآية التي تفّيد -والله أعلم- نفس المعنى (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق، ويهدي الى صراط العزيز الحميد) ٦. ومثل هذا آية في سورة الحج التي نرجح والله اعلم أنها مكية (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك، فيؤمنوا به، فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم) ٥٤.

- ٤ -

والمتبادر أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر من كان

يتردد عليهم من أهل الكتاب بأمره، وقرأ عليهم ما أنزله الله تعالى عليه. والمتبادر كذلك أنهم كانوا لمحوا في النبي حينما كان يتردد عليهم عمق الإيمان بالله، وشدة العزوف عن عقائد وتقاليد قومه الشركية وشدة الرغبة في ملة ابراهيم الحنيفية التي أمره الله باتباعها واعلانها في آية سورة النحل: (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) ١٢٣. وفي آيات سورة الأنعام: (قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم. دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين). ١٦٠ و ١٦٣.

كما لمحوا فيه صفاء الذهن وعظمة الخلق والصدق والبعد عن التبجح. وكانوا يرون في التوراة والانجيل صفات نبي يبعث في الأميين. والكلمة كانت تعني فيما تعنيه العرب على ما تفيده آية سورة الجمعة (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

وكانوا يرون في التوراة والانجيل وجوب اتباعه حينما يبعث على ما جاء كل هذا في آية سورة الأعراف هذه

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) ١٥٣ . وقد كان موقف هؤلاء الذين عرفهم النبي صلى الله عليه وسلم وتردد عليهم قبل البعثة وعرفوا منه ما عرفوا ايجابيا جدا عبرت عنه آيات عديدة في السور المكية تعبيرا قويا كما ترى فيما يلي:

١ - (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) الأنعام ٢٠.

٢ - (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) الأنعام ١١٤.

٣ - آية سورة الاعراف ١٥٧ التي أوردناها سابقا أيضا.

٤ - آية سورة المدثر التي أوردناها سابقا أيضا.

وهذه الآيات كانت تتلى على ملأ من أهل الكتاب في مكة وغيرهم. وهي تؤكد أن صفات رسول الله مذكورة في التوراة والانجيل، وأن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون

أبناءهم، ويعترفون أن القرآن نزل من الله وفيه ما يزيد يقينهم من ذلك. ولا يمكن الا أن يكون ذلك - ونقول هذا للمساجلة - الا حقا وصدقا كل الحق والصدق.

٥ - وفي سورة الرعد هذه الآية (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ٣٦). ويعني هذا انهم رحبوا بالنبوة المحمدية والقرآن، وانضووا اليها. وفي سورة الرعد أيضا هذه الآية (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب) ٤٣. ولا يمكن أن يكون الاستشهاد بأهل الكتاب الا مع اليقين بأنهم سيشهدون بصدق رسالة الرسول وقد آمنوا بها.

٦ - وفي سورة النحل هذه الآية (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)٤٢. والخطاب موجه للمشركين، الذين كانوا ينكرون ويستنكرون أن الله يمكن أن يرسل بشرا رسولا، على ما حكته بعض الآيات ومنها آية سورة الإسراء (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا)٩٤. فطلبت منهم آية النحل أن يسألوا أهل الكتاب. ولا يمكن أن

يكون ذلك الا مع اليقين بأنهم سوف يشهدون بصدق الرسالة.

٧ - وفي سورة الاسراء هذه الآيات:

(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) ١٠٧ و ١٠٨.

وفي الآيات مشهد إيماني رائع لأولي العلم بالقرآن وبالرسالة المحمدية. وفيها تحد قوي لزعماء المشركين. فبعد أن يؤمن به أهل العلم بهذه الكيفية الرائعة الخاشعة يصبح عدم ايمانهم مكابرة مفضوحة. والمتبادر أن وعد الله المفعول قد قصد القائلون به أن الله قد حقق وعده في كتبه السابقة وبعث الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا فيها.

٨ - وفي سورة القصص هذه الآيات:

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. واذا

سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) ٥٣ - ٥٥
والمتبادر أن الآية الأخيرة في صدد لوم وتوبيخ صدر من زعماء المشركين للذين أعلنوا ايمانهم بالقرآن من أهل الكتاب وهم صابرون على الايذاء لا يلتفتون اليه ويقولون إنه لغو جاهلين لا يصح أن يعبأوا به... وبعض الرواة يروون أن الآيات مدنية. والآيات منسجمة مع السياق وليس من حكمة ظاهرة في وضع آيات مدنية في سياق آيات مكية وسورة مكية. والآيات جاءت بعد جدال وتحد بين النبي والمشركين فتكون استمرارا للتحدي. وهي في هذا المقام مثل آيات الاسراء (١٠٧-١٠٩) والآية الأخيرة دليل يكاد يكون حاسما على مكية الآيات. لأن التوبيخ واللغو لا يمكن أن يكون وقع على من أراد الايمان من الكتابيين الا في مكة، حيث كان الزعماء المشركون هم أصحاب القوة والشأن. وحيث صار الرسول في العهد المدني هو صاحب السلطان الذي لا يجرؤ أحد على توبيخ الذين يؤمنون به..

٩ - وفي سورة العنكبوت هذه الآية:

(وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) ٤٧. والآية مهمة جدا لأنها تتضمن تقرير ايمان جميع الذين أوتوا الكتاب بالقرآن. والسورة آخر السور التي نزلت في العهد المكي والله أعلم.

١٠ -وفي سورة الأحقاف هذه الآية:

(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله، فآمن واستكبرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين) ١٠. وبعض الرواة يروون أن الآية مدنية، وهي منسجمة في السياق، وليس من حكمة ظاهرة في وضع آية مدنية فيه في سورة مكية. وأسلوب قوي بل حاسم الدلالة على مكيتها، لأن الخطاب فيها موجه للكفار، وفيها تحد لهم وهذا انما يكون واردا في العهد المكي. فالاسرائيلي الذي عنده علم من الكتاب آمن به لأنه رآه متسقا مع ما عنده فيكون عدم ايمانهم مكابرة مفضوحة.

والآيات تمثل مختلف أدوار التنزيل المكي. ولو كان من فرد أو كثير من الكتابيين موقف سلبي تجاه القرآن والنبوة المحمدية لما تحرج القرآن عن ذكره، كما كان شأنه في ايراد كل ما كان من المشركين من مواقف سلبية فيها تسفيه للنبي وتكذيب ونسبة سحر وافتراء وكهانة وشعر وجنون اليه، وآية سورة العنكبوت التي هي آخر ما نزل بمكة قوية الدلالة على شمول الايمان لكل كتابي في مكة. وفي كل هذا مصداق لما قلنا: إنه لم يكن في العهد المكي معركة بين النبوة وأهل الكتاب. حيث كان موقفهم ايجابيا كل الايجابية. اندماجيا كل الاندماج. تصديقيا كل التصديق. غير عابئين بما كانوا يسمعون من تثريب أو يتعرضون له من أذى.

وهي شهادة عيانية عظمى للقرآن والنبوة المحمدية، وعلى صدق اعلام النبوة والقرآن وشمول رسالة الرسول للناس جميعهم كتابيين وغير كتابيين وعرب وغير عرب في ظرف كان النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته فيه عرضة لأشد مواقف المناوأة. والصد والأذى. وكان المسلمون فيه قليلين مستضعفين، حتى لقد اضطروا الى ترك وطنهم الى الحبشة أولا ثم الى يثرب (المدينة المنورة) أخيرا.

وكل موقف سلبي من الكتابيين خاصة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته من مكة والى يومنا هذا والى آخر الدهر بعد هذه الشهادة العيانية الرائعة من أولي العلم والكتاب هو باطل داحض، ومكابرة تدفع اليها المنافع والأنانية، وضيق الأفق والانحرافات وسوء النية وعدم الاذعان للحق والصدق.

ولقد كان عالم الجن مما يشغل حيزا كبيرا في أذهان البشر على اختلاف أجناسهم وأقطارهم وأديانهم. ومن الجملة أذهان أهل بيئة النبي [illegible] الله عليه وسلم. ولقد [illegible]دد القرآن ذلك كثيرا. وكان من [illegible] يعودون بالجن. ويعبدونهم تفاديا من أذاهم وشرهم. وكان لهم في أذهانهم صورة ضخمة من القوة والقدرة على الأعمال الخارقة وصعود الى السماء وتسمع لأخبارها وغوص في البحار، وانشاء جسيم المباني والمنشآت واستهواء البشر وخطفهم، واحتلال اجساد البشر وصرعهم لهم وايذائهم أشد الأذى، واغوائهم والوسوسة لهم. وكان الناس -والعرب منهم- يعتقدون أنهم كانوا أمما متنوعة، وعلى أديان ونحل وطرائق مختلفة. وكل هذا مما ردده القرآن في آيات كثيرة مبثوثة في سور عديدة نكتفي بايراد أسماء سورها وأرقام آياتها كما يلي:

(الأنعام ٧-١٠٠ - ١١٢ - ١٢٨ - ١٣١ والأعراف ٢٧ - ٣٨ والحجر ١٧ - ١٨ - ٢٦ - ٢٨ والاسراء ٦١ - ٦٤ والكهف ٥٠ - ٥١ والأنبياء ٨١ - ٨٢ وسبأ ١٢ - ١٤ و ٤٠ - ٤١ والصافات ٦ - ١٠ - ٥٨ - ٥٩ و ص ٣٤ - ٣٨ - ٤١ والرحمن ١٤ - ١٥ - ٣١ - ٣٦ والجن ١ - ١٥) فاقتضت حكمة التنزيل أن يوحى الى النبي بآيات سورة الجن هذه (قل أوحي اليّ انه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا. وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا) ١ - ٤. وبآيات سورة الأحقاف هذه (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضي ولّوا الى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين) ٣٠ - ٣٢.

وتفيد الآية الثالثة من آيات سورة الجن والله اعلم أن

الذين يحكي عنهم في الآيات هم نصارى يعتقدون ببنوّة المسيح لله. وأن الله نفخ من روحه في فرج أمه فولدته فصارت بمثابة صاحبة له. كما تفيد آيات الأحقاف أن الذين حكى قولهم هم على الديانة الموسوية وتوراة موسى.

وتبدو من خلال ذلك حكمة التنزيل بايذان سامعي القرآن وبخاصة زعماء مشركي مكة أن دعوة النبي قد شملت الانس والجن معا. وأنه كما استجاب لها من كان في مكة من أهل الكتاب نصارى ويهود من الانس، قد استجاب لها وآمن بها طوائف من نصارى ويهود الجن الذين لهم في أذهان السامعين ما لهم من صورة ضخمة. ونقف عندما وقف القرآن، لان الآيات من المتشابهات تتحمل وجوها عديدة.، ومنها ما لا يعلم تأويله إلا الله وبدون تكلُّف وتزيُّد نستشف الحكمة التي نرجو أن تكون ما ذكرناه، ونقول آمنا به كل من عند ربنا.

- ٧ -

وفي سورتي العنكبوت والشورى المكيتين آيات قد تبدو في ظاهرها مناقضة لما نقول من أنه لم يكن للكتابيين موقف سلبي في العهد المكي. غير أن التروي فيها يزيل الاشكال. ففي السورة الأولى هذه الآيات (أتل ما أوحي اليك

من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون. ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون) ٤٥ - ٤٨. والآية الثانية هي التي يبدو في ظاهرها المناقضة. وقد احتوت أمرا للمؤمنين بعدم مجادلة أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلاَّ الذين ظلموا منهم وأَمراً للمؤمنين في نفس الوقت كذلك بأن يقولوا لهم ما جاء في بقية الآية. وقد يفيد هنا ظاهرا ان من اهل الكتاب من جادل وبالتالي من لم يؤمن. غير أن الامعان في الآيات الثلاث يفيد شيئا آخر هو المتفق مع ما جاء في القرآن المكيّ من تسجيل ايمان الكتابيين جميعا. فالآية الأولى في صيغة المفرد وفيها خطاب للنبي والآية الثالثة كذلك. ويتبادر لنا ما دامت الآية الثالثة تسجل ايمان أهل الكتاب بدون استثناء ان في الآية الثانية خطة ربانية موجهة الى المؤمنين بما ينبغي أن يكون عليه موقفهم بصورة عامة ازاء أهل

الكتاب والمسلمين. وبعبارة أخرى أن في الآيات:
(١) تسجيلا بايمان أهل الكتاب بدون استثناء.
(٢) خطة للمؤمنين اذا ما أراد أحد من أهل الكتاب أن يجادلهم.

نأتي الآن الى آيات سورة الشورى، وهذا نصها (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب. وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضي بينهم، وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) ١٣ - ١٥. والآية الأولى عامة. وفي الآية الثانية اشارة الى تفرق الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم تقريرا لواقعهم الذي كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ممتدا الى ما قبله في مختلف الأنحاء التي هم فيها. ثم خطة للنبي والمؤمنين مماثلة للخطة التي في

الآية الثانية من آيات سورة العنكبوت. وليس فيها شيء صريح أو ضمني يفيد وقوف فريق من الكتائبيين في مكة موقفا سلبيا من الرسالة المحمدية والقرآن الكريم. ثم فيها امر للنبي صلى الله عليه وسلم بالاستمرار في دعوته والاستقامة عليها وعدم اتباع أهواء المتفرقين بصورة عامة كخطة للنبي صلى الله عليه وسلم. وتفرق أهل الكتاب بغيا بينهم أشير اليه في آيات مكية أخرى منها آيات سورة الجاثية هذه: (فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) ١٦ و ١٧ . وآية سورة النمل هذه (إن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) ٥٦ . وآية سورة يونس هذه (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ٩٢ .

— ٨ —

وليس هناك أي رواية فيما اطلعنا عليه تذكر أن أحدا من الكتابيين كان موجودا في مكة بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة. عدا صهيب الرومي رضي

الله عنه الذي تنازل عما كان له من أموال واستطاع بذلك أن يفلت ويلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم. أو حينما تم فتح مكة فيصح تقرير كون كل الكتابيين في مكة قد استجابوا للدعوة. واندمجوا فيها. ومنهم من تعرض في سبيل ذلك للأذى الشديد، مما ذكرته الروايات صحيحا صادقا كل الصحة والصدق. ويلفت النظر الى ما في الآيات من مجمل شامل (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون). في آيات سورة القصص (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) في آيات سورة العنكبوت (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك) في آيات سورة الرعد حيث يكون فيها دلالة على كون الاستجابة كانت تامة أو تمت تدريجيا أثناء العهد بدون استثناء.

ثانيا – في العهد المدني

– ١ –

لقد اختلف الأمر في العهد المدني في موقف أهل الكتاب عنه في العهد المكي لأنه كان في يثرب وامتداداتها القريبة والبعيدة كتل كبيرة من الاسرائيليين لها مركز قوي سياسي واجتماعي واقتصادي. ولها مصالحها الدنيوية نتيجة لذلك مما جعلها تصطدم بالدعوة النبوية حينما أصبحت

يثرب مركزها. ولم يستطع الا نفر قليل منهم أن يتغلب على تلك المصالح ويستجيب الى الدعوة.

وكان فيما بين يثرب وبلاد الشام قبائل نصرانية كثيرة. وكانت النصرانية هي السائدة في بلاد الشام وتحت هيمنة الروم العليا والفعلية. وتحت سلطان الغساسنة الخاضعين بدورهم لتلك الهيمنة والمتدينين بالنصرانية. فلمحوا أن في الدعوة الاسلامية التي صار يصل اليهم صوتها ونشاطها تهديدا لمركزهم فأدى ذلك الى الاصطدام معهم أيضا.

ولقد كان في اليمن كتلة نصرانية قوية في مقاطعة نجران فأدتها مصالحها الخاصة الى موقف سلبي من الدعوة أيضا.

- ٢ -

وما كان من الموقف الايجابي كل الايجابية الذي وقفه الكتابيون في العهد المكي من الدعوة -الذي مر شرحه- في ظروفه التي نبهنا عليها- هو دليل حاسم على أن الموقف السلبي الذي وقفه هؤلاء وهؤلاء وأولئك كان بسبب المصالح الدنيوية التي كان ينطلق منها تفكيرهم وتحركهم. ولقد كان لمطامع وأنانية رجال الدين اليهود والنصارى أثر قوي في الموقف السلبي عبرت عنه آيات سورة التوبة هذه (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما

امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون. يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) ٢١ - ٢٢.

فكان كل هذا مما جعل الاستجابة للدعوة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ضيق النطاق في جمهور اليهود والنصارى وان كانت النبوة سجلت انتصارا سياسيا حاسما على الاسرائيليين اليهود وانتصارا سياسيا ودينيا ولو كان الأخير في نطاق ضيق على النصرانية في مشارف الشام الممتدة بين يثرب وبلاد الشام وما وراءها.

وفيما يلي شرح وجيز لذلك:

أولا - المعركة بين النبوة واليهود:

- ١ -

لقد ورد ذكر اليهود وبني اسرائيل وأنبيائهم وتاريخهم وكتبهم في القرآن مسهبا أو متوسطا أو مقتضبا في نحو ستين سورة مكية ومدنية. وأسلوب الآيات المكية مختلف عن

اسلوب الآيات المدنية نتيجة لتبدل الموقف حيث خلت الأولى من العنف والجدل المباشر واقتصرت على ذكر تاريخهم وأحوالهم وما كان فيما بينهم وبين غيرهم في مصر وبعد خروجهم من مصر ؛ في حين أن الآيات المدنية كانت باسلوب الخطاب المباشر للذين هم في يثرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مع الدعوة والجدل والحجاج والتقريع والتذكير والتنديد بسبب ما قام من معركة بينهم وبين النبوة على اختلاف الصور والنصوص كثيرة جدا. نكتفي بايراد أسماء سورها وأرقامها وعلى القارىء أن يقرأها أثناء قراءته هذا البحث من المصحف: (البقرة ٣٠ - ١٠٤ وآل عمران ٦٥ - ١٢٠ والنساء ٤٤ - ٥٦ و ١٤٩ - ١٦٧ والمائدة ١٢ - ١٤ - و ٤٠ - ٨٢ والأنفال ٥٥ - ٦٠ والتوبة ٣٠ - ٣٣ والأحزاب ٢٦ - ٢٧ والحشر ٢ - ١٧ والجمعة ٤ - ٦).

- ٢ -

ونقول بعد هذا ان صور هذه المعركة في العهد المدني قد شغلت حيزا كبيرا من القرآن المدني وبخاصة في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة. وثلث سورة البقرة وربع

سورة آل عمران فيها. والمستلهم مما جاء عن أحوالهم في القرآن المدني انهم اسرائيليون وأنهم جاؤوا الى الانحاء الحجازية من أمد بعيد قبل البعثة المحمدية واستقر أكثرهم في يثرب وقرى أخرى في امتدادها نحو الشام. وقد تعلموا اللغة العربية مع احتفاظهم بلغتهم العبرانية. واشتركوا في حياة العرب وتقاليدهم. وصار لهم أنصار وحلفاء ومركز قوي. وقد نشروا عن أنفسهم علما واسعا في الأديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون والدين السماوي الذي يدينون به والكتاب المنسوب الى الله الذي يتداولونه. وكانوا يزهون بذلك على العرب ويفخرون بل ويدلسون عليهم في كل ذلك وينسبون الى الله وكتبه أشياء كثيرة كذبا وتبجحا. ويزعمون أنهم أولياء الله وأحباؤه وذوو الحظوة لديه. وقد أثر كل ذلك في العرب تأثيرا غير قليل فكان لهم بسببه بينهم مكانة ممتازة وصاروا لهم مرجعا في كثير من مشاكلهم ومسائلهم ومعارفهم بل وصاروا لهم مرشدين وقضاة. وكان لهم كيان طائفي ديني وكان لهم معابد ومدارس وأحبار. وكان منهم من يتخذ منصبه ونفوذه وسيلة إلى ابتزاز المال بالباطل. وكان منهم.

من يتعاطى السحر والشعوذة أيضا. وكانوا جاليات كثيرة العدد منهم، بل أكثرهم استقروا في أحياء خاصة لهم في يثرب، لها الاسوار والحصون والقلاع. ومنهم من سكن في مزارع وقرى خارج المدينة، منها القريب، ومنها البعيد، وحصنوها كذلك بالقلاع والأسوار. وكانوا يقتنون مختلف أنواع السلاح وبكميات كبيرة من سيوف ورماح وحراب وقسي ونبال ودروع. ولم يكونوا متحدين في كيان سياسي عسكري وسياسي وديني بل كانوا فرقا وأحزابا، وعلى خلاف وعداء وتنافس فيما بينهم. وكان في المدينة قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج وكان بينهما نزاع وخلاف وتنافس وحروب. وكان فريق من اليهود يتحالف مع احداهما وفريق آخر يتحالف مع الأخرى. وكان كل فريق يقاتل معه حليفه الفريق الآخر مع حليفه من اليهود. ولقد كان طابع الذلة والمسكنة والجبن والشعور بالغربة والفزع يطبعهم جميعا. فكانت تحالفاتهم مع العرب بالاضافة الى حصونهم وقلاعهم وسلاحهم وسيلتهم الى البقاء. وكانوا لأجل ذلك يحرصون على أن يبقى النزاع والعداء قائمين بين القبيلتين العربيتين. وكانت لهم حقول

ومزارع وبساتين وأملاك وأموال. وكان منهم من يشتغل بالتجارة والربا والصناعات. وكان كثير منهم نتيجة لذلك أغنياء وأصحاب ثروات. فكان ذلك يساعدهم على النفوذ والتأثير في العرب أيضا. وكل هذا مستلهم من آيات القرآن التي أوضح بعضها أحاديث وروايات موثوقة. ولقد ربطت الآيات القرآنية في وصف أخلاق ومواقف اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في يثرب وما جاورها بما كان لآبائهم من مواقف وأخلاق كجبلّة واحدة ورث الخلف من السلف جميع أخلاقه وسلوكه ومواقفه.

ولقد وصفتهم الآيات بالكفر والجحود واللجاج والأنانية والزهو وقسوة القلب والتبجح والترفع عن الغير واعتبار أنفسهم فوق الناس وعدم الاندماج الصادق مع أحد وعدم الولاء الصادق لأحد. وبالتضليل والتدليس والدس والشره الشديد الى ما في أيدي الغير. والحسد الشديد لهم ولو تمتعوا هم أنفسهم بأوفر النعم. ومحاولة الاستيلاء على الكل والتأثير بالكل. واللعب في وقت واحد على كل حبل. وفوق كل مسرح. واستحلالهم لما في أيدي الغير وعدم اعتبارهم أنفسهم مسؤولين عن شيء نحوه. وضنهم على الغير

بأي شيء اذا ملكوا. وعدم مبادلتهم للغير في ود وبر ومحبة واندماجهم في كل موقف غير شريف وغير كريم وغير حق ومهما دنؤ وفجر وهما كان فيه كفر وفسق وخيانة وغدر وسعيهم الدائم في الفساد ونقضهم لمبادىء دينهم وتشجيعهم لكل حاقد وفاسد ومنافق ومفسد ودساس ومتآمر والخداع والرياء... ألخ.

والآيات وان كانت في صدد وصف أخلاقهم في بيئة النبي فان روحها وفحواها يلهمان انها أخلاق اليهود عامة. وانه لمن العجيب المثير ان المرء يراهم اليوم في أخلاقهم على اختلاف منازلهم وبيئاتهم صورة طبق الأصل لما وصفهم به القرآن الكريم من صفات وأخلاق امتدادا لما حكته أسفارهم عنهم منذ القديم ورردده القرآن... لم تزدهم الأيام الا رسوخا فيها مما هو مصداق لما قرره القرآن من الجبلة الراسخة المنتقلة من الأولين للآخرين جيلا بعد جيل وما يزال يلمسه جميع أجناس البشر الأخرى فيهم في كل زمن ومكان حتى صاروا في ذلك كله العلم المفرد بين البشر والقبيل البشري الشاذ المجمع على شذوذه في كل ذلك عن سائر البشر. ومعظم يهود اليوم هم من جنس آري غير اسرائيلي. ولكنهم انطبعوا بقوة الأسفار التي يعيشون في

ظلها بكل ما تقدم من صفات وأخلاق..

- ٢ -

ومع أنهم كانوا يعرفون أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حق وصدق وكانوا يبشرون به على ما أشارت اليه بعض الآيات (آية سورة البقرة ٨٩ وآل عمران ٨٦) ومع أن النبي حينما حل في يثرب كتب بينه وبينهم عهدا آمنهم فيه على حريتهم ومعابدهم وأموالهم وأبقاهم على محالفتهم مع الأوس والخزرج وأوجب عليهم النصر والحماية مشترطا عليهم أن لا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدوا ولا يمدوا يدا بأذى[1]- فإنهم لم يلبثوا ان تطيروا من هجرته واستقراره في المدينة وأخذوا يتوجسون من رسوخ قدمه وانتشار دعوته واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الذي كانوا يستغلونه في تقوية مركزهم. وخشوا على هذا المركز والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها ويجنون منها أعظم الثمرات. ولقد كان ظنهم على ما يبدو أن يجعلهم النبي خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم وأمنع من أن يأمل في دخولهم في دينه وانضوائهم الى لوائه. بل لقد كانوا يرون

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٣.

أن من حقهم أن ينتظروا انضمامه اليهم ويتبجحون إنهم الأهدى وأصحاب الحظوة عند الله (انظر آيات البقرة ١١٨ - ١٣٠) ولا سيما حينما رأوه يصلي الى قبلتهم ويعلن ايمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ويجعل ذلك جزءا من دعوته فخاب ظنهم ورأوه يدعوهم في جملة الناس بل ويخصهم بلسان القرآن بالدعوة ويندد بهم لعدم الاستجابة اليها ولموقفهم منها موقف الانقباض والكفر (البقرة ٤٠ - ٤٤ و٨٧ - ٩١ والنساء ٤٧ والمائدة ١٥ -١٩) فكان كل هذا كما هو المتبادر باعثا لتنكرهم للدعوة وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدني. ثم رأوا الناس أخذوا ينصرفون عنهم ويتخذون النبي مرجعهم الأعلى ومرشدهم الأعظم وقائدهم المطاع فاستشعروا بالخطر الشديد يحدق بمركزهم الذي يتمتعون به بين العرب وامتيازاتهم التي كانوا يستغلون العرب بها اذا تم النجاح والاستقرار للنبي ودعوته فكان هذا عاملا على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والتعطيل والتآمر الى النهاية. وفي بعض الآيات مفاتيح صريحة لسبب هذا الموقف تعبر عن غيظهم من نبوة النبي ودعوته والقرآن الذي يوحى اليه،

وتعبر عما أخذوا يواجهونه من مصاعب وضيق يزيدهم في ذلك الغيظ.. من ذلك آية البقرة هذه (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) ٩. ومن ذلك آية سورة المائدة هذه (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا) ٦٤. وقد روي أنهم قالوا هذا حينما طلب النبي منهم المساهمة في ديات واجبة الأداء حسب العهد الذي بينه وبينهم، حيث اعتذروا بما يعانونه من ضيق اقتصادي بمثل الجملة التي حكتها عنهم الآية وفيها سوء أدب بالغ ازاء الله من شدة غيظهم. ولقد كانوا ينعمون بالرفاه والغنى، ويتبجحون بذلك على ما حكته عنهم آية آل عمران هذه (لقد سمع الله قول الذين قالوا أن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) ١٨١. وقد روي أنهم قالوا هذا حينما جاء اليهم النبي يطلب مثل ذلك بأمر من الله. والظاهر أن توطد قدم النبي صلى الله عليه وسلم،

وانصراف الناس اليه بدلا منهم، قد غير من حالهم هذا وجعلهم يزدادون غيظا وسوء أدب.

- ٤ -

ولقد أصبحوا نتيجة لذلك أعداء ألداء للمسلمين يتربصون بهم السوء وقد ملأ الحقد والغيظ قلوبهم منهم على ما حكاه عنهم القرآن في هذه الآيات القوية الدلالة:

١ - (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور. ان تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) آل عمران ١١٨ - ١٢١ وفي بقية الآية الأخيرة تطمين للمؤمنين وهي (وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط).

٢ - (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم

بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم واقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا) النساء ٤٥ و٤٦[١].

٣ - لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا).. المائدة ٨٢.

ولقد أنزل الله في حقهم نتيجة لمواقفهم العدائية والمكرية والكفرية والافسادية الآيات التالية:

١ - (لن يضروكم الا اذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون. ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) آل عمران ١١٠ - ١١٢.

---

(١) كانوا يلوون ألسنتهم بكلمة راعنا لتكون بمعنى الأرعن وصفا للنبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يدعون على النبي بالسوء في جملة (اسمع غير مسمع) حيث كانوا يريدون أن يقولوا له (اسمع لا أسمعك الله).

٢ - (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم).. المائدة ١٣.

٣ - (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين) المائدة ٦٤.

٤ - (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) المائدة ٧٩..

٥ - (واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) الأعراف ١٦٧.

ولقد كانت مواقفهم متنوعة.. منها ما كان تجاه الدعوة الاسلامية أساسيا:

(أ) وكانت أولى الآيات المعبرة عن هذا الموقف آيات البقرة (٤٠ - ٤٤) ثم تبعتها السلسلة الطويلة.

وفيها اقحام ودمغ وفضح وتدليل على كذبهم

وافترائهم على الله وتنديد قارع بهم.

(ب) ومنها مواقفهم الحجاجية حول ابراهيم عليه السلام وملته وقولهم: إنه على ملتهم وأن ملتهم خير الملل. وتمثل هذه المواقف آيات عديدة منها (البقرة ١١ - ١١٣ و١٢١ و١٤٠ وآل عمران ٥٦ - ٦٨).

(ت) ومنها حجاجهم في صدد نبوة النبي والقرآن. وتمثل أقوالهم آيات البقرة ٨١ - ٩٠ والجمعة ٢ - ٧ وفيها رد قارع مفحم.

(ث) ومنها ما كان فيه سوء أدب نحو الله ورسوله وسخرية وتحد وتعجيز. ويمثل ذلك آيات عديدة (آل عمران ١٨٠ - ١٨٣ والنساء ٤٤ - ٤٦ و١٥٣ - ١٦١ والمائدة ٦٢) وفيها كذلك رد قارع عليهم.

(جـ) ومنها مواقفهم الحجاجية حول الكعبة وتهويشهم وتشويشهم ودسائسهم حينما أمر الله تعالى رسوله بالتحول عن المسجد الحرام في الصلاة. وتمثل هذا الموقف مع الرد الفاضح المفحم (آيات البقرة ١٠٥ - ١٥٢، وآل عمران ٩٣ - ١٠٠).

(حـ) ومنها ما كان من دسائس بين المسلمين بسبيل تشكيكهم في ايمانهم والتدليس عليهم مع التواصي

بعدم الاعتراف بما عندهم من صفات الرسول والتطابق بين القرآن والتوراة وافترائهم على الله وزعمهم أن ما يقولونه هو من كتب الله كذبا. ويمثل ذلك مع الرد القارع الفاضح آيات عديدة منها (البقرة ٧٥ - ٧٦ و١٠٤ - ١٠٥ وآل عمران ٦٩ - ٧٣ و٧٧ و٧٨ و٩٩ - ١٣٠ و١١١ - ١٢٠ والنساء ٤٤ - ٤٦ والمائدة ٥٧ - ٦٣).

(خـ) ومنها دسائسهم بين الأوس والخزرج ومحاولتهم اثارة الأحقاد القديمة بينهم وحملهم على الاقتتال. ويمثل ذلك مع التنديد القارع آيات سورة آل عمران ٩٩ - ١٣٠).

(د) ومنها تآمرهم وتضامنهم مع المنافقين. وأول آية ذكر ذلك فيها آية سورة البقرة (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون).. والمفسرون مجمعون على أن شياطينهم هم اليهود. والوصف يدل بصراحة على الأثر الكبير الذي كان لليهود في حركة النفاق والمنافقين وعلى التضامن الوثيق بين الفريقين ضد الدعوة الاسلامية. ولقد احتوت سلسلة الآيات حملة

قوية على المنافقين. والمتبادر أن تواثقهم مع اليهود من الأسباب المباشرة لهذه الحملة. والآية والسلسلة من أبكر ما نزل من القرآن المدني وهذا يدل على ان ذلك التواثق والتضامن بين الفريقين كان منذ عهد مبكر من العهد المدني النبوي ثم استمر الى ان مكن الله رسوله من تطهير المدينة المنورة من اليهود في أواسط العهد المدني. وكانت خلال هذه المدة مواقف وحركات شديدة الأذى والكيد للنبي والمسلمين والدعوة الاسلامية من المنافقين بوسوستهم. ولقد كانت محالفات بين اليهود والأوس والخزرج قبل الاسلام على ما ذكرناه قبل فلما اشتد أذى اليهود وغدرهم ونقضهم للميثاق بينهم وبين النبي اقتضت حكمة التنزيل أن يوحي بآيات تأمر المسلمين بعدم الاستمرار في محالفاتهم معهم، فكان المنافقون من حلفائهم لا يستجيبون للأمر الرباني ويعتذرون بوجوب الوفاء بالعهد وبالخطر الذي يمكن أن يحيق بهم اذا نقضوا العهد مما يمثله آيات آل عمران ٢٨ - ١١٧ - ١٢٠ والنساء ١٣٨ و١٣٩ - ١٤٤ والمائدة ٥١ - ٥٣ والمجادلة ١٤ والحشر ١١ وظلوا

يتآمرون معهم ضد الاسلام والنبي والدعوة.

(ذ) ومن مواقفهم تآمرهم مع المشركين. ويمثل ذلك آيات سورة النساء ٥١ - ٥٢ التي يروى في صددها أن وفداً منهم ذهب الى مكة بتحريض زعمائها على غزو المدينة واستئصال شأفة الاسلام وعرض التحالف معهم وذهبوا مع الزعماء الى فناء الكعبة واقسموا عند الاصنام وتبركوا بها وقالوا للمشركين إنهم أهدى من محمد. وكان ذلك أبشع وأفجر موقف اندفعوا اليه بالحقد والحسد والعداء واندمغوا به بوصمة عار لا تمحى. ويمثل ذلك الموقف آيات سورة الأحزاب ٢٥ - ٢٧ التي فيها نص صريح بمظاهرة اليهود لاحزاب المشركين الذين غزوا المدينة بتحريضهم وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا من ذلك على ما حكته آيات سورة الأحزاب ٩ - ٢٤) وفي الآية (٨٢) من سورة المائدة ذكر لموالاة اليهود للكفار. وكان هذا منهم أثناء الصراع بين مشركي مكة والنبي صلى الله عليه وسلم.

- ٤ -

التنكيل باليهود:

ان اليهود لم يبقوا في نطاق جحود نبوة النبي صلى الله

عليه وسلم والقرآن والمكايدات والمماحكات والحجاجيات والدسائس الكلامية. بل تجاوزوه الى نقض العهد والغدر والخيانة اي العداء الفعلي الصريح منذ عهد مبكر مما تمثله آيات عديدة منها آيات البقرة ١٠٠ وآل عمران ١٢ - ١٣ والأنفال ٥٦ - ٥٧ والأحزاب ٢٦ - ٢٧ والحشر ٢ - ٤ و١١ - ١٥ فكان ذلك سببا مباشرا لدورالتنكيل الذي بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني، ثم استمرت الى أن تم اجلاؤهم عن المدينة وخضد شوكتهم واجلاء كثير منهم عن القرى الأخرى في الربعين الثاني والثالث منه.

ولقد تعددت فصول هذا الدور. وكان لكل فصل أسبابه الخاصة كما كان موضوع كل فصل فريقا دون آخر. ويدل ذلك على أن هذا التنكيل انما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد ازالة الضرر والخطر المحققين للفريق الذي حق عليه التنكيل وحسب. كما يدل على أنهم لم يقدموا جميعا على الخروج من نطاق الكلام الى العداء الفعلي والغدر والخيانة في وقت واحد. وسبب ذلك فيما هو المتبادر انهم لم يكونوا مجموعي الشمل في كيان سياسي وحربي واحد ومتواثق. وانما كانوا كتلا مستقلة. كل كتلة تسكن في محلة

خاصة بها. وكان بينهم خصومات ومنافسات أيضا بدليل أنهم كانوا متوزعين في التحالف بين بطون قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كان بينهما خصومات ومنافسات كذلك على ما ذكرناه سابقا وعلى ما احتوت تقريره او الاشارة اليه آيات سورة البقرة (٨٤ - ٨٥).

ولقد كان من فصول التنكيل ما هو افرادي ومنها ما هو جماعي ومن الأول:

(أ) قتل شاعر اسمه أبو عفك. حيث كان يهجو المسلمين والنبي ويحرض عليهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لي بهذا الخبيث)؟ فنذر سالم بن عمير رضي الله عنه نفسه له وترصده حتى استطاع أن يدخل عليه في ليلة صيف وهو نائم في فناء داره فوضع السيف على قلبه حتى خش في الفراش فكان في ذلك حتفه.

(ب) قتل شاعر آخر اسمه كعب بن الأشرف. حيث كان مثل سابقه يهجو المسلمين والنبي ويتناول نساء المسلمين وقد نظم قصائد في رثاء قتلى المشركين في بدر وحرض المشركين على النبي والمسلمين فيها فهتف النبي (من لي بابن الأشرف فقد آذاني وآذى

المسلمين) فنذر محمد بن مسلمة رضي الله عنه نفسه له وكان يتحصن في حصن فذهب اليه مع بعض قومه واستدرجوه الى خارج حصنه ووثبوا عليه وقتلوه وحزوا رأسه وأتوا به الى رسول الله فقال لهم: افلحت وجوهكم.

(ت) قتل زعيم يهودي اسمه أبو رافع. وكان ذهب على رأس وفد الى مكة وحرض زعماءها على غزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين، وكان من نتيجة ذلك زحف أحزاب المشركين. فوجه اليه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك رضي الله عنه مع نفر من أصحابه وكان يقيم في خيبر واستطاعوا أن يقتلوه.

(ث) قتل زعيم آخر اسمه أسير بن رازم. الذي خلف أبا رافع في زعامة يهود خيبر وقد أخذ يحرض قبائل غطفان على غزو المدينة فوجه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة على رأس نفر من أصحابه فاستدرجوه واستطاعوا أن يقتلوه مع نفر من جماعته.

- ٦ -

اجلاء بني قينقاع:

وكان أول فصل من فصول التنكيل الجماعية إجلاء بني قينقاع عن المدينة فقد كان لهم سوق تجارة وصناعة في قلب المدينة. وهم أول من أعلن الغدر والنقض والخيانة للمسلمين. وكان ذلك بعد وقعة بدر. وفيهم نزلت آيات سورة آل عمران (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) ١٢ و١٣. وآيات سورة الأنفال هذه (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون. فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون. وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) ٥٥ - ٥٧. وكان آخر أعمالهم الغادرة تعرضهم لامرأة مسلمة في سوقهم وقتلهم بعض المسلمين. فحاصرهم رسول الله وطلب منهم الجلاء، وتدخل زعيم المنافقين في أمرهم لأنهم كانوا حلفاءه، فسمح لهم رسول الله بالخروج مع أموالهم وأسلحتهم.

اجلاء بني النضير:

وكان الفصل التنكيلي الجماعي الثاني إجلاء بني النضير عن المدينة. وفيهم نزلت آيات سورة الحشر هذه (هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب) ٢ - ٥. والآيات صريحة بأنهم استحقوا التنكيل بالجلاء لأنهم شاقوا الله ورسوله. ومما روي من آخر مواقفهم أن النبي ذهب الى محلتهم ليطلب مساهمتهم في ديات واجبة حسب العهد الذي بينه وبينهم فتآمروا على قتله وتهيؤوا لالقاء صخرة عليه وأعلم الله نبيه ونجاه. فحاصرهم وطلب منهم الجلاء على أن يحملوا أموالهم وسلاحهم وأثقالهم ويوكلوا أناسا بمزارعهم وبساتينهم لحسابهم. وكانوا حلفاء لزعيم المنافقين فحرضهم على المقاومة ووعدهم بالنصر على ما حكته آيات أخرى في

نفس السورة أوردناها في سياق معركة الزعامة في العهد المدني (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذي كفروا من أهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون... ألخ) ١٠ - ١٥.

وقد ركنوا لوعد الزعيم المنافق، فرفضوا فشدد النبي عليهم الحصار، وأخلف الزعيم المنافق وعده فلم يكن لهم بد من الموافقة على الجلاء بشروط أشد من ذي قبل، حيث تخلوا عن مزارعهم وبساتينهم، فصارت فيئا للمسلمين، على ما ذكرته الآيات (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم. وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) ٧. وكان ذلك بعد وقعة أحد.

- ٧ -

التنكيل ببني قريظة:

وكان الفصل التنكيلي الجماعي الثالث هو التنكيل ببني قريظة في المدينة الذين نقضوا عهدهم وظاهروا أحزاب المشركين التي زحفت على المدينة وزلزل زحفها المسلمين

زلزالا شديداً واغتنم المنافقون الفرصة فتظاهروا بنفاقهم فازداد الموقف سوءا وزلزالا على ما جاء في آيات سورة الأحزاب (٩ - ٢٠) وقـــد ذكرت الأحزاب (٢٦) مظاهرتهم للمشركين. ولقد كانوا حلفاء للأوس وذهب زعيم الأوس اليهم مع زعيم الخزرج ليفهما موقفهم حينما جاءت زحوف الأحزاب. فأعلنوا لهم النقض والعداء. فلما رد الله الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى المؤمنين القتال كما جاء في آية الأحزاب (٢٥) حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون حصـارا شديـدا ونزلوا على حكم زعيم الأوس حليفهم، وكان هذا قد جرح من سهم أثناء حصار المشركين للمسلمين من وراء الخندق، فدعا الله أن لا يميته حتى يشفي غيظه من بني قريظة لموقف الغدر واللؤم الذي رآه منهم، فحكم بقتل مقاتليهم وسبي نسائهم وأطفالهم والاستيلاء على سلاحهم ومزارعهم وسائر أموالهم. وعرض النبي عليهم الإسلام، فلم يسلم الا واحد فنفذ فيهم حكم زعيم الأوس، وفي ذلك تقول آيات الأحزاب ٢٦و ٣٧ (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم

وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا).

- ٩ -

أثر القضاء على يهود المدينة:

وباستئصال شأفة بني قريظة تمّ القضاء على يهود المدينة الذين كانوا هم الأشد والأقوى والأغنى والأكثر والأبعد نكاية وأذى وكيدا. وكان هذا فاتحة عهد جديد للاسلام والدعوة الاسلامية. فالمنافقون الذين فقدوا محركهم القوي اللئيم ومدبرهم الالمعي وبالتعبير القرآني (شياطينهم) لم يلبثوا أن أخذ شأنهم يضؤل. وصوتهم يخفت. وقوتهم تهن. وكثرتهم تتناقص. وانكشف عن المسلمين غم شديد كان يستنفد منهم كثيرا من الجهود ويقض مضاجعهم، والمشركون الذين غزوا المدينة تلك الغزوة الكبرى التي زلزلت المسلمين وانضوى فيها عشرة آلاف من مشركي مكة وحلفائهم القبائل الأخرى والتي كان لليهود يد في تحريكها والتحريض عليها لم يعودوا يفكرون بغزو المدينة وقتال المسلمين. حتى ان هذا شجع النبي صلى الله عليه وسلم على زيارة الكعبة مع أصحابه بوحي رباني في المنام. ونتج عن ذلك صلح الحديبية الذي سماه القرآن فتحا مبينا وذكرنا

آثاره المباركة في الفصل السابق وزعماء مكة والقبائل الكثيرة التي كانت تقف موقف المتربص تبدل موقفها وأخذت تتقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالدخول في الاسلام أو بالتعاهد على المسالمة. وفرغ بال النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل رسله وكتبه بالدعوة الى الاسلام الى الملوك والأمراء والاقيال في داخل الجزيرة وخارجها من عرب وغير عرب. ولم يمر ثلاث سنين حتى استطاع أن يجمع جيشا قوامه عشرة آلاف ويزحف به على مكة بسبب نقض عهد الصلح من جانب حلفاء قريش وبتأييد من بعض زعمائهم ويفتحها فينهدم السور الكثيف الذي كانت تقيمه بين الاسلام وسائر العرب. ويفد عشرات الوفود الى المدينة من مختلف أنحاء الجزيرة ويبايعون النبي ويدخل الناس في دين الله افواجا.

- ١٠ -

خضد شوكة اليهود خارج المدينة:

ويهود المدينة وإن كانوا هم الأكثر والأقوى. وكان القضاء عليهم قضاء على القوة اليهودية الكبرى فإنه كان هناك جاليات عديدة اسرائيلية تستوطن أماكن عديدة في طريق يثرب - الشام. وقد أهملها النبي صلى الله عليه وسلم مدة

قصيرة مع ما كان يبدو منها من نيات سوء ومواقف تآمر ولا سيما زعماء خيبر الذين حرضوا زعماء مكة، وظلوا يحرضون القبائل. لأنها لم تكن من قوة الشأن ما يثير خوفا وخطرا عاجلين. بعد سحق رأس الأفعى في المدينة. فلما فرغ بال النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية مكة نتيجة صلح الحديبية بادر الى تصفية أمر تلك الجاليات وخضد شوكتها. وكان ذلك بعد مدة قصيرة من عقد ذلك الصلح. وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فاغتالوا زعيمي خيبر أبي رافع وأسير بن رزام واحداً بعد آخر. ثم زحف على رأس جيش على خيبر أولا. وكانت هي الأقرب والأكثر سكانا وحصونا واستعداداً وسلاحا والأشد حربا. وقد امتدت المصاولة الحربية بين المسلمين وأهل خيبر نحو شهر. وبدأت بمبارزات فردية ثم اشباكات جماعية. وانتهت بالنصر والفتح وخضوع اليهود واستسلامهم. وقد قتل منهم العشرات من صناديدهم وسبي عدد من نسائهم وأطفالهم، واستولى المسلمون على الحصون وما كان حول كل منها من بساتين نخل وحقول زرع، كما غنموا كثيرا من الأموال والسلاح. وقد عرض النبي على الباقين الاسلام فلم يؤمن الا

أفراد. فأجلى الخطرين منهم، واتفق مع من لا خطر منه على البقاء لرعاية البساتين والحقول مقابل نصف الغلة، وعلى أن يكون بقاؤهم رهنا بمشيئة المسلمين، وما لم يظهر منهم فساد وأذى. ثم زحف النبي صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه على وادي القرى الذي كان كثيف السكان، وفيه حصون عديدة وبساتين ومزارع. وتم النصر والفتح للمسلمين وخضع اليهود، واستسلموا بعدَ جهد ومقاومة أقل مما كان في خيبر. واستولى المسلمون على الحصون والبساتين والمزارع وغنموا كثيرا من السلاح والمال. وفعل النبي في المستسلمين ما فعله في مستسلمي خيبر حيث أجلى الخطرين وأبقى غير الخطرين لرعاية البساتين والمزارع على الشرط السابق ذكره. وكانت هناك مستوطنتان قريبتان هما فدك وتيماء - فجاء زعماؤها الى النبي مستسلمين وصالحوه على نصف أملاكهم وعاهدوه على المسالمة فقبل منهم على نفس ذلك الشرط. ولقد ظل الباقون الى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلاهم بسبب ما ظهر من أذى ونقض وطهر الأرض المقدسة من رجسهم. وهكـــذا سجلــت النبوة انتصارها الحاسم في معركتها مع اليهود وإن كان سياسيا أكثر منه دينيا.

استطراداً وتعقيباً على ما تقدم نقول:

ولقد ابتلي العرب والمسلمون في هذا العصر باليهود في بلادهم. ومع أن المسلمين فتحوا معهم صفحة جديدة بعد النبي فعاملوهم في ظل السلطان الذي مارسوه أمدا طويلا في مشارق الأرض ومغاربها أحسن معاملة. وآووهم وحموهم ومنحوهم الحرية في دينهم ومعابدهم وتجارتهم ومعايشهم شأن ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم نحو يهود الحجاز في حين أنهم أوذوا أشد الأذى وحرموا أشد الحرمان وسيموا أشد الخسف في البلاد الأخرى، فقد قابلوا العرب والمسلمين بالكفر والجحود والشر والمكر والكيد والبغي والعدوان كما فعل يهود الحجاز من قبل استمرارا في الجبلة الخلقية الفاسدة التي جبلوا عليها، والنحيزة الشريرة الآثمة التي توارثوها وتشربوها. وطمعوا في السيطرة على فلسطين أولا، فتكا وتشريدا وتدميرا وانتهاك حرمات ومقدسات وتغيير معالم، دون أن يرعوا ذمة ولا أخلاقا ولا انسانية ولا قانونا، ثم أخذوا يفعلون مثل ذلك في البلاد المجاورة لفلسطين مما هو ماثل للعيان، وتقشعر لهوله الابدان متضامنين متواثقين في ذلك مع الدول الاستعمارية الطامعة

في ثروات البلاد العربية والهيمنة عليها والهادفة الى ابقائها من أجل ذلك ضعيفة واهنة، والتي صارت الولايات المتحدة الأمريكية على رأسها. وصاروا نتيجة لذلك الهم المقيم المقعد للعرب والمسلمين بحيث لا يكون لهم أمان ولا استقرار ولا طمأنينة، ولا ازدهار ولا وحدة ما دامت جرثومة الشر المسماة (اسرائيل) قائمة في سرة بلادهم وعلى الأرض المقدسة من أوطانهم، فصار من أوجب الواجبات الدينية والقومية عليهم أن يقتدوا برسول الله الذي جعل فيه لهم الاسوة الحسنة، وان يستعدوا ويتضامنوا، ويجاهدوا جهادا لا هوادة فيه حتى يجتثوا تلك الجرثومة الخبيثة ويطهروا فلسطين وبلاد العرب من رجسها وشرها كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

ويهتف رجال الدولة المجرمة بالسلام، ويظن بعض المسلمين خداعا أو ضلالا أن الاستجابة لهتافهم واجب عملا بقول القرآن الكريم: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) وهذا خطأ بل اثم ديني وسياسي عظيم. لأن حالة الحرب بينهم وبين العرب ليست كما هي بين دولة ودولة وبلاد وبلاد لأسباب ما يصح أن تزول بمعاهدة صلح، فإن أربعة أخماس الأراضي والمدن والقرى والمنازل والحوانيت والبساتين

والحقول والكروم التي قامت عليها دولتهم المجرمة في سنة ١٩٤٨ هي ملك للعرب، استولوا عليها عنوة بالحديد والنار وطردوا منها أهلها بعد أن قتلوا الآلاف ومثلوا بالمئات من رجال ونساء وأطفال. والمطرودون منها منذ ذلك الوقت يعيشون خارج وطنهم في شتات وحرمان وعوز ومخيمات. ويبلغ عددهم الآن نحو مليونين بينما المجرمون المغتصبون يتمتعون بكل ما تركوا من المزارع ووطنوا محلهم مئات الآلاف الذين جمعوهم من كل أنحاء الدنيا. والسلم الذي يهتفون به يريدون به أن ينسى العرب كل ذلك ويقبلوا ببقاء كل الأراضي والمدن والقرى والمزارع والبساتين والمنازل والحوانيت في أيديهم وببقاء أصحابها مشردين خارج وطنهم يعيشون حياة البؤس والحرمان والمخيمات والشتات ثم أن يعقدوا صلحا مع الدول العربية على أساس ذلك يمكنهم بالاضافة الى ما استولوا عليه وغصبوه من فلسطين من الرتع في البلاد العربية الأخرى سياسيا واقتصاديا وثقافيا وفسادا وتجسسا. وحقوق أهل فلسطين في تقرير مصيرهم وإنشاء دولة مستقلة لهم في وطنهم وعودة المشردين الى منازلهم وممتلكاتهم مقرر في عشرات القرارات الصادرة من هيئة الأمم المتحدة فضلا عن كونها حقوقا

طبيعية ،والمجرمون يرفضون التسليم بذلك منذ قيام دولتهم الى الآن ويقابلون كل مسعى بالعنف والنار والتعطيل والاستهتار. وليس من سبيل الا بمجاهدتهم باستمرار حتى يسترد المغصوب وتتطهر الأرض المقدسة من رجسهم اسوة بما فعله رسول الله وخلفاؤه الراشدون. والعرب من ورائهم المسلمون بل مئات الملايين من الدول الأخرى قادرون على ذلك اذا صدقوا في الجهاد والاستعداد له. وقد وعد الله بنصر من ينصره وهو القوي العزيز الذي لا يخلف الميعاد.

ثانيا - المعركة بين النبوة والنصارى في العهد المدني:

- ١ -

لم يكن في المدينة نصارى مقيمون الا أفراد قلائل. منهم من أسلم ومنهم من سالم. وكان يأتي اليها وفود نصرانية لاستطلاع أخبار النبي صلى الله عليه وسلم ومناظرته. ومنهم من كان يؤمن ومنهم من كان يكابر ويعود معاهدا على المسالمة.

وفدا نصارى نجران اليمن:

لقد ترجح لدينا من تمحيص روايات السيرة وتفسير آيات القرآن أن نصارى نجران اليمن أوفدوا وفدين واحدا قبل فتح مكة. وواحدا بعده. ومعظم المفسرين بل كلهم

يروون أن صدر سورة آل عمران السابق لفصل وقعة أحد في السورة قد نزل في مناسبة وفد نصارى نجران اليمن حيث يمكن أن يكون انتصار النبي والمسلمين على مشركي قريش في وقعة بدر الكبرى مما حركهم وجعلهم يرسلون وفدا للاستطلاع لأنه لا بد من أن يكون لذلك النصر دوي عظيم في أنحاء الجزيرة. وفي كتاب الخراج للامام ابي يوسف المكتوب في القرن الثاني للهجرة ذكر لوفادة وفد نصارى نجران وعقده مع رسول الله عهدا على المسالمة والجزية وعليها شهادات رجال أسلموا بعد الفتح. وفي سيرة ابن هشام ذكر لوفد نجران الذي ناظر النبي وسالمه بدون ايمان وعقد معه عهد جزية. وهذا بالاضافة الى كون صدر سورة آل عمران الذي تجمع الروايات على أنه في صدد وفد نجران سابقا لفصل وقعة أحد جعلنا نرجح أن نصارى نجران قد أرسلوا - كما قلنا وفدين - وفدا قبل الفتح المكي ووفدا بعده. ونرجح أن الوفد الأول جاء بعد وقعة بدر وقبل وقعة أحد والله تعالى أعلم.

وما ذكره ابن هشام عن الوفد الأول - أنه كان مؤلفا من أربعة عشر من رجال دينهم. منهم من سمي الأسقف

ومنهم من سمي العاقب أو صاحب الكلمة الحاسمة، وقد تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدد عيسى عليه السلام. وتلا رسول الله ما نزل من القرآن في ذلك. فكابروا وتمسكوا بعقيدتهم بنبوّة المسيح وألوهيته فدعاهم بأمر الله الى المباهلة أي أن يجتمعوا معا ويبتهلوا الى الله بلعنة الكاذبين منهم. وهذا ما وردت الاشارة اليه في آيات سورة آل عمران (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين. ان هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم. فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين. قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) ٦١ - ٦٤.

ومما ذكره ابن هشام الذي ذكر خبر الوفد قبل وقعة أحد، ولم يذكر خبر وفادة وفد بعد الفتح إن الوفد استمهل النبي صلى الله عليه وسلم في صدد المباهلة. واجتمعوا وتحدثوا فيما بينهم، فقال بعضهم لاسقفهم عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم أن محمدا النبي مرسل. ولقد

جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم (يعني حقيقة عيسى عليه السلام) ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم أو نبت صغيرهم. وانه للاستئصال لكم إن فعلتم. فان كنتم أبيتم الا إلف دينكم والبقاء على قولكم في صاحبكم، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا الى بلادكم. فاتفقوا على ذلك وجاؤوا في الغد فقالوا لرسول الله: (ألست تقول إن عيسى كلمة الله وروح منه. قال: بلى فقالوا هذا حسبنا ولا نريد أن نتلاعن معك). وقد ندد بهم القرآن في آية سورة آل عمران السادسة التي تندد بالذين يتبعون متشابه القرآن ويتجاهلون محكمه. لأن محكمات القرآن تقرر أن عيسى بشر ومثله كمثل آدم وأنه عبد الله ورسوله. وأن تلك الكلمات هي من المتشابهات التي نزلت للتعبير عن الاعجاز الرباني في ولادة عيسى. ولم يبالوا بذلك وبقوا على موقفهم. ثم طلبوا من النبي أن يرسل معهم شخصاً حكماً من أصحابه ليحكموه في حل خلافات بينهم، فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه. ومما ذكره ابن هشام أن أحد كبارهم أبا الحارث عثرت بغلته فقال أخوه: تعس الأبعد (يريد رسول الله) فقال له: بل أنت تعست، فقال له ولم يا أخي؟ فقال والله إنه النبي الذي ننتظر، وإن اسمه في الرقوق التي عندنا. فقال له أخوه وما يمنعك وأنت

تعلم هـذا؟ فقال مـا صنع لنـا قومنـا. شرفونا وأكرمونا ومولونا فلو فعلت لنزعوا منا كل ما ترى. حيث تكون المنفعة الدنيوية هي التي منعتهم من الاذعان. وفي هذا مصداق لما قال الله: (ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) ومما رواه ابن هشام ان الأخ واسمه كرز كبر عليه هذا الموقف ففارق الوفد، وجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم واسلم، وبقي في المدينة، وانه ألقى أمام النبي حينما وفد عليه هذا الرجز:

إليـك تغـدو قلقا وضينها. معترضا في بطنها جنينها.
مخالفا دين النصارى دينها.

والمتبادر أنه أخبر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما دار من حوار بين رجال الوفد، وما قاله له أخوه فقد أولته الألسن ودونه ابن اسحق ونقله عنه ابن هشام.

— ٣ —

وفد نصارى نجران اليمن الثاني:

ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم بعد قليل من فتح مكة سرايا الى اليمن للدعوة الى الاسلام فارسل نصارى نجران وفدا كبيرا الى المدينة مؤلفا من ستين رجلا معهم الحبرات الحريرية، وأحلهم النبي ضيوفا عليه في سرادق أقامه لهم في مسجده وتباحثوا معه. ولم يؤمنوا، ولكنهم

عقدوا معه معاهدة بالمسالمة والخضوع لسلطانه وأداء جزية سنوية مقدارها الفا حلة والفا أوقية من الفضة. وأمنهم في المعاهدة على حريتهم ومعابدهم ومراكزهم وأملاكهم بشرط عدم تعاطي الربا. ولقد بقوا على عهدهم هذا الى زمن خلافة عمر رضي الله عنه وعلم بمخالفتهم للشرط فأجلاهم الى العراق. وفي كتاب فتوح البلدان للبلاذري والطبقات لابن سعد والخراج للامام يوسف تفصيل لذلك ونصوص مأثورة فيه.

وفد نصراني آخر:

- ٤ -

في سورة المائدة هذه الآيات (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) ٨٢-٨٥

والروايات مختلفة في هوية هذا الوفد حيث يذكر بعضها أنه من الأحباش كما يذكر بعضها أنه من سورية.

والآيات تلهم أن الوفد كان يفهم العربية فتأثر بالقرآن العربي الذي سمعه من رسول الله حتى فاضت عيونه من الدمع مما عرف من الحق. ولقد كان في سورية كتلة نصرانية عربية كبيرة. ونحن نرجح على ضوء ما حكته الآيات من مشهد إيمائي خاشع رائع نتيجة لفهم القرآن أن الوفد من هذه الكتلة. وهكذا يتكرر في هذا المشهد شهادة عيانية ايمائية لاعلام النبوة المحمدية حينما يستطيع سامع القرآن من الكتابيين ومن غيرهم مطلقا أن يتغلب على أنانيته ومنفعته الذاتية ويكون عنده رغبة صادقة في الحق اذا سمعه ورآه فيسارع الى الانضواء اليه.

الحرب والصدام مع النصارى في مشارف الشام:

- ٥ -

ولقد كان في طريق يثرب - الشام قبائل نصرانية عديدة كما قلنا قبل. وكان منها من يتعرض لقوافل التجارة التي تخرج من المدينة، فكان ذلك مما فتح باب الحرب والصدام بينهم وبين المسلمين تحت لواء رسول الله. ولقد أرسل رسول الله بعد صلح الحديبية رسله وكتبه الى الملوك والأمراء ومن جملتهم هرقل ملك الروم وملك الغساسنة العربي في بصرى الشام، فقتل رسول رسول الله الى الملك

الغساني بأمر من هذا الملك، كما قتل عامل من عماله اسمه فروة أعلن اسلامه بأمر منه. ولقد شلحت بعض القبائل رسول رسول الله الى هرقل حينما عاد من رحلته فكان ذلك مما أكد أسباب الحرب والصدام.

وقائع الحرب والصدام

ولقد سجلت كتب السيرة وقائع عديدة وقعت بين قبائل نصرانية في مشارف الشام وسرايا كان يرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة بعض أصحابه للانتقام من المعتدين على القوافل والسابلة ولمواجهة تحشدات يبلغه خبرها بقصد غزو المدينة أو للدعوة الى الاسلام كما سجلت خمس غزوات قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبيل ذلك. ولقد كان بعض سرايا الدعوة ينجح فينضوي بعض القبائل الى الاسلام، وكان بعض هذه القبائل يجنح الى المسالمة فيعقد مع النبي صلى الله عليه وسلم معاهدات سلم مع جزية أو بدونها. وهذا مسلسل موجز للغزوات والسرايا المحدودة:

(١) غزوة لدومة الجندل بقيادة رسول الله في آخر السنة الرابعة للعهد المدني لمواجهة تحشيد نصراني ضد المدينة. ولم يقع اشتباك وأسلم بعض الناس.

ولكنني أحب أن اقول هنا أن للإعلام الخارجي جهوداً متضافرة مكثفة لا تعتمد على ما تقدمه الصحف والاذاعة والتلفزيون فحسب - بل هو عمل أضخم بكثير يشترك فيه ابناء الأمة المسلمة كلها - ويبدأ بالطالب الذي يسافر الى الخارج للدراسة الى السفير الذي يمثل دولته في الغرب أو الشرق.

وما قيمة ان نقدم جهودا إعلامية عظيمة ممثلة في فيلم أو برنامج مشرف عن بلادنا اذا ذهب البعض الى الخارج وتصرف تصرفا غير لائق به كانسان مهذب متحضر ومسلم؟

والحقيقة التي يجب ان يعلمها أبناء الامة المسلمة جميعا هي ان كل فرد منهم رسول إعلام..

وقد يعودون الى بلادهم بانطباع جيد يكتبون أو يذيعون الحقائق في صدق وأمانة أو يعودون بانطباع سيء وتكون النتيجة العكس.

وهناك قضية أساسية في الإعلام الخارجي تظهر اهميتها بوضوح بالنسبة للملكة العربية السعودية ودول الخليج هي موضوع الإعلام الخارجي بعد التحركات البترولية في السنوات الاخيرة وما كان لها من آثار كبيرة في

وكانت بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه. وكانت مؤلفة من نحو ثلاثة آلاف مجاهد. ومؤتة في أرض البلقاء مما يقرب من معان. وقد سيرها رسول الله للثأر لدم رسول رسول الله والعامل اللذين قتلا بأمر الملك الغساني على ما مر ذكره. واسم رسول رسول الله الحارث بن عمير. واسم العامل فروة ابن عمرو الجذامي. ولقد حسب رسول الله للعواقب فسمى جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة ليتوليا القيادة واحدا بعد آخر، اذا استشهد زيد. ولقد حشد الروم والغساسنة حشدا عظيما لمقابلة الجيش الاسلامي، ووقعت اشتباكات عنيفة واستشهد القواد الثلاثة رضي الله عنهم واحدا بعد آخر، ثم ندب المجاهدون خالدا بن الوليد لقيادتهم واستطاع بحركة استبسالية فاجأ بها الأعداء أن ينسحب مع المجاهدين بعد أن أدهش الأعداء وكشهم من أمامه بتلك الحركة. وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف الله.

- ٧ -

ثم كانت غزوة تبوك الكبرى التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة من الهجرة والتي يروى أن عدد المنضوين فيها كان نحو ثلاثين ألفا والتي نزل شطر كبير من سورة التوبة في أثنائها. ولعله أعظم جيش اجتمع تحت

راية واحدة في شمال الجزيرة. وكان سببها المباشر ما بلغ رسول الله من تجمع نصراني قبلي عظيم في تبوك لغزو المدينة جوابا على سرية مؤتة التي غزت النصرانية في عقر دارها وملكها على الأرجح. وقد حشد النبي كل ما أمكن حشده لتكون حملته متكافئة مع ما يمكن أن يلقاه من القبائل العربية النصرانية والكتائب الرومانية التي قد تكون معهم ولتحقق غرضا عظيما آخر فيما نعتقد وهو القاء الرهبة في الجزيرة وما جاورها وإظهار ما صار اليه أمر المسلمين من قوة وعدة، والمسافة بين المدينة وتبوك نحو خمسة عشر يوما على سير الجمال. ولما وصل النبي الى تبوك على رأس جيشه، وجد التجمع قد تفرق حينما بلغه تحرك الرسول على رأس جيشه العظيم. فلم يقع اشتباك. وكان للغزوة مع ذلك مكاسب مادية وسياسية ودينية. حيث أرسل رسول الله سرايا من تبوك الى أنحاء عديدة في المنطقة للدعوة والارهاب.

وقد جاءه رئيس مدينة أيله يوحنا بن رؤبة وعقد معه معاهدة سلام وجزية. وجاءه رؤساء مستوطنات يهودية في تلك الأنحاء القريبة الى الشام أكثر منها الى الحجاز سمتها كتب السيرة بأسماء (بني عاديا) و(بني العريضة) و(بني جنبه)

و(مقتا) و(الجرباء) و(اذرح) فعقدوا معه معاهدات سلام وجزية كما فعل مع الرئيس النصراني رؤبة. وجاءه ملك دومة الجندل نتيجة لسرية قادها خالد بن الوليد فعقد معه معاهدة سلام وجزية ثم أسلم هو ومعه جمع كبير من أتباعه. وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم منصورا غانما بعد أن أقام نحو شهر في تبوك.

- ٧ -

جيش أسامة بن زيد:

ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشعر بشفاء النفس لأن ثأر شهداء مؤتة لم يؤخذ من الملك الغساني والروم مباشرة فجهز جيشا وأسند قيادته لأسامة بن زيد بن حارثة القائد الأول لسرية مؤتة. ولم يتحرك الجيش في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه مرض المرض الذي توفاه الله فيه فتأخرت حركته، ومات رسول الله فكان أول عمل للخليفة أبي بكر رضي الله عنه انفاذ عزيمة رسول الله وتحريك جيش أسامة. وذهب الجيش حتى وطئ أرض مؤتة. ولم يلق كيدا كبيرا. وعاد سالما غانما.

- ٨ -

وهكذا كان النصر في معركة النبوة مع النصارى في الساحة الواسعة الممتدة من يثرب الى ما بعد تبوك للنبوة،

وإن كان نصرا سياسيا أكثر منه دينيا كما كان الشأن في معركة النبوة مع اليهود للأسباب التي شرحناها قبل، والتي كانت ظروفها مختلفة عن ظروف الكتابيين في مكة الذين استجابوا للدعوة جماعيا وطوعيا وانضووا الى الاسلام. وكان في ذلك الشهادة الحاسمة التي لا تدحض على أن عدم الانتصار الديني في العهد المدني للنبيّ إنما كان لأسباب لا تمت الى طبيعة الدعوة والتي كان منطلقها الاعتبارات والمكاسب الدنيوية والسياسية.

ولقد أتم خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم النصر في بلاد الشام ومصر وشمال افريقية بالنسبة لأهل الكتاب النصارى الذين كانوا تحت سلطان الروم والذين كانوا الجمهور الأعظم من سكان هذه الساحة الواسعة وصار نصرا دينيا كاسحا أيضا خلال مدة قصيرة تعد قياسية في حساب التاريخ. فقد رأوا من واجبهم أن يستمروا على خطة وخطوات رسول الله في الدعوة الى دين الله خارج الجزيرة وفي التصدي لمن يعطلها ويناوئها ويظهر العداء لأهلها. وكانت أولى الخطوات في ذلك في زمن الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه، حيث بعث خالد بن سعيد ابن العاص رضي الله عنه الى ناحية البلقاء للدعوة الى الاسلام

وعدم قتال من لا يقاتله. وقد نشط خالد في دعوته وأقبل كثير من النصارى على اعتناق الاسلام. وعظم ذلك على الروم فجمعوا الجموع وتصدوا للبعث الاسلامي وبلغ ذلك ابا بكر رضي الله عنه فأرسل بعثا جديدا بقيادة يزيد ابن أبي سفيان رضي الله عنه ووصاه توصية عظيمة رائعة وأمره فيها فيما أمره دعوة الناس وعدم قتال من لا يقاتله ثم أردفه بثلاثة بعوث أخرى عين لكل منها وجهة للدعوة الى الاسلام وعدم قتال من لا يقاتلهم. وأخذت الوقائع تقع بين البعوث الاسلامية وقوات الروم في عهد أبي بكر ثم في عهد خليفته عمر وعثمان رضي الله عنهم.

وصدق الله وعده فنصر المؤمنين وتوطد السلطان الاسلامي العربي مكان السلطان الرومي ورافق ذلك انضواء واسع للاسلام واندماج واسع في العروبة. ولم تمض مائة سنة حتى غدت هذه البلاد عربية مسلمة باستثناءات قليلة أساغها التسامح الاسلامي والمبادئ الاسلامية التي منحت حرية التدين لمن سالم المسلمين وصار النصر سياسيا ودينيا معا في معركة النبوة والنصارى.

- ٩ -

وهذه الاستثناءات كانت بسبب مآرب سياسية ومنافع

ذاتية. فقد كان معظم النصارى في بلاد الشام ومصر على المذهب اليعقوبي، وهو غير مذهب الروم أصحاب السلطان. وكان فريق من أهل الشام على مذهب الروم فحرضهم الروم على مناوأة الاسلام والسلطان الاسلامي. وأغروهم بالمنافع فتم التواثق ووحدة الموقف بينهم. وظلوا على صلة بالروم يتلقون تعليماتهم وأموالهم ويتحركون بدسائسهم منقبضين عن الاسلام مناوئين لسلطانه العربي. ولقد رأى اليعاقبة في القرآن آيات فسروها تفسيرا ملائما مع مذهبهم الذي هو وحدة المسيح واجتماع اللاهوتية والناسوتية فيه مثل (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) النساء ٧٢. فكان هذا مما جعلهم يقبلونه على اعتناق الاسلام ولقد كان منهم رهبان يجبون من الكنائس والأديرة عائدات، فبذل بعضهم جهده لإبقاء بعض طوائفهم على النصرانية لضمان تلك العائدات، ولقد نادى الاسلام بحرية التدين لكل الناس بشرط مسالمة الاسلام والمسلمين فوسع السلطان الاسلامي العربي وجود تلك الطوائف المتمذهبة بالمذهب الرومي الملكاني، وهذه الطوائف المستجيبة لجهود الرهبان فكان هذا وذاك هما الاستثناءات القليلة وصار النصر في معركة النبوة سياسيا ودينيا معا

كاسحا كما قلنا في هذه المساحة الشاسعة الممتدة الى البحر المحيط الأطلسي.

- ١٠ -

ولقد كانت الدعوة الى الاسلام في العراق العربي الذي كان تحت هيمنة الفرس والذي كان معظم سكانه نصارى نسطوريين قريبين من المذهب اليعقوبي. وقد تصدى الفرس لتعطيل الدعوة فبعث أبو بكر رضي الله عنه خالد ابن الوليد رضي الله عنه الذي حالفه النصر فتوطد به السلطان الاسلامي في مدة قصيرة.

ثم انتكس الأمر فسير عمر ثم عثمان رضي الله عنهما البعوث التي حالفها النصر وتم لها تقويض سلطان الفرس نهائيا عن العراق العربي وقسم عظيم مما وراءه وتوطيد السلطان الاسلامي ورافقه ذلك انضواء واسع للاسلام كما هو الشأن في بلاد الشام ومصر وكان هذا الانضواء من النصارى والمجوس معا. مع استثناءات قليلة من قبيل ما ذكرناه قبل ولنفس الأسباب والظروف. وقد عومل المجوس أسوة بأهل الكتاب لرواية أن لهم كتابا ونبيا. ولم يلبث الاسلام أن سادهم وانتهت المجوسية فكان ذلك نصرا سياسيا ودينيا عاما.

ولقد كانت خطوات النصر الأولى بعد تقويض سلطان

الروم والفرس عن هذه الساحة الواسعة الممتدة من بلاد فارس والخليج العربي شرقا والى ساحل البحر المحيط الاطلسي غربا دخول معظم أهل البلاد في صلح وذمة السلطان الاسلامي مقابل جزية زهيدة تؤخذ من القادرين ومن غير الأطفال والنساء ورجال الدين. ثم كانت تلك الاستجابة الواسعة للدعوة الاسلامية التي كانت عناصر الاستجابة فيها قوية بالغة باهرة لا يسع من أراد الحق ورغب فيه واستطاع أن يتغلب على أنانيته الا الانضواء اليها. ولقد كان هذا من قبل من الكتابيين في العهد المكي فضربوا المثل الأعلى في الرغبة في الحق والاذعان له.

ولقد استمرت الدعوة الاسلامية للكتابيين وغيرهم بدون انقطاع بعد الصدر الاسلامي الأول وأحرزت انتصارات عظيمة. وتجاوزت من الشرق بلاد فارس الى بلاد الترك والتتر والبلوج والأفغان والبنغال وأقساما من الهند والصين وجزر الملايو والفليبين وماليزيا وسادت في كثير من هذه الأنحاء، ثم تجاوزت من الشمال الى بلاد القرم والشركس المسماة الطاغستان في أطراف أوروبا الجنوبية الشرقية ثم اكتسحت قسما عظيما من أواسط وغرب وشرق القارة الافريقية وقسما من جنوب أوروبا الغربية. وكان كل هذا خطوات بعد خطوات في سبيل تحقيق وعد الله عز

وجل (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

- ١٢ -

ومن الجدير بالتسجيل أن كثيرا من هذه الخطوات كانت تتم بدون أن يكون تنظيم قوي ومن دون أن يكون سلطان اسلامي قوي. ونتيجة لما في الرسالة الاسلامية من عناصر الاستجابة القوية التي أجملتها الجملة القرآنية (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) والتي تمثل أقوى تمثيل وأروعه فيما احتواه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من تلقينات وتوجيهات وتشريعات ومعالجات وأوامر ونواه ايمانية واجتماعية وسياسية واقتصادية وأسرية وسلوكية وشخصية وتبشيرية وروحية من شأنها الاستجابة لكل مطلب مشروع وحل كل مشكلة وضمان المساواة والأخوة والحرية والحق والعدل والاحسان. وبكلمة واحدة ضمان السيادة التامة للبشر في الدنيا والآخرة معا على أتم وجه وأوسعه وأفضله.

ولو تسنى للدعوة تنظيم وتأييد قويان لكان وعد الله تعالى قد تحقق اطلاقا. ونحن مؤمنون بتحققه والله لا يخلف وعده. وإنه لمن واجب المسلمين وحكوماتهم وهيئاتهم وأغنيائهم الإسهام في ذلك لأنه واجب ديني عليهم.

وإني استسنح الفرصة لأطرح على المؤتمر الكريم فكرة انشاء منظمة اسلامية عامة يشترك فيها جل أو كل الحكومات الاسلامية والهيئات الاسلامية تضطلع بإنشاء معهد لتخريج دعاة ومرشدين ملمين بلغة أو أكثر غير العربية وضمان تفرغهم وتنظيم نشاطهم ليبذلوا جهودهم في أواسط المسلمين وغير المسلمين وفي بلاد العرب وغير العرب لنشر معالم الاسلام الصحيح والدعوة اليه وشرح خصائصه المميزة التي يصير المؤمنون بها خيرأمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون الى الخير ويكونون وسطا خيرا في كل شأن من شئون الدين والدنيا. وأعتقد أن في انشاء هذه المنظمة ثم المعهد أجل خدمة تخدم بها السيرة النبوية الشريفة التي ينعقد المؤتمر الكريم لتمجيد ذكرها.. وأرجو أن يكون تأسيسها ثمرة عملية طيبة من ثمرات المؤتمر. وأرجو الله أن يشرح صدور القائمين على المؤتمر والمسهمين فيه لذلك. وأن ييسر لهم أسباب نجاحه. وحبذا أن تسمى المنظمة باسم المنظمة المحمدية والمعهد باسم المعهد المحمدي ليكون في التسمية إعلان وتوكيد لأهداف المؤتمر ومداه وشعاره.

والحمد لله رب العالمين


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الإسلام والتسامح الديني

للدكتور أحمد دوموكاو ألنتو

« الفلبين »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

(الاسلام والتسامح الديني).

بحث مقدم من
الدكتور أحمد دوموكاو ألنتو

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره الكافرون. وصلاة الله على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مقدمة:

منذ أقدم العصور ومشكلة التسامح الديني قائمة أمام الجنس البشري وغياب هذا التسامح كانت ولا تزال من الأسباب الأساسية للقلاقل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وفي رأيي أن الاسلام وحده هو الذي كفل للبشرية الصيغة المتكاملة لحل هذه المشكلة بما نزل في القرآن الكريم وما قدمه الرسول صلى الله عليه وسلم من دروس ونماذج.

ومن هذا المنطلق اخترت هذه الدراسة كمثل محدد لحل مشكلة لا يزال العالم يعاني منها حتى في هذا العصر الذي يعتبر متقدما.

الفلبين:

كانت الفلبين ولا تزال مسرحا للصراعات الدينية المؤسفة بين الاسلام والمسيحية ولعلها أطول هذه الصراعات عمرا. وكانت الفلبين سابقا مستعمرة أسبانية ثم خضعت لسيطرة الولايات المتحدة وفقا لمعاهدة باريس في ١٠ ديسمبر ١٨٩٨. وتتكون الفلبين من مجموعة كبيرة من الجزر يزيد عددها عن ٧٠٠٠ جزيرة تشكل جغرافيا ما يسمى بالأرخبيل. وتقع الى الشمال من أندونسيا في الجنوب الشرقي من آسيا. وهي أعلى قليلا من خط الاستواء يحدها من الشمال بحر الصين الجنوبي

ومناخ الفلبين استوائي ينقسم الى فصلين المطير والجاف مع احتمال هطول الامطار طول العام.

ويقع جزء من الأرخبيل في اطار ما يعرف بالحزام الاعصاري حيث تعتبر العواصف المدمرة ظاهرة متكررة خلال الفصل الجاف الذي يبدأ في شهر مايو ويستمر حتى ديسمبر.

شعب الفلبين:

لا يعرف بالضبط متى بدأ استيطان الفلبين ولكن

النظرية السائدة تشير الى أن الايتاس هم السكان الأصليون للأرخبيل.

ويتميز الايتاس بضآلة الحجم وسواد البشرة والشعر الجعد ويعتقد أنهم ينتمون عرقيا الى الجنس الزنجي. أما العنصر الغالب من السكان فينتمون الى الجنس الذي يقطن الهند والملايو بعد أن هاجروا الى جزر الأرخبيل في موجات متعاقبة أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية والاثرية أنها بدأت منذ مالا يزيد عن ثلاثة آلاف سنة.

الديانات:

يسود جزر الأرخبيل ديانتان: المسيحية والاسلام ويشكل المسيحيون الأغلبية الساحقة بينما يتراوح عدد المسلمين بين ١٠، ١٥٪ من مجموع السكان.

وقبل وصول الاستعمار الغربي لم يكن للمهاجرين من الهند والملايو أية معتقدات دينية فيما عدا نوع بدائي من عبادة الحيوان وكانوا يستقرون فالجزر التي يصلون اليها - ونتج عن المجموعات العديدة من المهاجرين تكون عدد كبير من الحكومات القبلية وأول تسمية أطلقت على الوحدات السياسية المستقلة هناك هي تسمية البارانجاي

تبعا لاسم النوع السائد عندئذ من القارب الذي كانوا يستعملونه في الابحار.

وكانت عبادة الحيوان كما ذكرنا هي أول نوع من أنواع العقائد الدينية للمستوطنين الاوائل ولا تزال بعض مظاهر هذه العقائد موجودة في القبائل الجبلية والأجزاء الداخلية للبلاد.

ولا بد أن الديانتين الهندوكية والبوذية اللتين رافقتا المهاجرين من آسيا وجزر أندونسيا قد كان لهما الأثر الديني فيما بعد وهناك دلائل يستدل بها علماء الأنثروبولوجي وعلماء الاجتماع على هذا الاثر في بعض العادات والتقاليد التي يتبعها المسيحيون والمسلمون.

دخول الإسلام:

قرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادي دخل الاسلام الى هذا الجزء من العالم وأصبح أول دين سماوي يشكل ركيزة ثابتة دائمة في مختلف المستوطنات ويضع بصماته العميقة في حضارتهم. وهناك نظريات عن طريقة انتشار الاسلام في جزر الأرخبيل وكلها نظريات مقبولة الا أن هناك حقيقة مؤكدة تجمع عليها كل النظريات وهي أن الاسلام انتشر انتشارا واسعا بالوسائل السليمة تاركا آثاره

واضحة حتى في القطاعات السكانية التي لا تعتنقه حاليا.

ووصول الاسلام الى الفليبين ليس مجرد فصل جديد في حياتها بل هو كذلك علامة مميزة على طريق انتشار العقيدة الاسلامية في جنوب شرقي آسيا. وقد كان وصول الاسلام عن طريق الخطوط الملاحية التجارية المعروفة عندئذ وذلك من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر عندما سيطر التجار العرب المسلمون والفرس والهندوس وغيرهم على التجارة الدولية بين المغرب والصين. وكان انتشار الاسلام في جنوب شرقي آسيا بطيئا غير ملحوظ حتى نهاية القرن الثالث عشر عندما ساعدت عدة عوامل هامة على سرعة انتشاره.

وانتقل الاسلام الى الفلبين في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي نتيجة لانتشاره في جزر الملايو عن طريق الرحالة المسلمين من ذوي الدوافع التجارية والدينية.

ويصف المؤرخ الاسلامي الشهير الدكتور قيصر أديب مخول الاستاذ بجامعة الفلبين هذه الظاهرة التاريخية في كتابه «المسلمون في الفلبين» بقوله:

«كان وصول الاسلام الى الفلبين نتيجة لانتشاره في أراضي الملايو بجنوب شرقي آسيا وجاء من خلال الطرق

التجارية وثبت أقدامه في الأراضي الغربية أولا أي في الجزر الأكثر قربا من المراكز الاسلامبة في الملايو. وكان التجار المسلمون موجـودين في معظم الملايو وقرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادي نشأت في شمال سومطره ولاية اسلامية وخلال القرن الرابع عشر ظهرت ولايات اسلامية أخرى في سومطرة وقد يكون بعضها قد نشأ في جاوا وفي هذه الولايات كان المسلمون هم الحكام أو الرؤساء. ووفقا للدلائل الأثرية يمكن القول بكثير من الدقة أنه في نهاية القرن الثالث عشر وفي نفس الوقت الذي نشأت فيه ولاية اسلامية شمال سومطره وجدت مقاطعة في جزيرة جولو يستوطنها المسلمون القادمون والى هذه الفترة ينتمي توان مقبل الذي توفي ودفن في سولو عام ١٣١٠. ومقبل مسلم أجنبي عن البلاد لا يعرف حتى الآن اذا كان من أصل عربي أو فارسي أو هندي ولا يزال قبره موجودا في برداتو القريبة من مدينة جولو. والى هذا العهد كذلك ينتمي توان مشايكا (والأصح مشايخ جمع شيخ) المذكور في أنساب سولو والذي ترك ذرية مسلمة كما تدل أسماؤهم.

«وبعد جيلين تقريبا من وفاة توان مشايخ وصل الى

سولو الدعاة المسلمون في اطار نشاط الدعوة الذي غطى جاوا وشمال يورنيو، وكان معظم هؤلاء الدعاة صوفيين أو على الأقل متأثرين بالصوفية ويؤيد هذا أنهم كانو يسمون أولياء وكان ينسب اليهم أعمال خارقة. ومن المعلوم أن سقوط بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨ تبعه هجرة كثير من علماء المسلمين والزهاد الى ايران والهند ومن هناك انطلقوا هم أو اتباعهم الى جزر الملايو والى هذه الحقبة ينتمي كريم المقدوم الأسطوري.

ومن المحتمل أن أتباع المقدوم نزلوا شواطىء سولو وهذا يفسر ادعاء عدة أماكن في سولو بأن بها قبر المقدوم، ومن المتوقع أن ذرية المسلمين الأجانب الذين كانوا قد استقروا في سولو ساعدوا جهود المقدومين أو على الاقل تكون الأماكن التي استقروا بها قواعد لنشاط هؤلاء الدعاة.

وفي حوالي منتصف القرن الخامس عشر انتشر الاسلام بين سكان بوانسا في جزيرة جولو لدرجة جعلتهم يقبلون انشاء سلطنة فكان أول سلطان في سولو هو شريف الهاشم الذي لا يزال قبره موجودا في جبل توماتا بجس بالقرب من بوانسا.

وتعتبر سلطنة سولو أول منشأة سياسية ذات نظام دقيق تنشأ في أرخبيل الفلبين.

ومع مرور الوقت امتد نفوذ سلاطنة سولو الى سائر أرخبيل سولو وتعداه الى بعض أجزاء زامبوانجا. وخلال حكم السلطان الأول أنشئت المدارس الاسلامية وطبقت قواعد الشريعة. وخلال حكم السلطان بليقيعة في بروني الذي كان حوالي عام ١٥٠٠ نشأت أول مستوطنة بورنية بالقرب من منبع نهر باسنج في منطقة مانلا حاليا.

ومنذ بداية وصول الاسلام الى شواطىء الفلبين تقبّله سكان الأرخبيل فازداد انتشاره باطراد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب، وقرب نهاية القرن السادس عشر عندما وصلت المسيحية الى الجزر كان في الجزر فعلا ثلاث ممالك اسلامية متقدمة وعدد من الولايات والسلطنات. وكانت سلطنة سولو من أبرزها في ذلك الوقت وكانت حدودها تضم كل جزر أرخبيل سولو وجزر باسلان وبالاوان وكذلك سلطنة ما جند اناو التي شملت حدودها كل جزيرة: ما ندوناو والجزر الصغيرة التابعة لها كما امتد

نفوذها الى معظم جزر فساياس التي كان سكانها يدفعون الخراج للسلطان.

كما كان هناك مملكة ما ينيلاند التي كانت تتخذ من العاصمة الحالية ما نيلا مركزا لحكمها وبسطت نفوذها على سائر جزيرة لوزون وخاصة في القطاع الأوسط منها وعلى جزيرة مندورو المجاورة لها.،

وكان هناك عدة ولايات أقل أهمية اذ لم يكن تقدمها كبيرا ولكن كان لها نفوذ كبير على أجزاء أخرى من الأرخبيل.

ومن بين ما جاء به الاسلام من عوامل المدنية الأبجدية العربية. وان كانت بعض التقاليد التي كانت سائدة قبل دخول الاسلام وخاصة التي لا تتعارض تعارضا صريحا مع الاسلام قد استمرت الا أن مبدأ التوحيد الصارم في الاسلام قد أنهى تماما المعبودات القديمة وغرس الاحساس بالالتزام الديني بين الناس. وكذلك ساعد الاسلام في التخفيف من الفروق الطبقية الاجتماعية والصراعات الحادة بين الحكام والمحكومين بما نشره من روح الأخوة والمساواة وما أشاعه من التمسك بالقيم الخلقية بين من اعتنقوه وأسبغه عليهم من مفهوم جديد للحياة والمجتمع والطبيعة

وما بثه فيهم من احساس بالانتماء الى مجتمع ديني كبير له أمجاده وانتصاراته، وتشير مصادر التاريخ المكتوبة لهم الى روابطهم بالمسلمين في المراكز الأولى للاسلام.

دخول المسيحية:

في بداية القرن السادس عشر وبالتحديد في عام ١٥٢١م وصلت بعثة أسبانية يقودها فردناند ماجلان عن طريق المصادفة الى الجزء الأوسط من الفلبين. وغرس ماجلان السيف الأسباني والصليب المسيحي على شاطىء احدى الجزر الرئيسية لمجموعة جزر فسايار وأعلن تبعية كل جزر الأرخبيل للتاج الأسباني وأسماها جزر فلبين، وأتبع ذلك بغزو المستوطنات الاسلامية حديثه النشأة في جزيرة مكتان المجاورة والتي كانت تحت حماية الداتولا بولا بو.

وفي المعركة التي دارت بين الجانبين لاقى ماجلان حتفه.

وظل التاج الاسباني يطمح في العودة الى هذه الجزر وتحويل السكان الى الكاثوليكية وبسط نفوذ التاج الأسباني على مناطق أوسع. وفي عام ١٥٦٥ وصل الى الفلبين حملة أسبانية أخرى يقودها مجويل لوبيز دي لجازبى يرافقه قسيس كاثوليكي يدعى الأب أوردانتا، وكانوا في هذه المرة

يعتبرون قتالهم للمسلمين في جنوب شرقي آسيا جزءا من الحروب الصليبية التي ظلوا يشنونها ضد المسلمين منذ عدة قرون خلت.

وكدليل على هذا فانهم كانوا يسمون المسلمين بالبربر (مورو) ليؤكدوا على أن مسلمي جنوب شرقي آسيا ينتمون الى نفس الجماعة التي ينتمي اليها عرب اسبانيا والبربر في شمال أفريقيا.

وقد أشار المؤرخون الأسبان عدة مرات الى أنه لولا وصول الأسبان حينئذ لتحولت كل منطقة لوزون دفيزاياس الى الاسلام. وقد علق المؤرخ الكنسي الذي عاصر هذه الحقبة وذلك عام ١٦٠٠م أنه لو كان ذلك قد حدث لأصبح من العسير جدا القضاء على الإسلام في تلك الجزر ولأصبح المجال على مثل الصعوبة التي واجهها الاسبان في حربهم ضد المسلمين في مندناو وسولو.

ويمكن أن نعتبر صراع المسلمين في الفلبين ضد الأسبان جزءا لا يتجزأ من المقاومة الشاملة للمسلمين ضد الاستعمار الغربي والاحتلال والمسيحية في جنوب شرقي آسيا. والحقيقة أن الاسلام كان قد استقر في قلوب المسلمين وحياتهم حتى اعتبروا الدفاع عنه بحياتهم ضرورة لامناص

عنها يحمونه بالروح والأولاد والممتلكات وفي نفس الوقت والى جانب الحماس الديني الغالب ارتبط ذلك الحماس بالروح الوطنية وبالدفاع عن الوطن وبالاخلاص للقادة. ولا نخشى أن نقع في التناقض اذا قلنا إن الاسلام كان القوة الدافعة الغالبة لكفاحهم وأنه زودهم في نفس الوقت بالروح الوطنيـة البدائيـة في الكفاح ضد الاستعمار والاحتلال والمسيحية التي كانت عندئذ تغزو جزر الملايو. وعلى هذا الأساس فان صراع المسلمين ضد الأسبان في الفلبين لا يمكن النظر اليه كظاهرة معزولة عن غيرها بل يجب اعتبارها كحلقة هامة في الصراع الشامل لمسلمي الملايو ضد الاستعمار والاحتلال الديني والاجتماعي الغربي.

دوافع الصراع عند الطوائف الدينية المختلفة ومنهجيته.

فترة ما قبل الإسلام:

كما أوضحنا سالفا، فانه بينما لا نعرف الا القليل عن المفهوم الديني لدى شعب البلاد قبل الاسلام، فقد كان هناك قبل ظهور الاسلام نوعٌ من الوعي الديني الذي يعتمـد أساسا عـلى تقديس الطبيعـة، ثم تأثرت هـذه المعتقدات الى حد ما بشيء قليل من الهندوكية والبوذية

التي لا تزال آثارها واضحة في كثير من العادات والتقاليد بين المسيحيين والمسلمين على السواء. وعلى سبيل المثال، نجد أن لدى المارانوين والماجندانويين نفس كلمة (agma) التي تعني كلمة (دين) باللغة العربية وكلمة religion باللغة الانجليزية. ويمكن تقضي هذه الكلمة في اللغة السانسكريتية حيث استخدمت نفس الكلمة في اللغة الدينية للهندوكية لتعني شكلا من أشكال التقديس. وإنَّ لهؤلاء الناس احتراما واضحا أو ألقابا لزعمائهم في المجتمع مثل لقب (راجا) الذي يعني بالهندية (أمير) كما نرى في (راجا سليمان) و (راجا لا كندولا) أو في اللقب الذي أطلقه المارانوين وهو (رادياmودا)، واصطلاح آخر وهو (سيمبان) وهي كلمة (مارانوية) تعني السيادة السياسية العليا، وهي كلمة مستمدة من اللغة السانسكريتية بمعنى (الرانية).

أما السكان المسيحيون لأقاليم (لوزون) و(فيزاباس) فيستخدمون كلمة (سيمبا) وكلمة (سيمبان) واللتين تعنيان التقديس ومكان العبادة على التوالي.

جاء الاسلام بطريقته الطبيعية:

وقد بدأ الاسلام وهو دين السلام يصل الى الفلبين

بأسلوبه الطبيعي وتحول سكان الأرخبيل في هذا الوقت الى الاسلام وقبوله بالطرق السلمية، ويقول الدكتور قيصر أديب مخول عن قدوم الاسلام:

« خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر، ومع مولد الاقليم الاسلامي في شمال سومطرة، حصلت (سولو) على نضيبها من المسلمين الوافدين، في أقل من قرن واحد، أصبحت سولو وأجزاء أخرى من شمال بورنيو مسرحا لجهود المبشرين الاسلاميين الذين اكتسبوا تعاليم صوفية، وقد عاونهم في جهودهم ابناء المسلمين الذين كانوا قد وفدوا قبل ذلك التاريخ.

« وفي حوالي عام ١٣٩٠، وبسبب القلاقل السياسية في (بالمبايح) والتي واكبت تقلص امبراطورية (شري فيجايان)، خرج عدد من بلاد سومطرة الى أجزاء أخرى من الملايو، وتحكي احدى روايات (سولو) كيف وصل أحد الأمراء السومطريون مع مجموعة من الوزراء والمتعلمين الى بوانسا (بسولو) وتزوج احدى فتياتها وانشأ امارته وكان هذا الامير الذي يدعى راجا باجونيدا واتباعه جزءا من المجموعة التي خرجت، وعلاوة على ذلك، تقول الرواية إن شخصا ما يدعى (السيد أبو بكر) وصل الى بوانسا حيث تزوج فيما

بعد بابنة الأمير السومطري، ويعتبر ذلك السيد شخصية تاريخية ولا يزال ضريحه موجودا في سولو، وينسب اليه تأسيس (السلطنة السولية) والذي يرجع تاريخ انشائها الى عام ١٤٥٠، وتحكي الرواية كيف قام بتعليم الاسلام وبناء المدارس وتحويل سكان جزيرة جولو الى الاسلام، وتوسيع حدود السلطنة بشخصيته الفذة وتعاليمه وسلوكه المهذب، كما أعلن كل السلاطين والانساب الملكية أنهم من نسله واذا كان في الامكان تصديق الروايات أو أنها يمكن أن تحتوي على قدر كبير من الصدق، فانه يمكن القول بأنه خلال حكم السيد أبو بكر زار أقليم مندناو عدد قليل من المسلمين الصادقين. وحول هذا الموضوع تتعدد الحكايات فتقول احداها إنهم قدموا من (مالاكا) بينما تقول الأخريات إن احد هؤلاء القادمين كان شقيق السيد أبو بكر، ويقال إنهم تركوا وراءهم أنسالا ».

« ومن وجهة النظر العامة والنظرية، فان من الممكن أن تكون طبيعة التجارة الدولية في ذلك الوقت قد أحدثت عددا من التغييرات في الجزر الاندونيسية و (سولو) حيث أحدثت نوعا من الفراغ الروحي الذي ملأه الاسلام. وحقيقة إن توسع الاسلام في جزء كبير من جنوب شرق

آسيا يعتبر ظاهرة واضحة لا يمكن لنظرية واحدة فقط أن تكفي لشرحها بيد أنه من الممكن أن يكفي عدد من الأفكار التي تتعدى النظريات أن توضح هذه الحقيقة بشكل اكثر موضوعية وعمومية ».

الاستعماريون الاسبـان يدخلون المسيحية في القرن السادس عشر.

وكما سبق أن أوضحنا فانه بوصول (ليجازبي) و (أردانيتا) الى الفلبين - نجحت أسبانيا بانتصاراتها وفرضها للحضارة المسيحية الأوروبية - حتى قبل نهاية القرن السادس عشر أن تحتل (لوزون وفيزارا) وتحولها الى المسيحية، ونتيجة لذلك وعن طريق فرض ارادتها على المجموعات المختلفة لسكان الجزر استطاعت أن تضغط على هذه القبائل ومعتقداتها كما فرضت الحكم السياسي على الاقاليم والمستوطنات، كما وقعت أقاليم (بارنجيس وبانواس) في قبضتها. كما قضت على الكيان السياسي لتلك الجماعات اللاتي كانت لا تزال في مراحل متعددة من التنمية، ثم غرست النظام السياسي الاسباني في حلوق الشعب.

أما فيما يتعلق باقاليم (ميندانا وسولوبايزيلان وبالاوان)

فقد فشل المستعمرون في اخضاع شعوبها التي قاومت بعناد شديد، وكان من جراء ذلك قرون من الصراع المسلح فقدت فيها مئات الآلاف بل ملايين من الارواح من كلا الجانبين المتنازعين وعلى وجه الخصوص من المسلمين وهو ثمن دفعوه ليحافظوا على استقلالهم وعقيدتهم من الحكم الاستعماري الاسباني.

وهكذا، وباستثناء ذلك الاقليم من الجزء الجنوبي من الارخبيل، لم يستغرق الامر من الاسبانيين أكثر من عقد من بعد وصول (ليحازبى) ليقهر معظم الاقاليم الشمالية، وقد أحكموا قبضتهم على هذه المناطق لحكم اداري واحد وتخلصوا من كل الاغراءات الدينية وأخيرا زرعوا العقيدة الكاثوليكية الرومانية في تلك المناطق الاخيرة.

وقد تم كل ذلك باستخدام القوة، ولم يتحمل الغزاة وجود أية ديانة أخرى في المناطق التي قهروها، فقد قضوا على كل شكل من أشكال الدين بما في ذلك من أيَّة ظلال من التفكير المسيحي الديني الذي لا يتناسب مع الاسلوب الاسباني في ذلك الوقت كالكاثوليكية الرومانية.

وفي الحقيقة، فانه حتى بين الانظمة الدينية الكاثوليكية فان ما كان منها مقبولا من الدولة كان يمنح

حقوقا خاصة، وخلال فترة الحكم التي استمرت منذ وصول (ليحازبى) في ١٥٦٥ حتى طرد الأسبان كنتيجة للجهد المشترك للسكان الوطنيين مع نهاية القرن التاسع عشر، فقد كانت اليسوعية النظام الديني الوحيد للكنيسة الكاثوليكية الذي تمتع بالسيادة على كافة الانشطة الدينية للمسيحيين في كافة انحاء الاقليم.

ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية الدين الرسمي الوحيد للدولة بل كانت أيضا المؤسسة الحكومية وبالتالي سيطرت على الناحية السياسية، وعلى ذلك فقد كان نشاط الكنيسة يمثل نشاط الحكومة بل لقد كان على كافة الانشطة الحكومية أن تحظى بموافقة الكنيسة، وقد اثمرت تلك القوة الكنسيَّة عن طغيان وفساد عارمين كما أدت في النهاية الى ثورة عامة في كافة الاقاليم المحتلة بالارخبيل عند نهاية القرن التاسع عشر توِّجت في النهاية بطرد الحكم الاسباني.

ثالثاً: مؤامرات لتصفية الاسلام في الفلبين.

تحت الاحتلال الاسباني (١٥٦٥ - ١٨٩٨).

من أجل تفهم الموقف الاسباني تجاه مسلمي الفلبين في تلك الفترة عند قدومهم واثناء حكمهم لهذه البلاد منذ عام

١٩٦٥ حتى عام ١٨٩٨ كان من الضروري أن ننقب في التاريخ لنرى الاحداث التي جرت قبل تلك الفترة، فقدادلى الدكتور قيصر ماجول بحديث عن خلاصة ابحاثه في هذا الموضوع امام اعضاء اتحاد الكلية الامريكية للبنات اللاتي كن في زيارة الى مانيلا في ٢٧ فبراير ١٩٧٥:

«كان ذلك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر عندما كان الاسبانيون يدفعون بالمسلمين الى جيب صغير جدا في جنوب اسبانيا حين كان الاسلام في توسع مطرد في جنوب شرق آسيا وعندما وصل الاسبانيون الى مياه الفلبين عام ١٥٦٥ حيث كان الغزو الثاني للمسيحية لشبه الجزيرة الاسبانية قد اكتملت حلقاته منذ حوالي ٧٣ عاما وكان لا يزال في أسبانيا مئات الآلاف من المسلمين حيث لم يكتمل طردهم النهائي الا في الفترة من ١٦٠٩ حتى ١٦١٤، وهكذا كان الاسبانيون الذين وفدوا مع (ليجازبي) على معرفة بالعبادات والعادات الاسلامية لذلك فانهم عندما شاهدوا سكان (مبنداناو وسولوومانيلا) يتمثلون بالصفات الاسلامية لم يترددوا في تسميتهم (مورو) أو البربر وهو صطلاح يطلق على مسلمي شمال أفريقيا الذين عاش

معظمهم في أسبانيا منذ القرن الثامن، وما دامت الجماعات الاسلامية المختلفة في الفلبين تمارس اشكالا مختلفة من العبادات الاسلامية، فان من غير المفهوم أن يطلق الاسبان اصطلاح (مورو) دون تمييز ليشمل عددا من غير المسلمين - على أي حال فانه بمرور الوقت حدد الاسبانيون لفظة (مورو - بربر) على المسلمين ولفظة (انديو) على المواطنين الذين لم يكونوا مسلمين أو مسيحيين وتمسكوا بمعتقداتهم القديمة.

ولم يحكم الاسبانيون الفلبين من أجل توسيع رقعة المملكة الاسبانية فقط بل ليزرعوا العقيدة الكاثوليكية ويحموها ويتوسعوا فيها. لقد كان الحافز الديني في ذلك العصر هو السائد الذي تحكم في الحياة السياسية والاجتماعية، وكان يطلق على ملك أسبانيا (صاحب الجلالة الكاثوليكية) وكان ينظر اليه باعتباره حامي حمى المسيحية ضد البروتستانت والمسيحيين. وكما هو معروف جيدا، فان حروب الاصلاح قد أخذت نصيباً كبيرا من الدماء الاسبانية بنفس الطريقة التي أخذ بها الصراع ضد البربر، وبمفهوم اكثر أهمية، فان الصراع لاستعادة شبه الجزيرة الأسبانية من البربر جعلت المسيحية - في ذلك الوقت على

الاقل - أحد عناصر الجنسية الاسبانية، ولقد كان الوعي الشديد بهذه الجنسية الناشئة هو الذي أدى بكثير من الاسبانيين الى نبذ خصالهم الثقافية المراكشية أو على الاقل انكار وجود الدم المسلم أو اليهودي الذي يجري في عروقهم وذلك لتأكيد تطهير دم كل فرد منهم ومع ذلك لم يستطع ان ينكر فرد من الاسرة المالكة الاسبانيــة أو المجتمـع الارستقراطي نسبه الى اجداد من المسلمين أو اليهود.

«وعلى الرغم من ذلك، فانه بمرور ثلاثة أجيال بعد ذلك الغزو، كان من المحتوم ان يرى الاسبانيون في مسلمي الفلبـين - في عصر آخر ومناخ آخر - رفاق الدين لاعدائهم في أوربا وشمال افريقيا، وهكذا انتقلت الروح الصليبية التي سادت في بلادهم الى بلاد جنوب شرق آسيا.

بهــذه الخلفيــة وبدافــع من التنصــير والاحتـلال والاستغلال - استدار الأسبان بعد غزو كثير من جزر وسط الفلبـين - إلى الشمال والجنوب حيث ازدهرت السلطنات الاسلامية في مجموعتين من جزر الارخبيل.

وبمجرد ان علموا بوجود المملكـة الاسلامية في مانيلا بقيادة راجا سليمان في جزيرة بوزون بالشمال، وجه الاسبان قوة استطلاعية مكونة من جنود اسبانيين تدعمهم مجموعة

من المحاربين البوذيين المرتد ين حديثا وجماعة من البحارة من المواطنيـن المتنصرين برأسها النبيل الاسباني (خوان دساسيدو) وبمجرد أن وصلوا مانيلا، طلبوا استسلام راجا سليمان والمستوطنات الاسلامية الرئيسية كما طالبوا السكان بالارتداد الى المسيحية، وعارض القائد المسلم وجماعته وقاوموا في معركة ضارية أدت الى طرد القوات الاسبانية ومن والاها.

غير أن الاسبانيين كانوا اكثر خبرة بالاستراتيجية العسكرية وطبقوا اسلوب التواطؤ، ومن خلال أساليب شيطانية استطاعوا الاتصال بأحد أعمام راجا سليمان واسمه راجا (لاكندولا) ووعدوه بتنصيبه الملك الوحيد لمملكة مانيلا الاسلامية اذا ساعد الاسبان في هزيمة قوات ابن أخيه راجا سليمان.

وهكذا استشهد ملك مانيلا وهزم مسلموها، وشعر لاكنـدولا بنفس زهـو الاسبانيين ولكنه عندما طالب بنصيبه من الصفقة صدم بتنكر الاسبان له ولم يوفوا بوعدهم له - الذي ما كان بقصد الوفاء به أصلا. وطلبوا منه أولا أن يرتد الى المسيحية ليكون مؤهلا للتاج الاسباني وعندما رفض مطلبهم، أطاح الاسبان برقبته بحد السيف

وفي أحداث أخرى، قطعت رقاب مسلمين آخرين رفضوا المسيحية ونفي آخرون الى أماكن بعيدة.

ومن الآثار السيئة التي تمخّضت عن الحكم الاسباني أن الكنيسة الكاثوليكية وخصوصا اليسوعيين - قد غرست الحقد في قلوب (الانديو) وهم المواطنون المتنصرون تجاه اخوانهم المسلمين في الاقاليم التي لم يصلها الغزو وباستخدام هؤلاء الاندبو كأداة بدأ ما نسميه في التاريخ (بحروب المورو) ضد السلطات والاقاليم الاسلامية في البلاد والتي استمرت أكثر من ثلاثة قرون، ونورد هنا ما قاله الدكتور ما حول عن المراحل التاريخية لحروب المورو:

«ترجع المرحلة الاولى لحروب المورو الى الصراع بين الاسبان وشعب بروني بمساعدة ابناء سولو وذلك من اجل السيادةالدينية والتجارة على الأرخبيل، وقد بدأت بوصول الاسبان عام ١٥٦٥ وانتهت بغزو بروني وهزيمتها عام ١٥٧٨، واقتيد سلطان سولو - وهو صهر سلطان بروني - ليقدم اللآلي والذهب للاسبان كنوع من الجزية وترجع المرحلة الثانية الى محاولة الاسبانيين تقليص عدد (الراجات) في سولو وماجو بندانو لانشاء عدد من المستعمرات في بلادهم، وفي عام ١٥٧٦ قتل الحاكم الجديد

لاقليم (منداناو) على يد شعب (بوايان) - ثم أخلت المستعمرة الاسبانية في (ساندكان) وقلعة (لاكالديرا) المتاخمة (الزامبوانجا) - وفي هذه المرحلة أصبح سكان (تيرنيت) حلفاء لسكان (مينداناو).

«أما المرحلة الثالثة - التي تبدأ حوالي عام ١٥٩٩ فقد تعرضت للصراع بين (الماجويدانا) يؤازرهم سكان (بوايان وتيرنيت) والاسبان الذين يجمعون الجزية من (الفيسايانيين)، وقد أدى سقوط تيرنيت في يد الاسبان الى اضعاف التحالف الوارد ذكره آنفا. وينسب الى هذه المرحلة أيضا الغارات المدمرة للسولو - يؤازرهم البورنيون - على المدن الساحلية التي يسيطر عليها الاسبان في لوزون. وفيساياس. وقد نجح السولو بغاراتهم في إضعاف الوجود الا باني في الجزر.

«وتبدأ المرحلة الرابعة بالتحصينات الاسبانية - بناء على نصيحة اليسوعيين - وذلك في اقليم زامبوانجا عام ١٦٣٥، وفي تلك الفترة كان الاسبانيون مصممين ليس فقط على هزيمة السلطان بل أيضا على تنصير المسلمين وفرض الجزية كرعايا لاسبانيا.

وفي عام ١٦٣٧، هزم قودارات - سلطان (ماجويباناو)

وكذلك خضع منافسه على السلطة (راجا بوايان) لقبضة الاسبان تماما. وفي عام ١٦٣٨ سقطت مواقع سلطان سولو أمام الحاكم العام (كوركومرا) وتلا ذلك حروب العصابات المكثفة في سولو وميندناو، ونظرا لغياب المؤازرة من الاقاليم المجاورة وعلى الرغم من المساندة الهولندية - اضطر المسلمون الى تكثيف مواردهم الذاتية - وخشية من الاساليب الهولندية وكذلك من احتمال استعادة السلطان (قودارات) لقوته في (منداناو) دخل الاسبان في معاهدة مع السلطان عام ١٦٤٥، وكان الاسبان في تلك الفترة قد أرغموا على الاعتراف بسيادة (قودارات) على الاقليم المعروف حاليا باسم (كوتاباتو - لاناو - بوكيدنون - دافاو) وأجزاء من (زامبوانجا وكاجايان دي أورو).

ولم يحقق قائد وطني في الفلبين قوة على اقليم كما حققها (قودارات) وفي عام ١٦٤٨ دخل الاسبان في تحالف دفاعي وهجومي مع سلطان سولو. ونظرا لمحاولات الاسبانيين التوغل في أراضيه وتحويل المسلمين بها الى مسيحيين، أعلن السلطان (قودارات) في عام ١٦٥٦ الجهاد ضد الحكومة الاسبانية في مانيلا وبعث برسائل الى سلاطين سولو وتيرنيت وماكاسار وبروني وسلاطين آخرين ليساعدوه في

الدفاع عن الاسلام والشرعية،، وقد فسر القساوسة الاسبان هذا التصرف على أنه تحالف يخفي وراءه مطامع شخصية ولكن الحقائق توضح أن السلطان كان عالما بالفقه وكان مسلما تقيا، كما كان من خصاله الشجاعة والجرأة والايثار من اجل قضية الاسلام وكانت الحروب التي تلت مروعة وفي عام ١٦٦٣، عزلت قلعة زامبوانجا واستطاع قودارات أن يمارس السلطة على رعايا (سمال) في تلك المنطقة.

ويلاحظ على هذه المرحلة الرابعة أنها على عكس المرحلتين الاولى والثانية أن الأسبان اتخذوا سياسة الاصرار على القضاء على المسلمين وامتلاك المزارع والحدائق والمستوطنات.

كما احرقوا كل السفن بكافة أحجامها وأعدم كافة السجناء المسلمين - الذين لم يستخدموا كعبيد أو خدم - ومثلوا بجثثهم لالقاء الرعب في قلوب باقي المسلمين، وهذا ما نفذوه ايضا في المستوطنات الساحلية في (تاوي تاوي) والمستوطنات الداخلية في جزيرة جولو. وأصبحت السياسة الرسمية للاسبان العمل على تفكيك السكان وخصوصا من اقليم سولو، ولا تزال آثار تلك السياسة ظاهرة حتى بعد مرور ثلاثة قرون من الزمان.

أما المرحلة السادسة لحروب المورو فقد بدأت حوالي عام ١٨٥١ وانتهت في الايام الاخيرة للحكم الاسباني في الفلبين وقد اندلعت الحملة الاسبانية عام ١٨٥١ لمنع الفرنسيين والبريطانيين والهولنديين من تزوير تحالف مع المسلمين أو كسب مواقع في الاقاليم الاسلامية، وينسب الى هذه المرحلة عملية مداهمة جزر (بالينجوينجى)وتشتيت سكانها، وكان المبرر لهذه الحملة ما أطلق عليه (القرصنة المورية) وعلى أي حال، فان الحقائق توضح أن سلاطين السولو أنفسهم كانوا يكرهون القرصنة ويعاقبون القراصنة وذلك بقصد حماية ممراتهم التجارية وجعلها مفتوحة وقد كان هؤلاء السلاطين تجارا مجدّين وكانوا من المهتمين بالقضاء على القرصنة التي وجدت في أراضي الملايو حتى قبل الاسلام وقبل انشاء السلطنات. وفي هذا المجال، لا بد لنا أن نذكر أن أسر المسلمين للمواطنين المسيحيين كان الهدف منه اضعاف آلة الحرب الاسبانية في الفلبين حيث كان الاسبان يستخدمون المواطنين المتنصرين في محاربة المسلمين، ولا ينفي ذلك ان كثيرا من الاسرى كانوا يباعون في أسواق العبيد في باتافيا وماكاسار وبورنيو، وعلى أي

حـال فقـد أصبح الاسرى الذين يشهرون اسلامهم من المحاربين ولم يباعوا نتيجة لذلك ».

من خلال تلك الأحداث يثبت لنا أن هدف الغزاة الاسبان اثناء (حروب المورو) كان بعيدا كل البعد عن الانسانية، فعندما شن الكابتن (فيجيروا) حملته على جنوب (منداناو) أثناء حكم السلطان محمد حليم بانجيران كانت التعليمات الصادرة اليه من الحاكم العام الاسباني كما يلي: -

« عليك أن تأمر أن لا يكون بينهم أحد من دعاة مورو من مذهب محمد لانه مذهب شر ومذهب المسيحية وحده هو الخير.

« ولأن سادة منداناو كانوا قد انخدعوا لفترة من دعاة بورنيو وأصبح الناس مسلمين فان عليك أن تخبرهم بان هدفنا هو تحويلهم الى المسيخية وأن عليهم أن يفسحوا مكانا لتلقين تعاليم المسيحية وأن على الوطنيين أن يستمعوا اليها ويتحولوا دون مخافة من زعمائهم.

« وعليك أن تسعى لمعرفة دعاة مذهب محمد والقاء القبض عليه ومثوله امامي.

« وعليك أن تحرق أو تهدم المساجد التي يدعى فيها الى ذلك المذهب الشرير وأن تأمر بألايعاد بناؤها ابدا ».

لا عجب اذاً من أن تتحد قوى مندانا وسولو التي كانت في الماضي مشغولة بالصراعات المدمرة بين الاخوة - لتقف امام العدو المشترك في جهاد مقدس لأكثر من ثلاثة قرون، وكثيرا ما كان الغزاة يهاجمونهم وفي كل مرة يردون على اعقابهم

ان تلك القرون الثلاثة وتزيد من الدفاع البطولي للمسلمين عن حريتهم وعقيدتهم يمكن أن تعتبر معجزة تاريخية باعتبار أن اسبانيا في تلك الفترة كانت قوة عالمية بينما كان المسلون اقل عددا وأقل مدنية، فلم يكن المسلون على دراية بعلم الحرب باستثناء ما كان كامنا في نفوسهم، وكان كل ما يؤازرهم الحماس والحمية لدينهم، ولا يمكن أن يجد التاريخ لهم من يضارعهم في البطولة في الدفاع عن حقهم في الحياة والعبادة التي يؤمنون بها.

النتيجة المؤسفة الوحيدة لهذا الصراع كانت الكراهية التي لم تكن قائمة فقط بين الغزاة الاسبان والمسلمين بل بين هؤلاء المسلمين وأخوانهم ممن اعتنقوا المسيحية في أقاليم الشمال، وكان ذلك نتيجة لاستخدام هؤلاء - رضوا أم أبوا - في اخضاع المسلمين واضطهادهم. وقد تركت هذه الكراهية بصماتها في التاريخ حتى يومنا هذا.

تحت الحكم الاستعماري للولايات المتحدة الامريكية.

عند نهاية القرن التاسع عشر وبعد أن تخلصت الولايات المتحدة الامريكية من قيود الاستعمار واصبحت نموذجا للمفهوم الغربي للديمقراطية والحرية واشتركت في حرب ضد اسبانيا مدعية أنها تعمل من أجل تحرير شعب كوبا من الحكم الاستعماري انتزعت الفلبين من أسبانيا كغنيمة من غنائم الحرب، وهكذا بدأت الولايات المتحدة الاستعمارية المحتلة، ومن الغريب أن تشتمل تلك «الغنيمة» على الجزء الجنوبي من الأرخبيل الذي يضم الجزر المعروفة حاليا بأسم منداناو. باسيلان بالاوان وأرخبيل سولو - تلك الاقاليم التي لم تتمكن اسبانيا طوال تلك الفترة من احتلالها. بأي حق أو بأي مبدأ من مبادىء القانون الدولي تعطي اسبانيا لنفسها الحق في أن تتنازل عن هذه الاقاليم، وتقبل الولايات المتحدة أن تضمها اليها - وذلك ما لم نجد له تفسيرا حتى الآن، ومع ذلك فقد وضعت الولايات المتحدة الامريكية قبضتها على شعب البلاد بما في ذلك المناطق المأهولة بالمسلمين.. ان تلك الدورة الفريدة للقدر هي التي وضعت تلك الجزر المسلمة مع باقي جزر الارخبيل في قبضة ادارية واحدة.

لقد كان الامر لدى مسلمي جنوب الفلبين الذين لم ينهزموا ابدا من اسبانيا عبر القرون - كما لو كان (قفزة من مقلاة الزيت الى النار) وفي البداية لم يفرق المسلمون بين الامريكيين والاسبان فحاربوا.. وقاتلوا بضراوة، وعن ذلك يقول احد الجنرالات الامريكيين: (ان أشرس معركة في الحرب الفلبينية الامريكية هي تلك التي دارت في بانج كاربالا وماليوانج باقليم بايانج في الجزء الجنوبي من لاناو، حيث دارت معارك الخنادق بين الجنود الامريكيين المسلحين بأحدث الاسلحة والمدافعين المسلمين المسلحين بالسلاح الابيض والأسلحة التقليدية القديمة - والتي استمرت حوالي سبعة أيام وانتهت بخسائر فادحة في الجانبين.

وعن مدى صلابة المسلمين يقول الجنرال جون بيرشنج «تمكن طبيعة (مورو) في اقليم جولو في أنه لا يهمه عدد من يحاربه، فاذا طلب منه القتال فانه يقاتل بصرف النظر عن عدد الرجال الذين يحاربونه.

وحيثما ذهبوا، كان الامريكيون يواجهون نفس المقاومة من المسلمين سواء في الجزر أو فوق المياه أو في وديان كوتاباتوا وفوق تلال لاناو - يحاربون بضراوة جعلت أحد الكتاب الامريكيين يقول:

«عندما ندرك ان المورو لم يسمعوا ابدا عن معاهدة باريس، وانهم يجهلون تماما ان دولة قامت اسمها الولايات المتحدة، فاننا نستطيع ان ندرك طبيعة المقاومة الشديدة التي يمارسونها، انهم لم يدركوا ابدا لماذا تتنازل دولة لم تنجح في اخضاعها على مر التاريخ عن اراضيهم لدولة أخرى»

ولكن الامريكيين كانوا نوعا مختلفا من الاستعماريين، ففي السابق كانت الحكومة الاسبانية تنسق أعمالها مع البعثات التبشيرية الكاثوليكية وتعتمد على قوتها المسلحة في قهر المسلمين وردهم الى المسيحية وكان ذلك يلقى مقاومة شديدة، فقد اشعل ذلك الأسلوب روح الجهاد بين المسلمين وكانت تلك الروح من عوامل نجاح مقاومتهم ضد أية قوة معادية لفترة طويلة من الزمن - حوالي أربعة قرون من القتال، غير ان المستعمرين الامريكيين تبنوا أسلوبا مختلفا ونادرا ما كانوا يلجأون للقوة وكثيرا ما كانوا يعلنون «اننا لم نأت هنا لنغزو بل لنحرر».. يا لها من مفارقة...

وتتضح تلك المفارقة بجلاء في البيان الذي القاه احد وزراء حكومة الفلبين الحالية ثم السكرتير التنفيذي السيد/ اليجاند روميلشور - وذلك في يونيو ١٩٧١ بمؤسسة جونسون بولاية ويسكونسين بالولايات المتحدة الامريكية:

« وعلى أي حال، فان تجربتنا خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية تثبت انه على الرغم من العون الذي قدمه لنا اصدقاؤنا بما فيهم الامريكيون، فان جهودنا من أجل رفع مستوى الحياة للشعب الفلبيني ناقصة ومخيبة للآمال، وتكشف دراساتنا في هذا المجال انه بينما نمثل نحن أنفسنا المصدر الوحيد لمصاعبنا الا أن بعض هذه المصاعب يرجع الى السنوات الطويلة للاستعمار والرواسب التي تركها على الثقافة الفلبينية حتى اليوم.

« ولقد كان اقتلاع اجدادنا من جذورهم الثقافية وتحويلهم عنها أشد وطأة من الاسلوب الاستعماري الذي اتخذ لتنمية اقتصادنا، وبينما يمكن أن ننسب الى الادارات الاستعمارية السابقة انها وضعت كل الارخبيل بجزره وسلطناته في جنوب الفلبين تحت ادارة واحدة - فان تلك الادارات ينسب اليها ايضا انكار حق شعوب هذه الاقاليم في الذاتية باستثناء ما يخدم منها أغراض الحكم الاستعماري. وكان نتيجة لذلك انحطاط الاخلاق والسلوك وتقلص الاحساس بالقوة لدى هذه الشعوب »

ودون ادراك للاسلوب الذي تبناه الاستعمار الامريكي عانى مسلمو جنوب الفلبين من فقدان ذاتيتهم وسيادتهم

اللتين حافظوا عليها بنجاح مستمر طوال قرون من الغزوات الاسبانية المتكررة، وقبل أن يفيق المسلمون كانوا قد انجرفوا في دوامة الحكم الامريكي.

ومن أجل اجتذاب ابناء الشعب المناهضين لرجال الدين وكذلك من أجل اجتذاب المتدينين، تبنى الامريكيون مبادىء «التفريق بين الكنيسة والدولة» ومبدأ «الحرية الدينية». ولكنهم في نفس الوقت أمدوا البعثات التبشيرية المسيحية بالعون والتأييدلكي تنجح في الوصول الى المسلمين من ضعاف الايمان، وكانت السياسات الامريكية الاقتصادية والسياسية والتعليمية والاجتماعية والثقافية معدة لاقتلاع الجذور الثقافية والسياسية لدى المسلمين ومحاولة السعي لردهم عن الاسلام.

ومن خلال تلك الجهود المركزة لتصفية الاسلام في الفلبين، نجح المستعمرون الامريكيون فيما فشل أن يحققه الاسبان، ولم تتحقق تلك النتيجة كأثر للسياسات الامريكية الاستعمارية تجاه المسلمين فقط بل لأنه كان بين صفوف الجنود الاميركيين الذين احتلوا البلاد بعد طرد الاسبان عددا من مؤيدي المذهب البروتستانتي المسيحي مدعمين بعدد من المعلمين وجنود جيش الخلاص الذين

أقاموا الكنائس والمستشفيات والجامعات، كما انهم عملوا على منع اتصال المسلم بغيره من المسلمين سواء في جنوب شرق آسيا او في العالم العربي.

في ظل الفلبين المستقلة:

لم ينتج عن قيام جمهورية الفلبين في ٤ يوليو ١٩٤٦ أي تغيير في السياسات الاصلية التي كانت سائدة ايام الاحتلال وموجهة لتصفية الاسلام في الفلبين، فقد بقيت القوى المعادية للاسلام كما هي، واذا كان هناك تحول حدث، فقدكان ذلك التحول الى الاسوأ حيث ظهر متآمر اكثر خبثا في معاداة الاسلام - الا وهو الصهيونية الدولية - التي نزلت الى الميدان لتحارب الاسلام بجانب المتآمرين، وفي نفس الوقت ازدادت قوة التأثير للبعثات التبشيرية المسيحية وخاصة التابعة للكنيسة الكاثوليكية على سياسات الحكومة. وقد اتضحت تلك الاثار على المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية.

رابعا: الازمة الحالية:

في حوالي منتصف القرن الحالي، كان مسلمو الفلبين على حافة الابادة التامة فمن أجل القضاء على الاسلام في

هذه الاقاليم، كان على القوى المعادية للاسلام أن تقوم بضربة للاجهاز على عدوها - ولم يبق سوى قلة قليلة تحافظ على دينها ومع ذلك فلا يدري أحدكم من هؤلاء كان يدرك الخطر الشديد الذي يتهدد وجوده كمسلم.

وعلى غير المتوقع، قامت احدى الشخصيات الاسلامية غير المعروفة بزيارة الى الفلبين وهو فضيلة الشيخ عبد العليم صديقي من الباكستان وكان يرافقه في الزيارة مساعده الدكتور فضل الرحمن انصاري، ولا يزال سرا غامضا ذلك السبب الذي جعل هذين الشخصين يختاران الفلبين من سائر بلدان العالم - تلك الزيارة التي كانت تحمل علامات الحرب، اما عن توقيت الزيارة في تلك الفتره بالذات التي كان مسلمو الفلبين خلالها معزولين صامتين وفي حاجة الى صيحة ايقاظ - فالسبب في ذلك التوقيت ايضا غير معروف.

وقد نتج عن الزيارة رد فعل شديد بين مسلمي الفلبين - بعد طول رقاد -وأصبحت المنظمة الاجتماعية الدينية الوحيدةللمسلمين وبدأ اتصالاته بالدول العربية الاسلامية الاخرى بعد قرون من الانقطاع والعزلة، وتوالت بعد ذلك الزيارات التي قامت بها شخصيات دينية

وحكوميــة ودبلوماسيــة خاصة من الباكستـان ومصر واندونيسيا وماليزيا والسعودية وغيرها من البلدان.

واستيقظت الرغبة للمعرفة بالاسلام ونجح عدد من الطلاب المسلمين الفلبينيين في الالتحاق بالمراكز الاسلامية الكبرى في القاهرة وعلى وجه الخصوص بجامعة الازهر وكذلك في ليبيا والمدينة المنورة ومعاهد بالبلاد الاسلامية الاخرى، كذلك زاد عدد المدارس الاسلامية التقليدية وبدأ المسلمون في إقامة معاهدهم العلمية الحديثة مثل جامعة الفلبين الاسلامية في مدينة (ماراوي) بمنداناو.

واكتسبت حركة اليقظة الاسلامية قوة الدفع حتى شعر المسلمون بالفلبين بها في كل جانب من جوانب حياتهم السياسية والاقتصادية والتعليمية والثقافية، ونما الوعي الاسلامي ليس فقط بين المسلمين الاصليين ولكن ايضا بين غـير المسلمـين فزاد عدد الذين اعتنقوا الاسلام من بين المسيحيين وغير المسيحيين، ولم تكن هذه الفئة من العامة فقط بل كانوا ايضا من الخاصة والمثقفين وأدى كله الى انشاء جمعية (اعتناق الاسلام) التي أصبحت اداة فعالة في نشر الفهم الصحيح للاسلام بين سكان البلاد من غير المسلمين.

وظهرت الحاجة الى الحركة الاسلامية المسلحة والاعداد لها بالحوافز والتوعية والمنهجية المبنية على أسس اسلامية، وأدى ذلك الى قيام حركة (انصار الاسلام) التي حددت هدفا لها العودة الى الاسلام بكل جوانبه، وتدل ظاهرة نمو هذه الحركة في فترة قصيرة على انه من الممكن بمشيئة الله ان تكون هي ذاتها اداة لانقاذ الاسلام في هذه المنطقة.

القوى المعادية للاسلام:

استتبع صحوة المسلمين في الفلبين رد فعل كبير لدى القوى المعادية للاسلام التي ما ان رأت تقدمه الكبير حتى بدأت في اتباع طرق اشد عنفا وقسوة من تلك التي استخدمها الاسبان قبل عدة قرون.

وكان أول دلائل رد الفعل هذا هو تنظيم عدة جماعات دينية وغير دينية من المسيحيين ومن بعض المسلمين الغافلين بغية محاولة تصفية الاسلام في البلاد.

وكانت اشد هذه الجماعات عنفا ونشاطا منظمة سميت «ألاجا» وهي عصابة عسكرية نظمت بهدف حماية المسيحيين المقيمين في مندناو (وذلك في أوائل السبعينات من هذا القرن. ولم يعر المسلمون امر هذه العصابة أهمية في

بادىء الامر حيث اشيع على الناس ان الالاجا طغمة خارجة على القانون ولكن ما ان شاعت فظائعهم حتى استبان هدفهم وانكشف الغطاء عن مؤيديهم وتبين عددهم الكبير عندما انتشروا في مناطق واسعة وثبت انهم كانوا ينظمون عملياتهم بحيث تتم في وقت واحد في عدة مناطق متفرقة، كما استدل من استمرار الامدادات التي كانوا يزودون بها دوما على أن وراءهم لا يمكن الا ان تكون حكومة دولية وكانت وسائلهم انتقامية رهيبة، فكانوا يشعلون الحرائق دون تمييز في المساجد والمدارس ومساكن المسلمين ويقتلون العجائز والنساء والاطفال بطرق أقل ما توصف به أنها غير انسانية وكانوا ينهبون دائما كل شيء حتى الحيوانات التي تعمل في الحقول وضروريات الحياة.

ولا يمكن أن نقدر مدى ما قامو به من دمار بحساب من قتلوه أو شوهوه من بشر بالآلاف أو بحساب آلاف المساكن والمعاهد الدينية التي ضربوها تماما ولا من شردوه من عائلات اصبحت بلا مأوى واجبروا على العيش في معسكرات للاجئين او غيرها من أماكن وهم لا يملكون شروى نقير بعد أن جردوا من ممتلكاتهم التي توارثوها جيلا

بعد جيل وهؤلاء المشردون يعدون بمئات الألوف من الرجال والنساء والاطفال ولا بالمساحات الشاسعة من الاراضي الزراعية التي تقدر بملايين الافدنة التي انتزعت منهم وهي ملك اجدادهم، كل هذا الذي يعتبر رهيبا بكل المقاييس ولكنه لا يقاس بما كان وراء ذلك من أهداف وضعتها لهم القوى المعادية للاسلام التي لا يمكنها ان تنكر انها كانت تستهدف القضاء على الاسلام في الفلبين مما يوضح جليا حجم المأساة التي يمكن ان تترتب على القضاء على الدين الحنيف في هذه المنطقة لا قدر الله.

ويمكننا المضي في البحث طويلا اذا أردنا ان نعطي الصورة الكاملة للاوضاع السائدة بين المسلمين نتيجة للصراع الحالي بين المسيحية والاسلام في الفلبين أو تسجيل الاحداث اليومية لمقاومة المسلمين دفاعا عن دينهم في تلك الارض اوحساب من يقتل يوميا من المسلمين وما يحرق من مساجدهم ومدارسهم وما ينهب من مساكن الجاليات الاسلامية ليحتلها من تفرضهم القوى المعادية للاسلام.

وكانت المجابهة بين الديانتين احدى الحجج التي ارتكز عليها عند اعلان الاحكام العرفية في الفلبين الا ان النتيجة التي ترتبت على تطبيق الحكم العسكري كانت الحد

من نشاط الحركات الاسلامية والقضاء عليها تماما في بعض الاحيان.

رد الفعل لدى المسلمين المحليين:

كانت جرائم عصابات الالاجا والموقف الشائن للحكومة في مواجهة التهديدات التي تطلقها القوى المعادية للاسلام دوافع للمسلمين لمضاعفة يقظتهم ولمجابهة المخاطر التي يتعرض لها الاسلام وتهدد حياتهم نفسها. وتيقنوا أن القوى المعادية لن تتوقف إلا إذا استطاعت القضاء نهائياً على الاسلام، فكان هذا حافزهم في تكوين جبهة تحرير المورو الوطنية التي شكلها شباب المسلمين وتعاهدوا على الدفاع عن الاسلام وعن حقوق المسلمين وحرياتهم وسرعان ما ازدادت قوة الجبهة وتنامت حجماً وأهمية.

ردود الفعل الدولية:

سرعان ما وصلت فظائع عصابات الألاجا إلى سماع المنظمات العالمية الاسلامية مثل رابطة العالم الاسلامي ومؤتمر العالم الاسلامي ونقلت هذه بدورها الأخبار إلى العالم الاسلامي بأسره وشدت انتباهه لما يدور، وتنبه إلى الخطر المؤتمر الاسلامي على وجه الخصوص.

ونتيجة لذلك اتخذ المؤتمر الرابع لوزراء خارجية الدول الاسلامية الذي عقد في بنغازي في ليبيا قراراً بإرسال لجنة برئاسة سعادة عمر السقاف وتضم وزراء خارجية كل من الصومال وليبيا والسنغال لتقصي حقيقة وضع المسلمين في الفلبين. وسبق هذه النتيجة كما تبعها زيارات أخرى لأئمة المسلمين بينهم ممثلون لرابطة العالم الاسلامي ومؤتمر العالم الاسلامي وذلك عام ١٩٧٣م.

وفي مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الذي عقد في كوالا لامبور بماليزيا اتخذ المؤتمر القرار رقم ١٨ الذي ينص على «حث حكومة الفلبين على ايجاد حل سياسي سلمي عن طريق التفاوض مع زعماء المسلمين وممثليهم بما في ذلك ممثلي جبهة مورو للتحرر الوطني للوصول إلى حل عادل لوضع المسلمين الفلبينيين في نطاق وحدة الأراضي الفلبينية».

واتصل السكرتير العام للمؤتمر السيد حسن التهامي بالحكومة الفلبينية في مانيلا خلال شهر اعسطس وسبتمبر ١٩٧٤م. وفي اكتوبر من نفس العام ودعت حكومة الفلبين لعقد مؤتمر لزعماء المسلمين ودعي المدنيون والعسكريون الموظفون في جامعة ولاية مندنا والثوار المسلمون للنزول من

الجبال والقاء أسلحتهم والجلوس للحوار الهادىء مع الحكومة للوصول إلى الحل السلمي. وأعلنت القوات الحكومية وقف القتال ولكن هذه القوات نفسها لم تحترم هذا الاعلان أبداً.

وعقدت الدورة السادسة للمؤتمر الاسلامي لوزراء الخارجية في جدة ولكنهم بمجرد أن بدأوا مناقشة موضوع ازمة المسلمين في الفلبين صدر اعلان للمؤتمر يشير إلى أن حكومة الفلبين قد منحت مسلميها الحكم الذاتي، ومع ذلك فقد أقر المؤتمر الاسلامي القرار رقم ١٠ الذي وافق على خطة العمل التي أعدتها اللجنة الوزارية المشكلة من اربع أعضاء لتكون أساساً للمفاوضات وطلب المؤتمر من اللجنة اجراء الاتصالات بحكومة الفلبين (وجبهة تحرير مورو الوطنية) وذلك لاستئناف مباحثات السلام خلال أقصر فترة ممكنة وذلك بمقر الأمانة بجدة.

وأرسل سكان مندانا وسولو، وباسيلان وتاوي تاوي وباولان التماساً إلى الرئيس ماركوس في ١٥ يوليو عام ١٩٧٥م يطلبون فيه من الحكومة الفلبينية استئناف محادثات جديدة على أساس مشروع جدول الأعمال (خطة العمل) المقدمة من اللجنة الوزارية للأربعة المنبثقة عن

الأمانة الاسلامية كحل للمشكلة الفلبينية الاسلامية، ووقع على هذا الالتماس أكثر من مائة ألف مواطن من جنوب الفلبين وأكدوا على أن الحل العملي الوحيد هو منح المسلمين الحكم الذاتي الكامل وأن يكون القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ هما المصدر التشريعي للقوانين المحلية، تلبية لمطالب المسلمين ووفاء لوعود الرئيس ماركوس لمؤتمر وزراء الخارجية بالدول الاسلامية.

خامساً: الاسلام - الحل الوحيد

شرعية اهداف مسلمي الفلبين:

مما سبق، يتضح أنه لا حاجة لمزيد من الجدل لإيضاح أن تلك المواجهة التي استغرقت قروناً من الزمان بين المسيحيين والمسلمين في الفلبين حدثت نتيجة لغياب التسامح الديني من جانب غير المسلمين، فعندما كانت البلاد ترزح تحت نير القوى الاستعمارية، لم يكن الأمر بحاجة إلى بصيرة نفاذة للوصول إلى استنتاج معين وأمامنا الأقوال والأفعال واضحة جلية تنعكس على كافة السياسات المعلنة من كافة قوى الاحتلال. ومن ناحية أخرى، فقد أدرك مسلمو هذه البلاد دوافع النظم المسيحية الاستعمارية في هذه البلاد.

حتى أثناء تلك المواجهة المعاصرة بين الجماعتين الدينيتين في هذه المنطقة يتضح تماماً أن دوافع القوى المعادية للاسلام التي تعمل ضد المسلمين لا يمكن أن تكون أقل تصمياً وعزماً على تصفية الاسلام، فلو كانت تلك القضية ناشئة عن مشكلة اقتصادية اجتماعية سياسية بسيطة، ما كانت هناك حاجة لقتل الأبرياء من النساء والرجال والأطفال وحرق المؤسسات الدينية الاسلامية مثل المساجد والمدارس وغيرها وتشتيت مئات الآلاف من المسلمين بعيداً عن موطنهم..

خلاصة:

إن نوعية المشكلة القائمة في الفلبين ليست بغريبة على منطقة الأرخبيل وحده بل إنها قائمة في كل بلد يعيش فيه المسلمون كأقلية كما هو الحال بالنسبة لمسلمي الفلبين وقد تختلف الأساليب التي يستخدمها غير المسلمين، إلا أنها جميعاً تنبعث من دوافع واحدة ألا وهو التعصب ضد الاسلام النابع عن الرغبة في تصفية الاسلام، ومن ناحية أخرى، فلأن مسلمي الفلبين يدركون أن الاسلام حقيقة يتمسك بمبدأ التسامح الديني كما يعبر عنه الكتاب المنزل وكما يتمثل

في حياة الرسول ﷺ وسنته، وكما يظهر في التطبيق الاسلامي على مدار التاريخ، فقد تمسك المسلمون بالملاذ الوحيد المتاح أمامهم وهو المحافظة على الاسلام والدفاع عنه بكل المصادر التي منحهم الله إياها، فبالنسبة لهم لم يكن هناك من حل سواه خلال صراعهم الذي امتد عبر القرون.

وحقيقة إن الطريق الذي اختاروه هو الطريق الشريف الوحيد المفتوح أمامهم فهم يعلمون أن الله لا يرضى عن أولئك الذين يرضون بالظلم ويخضعون له، كما أنهم يدركون أن عليهم أن يحاربوا ضد الظلم ويعملوا على تخليص المضطهدين حتى يرضى الله عنهم. وهم أيضاً يؤمنون بأنهم لن يكونوا وحدهم لأنهم ضعاف ومغلوبون ألم يقل الله في كتابه العزيز:-

((وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)) سورة النساء. رقم ٧٥

انهم يدركون تمام الإدراك أن الطريق الذي اختاروه ليس محفوفاً بالورود بل عليهم أن يضحوا وأن يكونوا

مستعدين لتقديم أغلى الثمن لاقناع العالم بشرعية قضيتهم وصدقها.. وعند ذلك يكونون قد حققوا أروع الانجازات.

ولقد قال الله في كتابه الكريم:

((ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز))
الحج/٤٠

والحمد لله رب العالمين


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

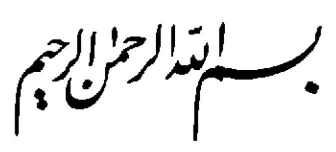
واجب الإعلام الإسلامي
في
العصر الحاضر

للأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد
« مصر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



الحديث عن « الاعلام الاسلامي في عالمنا المعاصر » إلى مؤتمر للسيرة النبوية والسنة المطهرة حديث يحتاج إلى توطئة، حتى يتخذ مكانه بين القضايا الرئيسية التي اجتمع هذا الحشد من العلماء المحققين لدراستها والقاء ضياء البحث العلمي عليها.

ذلك أن التوجيه للعناية بالسنة النبوية والسيرة المطهرة يصدر أساسا عن التوجيه للمحافظة على الإسلام، وتحقيق علومه، ولإرساء نهضة المسلمين على أسس ثابتة من أصول الاسلام وقواعده.. ثم هو - مع بداية القرن الخامس عشر للهجرة - وقوف بين يدي المصدر الثاني من مصادر معرفة الاسلام وأحكامه، تحقيقا له وتوثيقا لمعلوم منه.. وسعيا لنشره والعمل به - بعد المحافظة عليه.

فأين - وسط هذا كله حديث الاعلام الاسلامي في عالمنا المعاصر؟ إن الإسلام- أيها العلماء الاجلاء- ليست له قضية: وانما المسلمون هم أصحاب القضية. الإسلام ليست له قضية لأنه كلمة الله... لا مبدل لكلمته وهو سبحانه

يقول: « انا نحن نزلنا الذكرن وانا له لحافظون » ويقول: « ياأيها الناس انتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ».

ولكن تثبيت العقيدة والشريعة معا، وتمكين المسلمين من أن يعيشوا اسلامهم ويتحركوا به بين الناس، في عالم يموج بالمذاهب والافكار وتسوده أساليب حياة نشأت ونمت في ظل الحضارة الغريبة بكل ميراثها الفكري والعقدي... يحتاج إلى عمل إعلامي كبير... ذلك أن ترويج المذاهب والأفكار صار علما وحرفة وصناعة... والتأثير على سلوك الناس وتوجيههم صار فنا له أصوله وقواعده.. وبغير الاحاطة بتلك العلوم والفنون، واستخدامها الاستخدام الجيد الذكي سيظل المسلمون يحملون اسلامهم على أكفهم.. حيارى به وسط زحام الحياة....

ان عشرات من المذاهب والأفكار تتزاحم لتستولي على عقول الناس وقلوبهم.. والمتزاحمون لا يخوضون معاركهم عزلا من السلاح.. وانما يبارزون بالكلمة والصورة والخبر، والرواية.. مقروءة تارة.. ومسموعة تارة أخرى.. ومتحركة أمام الأعين داخل البيوت تارة ثالثة... وهم في هذه العروض كلها يدرسون نفوس السامعين والمشاهدين..

ويتحسسون همومهم ومشاكلهم.. ويختبرون أذواقهم وميولهم وطبائعهم.. ويقدمون لهم مـــا يحرك الميـــل.. ويثـــير الاهـتمام.. وينال التعاطف.. ليتوصلوا في النهاية إلى ما يسميه علماء النفس وعلماء الاتصال «توجيه العقول» وغسيل الأدمغة»... وتلك كلها معارك.. يمتزج فيها الحق وبالباطـل..ويدق خلالها التمييز بين ما ينفع وما لا ينفع.. ويوشك معهـا اختيـار النـاس أن يتلاشى أمام بريق الأضواء.. وصخب الابواق.. ودوامة الحركة..

وهيهات أن يقاوم ذلك كله رأي عالم فرد.. أو فتوى فقيه مجتهد.. أو موعظة واعظ يصدع بالحق.. فيضيع صوته الهادئ الحكيم وسط الضجيج، أو يحال بينه وبين آذان الناس.. أو يترك ليصل إلى الآذان فلا يجد له مستقرا بعد أن سبقته أفكار مغايرة، ورؤى مخالفة.. وبعد أن أقيمت في وجهه سدود وحجب تصرف النفوس عنه، وتحول دون تلقيه بالرضا والقبول...

وقبل أن نسترسل في بيان أهمية المشكلة التي تعرض لها نبادر فنحدد نطاق حديثنا في أمور ثلاثة:

(١) نتحدث في الجزء الأول منها عن تعاظم دور الاعلام

في عصرنا الحديث.

(٢) ونتحدث في الجزء الثاني عن تحديد المقصود «بالإعلام الإسلامي».

(٣) ثم نخصص الجزء الثالث للحديث عن «ازالة العوائق القائمة في وجه الإعلام».

والحديث عن تعاظم دور الإعلام في عصرنا يدور حول أمرين:

أولها: الثورة العلمية الهائلة في ميدان الوسائل التقنية للاتصال...

والثاني: التقدم العلمي الهائل في علوم الاتصال والتأثير على العقول والنفوس...

ان الآثار الهائلة لاختراع آلات الطباعة التي توزع الكلمة المكتوبة على ملايين البشر قد اعتبر - من قبل المؤرخين - أحد المنعطفات الرئيسية في تاريخ الحياة الاجتماعية والعمران البشري، مثله في ذلك مثل اختراع الآلة البخارية التي مهدت للثورة الصناعية في الغرب... ثم جاء اختراع وسائل البث الصوتي اللاسلكي حلقة لا تقل

أثرا ولا خطورة.. بل انها - على التحقيق - أخطر شأنا في بلاد كبلادنا، لا يزال أكثر من نصف أبنائها أميين لا يحسنون أن يقرأوا الصحف.. ولذلك صرنا نرى الناس في المناسبات العامة متحلقين حول مذياع في بيت أو ناد أو مقهى تقرع أسماعهم أخبار الدنيا كلها وهم جلوس في أماكنهم.

وبذلك صارت وسائل التأثير السمعي أخطر من الكلمة المرئية.. لأن الكلمة المكتوبة لا تصل الا لطالبها.. أما الكلمة المسموعة فتقرع السمع دون استئذان.. ويصل تأثيرها - طوعا أو كرها - للذين يبحثون عنها، وللذين تبحث هي عنهم.. ثم جاء التليفزيون.. فأضاف تأثير العين الى تأثير الأذن، وضم الصورة المتحركة الى الكلمة المسموعة.. واقتحم على الملايين من الرجال والنساء والاطفال حياتهم.. وصرف كثيرين منهم عن أعمالهم.. وأوقات راحتهم.. وغلب كثيرا من الأباء والأمهات في توجيه أبنائهم وتربيتهم وصار التشويق الهائل الذي يتمتع به سلاحا فعالا.. نستطيع بعده أن نقول ان دخول التليفزيون الى منازل الناس وصحبته لهم.. بعد - هو

الآخر - نقطة تحول هائلة في تاريخ التطور الاجتماعي والثقافي والتربوي للإنسان..

ثم جاء استخدام الاقمار الصناعية في نقل المعلومات والأخبار.. فاكتملت حلقات الثورة التقنية في الاعلام.. وصار الجالس في غرفته في أقصى الشرق.. يستطيع ان يتابع ما يجري في كل جوانب الأرض.. لا ينتظر وصول بريد.. ولا رواية لراو.. فالغى الزمن الغاء.. وطويت المسافات طيا.. وصارت المعلومات متاحة في وقتها لكل أحد.. وتحول العالم كما يقول رجال الإعلام بحق إلى قرية الكترونية واحدة ومعنى هذا - أن العزلة الفكرية لاصحاب حضارة من الحضارات قد أصبحت مستحيلة وأن الستر الحديدية التي تحمي بها بعض النظم نفسها قد أصبحت غلالات تكشف عما وراءها... وأن الانفراد بالأتباع حماية لهم من الأفكار والتأثيرات المعاكسة لم يعد ممكنا كما كان من قبل.. وإنما صارت الحياة الفكرية والنفسية سوقا لابقاء فيه إلا للأقوى والأصلح والأسرع حركة.. ومعنى هذا أن مهمة الدعاة المسلمين لا بد أن تختلف هي الأخرى اختلافا كبيرا، وهي تواجه ثمرات هذه الثورة التقنية

الهائلة في نقل الكلمة والخبر والصورة متخطية حواجز الزمان والمكان.

الزمان والمكان. وانما صارت الكلمة والصورة تنقلان حين تنقلان بحيث يبلغ تأثيرها على الآذان والعقول والأفئدة درجة توشك معها ارادة الاختيار أن تتعطل وتشل بحث يتوجه السامعون والمشاهدون فيما يشبه الذهول في حركة مدروسة ومعدة من قبل.. صنعها خبراء الدعاية ومحترفو الأعلام وفنانو التأثير على الأدمغة وتوجيه السلوك.. وهم حين يتخذون أسلحة الإعلام والاتصال على هذا النحو لا يجتهدون برأيهم اجتهاد العالم الفرد، وانما يستعينون بثمرات عدد من العلوم التي تطورت بدورها تطورا هائلا خلال السنوات العشرين الأخيرة، وأشير بصفة خاصة الى علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاحصاء.. وعلوم تحليل المعلومات وتصنيفها.. والاستعانة في ذلك كله بالأدمغة الألكترونية التي تمنع الاعتماد على الظن والتقدير في رصد الظواهر وتحديد حجمها واتجاهها واحتمالات حركتها في المستقبل.

ولا أريد أن استطرد إلى منعطفات عديدة في حديث

الأعلام ودوره، ولكني أسوق دعواي في هذا الشأن في مقولات ثلاث:

أولا: أن التعليم بعيدا عن الاستفادة بهذه الوسائل العلمية الحديثة محكوم عليه بالبطء والتخلف.. فلم يعد الكتاب وحده أداة التعليم بل شاركته في ذلك هذه الأدوات الجديدة التي تمتاز بسرعة الحركة وعمق التأثير وشدة التشويق.

الثاني: أن تربية الجيل بعيدا عن هذه الوسائل قد أصبحت هي الاخرى حرثا في البحر.. واستبدالا للذي هو أدنى بالذي هو خير اذ لا يعقل ان يواجه الآباء والامهات هذا السيل الجارف من وسائل التأثير على الأبناء.. الا اذا واجهو سلاحا بسلاح.. والا اذا اعدوا للتربية اعدادها الذي يناسب طبيعة العصر وأسلحته...

الثالث: أن حرية الافراد والجماعات في تكوين آرائهم والتصرف القائم عليها تظللها اليوم غمامة ثقيلة.. ما دامت مصادر المعلومات تحكمها أيد قليلة.. أو تنفرد بها أيد غير أمينة.. ذلك أن المشاركة في

المسئولية تعتمد على الحرية، والحرية في جوهرها اختيار، والاختيار يقوم على المعرفة بالبدائل والمفاضلة بينها...
أما اذا أغلقت الأبواب وسدت النوافذ.. ولم يطرح في سوق الفكر إلا رأى واحد.. فإن الحديث عن الشورى والحرية والمشاركة يغدو في الحقيقة سرابا ووهما كبيرا....

ومن هذه المقولة ينبغي أن يبدأ التأمل في الحصار الفكري المفروض على العالم الإسلامي وعلى دول ما يسمى بالعالم الثالث نتيجة تحكم الدول الكبرى في مصادر الأخبار والمعلومات.. ان سيطرة الدول الكبرى على وكالات الأنباء واستيلائها على نوافذ الفكر منابع الأعلام تحرم عالمنا الإسلامي من الحلقة الأولى في العمل الأعلامي ومن حجر الأساس في كل تحرك سياسي...

أيها السادة العلماء.. اننا حين نتحدث عن الإعلام الإسلامي فإننا لا نعالج مشاكل الدعاة الافراد.. فقد صار الأمر أكبر من ذلك كثيرا...... اننا نعالج أيضا قدرة الحكومات والأنظمة المسؤولة في بلاد المسلمين على اتخاذ

القرارات في الشئون السياسية والاجتماعية.. وهي قدرة لا بد أن تتأثر بما يتاح من مصادر المعرفة ومن المعلومات الأساسية التي بنيت عليها القرارات...

ان معنى هذا بعبارة واضحة أيها السادة العلماء أن تخلف العالم الإسلامي في ميدان الأعلام يؤدي به إلى العجز عن مواجهة تحديات العصر ومنافسة الخصوم في سائر الميادين لأنه ينال من قدرته على اتخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب، وعلى الاساس الضروري من الإحاطة بالوقائع والمعلومات.

ولكن ماذا نقصد بالإعلام الإسلامي..

انا نتوقف هنا عامدين لنزيل من طريق الدعاة إلى الاسلام والباحثين فيه تصورين نراهما فاسدين:

التصور الأول: يقوم على تجزئة حياة الناس وتمزيق نفوسهم وتوزيعها كما توزع الاسلاب بين عالمين، واحد للدنيا وواحد للدين... ولولا ان آثار هذه التجزئة لا تزال حية بيننا ما وجدنا أجهزة الأعلام في بلاد المسلمين تحاصر «الاسلام» في كنفها داخل ما تسميه بالبرامج الدينية... والاحاديث الدينية، والسهرات الدينية.. كأنما لا يكون

المسلمون في حوزة دينهم إلا اذا كانوا في مجلس تلاوة.. للقرآن.. أو تفسير له.. أو شرح لأحكام العبادات والمعاملات.. تتردد فيه أقوال الفقهاء.. والمشتغلين بالفتيا والتدريس..

واذا كان التصور الأول الذي نستعبده يعزل أجزاء الحياة بعضها عن بعض، كما يعزل أجزاء الأسلام بعضها عن بعض.

فان التصور **الآخر** الذي نحذر منه يعزل الاسلام عن الحياة.. ويعزل تاريخه عن تاريخ سائر الناس والشعوب.. ويجعل منه نتوءا ناشزا على سيرة الحياة.. وليت الذين يفعلون ذلك يحددون لنا معالم الإسلام كما يتصوروه.. وإنما قصارى جهد بعضهم أن يضيف كلمة الإسلام إلى أي عنوان يريد الحديث عنه.. ليتحول - في تصوره - إلى موضوع اسلامي.. وقصارى منهجه - بعد ذلك - أن يرفض كل التجارب الانسانية التي تمت أو تتم خارج اطار الإسلام التاريخي أو الجغرافي، استنادا إلى أن الاسلام كيان شمولي متميز.. لا يقبل التطعيم بشيء عن ثمرات الحضارة التي تعاقبت حلقاتها بعيدا عن ألوية الاسلام

وشعاراته.. ان الدعوة الى تميز الإسلام، وإلى «أسلمة» كل ما حولنا اذا قبل منا اللغويون هذا الاشتقاق دعوة كريمة الهدف نبيلة الباعث، وهي تعبير عن الرغبة الصادقة في العودة الصحيحة إلى الاسلام وتطبيق مبادئه وشرائعه وشعائره.

ولكن الاسلام الذي يريد هؤلاء الأتقياء أن يعودوا اليه وأن يعيدوا إليه الناس لا يمكن ان يترك هكذا نهبا لتصوراتهم، والا كنا مستبدلين حيرة بحيرة وضياعا بضياع...

ان الاعلام حتى يكون اسلاميا لا يحتاج إلى أن يلقي في بحار الإهمال والإسقاط كل ما يفعله الاعلاميون غير المسلمين.. وليس في شمول الإسلام وتميزه ما يقتضي هذا المسلك الغريب..

ان شمول الإسلام شمول اهتمام وتوجيه وعناية بكل جوانب الحياة.. وهو ليس بالضرورة شمول احاطة بالمعالجة الجزئية لكل شأن من الشئون في حياة الناس والذين يتصورون ذلك ويدافعون عنه يخطئون في حق الإسلام خطأ كبيرا، ويضعون أنفسهم في موضع لم يضعهم

فيه أحد.. كما يضعون الناس في حرج لم يأذن به الله.

ان التجارب الانسانية - أيها السادة العلماء الأجلاء - لا يجوز أن ترفض لأنها تمت على أرض غير مسلمة أو تحت راية غير ايمانية.. فالحق هو الحق.. قديم لا يبطله باطل.. والحكمة هي الحكمة، تظل أبدا ضالة المؤمن ومبتغاه.. والحضارات قيم ومبادىء من ناحية.. ونظم وأدوات لخدمة هذه المبادىء من ناحية أخرى... فإذا أوجد شعب من الشعوب نظاما واستحدث أدوات أعظم كفاءة وأكبر قدرة على خدمة الأهداف، ففي وسع المسلمين أن يأخذوا بها ما داموا يسخرونها في النهاية لخدمة الحق والخير والهدى وسائر القيم التي كان بها الاسلام اسلاما.. «ونعم المال الصالح للرجل الصالح». «ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله».

ان الاسلام نظام متكامل شامل.. والشريعة حاكمة لا محكومة.. كلمات حق لا يجاري فيها مسلم ولا يجادل فيها منصف.. ولكن لنذكر.. في شجاعة وتواضع - أن التمسح بهذه الحقيقة تبريرا للعجز والكسل، وسدا لأبواب الاجتهاد والتجديد والمحكوم بقواعده، واصوله وآدابه.

طلبا لما ينفع الناس. باطل يراد، يتدثر أصحابه بشعار اكتمال الدين وانقطاع الوحي، وشمول الرسالة... وهو عقبة على طريق العودة إلى الإسلام.. وليس خطوة على ذلك الطريق...

فإذا استبعدنا هذين التصورين.. فماذا يبقى لنا من الاعلام الذي نسميه اسلاميا؟. يبقى لنا أمران واضحان..

أولا: الجهود التي تبذل للدعوة إلى الاسلام، تعريفا به وتبليغا لاحكامه، وتقريبا للنفوس من مبادئه... وهداية للجميع باحكامه وقيمه وشرائعه.

ثانيا: الجهود التي تبذلها حكومات المسلمين رعاية لمصالحهم ودفاعا عن حوزتهم، ومواجهته لخصومهم..

ثالثا: اذا كان هذا ما تقصده بالاعلام الإسلامي فما هي الواجبات الملقاة على عاتقه.

إن الحديث في هذا حديث طويل... لا أريد أن أخلط الجوهرى والاساسي فيه بالعارض والثانوي..

وإنما أقف عند واجبات أربعة أراها ركائز

أساسية للعمل الإعلامي الاسلامي - بالمعنى الذي حددناه - في شقيه..

الواجب الاول:

الاستفادة العاجلة والكاملة بالوسائل التقنيه المتاحة بسلطان العلم في الدعوة إلى الاسلام.. وفي الدفاع عن المسلمين ورعاية مصالحهم. فغير متصور ولا مقبول أن يتبادل العالم الأخبار والمعلومات عن طريق الأقمار الصناعية.. وأن يبث الدعاة من غير المسلمين دعايتهم واعلامهم بالصورة الذكية والمسرحية المشوقة - والعمل الفني المكتمل الأركان.. وأن يظل الداعية المسلم يرفع عقيرته من فوق منبر لا يصل معه صوته الا الى عشرات قليلة من آحاد الناس..

ويدخل في نطاق هذه الاستفادة كسر احتكار نوافذ المعلومات وأبوابها.... وانتزاع سلطانها من أيدي الذين حاصروا العالم الإسلامي بحجب الرؤية عنه... وتلوين ما يصل من الأخبار إليه إن دور وكالات الأنباء في هذا الشأن دور إساسي لا يمكن الاستغناء عنه... ولذلك فان انشاء وكالة انباء اسلامية جديدة واعتبار وكالات الأنباء

العربيـة والاسلاميـة القائمة فروعا لها.. بالشكل الملائم لظروف عمل كل منها.. ويقصد التنسيق بينها.. ولا أستطيع المبالغة في تقدير هذا المشروع... ذلك أن عديدا من المواقف السياسية الكبرى التي مرت بالعالمين الإسلامي والعربي قد كشفت عن الستار الحديدي الذي يضرب على عالمنا عن قصد وتدبير حيث يراد لنا ألا نرى من حقائق المواقف التي تحيط بنا الا أجزاء صغيرة تلون بألوان غير ألوانها... وتوجه كثيرين منا إلى حيث ما كان ينبغي لهم أن يتوجهوا..

الواجب الثاني:

اعادة تقديم الاسلام للمسلمين أنفسهم.. في اهاب يقربه للنفوس ويربطه بواقعها.. ويشيع سمته السمح بين الجيل الجديد من المسلمين.. وأذنوا لي هنا أن اسمي الأشياء باسمائها بالغة ما بلغت دقتها وحساسيتها، فلا خير في كثير من نجوانا هنا ان نحن قصدنا السهل الميسور من الأمور وتجنبنا الصعب الذي يشكل الهم الحقيقي للدعاة المسلمين.. ان عالم الاسلام يمتلىء هذه الأيام بجماعات من الدعاة والمنادين بالعودة إلى الاسلام.. وأكثرنا يفرح بهذا المد

ويستبشر به ويراه مظهرا لصحوة اسلامية توشك أن تعم المشرق والمغرب جميعا.. ولكن الأمر لا يمكن أن ينتهي عند هذا.. فكثير من هؤلاء الدعاة ضيقة صدورهم بما تعرض له الاسلام والمسلمون من ظلم واضطهاد وحصار، ممرورة نفوسهم بما يرونه - في بلاد المسلمين - من تجاوزات ومخالفات وتقصير في اقامة احكام الاسلام وأخذ الناس بها..

وهم لهذا يخرجون على الناس بقسمات صارمة ووجوه عابسة.. ما خيروا بين امرين الا اختاروا اشقهما وأعسرهما، وما سمعوا عن جديد الا سارعوا إلى رفضه وتحديه.. ولا سمعوا عن احد لا يقيم احكام الاسلام كاملة شاملة.. الا هموا بتكفيره.. ولا استفتوا عن مجتمع الا وصفوه بالردة والجاهلية... واستباحوا من امره وأهله ما لم يأذن به الله.. وأوشكت هذه الصورة والتي يغذيها ويبالغ في تصويرها خصوم الاسلام، ان تكون « الصورة الرمز » للاسلام ودعوته.. وصارت - أحب الدعاة ذلك او كرهوه - عقبة حقيقية في طريق الدعوة إلى الاسلام.. ان بعض المتحمسين الغاضبين من الدعاة الشباب.. يضعون

الناس امام خيار صعب بالغ الصعوبة حين يقدمون لهم الاسلام في اهاب كله صرامة وعبوس ومقاطعة للحياة وعزوف عن طيباتها..
وانكار على أهلها....

ان من تحديات الإعلام الإسلامي الذي نتطلع إليه أن يصفى من دنيانا هذه الرؤية السوداوية للاسلام والتي تعذر اصحابها لفرط ما لقوا من عناء وظلم وما قوبلوا به احيانا من تنكر وحصار.. ولكننا نقول في جهر لا نخشى معه احدا بعد الله: إن دنيا المسلمين التي ينبغي أن يقدمها ويعرضها الاعلام الإسلامي لا يجوز ابدا أن تكون دنيا الهم والحزن.. والا فأين استعاذة النبي (ﷺ) منهما، إن الحزانى والعابسين لا يبنون الصروح الضخمة للحضارة ولا يصلحون دعاة للهدى والحق والخير..

ان التوتر النفسي الذي تولده مقاطعة الحياة والقائم المتصل من كل ما فيها، يفسدان صفاء النفس ويشتتان طاقتها، ويجعلان الداعية الإسلامي شخصا غريبا على المجتمع عاجزا عن التواصل مع اهله..

ولنذكر في هذا المقام ان الاعلام المؤثر الذي يتجاوب

معه الناس هو الذي يقدم لهم نموذجا يجدون انفسهم فيه.. ويحسون نحوه بالانتماء المتبادل إن مفتاح السر في شخصية النبي (ﷺ) انه لا يزال الشخصية الوحيدة في تاريخ كل منا.. التي لا يمكن ان تقوم بيننا وبينها فجوة زمان او فجوة مكان..او فجوة أجيال.. ووالله لو نزعنا عنه مقام النبوة.. لظل بسيرته ومنهجه في دعوته (صديقا حميا قريبا إلى نفس كل واحد منا.. ومن هنا صدق فيه قول الله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة..)

ان سماحة الاسلام ويسره وصلاحيته لحل مشاكل الانسان المعاصر أوشكت ان تتوه في طوفان من المخاوف..

فهناك الخائفون من الاسلام، يعتقدون واهمين انه سيحرمهم طيبات ما احل الله لهم وان حياتهم في ظلاله ستكون حرمانا خالصا وقيودا لا آخر لها.. وحجرا على حريتهم تظلم معه حياتهم.. وهم لهذا يحاربون كل دعوة تنادي بإقامة أحكام الإسلام.. ولو عرفوا الوجه المشرق السمح للإسلام.. لعرفوا انهم يحاربون اشباحا وانهم يخوضون معركة خاطئة لا يميزون فيها بين العدو والصديق.. وانه لا يعرض عن ملة ابراهيم الا من سفه

نفسه، «وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا».

والخائفون على الاسلام، ينسون ان له ربا يحميه، وان الله لم يعهد اليهم بحفظ دينه وانما عهد اليهم بالدعوة إليه وتأليف قلوب الناس حول عقيدته وشريعته، كما ينسون ان هذا الخوف - في غير موضعه - يدفعهم دفعا الى ردود افعال لا تحمي الاسلام ولا تفتح له قلوب الناس.. وانما تزيد الحاجز بينه وبين تلك النفوس..

ان اعادة عرض الاسلام على الناس بعيدا عن غلو الخائفين عليه والتواء وتفريط الخائفين منه.. تشكل المهمة الموضوعية الاولى لأجهزة الدعوة الاسلامية واجهزة الاعلام في الدول الاسلامية.. وبغير تصحيح الموقف النفسي للناس من الاسلام - يظل الحاجز النفسي بين الدعاة وجماهير الناس قائما.. وسيظل كثيرا مما يقدمه الدعاة لا يلقى اذنا واعية تستجيب له وتتأثر به.

ان الاعلام الإسلامي الذي يقوم عليه باحثون فنيون يعرفون الاسلام معرفة موضوعية هادئة مبرأة من التشنجات والتوترات واحتقان السخط والمرارة، ومبرأة

كذلك من الضياع الذي يولده الوقوع في الاسر النفسي لحضارات اخرى.. هو وحده القادر على ان يقدم للأجيال الجديدة من شباب الاسلام صورة الاسلام المشرق الذي يجسده النبي (ﷺ) في افعاله واقواله كلها.. ويومئذ يجدون الحرية في طاعة الله.. والعزة في الذل لله، ويحسون اشراقة الحياة وبهاءها في اقامة أحكام الله ويستوعب كيانهم كله قول الله تعالى: «يا أيها الذين أمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم».

الواجب الثالث:

العمل على تجميع المسلمين، والتقريب بينهم.. فإذا كانت الثورة التقنية في وسائل الاعلام قد كسرت الحواجز بين الشعوب والحضارات.. وألزمت أصحاب العقائد المتنافرة بمواجهة بعضهم بعضا.. ودفعتهم في أحيان كثيرة إلى تقارب ما كان ليتم في غيبة «الحضور الاعلامي» لكل مذهب عند أصحاب المذاهب الأخرى.. فإن ذلك لا بد أن يحدث في نطاق الاسلام وفي رحاب المسلمين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم.. واذا كانت الدعوة إلى التقريب لا يجوز أن تتحول إلى دعوة للتفريط وقبول

اهواء ذوي الاهواء أو بدع أهل البدع.. فان الاعلام الاسلامي لا بد - مع ذلك - ان يؤدي واجبه الكبير في ارساء منهج مقبول للتقريب وجمع الكلمة، او توحيد الجهود في الامور المتفق عليها، حتى يكون لاختلاف النظر وتعدد الاراء داخل المجتمع الإسلامي مصدر ثراء وقوة.. لا سبب شقاق وضعف وتمزق.. ولا نجد لهذا الإعلام الإسلامي شعاراً أعقل ولا أحكم ولا أهدى من أن يتعاون المسلمون فيما اتفقوا عليه، وأن يعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه.. وفي يقيني ان اجهزة الاعلام في البلدان الإسلامية حين تضع أصحاب المواقف المختلفة والاراء المتباينة أمام الحجم الحقيقي للأفكار التي يتعرض لها المسلمون جميعا، والتحديات الحضارية والسياسية والاقتصادية التي تواجههم... فسوف تأخذ خلافاتهم الداخلية حجمها النسبي الصحيح. وسيعرفون ان التغاضي عن بعض اسباب الخلاف وارجاء البحث في بعضها الآخر هو الحكمة عينها والسداد والصواب.. ذلك ان اللدد في الخصومة، والشطط في التعلق بمواضيع الخلاف كثيرا ما يرجع إلى الذهول عن حقيقة الموقف العام للاسلام وأهله،

ومكانهم على خريطة الصراعات المذهبية والسياسية في عالم تشابكت فيه العلاقات وتصارعت فيه قوى عملاقة بما تملك من وسائل التدبير.. ووسائل التدمير على السواء..

الواجب الرابع:

تقديم الاسلام لعالم «غير المسلمين» تقديما ذكيا منتجا.. ومع اعتقادنا ان هذه المسئولية لا تأتي على رأس واجبات الاعلام الاسلامي.. فإنها لا تزال جزاء أكيدا وهاما من أجزاء الدعوة إلى الاسلام.. ومسئوليات اجهزة الاعلام الإسلامي.. ان اول معالم المنهج الاعلامي الصحيح في هذا الميدان الا يقدم الاسلام على أنه كيان غريب عن تاريخ البشرية، مقطوع الصلة بتراثها المشترك.. والا يقدم كذلك على انه يرفض جملة وتفصيلا - كل ما عداه.. ذلك ان من شأن هذا المسلك ان يسهل على خصوم الاسلام مهمة محاربته وتنفير الناس منه.. وتجميع «غير المسلمين» في اطار واحد.. واقامة حاجز نفسي كثيف بينهم وبينه.. ان دهاء اجهزة الاعلام التي تخدم الحركة الصهيونية هو الذي دفعهم إلى افتعال التقارب الأساسي بين اليهودية والمسيحية، وبين الغرب المسيحي ودولة اسرائيل.. وهو

الذي سهل لهم بعد هذا تصوير الاسلام على أنه كيان غريب تماما على العالم اليهودي المسيحي.. الأوروبي الأمريكي.. وهو موقف كانت له أصداؤه العديدة في التاريخ العربي والاسلامي الحديث..

ويستطيع الاعلام الاسلامي أن يلفت أنظار العالم إلى وحدة «الرسالة الالهية» للناس. ووحدة موكب الانبياء عليهم صلوات الله.. وإلى الطبيعة الانسانية والعالمية للاسلام.. وهو حين يفعل ذلك فإنه لا يساعد على انتشار الاسلام فحسب.. وانما هو - قبل ذلك - يفك عنه العزلة التي حاول خصومه أن يضربوها من حوله.. ويرد كيد الذين يريدون تجميع العالم كله وتخويفه من الاسلام.. حتى يعيش المسلمون عمرهم كله في معركة غير متكافئة ضلل فيها الناس تضليلا.. وانحازوا ضده تحت تأثير اعلام ماكر خبيث - بينما كان الطبيعي ان ينحاز كثير منهم اليه..

وبعد.. فهذه واجبات أربعة.. لن يصعب على أهل الاختصاص وأولى الامر ان يهتدوا إليها.. ولكن تبقى في النهاية كلمة.. تتعلق بالجزء الثالث والاخير من اجزاء هذا البحث وهي ضرورة ازالة العوائق من طريق الاعلام

الإسلامي..

١- وأول ذلك نداء نتوجه به إلى المسئولين عن الاعلام ان اطلقوا يد القائمين على الإعلام الإسلامي حتى يؤدا مهمتهم.. فإن اليد المغلولة لا تثبت في منافسة مفتوحة فتستخدم فيها الاسلحة التي تتطور يوما بعد يوم.... وغير معقول ان يظل الاعلاميون حيارى تتقاذفهم الفتاوى المتعارضة في شأن التصوير وحله والموسيقي وجوازها.. والمسرح وقبوله او رفضه.. ان فقهاء هذا الزمان مطالبون بأن تكون فتاواهم للناس لا لأنفسهم، فليست القضية ان يخرج المفتي من العهدة، ويسلم من اللوم.. وإنما القضية أن يخرج الناس من الحرج وأن يسلموا من العنت.. وأن يعرفوا- في غير لبس - ما هو جائز دينا.

وما هو محظور.. فلقد طال تعليق كثير من القضايا.. حتى بلغ الحرج بالناس منتهاه..

٢- القضية الثانية هي النقص في عدد الإعلاميين الإسلاميين.. ففي بلادنا دعاة مسلمون لا يحسنون

فن الإعلام ولا يعرفون - حق المعرفة - أصوله وقواعده ،وعندنا اعلاميون متخصصون لا يعرفون عن الاسلام ما يؤهلهم لخوض حرب الاعلام الحديث بأبعادها التي شرحناها.. لهذا فإن اعداد «رجل الإعلام المسلم» يعد مهمة خاصة لا تحتمل التأخير.. ان الطريق المختصر لتحقيق هذا الإصلاح العاجل هو اعادة النظر في برامج كليات الأعلام واقسام الصحافة ومعاهد الفنون.. حتى توجه طلابها او عددا منهم للتخصص في الإعلام الإسلامي عن طريق دراسة مقررات تتصل بالثقافة الاسلامية العامة وتتيح لهم هذا الجمع الضروري بين معرفة الاسلام والإحاطة بفنون الأعلام.

اما العقبة الثالثة التي لا بد ان تزال.. فهي التضارب والتنافر بين سياسات الأجهزة المشاركة في تكوين اجيال المسلمين خصوصا من الشباب.. فلا تزال رؤية المسئولين عن الثقافة والأعلام والتعليم والرياضة والشباب رؤية غير موحدة..

وكم من برنامج تضعه وزارة للشئون الدينية ينقضه عمل أجهزة الاعلام او أجهزة رعاية الشباب.. ولا يمكن للإعلام الإسلامي ان يخوض معركتين واحدة خارجية والاخرى داخل مجتمعه الذي يعمل فيه..

وليت هذا المؤتمر يوصي برفع التناقض الذي يمزق الجيل ويضع اجهزة الاعلام في حرج لا مزيد عليه.. وذلك عن طريق الإصرار على انشاء هيئة مركزية في كل بلد اسلامي تختص بالتوجيه التربوي والثقافي.. حتى تنبع اعمال الأجهزة المشاركة في الاعلام والثقافة والعلم عن رؤية واحدة وتصور سلوكي واحد.

نسأل الله العزيمة على الرشد.. والجسارة في الدعوة إلى ما ينفع الناس.. وعلى الله قصد السبيل..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

د. احمد كمال ابو المجد

الخامس من محرم عام ١٤٠٠هـ

الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩٧٩م



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الحصانة الدبلوماسية

في

مفهوم السيرة النبوية

للدكتور عبد الهادي التازي

« المغرب »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

لئن ظهرت حصافة رأي النبي صلى الله عليه وسلم في شتى أنواع السلوك التي كان ينتهجها، لكنها ظهرت بارزة شامخة في طلائع الدبلوماسية الاسلامية، وخاصة فيما يتعلق بالتعامل الذي كان يعرف به (ﷺ) ليس فقط ازاء معارفه واصدقائه، ولكن كذلك ازاء محاوريه ومناوريه ومناوشيه كذلك. فقد كان فعلا على جانب كبير من الإطلاع على نفسية الناس ومزاجهم وما إليه يميلون وما عنه ينصرفون. وما به يتطررون، وهو الامر الذي تعنيه الآية الشريفة «وانك لعلى خلق عظيم»...

لقد تحدث القانون الدولي بإسهاب كبير عما نسميه اليوم بالحصانة الدبلوماسية.

(Immunité Déplomalique) وفصلوا القول في اسبابها ودواعيها، كما اهتموا بابراز مظاهرها ومعالمها، واجتهدوا في تصوير أنها أرق وأرفع وأدل على درجات التمدن والتحضر والرقي... وحاولوا إلى جانب هذا ان يجدوا

لهذه الظاهرة الحضارية مبدأً ومنطلقاً حتى يتوصلوا بذلك إلى استعراض ظروف تطورها ونموها...

ومن ثَمَّ وجدنا الموسوعات العالمية تتقفى آثار اليونان والفرس والرومان لتعرف سنن تلك الأمم وعاداتها في تقبل الرسل والسفراء... لكن تلك الموسوعات وجدت نفسها أمام مرجع ثري صافٍ غير مشوب بأية صنعة أو إفتعال، ونعني بهذا المرجع سيرة الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم، فقد فرض نفسه على الباحثين والمتتبعين وغدا يكوّن لذاته أساسا قويا من أسس التعامل الدولي منذ العصر الوسيط.

لقد ادرك الناس جميعا ان النبي عليه الصلوات كان على إطلاع جيد على ما يجري بالجزيرة وخارج الجزيرة كذلك، وما زلنا إلى الآن، ونقول هذا مقرين بالعجز ومعترفين بالقصور- ما نزال نكتشف من وقت لآخر، المعاني المقصود لبعض الألفاظ وبعض التراكيب التي عرفها المفسرون والمحدثون بالامس على نحو نستطيع القول أنها فهوم متجاوزة وإنها بحاجة إلى إعادة نظر.

وحتى لا نتيه في الموضوعات التي نشير اليها... نرجو ان لا نهمل هنا انطباعنا عن طريقة استقباله (ﷺ) للوفود

التي كانت ترد عليه بقصد الاستطلاع والاستفسار او بقصد الوقوف على حقيقة الامر واقعه واستمزاج الرأي...

لقد لاحظنا من خلال تلك الاستقبالات نوع المعاملة التي كان (ﷺ) يؤثر بها اولئك الواردين عليه، وهذا جانب آخر من مظاهر الحضارة الاسلامية التي تعترف للسفير بالأمان أو الحصانة كما يسميها العرف الجديد، وهي الرعاية والعناية التي ينبغي ان يتمتع بها المبعوث وهو يؤدي مهمته في البلاد التي أرسل إليها...

وقد ظلت سيرته (ﷺ) في تعامله مع أولئك الرسل، الأساس الذي اعتمد عليه الفقه الاسلامي من بعد للاجابة على كثير من المشاكل المطروحة بسبب امتداد الفتح وتداخل المصالح بين الدول الاسلامية والامارات المجاورة.

لقد اخذنا فكرة منذ البداية عن أحداث صلح الحديبية عندما ورد عليه صلى الله عليه وسلم عدد من رسل قريش كان فيهم من تطاول على مجلس رسول الله مثل عروة ابن مسعود الثقفي الذي حاول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) أن يرده إلى صوابه... لكن الرسول عليه السلام منع رفقاءه من ان يمسوا عروة بسوء «مع العلم ان قريشا عقرت

مطية سفيره الذي راح اليها وهمت بقتله »..! إنها فروق تعبر عن البون الشاسع بين الذين كانوا يعدون أنفسهم لمقامات الجد، وبين الذين كانوا يتهافتون ويتحركون على غير هدى... وقد ورد انه (ﷺ) كان يفرش رداءه لبعض الواردين عليه ويشركهم في الجلوس إمعاناً في ازالة الدهشة وادخال المَسرَّة على نحو ما فعله مع مالك بن مرة (أو مرارة) سفير حمير...

وينبغي ان نتصور معنى اشراك الناس في المقعد وما يدل عليه من تواضع وتمازج، بل ومحاولة لاقتحام نفس أولئك الذين يردون عليه، فليس هناك روح استعلاء، وليس هناك من رغبة في التسلط وينبغي ان نتصور بعد هذا مشاعر مالك بن مرة وقد ترك خلفه قوما كان يحتاج في الحديث معهم الى من يرفع الحجاب ويكشف النقاب ويتقصَّد في الجواب..!

ولنودع سفير اليمن على بساط رسول الله (ﷺ) لنشهد لقطة اخرى من استقبال آخر لوفد جديد ورد عليه هذه المرة من بلاد المغرب، نعم من بلاد المغرب.. من قبيلة ركراكة، حيث رأيناه (ﷺ) يقبل على البعثة المغربية، وهي

ترتدي ثيابها الصوفية بالرغم من خوف الصحابة عليه يقبل عليها ليتحدث اليها عن آفاق المستقبل: «تغزون جزيرة العرب فيفتحهاالله، ثم فارس فيفتحهاالله، ثم تغزون الدجَّال فيفتحه الله...

ينبغي كذلك ان تتصور الصدى الذي يخلفه عدم تردد الرسول في استقبال قوم وردوا من اقصى الدنيا بل وفي ضمان الحماية لهم والرعاية. بالرغم من الهواجس التي حامت حولهم من طرف بعض الصحابة الكرام...

ولنستعرض بعد هذا وفدا آخر ورد عليه هذه المرة من بني حنيفة ويتعلق الامر بمبعوثين اثنين كانا يحملان اسم عبد الله بن النواحة وابن آثال بن بحْر، وقد أتيا النبي(ﷺ) رسولين لمسيلمة الكذاب...

لقد كان مما راج من حديث بين الرسول وبين المبعوثين المذكورين اللذين وردا يحملان للنبي(ﷺ) رسالة غريبة من مسيلمة يخبر فيها رسول الله «بأنه أشْرك معه في امر الرسالة، ونتيجة لذلك فان له نصف الامر ولقريش النصف الاخر..!» وكأنَّ الامر يتعلق بصفقة تجارية قام بها نبي الاسلام!

وهكذا وجدناه (ﷺ) يتوجه بالسؤال الى المبعوثين: اتشهدان اني رسول الله؟

فاجاباه بكل عنجهية: أتشهد انت ان مسيلمة رسول الله؟ وكان الكل يتصور ان الرسول سيفقد اعصابه كما حصل بالنسبة لعدد من القادة في مثل هذه الاحوال[١]، لكن النبي عليه الصلوات لم يزد على ان اجابهما بكلمة ظلت الى الآن شعار التعامل الدولي. فيما يتعلق بالامان او

(١) لم يملك ملوك الروم احيانا أعصابهم ازاء ما يسمعونه من السفير، وهكذا نرى نقفور ملك الروم يحرق اوراق اعتماد سفير طرسوس على رأسه حتى أصيبت لحيته، وقال: امض ما عندي الا السيف. وقد كانت مثل هذه التصرفات مدعاة للاحتجاج حينا وللانتقام حينا آخر، ونجد الملك الظاهر مثلا عندما ضُيق على سفرائه ببلاد الروم يحضر لديه ممثلي الروم ببلاده ليضعهم امام مسؤوليتهم ازاء اذاية السفراء، كما نرى، جهة أخرى ان سلطان مصر لما شعر بأن ملك القسطنيطنية ميخائيل الثامن عوق سفراءه عن اداء مهمتهم جمع البطارقة والاساقفة الذين افتوا بتجريد ملك القسطنطينية من الدين الامر لذا أرجع الامور الى نصابها، وعلى نحو ما كان من المعتمد بن عباد في الاندلس رأينا أن ملك مصر يقوم عام 658، جوابا عن تهديد سفراء هولاكو، باستشارة، العلماء والاجهاز على المبعوثين، ولما اهين فخر الدين عثمان سفير سلطان مصر الى اراغون قام السلطان بالتقبض على كل من يرد على الاسكندرية من فرنج برشلونة.

الحصانة... لقد قال لهم رسول له: «آمنت بالله ورسله، ولولا ان الرسل لا تقتل لضربت اعناقكما..!»

ومعنى هذا ان سنة النبي عليه السلام جرت على ان السفراء لا يهانون وبالحرى لا يقتلون على ما يؤكده الهيثمي في (مجمع الفوائد ومنبع الفوائد).

لقد كانت قولة الرسول عليه الصلوات صريحة واضحة في هذا الباب، وغدت اللازمة الدائمة لكل نقاش حول اسس معاملة الدبلوماسيين والمبعوثين السياسيين.

ومما يدخل في اطار الحصانات والرعايات ضمان حرية العبادة للذين يردون على رسول الله (ﷺ) من المبعوثين، فكان يأمر أصحابه ان لا يتعرضوا اليهم وهم يؤدون واجباتهم الدينية، وكان هذا باعث تقدير من الجهات التي ترسل بمبعوثيها لرسول الله، ردَّ معظمهم عليه بالمثل فكان سفراءه (ﷺ) هناك يزاولون شعائرهم على ما كانوا يعتادون...

على ان مما يندرج في موضوع أمان البعثات كيفما كان مشربها ووردها وصدرها، قضيةَ تكريم الواردين وضمان الحياة الكريمة لهم، وهكذا رأينا ان الوفود غالبا ما كانت

تنزل على دور الصحابة رضوان الله عليهم: بلال بن رباح احيانا، وعثمان بن عفان حينا آخر، وليس هذا فقط، ولكن الرسول (ﷺ) قلّما كان يرد عليه مبعوث لملك او عظيم دون ان يرجعه مكرما بالهدايا والتحف، وقد سمعنا عن إجازته لمبعوث عامل كسرى على بلاد اليمن، ويتعلق الامر بالعامل الذي كان يحمل اسم (باذان) الذي ارسل - تنفيذا لأوامر شاهنشاه كسرى - قهرمانة مصحوبا برفيق له من بلاد فارس لينقل لكسرى صورةً حقيقيةً عن هذا النبي الذي كان بعث بعبد الله بن حذافة السهمي رسوله الى كسرى! لقد رده النبي (ﷺ) بمنطقةٍ من ذهب وفضة كانت قد اهديت له من بعض الملوك بالرغم من انه تضايق منه ومن زميله لما كانا عليه من زيٍّ يخالف في العرب!!

وكما كان موقفه رائعا مع مبعوث فارس... راينا ابن كثير يسجل له موقفا لا يقل روعة عن الموقف السابق، وكان الموقف هذه المرة مع التنوخي سفير هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم جوابا عن إرسال دحية الكلبي...

لقد روى شاهد عيان هو سعيد بن ابي راشد الذي لقي

التنوخي رسول هرقل لدى رسول الله، لقيه في حمص وكان جارا له قد بلغ العقد أو قرب، فاخبره المبعوث الرومي بانه اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم في تبوك في اعقاب مفاتحة الرسول لهرقل... لقد حمل المبعوث المذكور رسالة من هرقل علاوة على التعليمات التي زوده بها ملكه هرقل... لقد سأله النبي(ﷺ) عن هويته وساله اضافة لذلك: «هل لك الى الاسلام والحنيفية ملة ابيك ابراهيم،فاجابه السفير بصراحة: إني رسول قوم وعلى دين قوم ولا ارجع عنه حتى ارجع اليهم» فضحك (ﷺ) قائلا: «إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء...

وبعد ان يمضي معه(ﷺ) في احاديث حول ردود الفعل لدعوته الى الاسلام يخاطب المبعوث هرقل بهذه الكلمات التي تظل ايضا غرة في جبين التعامل الدولي وتظل قاعدة رفيعة من قواعد اللياقة والكياسة، قال له رسول الله معتذراً عما وجده عليه من ضيق وكانه يأسف لعدم اجرائه مجرى رسول كسرى:

«... إن لك حقا وانك لرسول، فلو وجدت عندنا جائزة لجوزناك بها، ولكن جئتنا ونحن مرملون (يعني في

ظروف صعبة...)! فهل وقفت الحادثة عند هذا الحد؟ ان مدرسة الرسول كانت قد شقت طريقها في باب المجاملات...

وهكذا انتصب رجل - كما يروي ابن كثير - كان هو عثمان بن عفان، فقال: انا أجوزه يا رسول الله، ففتح رحله فاذا هو يأتي بحلة صُفُورية فوضعها في حجر التنوخي...

ثم قال رسول الله (ﷺ) أيكم يُنزل هذا الرجل، فقال رجل من الانصار: وانا علي ضيافته...

وهكذا راينا مظهرا آخر من مظاهر الحصانة بل ظاهرة راقية تنم عن النفس العالية التي كان يتحلّى بها نبي الاسلام والتي كانت السر الحقيقي الذي يكمن وراء نجاح رسالته في اكتساح الآفاق.

إن مثل هذه المعاملة التي دفعت بالمبعوث المذكور الى تمديد المقام وتلقين بعض كتبة الرسول اللغة الفارسية.

تلك هي سنته التي سنها بالنسبة لمن يستقبلهم... وكانت هي نفس السنة التي كان يشترطها اساسا للتعامل مع رسله وسفرائه الى العشائر والقبائل والامم والشعوب...

وأمامنا على سبيل المثال - وهو من اقدم الامثلة التاريخية - وقدْ نجدْ ان الذي ورد على الرسول الكريم والذي زوده بمبعوثين خاصين كان فيهم عمرو بن حزم... لقد كان فيما اشترطه على نجْران «مؤنة رسله... وضمان الحرية لهم... وهكذا نراه يتتبع رسله اينما اتجهوا ملحاً ان تكون معاملتهم على نحو ما كان هو يعامل الواردين عليه... على نحو ما نقرأه في جواب الإمام أبي يوسف الى أمير المؤمنين هرون الرشيد في كتاب الخراج.

تلك سنّته التي خطها (ﷺ) فكانت اللبنة الاولى للتعامل مع رسل الامم، وكانت الاساس لما أُثر عن اسماعيل الجهضمي قاضي المالكية في بغداد، وما اثر عن ابن القطان الاندلسي فيما الفه للملوك المغرب حول طقوس الاستقبالات... وقد ورد في شرح كتاب السيَّر الكبير للشيباني في باب الامان: إن المسلمين اذا نادوا اهل الحرب بالامان فان هؤلاء آمنون جميعا اذا سمعوا الصوت باي لسان نادوا به: واذا قال المسلمون للحرْبي أَنت آمن اولا تخف او لابأس عليك او كلمة تشبه هذا فهو كله امان، وان الأَمان التزام الكفِّ عن التعرض لهم بالقتل والسبي حقا لله تعالى.

وعندما يتناول الشيباني أَمان الرسول بالذات يذكر انه اي الرسول او السفير اذا ادلي بكتاب يشبه ان يكون كتاب ملكهم وادعى انه فعلاً كتاب ملكهم، فان الرسول آمن حتى يبلغ الرسالة لان الرسول ينبغي ان يكون آمنا من الجانبيين. وعلى هذا جرى الرسم في الجاهلية والاسلام فان الصلح او القتال لا يلتئم الا بالرسول ولا بد من ان يكون هذا الرسول آمنا لكي يتمكَّن من ادَاء الرسالة،

وهكذا قال الشيباني: «لما تكلَّم رسول قوم بين يديه - يعني رسول الله (ﷺ) - بما كان لا ينبغي أن يتكلم قال: «لولا أَنك رسول لقتلتك» فتبيَّن بهذا أن الرسول آمن على كل حال...

ولا بد ان نلاحظ ان خفر الدم يعتبر ابداً دلالة على الجبن والمكر وليس دلالة على الشجاعة والدهاء... وقد قرأنا جميعا قصة امَّ هاني التي لم ترض ان ترفض عون من استجاروا بها بالرغم من أنهم مشركون... وعرفنا أن النبي عليه الصلوات اكبر فيها هذا الخلق الرفيع وقال لهَا: «أَجرنا من أجرت يا أم هاني»!

وهل ننسى في هذا الباب موقف النبي(ﷺ) غداة فتح

مكـة من اولئـك الـذين استسلموا امامـه متسائلـين متصاغرين، وقد كانوا بالامس مستكبرين متجبرين، لقد قال لهم: «اقول لكم كما قال اخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

ومن هذه المنطلقات السليمة نص الفقهاء نصّاً على ان الحصانة مضمونة للسفراء من طرف الاسلام برا وبحرا، ولو ان المناطق الجوية كانت مستعملة لكانت هي أيضا داخلة ايضا في معنى الحصانة والصيانة.

وقد ظلت الحصانة بالنسبة للرسل مضمونة بصفة تلقائية، لكن ومع مرور الزمن وقلة الخلق اضطر المشروعون الدوليون الى التنصيص على هذه الحصانة اسوة بما فعله النبي مع اهل نجران... وعلى نحو ما نجده في فقرة من اتفاق بين سيف الدين قلاوون وبين صاحب القسطنطينية سنة 680 — 1282 ونجده في هدنة ايضا تمت بين سيف الدين قلاوون وبين (خيمى) صاحب اراغون سنة 692 — 1293.

تلكم ومضة من ومضات السيرة النبوية فيما يتعلق بالحصانة الدبلوماسية ولا شك ان لها أشباها ونظائر،

ولكنها تظل الركيزة التي يعتمدها القانون الدولي عندما يتحدث اليوم عن واجبات الدبلوماسيين والمبعوثين على الدولة التي تستضيفهم... وسيظل الدين الاسلامي شامخا متعالياً بمبادئه المثلى، وسنظل نحن المسلمين على درب التقدم ما دمنا معتزين بهذه المبادىء متشبثين بها متعلقين باهدابها.

د. عبد الهادي التازي.

فهرس